

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

تعليمية البلاغة العربية

على ضوء علوم اللسان الحديثة

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية

إعداد: رشيدة آيت محمد السلام

السنة الجامعية : 2008 /2007

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

تعليمية البلاغة العربية

على ضوء علوم اللسان الحديثة

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية

إشراف:
د. مفتاح بن عروس

إعداد الطالبة :
رشيدة آيت عبد السلام

أعضاء اللجنة:
أ. د.
أ. د.
أ. د.
أ. د.
أ. د.
أ. د.

السنة الجامعية : 2008 / 2007

كلمة شكر وامتنان

بعد شكري لله تعالى الذي أنعم علي بالصحة والهناء ووفر لي الظروف المناسبة للبحث والإنتاج، أوجه شكري الخالص واللامحدود لأستاذي الفاضل الدكتور مسعودي الحواس الذي كان لي، منذ سنوات تحضير الماجستير، السند المعنوي والمرجع العلمي . فمنذ عرفته وهو يتفانى في التوجيه والنصح والتشجيع.

كما أوجه شكرا خاصا للدكتور بن عروس الذي أخذ بيدي وساعدني على تحقيق هذا المشروع العلمي.

بارك الله سعيهما في سبيل العلم وعدهما من الهداة الصالحين.

الفهرس

1..... المقدمة

الباب الأول

ملاحح البلاغة العربية وعلاقتها بالبلاغة الأوربية

11..... تمهيد الباب الأول

12..... الفصل الأول : ميدان البلاغة العربية

13..... 1- حول مفهوم البلاغة العربية

23..... 2- مكانة البلاغة بين الأمس و اليوم

29..... 3- تطور البلاغة العربية

56..... 4- التأليف البلاغي

64..... الفصل الثاني : مصطلحات و مفاهيم البلاغة العربية القديمة

65..... 1- بين الفصاحة والبلاغة والبيان

70..... 2- فروع البلاغة

92..... 3- النقد والبلاغة والذوق الجمالي

97..... 4- اللفظ والمعنى والنظم

111..... الفصل الثالث: احتكاك البلاغة العربية بالبلاغة الأوربية

112..... 1- تأثر البلاغة العربية بالثقافة الأجنبية

117..... 2- من أرسطو إلى البلاغيين العرب

124..... 3- تطور البلاغة الأوربية

134..... خاتمة الباب الأول

الباب الثاني

علوم اللسان الحديثة وأثرها على البلاغة

136	تمهيد الباب الثاني.....
138	الفصل الأول : النظرية اللغوية في الغرب وعند العرب.....
139	1- النظرية اللغوية الغربية.....
139	1- الأسس العامة للنظرية اللغوية الغربية.....
143	2- أهم أركان المنهج البنوي.....
157	2- مدرسة جاكوبسون.....
157	1- النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون.....
167	2- نظرية التواصل لدى جاكوبسون.....
172	3- تأثير آراء جاكوبسون في الدرس اللغوي.....
178	4- مكانة جاكوبسون العلمية.....
181	3- النظرية اللغوية عند العرب.....
181	1- استثمار التراث اللغوي.....
182	2- نظريات لغوية مبكرة.....
186	3- تحليل لغوي تطبيقي.....
188	الفصل الثاني: علم النص.....
189	1- تعريف النص.....
192	2- النص في النقد الحديث.....
198	3- لسانيات النص.....
201	4- علم النص والبلاغة.....
203	5- الأبنية النصية.....
206	6- بلاغة السرد.....

210.....	الفصل الثالث: تحليل الخطاب
211.....	1- مفهوم الخطاب
216.....	2- منهج تحليل الخطاب
219.....	3- التحليل التداولي للخطاب
223.....	4- تحليل الخطاب في النقد المعاصر
224.....	5- تحليل الخطاب في الدراسات العربية
226.....	6- بعض العلوم المتصلة بتحليل الخطاب
233.....	7- البلاغة الجديدة
237.....	8- بنية الشكل البلاغي
238.....	9- مستويات تصنيف الأشكال البلاغية

241.....	الفصل الرابع : الأسلوبية
242.....	1- تعريف الأسلوب
242.....	1- في حد الأسلوب
245.....	2- مفهوم الأسلوب في تراث العرب القدامى
250.....	3- صفات الأسلوب
251.....	2- مجال الأسلوبية
251.....	1- تعريف الأسلوبية
261.....	2- ميادين الدراسة الأسلوبية
265.....	3- أنواع الأسلوبية
273.....	4- الأسلوبية عند ميشال ريفاتير
278.....	3- علاقة الأسلوبية بعلوم لسانية أخرى
278.....	1- الأسلوبية وعلم اللغة
283.....	2- الأسلوبية والبلاغة
285.....	3- الأسلوبية والنقد وتاريخ الأدب

293.....	4- الأسلوبية ولسانيات القول.....
294.....	5- الأسلوبية وتحليل الخطاب.....
297.....	4- التجديد في الأسلوبية العربية.....
297.....	1- الاتجاهات الأسلوبية في الوطن العربي.....
302.....	2- تجربة عبد السلام المسدي.....
306.....	خاتمة الباب الثاني.....

الباب الثالث

نحو تحديث تدريس البلاغة العربية

308.....	تمهيد الباب الثالث.....
310.....	الفصل الأول : أسس تعليمية البلاغة.....
311.....	1- مفاهيم تعليمية أولية.....
333.....	2- علاقة تدريس البلاغة بفروع اللغة الأخرى.....
343.....	3- أهداف تدريس البلاغة.....
350.....	الفصل الثاني: مظاهر الممارسة البلاغية.....
351.....	1- موقع تدريس البلاغة في الوقت الحاضر.....
367.....	2- المؤلفات البلاغية في العصر الحديث.....
395.....	3- درس البلاغي بين الواقع والآفاق.....
421.....	الفصل الثالث: سبل تحديث البلاغة العربية.....
422.....	1- مقترحات عربية للتجديد البلاغي.....
438.....	2- مقترحات البحث.....
450.....	الخاتمة.....
454.....	المراجع العربية.....
461.....	المراجع باللغة الفرنسية.....

المقدمة

بدأ اهتمامي بالبلاغة بفضل المطالعة، لأنني أحببت الأدب وأساليبه الفنية المختلفة وصوره الطريفة، ولأنني كنت مولعة بالقدرة على المواجهة الكلامية وسرعة البديهة، والحجة الدامغة.

وعندما قمت بتدريسها - مدة 15 سنة - كنت أحس أنني لم أمكن من كل الوسائل التي تشفي غليلي فأغوص مع تلامذتي في أعماق النصوص الأدبية لنعود بما غار في كنفها. بل كنت أكتفي - عن مضض و جهل - بأن أوجه تلامذتي إلى زيد الموج: فنسمي الصور والأساليب ونستخرج "أغراضها" بطريقة آلية، سطحية وكأن البلاغة تتوقف عند هذا الحد: تحديد الصورة و تسميتها و تعيين الأسلوب وطبيعته.

والأمر الذي كان دائما يحز في نفسي أنني لم أنقل حبي للبلاغة إلى تلامذتي إلا قليلا. فكانت بالنسبة إليهم مادة كالنحو تماما : قواعد تحفظ و تطبق وتخزن في الذاكرة من أجل الامتحان فقط، لأنها لا تتصل بواقعهم ولن يستعملوها في حياتهم !

وزاد تعلقي بالبلاغة حتى جعلت منها مادة تخصص . فعرفت أن البلاغة هي الوسيلة المثلى لاكتساب تقنيات التواصل والاتصال، وهي في عصرنا، أكثر من أي وقت مضى، تحتل مكانة مرموقة بين استراتيجيات الاتصال و ميادين استعمالها اليوم كثيرة ومتنوعة : من الميدان السياسي إلى المحاماة إلى الإشهار إلى وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية.

من هنا، تتجلى أهمية البلاغة كمادة تعليمية.

فبرامجنا التعليمية تتضمنها منذ مرحلة التعليم المتوسط حيث تقدم منها بعض العناصر ثم تفصل في المرحلة الثانوية لتعمق في التعليم الجامعي.

يؤكد الجميع أن البلاغة مادة حية متطورة تطور اللغة باختلاف الزمان وتغير المكان، فهل برامج تعليم البلاغة في المرحلتين الثانوية والجامعية أخذت بعين الاعتبار البعدين الأساسيين في التعليم وهما :

- حاجات العصر و حاجات التلميذ،

- وتطور هذه المادة، من حيث المضمون والمنهجية ؟

يجمع القدماء والمحدثون على تعريف البلاغة بكونها فنا وعلما، حينئذ تحتل حيزين :

- حيزا جماليا يتحكم فيه الذوق،

- وآخر منطقيا يتحكم فيه العقل.

وهكذا تتوسط البلاغة الأدب و العلم: فتخضع قيمها الجمالية لمقاييس الزمان والمكان،

من جهة؛ وتعرف البلاغة تطور العلوم المجاورة وليدة اللسانيات كالأسلوبية وعلم الدلالة... فضلا عن النقد، من جهة أخرى.

تأخذ المدارس الفرنسية هذا التطور بعين الاعتبار وتستعمل البلاغة كأداة حديثة

تفحص بها النصوص الأدبية - القديمة منها والحديثة - وتكشف عن طبيعتها وخصائصها الجمالية والاستدلالية.

والبلاغة العربية كالبلاغة الفرنسية، تطورت وعرفت تحولات موضوعية فرضها

الزمان و المكان، ويظهر هذا التطور في شتى مجالات النشاط الفكري . ولكن تعليمنا بقي بمعزل عن هذا المسار إذ توقف به الركب في بداية عصر الضعف.

وقد يكون هذا هو السبب الأول لقلّة اهتمام تلاميذنا وطلابنا بهذه المادة "القديمة" لأنها لا تهتم إلا بالأدب القديم ولا تعالج الحاضر.

حينئذ لا يحتفظ الطالب الذي يتخرج من الجامعة إلا بالمصطلحات البلاغية التي

يعتبرها أدوات "ميتة" لأنه لا يوظفها لا في حياته المهنية - مهما كان مجال نشاطه - ولا في حياته اليومية. وهو لا "يعي" استعمالات البلاغة اليومية المألوفة.

ومن هنا، وحتى يواكب تعليمنا حاضرننا، يبدو من الضروري نفض الغبار الذي تراكم على مادة البلاغة، ويجدر بنا أن نعيد الوجود البهيج للبلاغة حتى نهذب ذوق المتعلمين ونكسبهم القدرة على الإفصاح عن مشاعرهم وأفكارهم، ودعمهم أو تزويدهم بوسائل الاستدلال و الحجاج، ولا نكتفي بتقديم البلاغة كأنها مادة لتنميق الأسلوب بالصور والمحسنات، لأن هذا الفعل يعتبر تقصيرا في حق المادة وحق المتعلم !

فالبلاغة العربية فرع من فروع اللغة التي تحتل الصدارة في الدراسات الأدبية، على مستوى التعليم الثانوي و الجامعي، لأنها سبيل للولوج في كنه الآثار الأدبية، وإجراءات عملية لفحص النصوص، و وسيلة للتعبير الأدبي و الإبداع الفني . إضافة إلى هذه الفوائد، اتخذ البلاغيون الغرب البلاغة وسيلة حديثة لتحقيق الاتصال في الإشهار والسينما والتلفزيون . وهكذا أثبتت هذه المادة طواعيتها للتماشي مع ركب التكنولوجيا والحدثة.

ولكن البلاغة العربية التي ندرسها اليوم محفوظة في طيات الماضي . فهل نحن عاجزون على اجتياز الخندق الذي يفصل بين الماضي والحاضر ؟ كانت ولا تزال مساهمة البلاغة العربية في تسليط بعض الضوء على الإعجاز القرآني عظيمة ولا تناقش، ولكن هل هذا يعني أننا اكتشفنا كل أسرار أسلوب القرآن ؟ ألسنا في حاجة إلى تطوير بحوثنا اللغوية من أجل إدراك المزيد ؟ تجمع كتب البلاغة، القديمة منها والحديثة على أن وظائف تعلم / تعليم هذه المادة تتمثل في تهذيب الذوق و تتميته، وتقويم الملكات الكلامية ... لكن، هل وضعنا الوسائل الكفيلة بتفتيق هذه القدرات؟ هل عملنا على تطوير المفاهيم القديمة والمصطلحات لنجعلها ملائمة لتطورات العصر؟ هل انتهجنا الطرائق الفعالة لتحقيق هذه الغايات ؟

ألا يمكن أن تكشف دراسة البلاغة العربية القديمة - لو وظفت فروع اللغة الحديثة التي وضعها الغرب - عن مجهودات البلاغيين القدامى و تثنها برفع النقاب عن منظور تراثي ننطلق منه لنستمد من هذا الرصيد العظيم ما يساعدنا على تطوير أساليب وطرائق

تتماشى مع حاجات مستعملي اللغة العربية في العصر الحديث، وتكون مطابقة لوسائل الاتصال العصرية؟

وقد نحتاج لذلك إلى الاطلاع على المفاهيم التي بلورها الغرب وطورها حتى جعلوها ناطقة بلغة العصر.

لا يبرر الاختلاف الطبيعي في التطور بين البلاغة العربية والبلاغة الغربية، "تحجر" طرائق تدريس البلاغة- و إن كان لأسباب موضوعية وعلمية- حيث لا زلنا ندرس البلاغة القديمة التقليدية دون أي إضافة تثبت انتسابنا إلى العصر الحديث. في حين يحرص الغرب على التوفيق بين التطور الواقع في مجال الدراسات البلاغية ومجال التعليم لكي يستفيد هذا الأخير من مستجدات البحث اللغوي.

فهل هذا يعني أن البلاغة العربية تتنافى و التطور الذي وقع في علوم اللسان؟ وهل تنفر من تحديث آلياتها و طرائقها؟ ألا يمكن أن تستفيد البلاغة العربية، كمثيلتها الغربية، من علوم اللغة الحديثة كعلم الدلالة، والسيميولوجيا وتحليل الخطاب والأسلوبية والتداولية... بل، ألا يمكن الربط بين هذه العلوم والبلاغة التراثية، أي أن نستقرئ تراثنا بمنظار جديد؟

لقد فتحت هذه العلوم الحديثة آفاقا جديدة على المفاهيم البلاغية القديمة وأضفت عليها ظلالا بعيدة، فما نصيب البلاغة العربية من هذه النفحات؟

حرصا على الانسجام بين مستجدات البحث اللغوي و واقع الحياة العصرية، لقد تبنى التعليم في الغرب، مفاهيم لغوية جديدة واستفاد من توظيفها . أما لدى العرب، فتعليم البلاغة اليوم، يشكو من الجمود والتقيد وافتقاد البعد التحليلي . فهو تلقين آليات وهياكل جوفاء، لا مكان فيه لفحص المعاني والتذوق الجمالي.

فإذا كانت علوم اللسان الحديثة قد فتحت آفاقا واسعة أمام المفاهيم البلاغية القديمة في الغرب، وأضفت عليها ظلالا بعيدة، فما نصيب البلاغة العربية من هذه المستجدات؟ وما مدى قابليتها للاستفادة من العلوم اللسانية العصرية؟ وكيف يتم ذلك في التعليم حتى تسترجع هذه المادة مكانتها بين فروع اللغة باعتبارها مفتاحا يسمح بالولوج في أعماق

النص والكشف عن مضامينه الخفية ومجمعا للأساليب القادرة على التعبير الأجود والأنسب.

وهكذا يمكننا أن نحدد الهدف الرئيس من هذا العمل الذي يتمثل في محاولة الكشف عن الدراسات التي سعت إلى استقراء التراث، باستعمال الوسائل التي تركز على العلوم اللسانية الحديثة؛ مما يوجهنا إلى تعليمية حديثة في تدريس البلاغة، تكون كفيلة بمساعدتنا على توضيح ما غمض، وتفسير ما اختلط، وتوجيه ملاحظتنا إلى الجوهر دون الحواشي.

أما الأهداف الأخرى المسطرة لهذه الدراسة فنجملها فيما يأتي:

- تبيان كيفية استفادة تعليم البلاغة العربية من العلوم اللغوية الحديثة،
- قراءة مفاهيم البلاغة العربية القديمة قراءة جديدة باستغلال جهود الغرب في تطوير مفاهيم بلاغتهم،
- حصر بعض مميزات البلاغة العربية وملاحظ تطورها مقارنة بالبلاغة الغربية،
- اقتراح بعض ما يسهم في الرفع من شأن الدرس البلاغي العربي.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة تاريخي حين نستشرف بعض المعالم التاريخية المميزة لمسار البلاغة العربية ورجالها؛ وهو وصفي حين نحدد ملامح علوم اللسان المختلفة وما قدمته هذه التيارات والمناهج من نظريات لغوية عربية وغربية، قديما وحديثا؛ وهو تحليلي عندما نحاول فحص هذه الإنجازات وقابليتها للتطبيق في مجال البلاغة العربية.

وإذا سلمنا بأن البلاغة جزء من دراسة النص الأدبي، وبأن معالجة النص الأدبي تطورت بتطور مناهج التحليل، فهذا يعني أن تطور طريقة تناول الجانب البلاغي في النص الأدبي لازم وضروري. فالعلوم التي كانت تدور حول النص الأدبي محصورة في عدد محدد كالنقد والنحو والصرف والعروض ... أما اليوم فالمعالجة الأدبية قد تتكئ

على علوم ومناهج لا حصر لها - إضافة إلى العلوم السابقة - كالأسلوبية، وعلم الدلالة، وتحليل الخطاب، والتداولية، ولسانيات النص...

من هنا، نتساءل عن كيفية تطوير تعليمية البلاغة العربية، بمراعاة طبيعة هذه المادة وتكريس إنجازاتها من جهة، وتماشيا مع ما حققته اللسانيات الحديثة من جهة ثانية. فإذا جمعنا بين هذين الجانبين استفدنا من روافد تعتبر محركا لمقروئية الموروث وكاشفا لأصالته ودافعا لتحصيل النجاعة والفعالية في البحث البلاغي.

من المؤكد أن البلاغة العربية تحتل الصدارة في التعليم الثا نوي والجامعي (في الشعب الأدبية)، لأنها سبيل للغوص في الآثار الأدبية ، و وسيلة للتعبير الأدبي، ولأن وظائفها- في نظر البلاغيين القدامى- تتمثل أساسا في تهذيب الذوق و تنمية الملكات وتقويمها... لكننا اليوم نتساءل : هل وفرنا التقنيات العملية الكفيلة بتفتيق هذه القدرات؟ وهل أرفقناها بتتبعا لتطور المفاهيم؟

دراسة البلاغة القديمة باستعمال "مجهر" فروع اللغة الحديثة قد ترفع النقاب على مجهودات البلاغيين القدامى وتثمنها، وتثري معارفنا وتجعلها مطابقة لوسائل الاتصال العصرية ومتماشية مع حاجات مستعملي اللغة. ولتحقيق هذه الغاية قد نحتاج إلى المفاهيم التي بلورها الغرب وطورها لجعلها موازية للحدثة.

اتصلت البلاغة العربية بالمنطق والفلسفة (يظهر هذا الأثر في " مفتاح " السكاكي مثلا)، وهذا التطور شبيه بتطور البلاغة الغربية التي لم تتوقف عند هذه المرحلة بل استغلت ما توصل إليه الدارسون في فروع اللغة المختلفة حتى تحافظ على مكانتها وتميزها. أليس هذا سبيلا يمكننا انتهاجه مع بلاغتنا العربية؟! تعتبر البلاغة الغربية دعامة أساسية للاتصال وقد تطورت بفضل ظهور الإشهار والسينما والتلفزيون، هذه الأجناس الإعلامية التي استحدثت بدورها بلاغة جديدة أثبتت طواعيتها للتماشي مع ركب التكنولوجيا والحدثة.

كانت البلاغة الغربية القديمة تعتبر بلاغة الخطيب والكاتب، وكانت تميز أثناء

دراستها للنصوص وإنتاجها بين ثلاث مراحل:

1- الإبداع ، أو البحث عن الأفكار

2- الترتيب ، أو ما يمكن اعتباره تركيباً ووضعاً للخطة

3- البيان أو الكلام ، أي التعبير والأسلوب.

تحتفظ البلاغة العصرية بهذا الاهتمام وهي تعنى في آن واحد بالكاتب والقارئ،

وتخص بالتحليل المباشر تسلسل الجمل، وتفحص الظروف التي أنجز واستقبل فيها النص الشفوي أو المكتوب .

كما تأخذ بعين الاعتبار ظروف الخطاب، وتتصور أنماط النصوص المختلفة، وتوفر

الدعائم الضرورية لدراسة هذه النصوص الأدبية.

إذن، تقدم البلاغة الجديدة قاعدة منسجمة للمعارف والممارسات المدرسية للكتابة

والقراءة لأنها تحتفظ بالجوانب التي تعزز بها البلاغة القديمة وتضمن ها بنتائج البحوث

اللغوية الجديدة القائمة في مجال البلاغة العصرية.

من أجل البحث في المسائل المتصلة بموضوع بحثنا، ألا وهو "تعليمية البلاغة العربية على ضوء علوم اللسان الحديثة"، وضعنا خطة تشمل العناصر الآتية:

الباب الأول: ملامح البلاغة العربية وعلاقتها بالبلاغة الأوربية

ويتناول هذا الباب:

- * ميدان البلاغة العربية
- * مصطلحات ومفاهيم البلاغة العربية القديمة
- * احتكاك البلاغة العربية بالبلاغة الأوربية

الباب الثاني: علوم اللسان الحديثة وأثرها على البلاغة

ويتعرض هذا الجزء إلى:

- * النظرية اللغوية في الغرب وعند العرب
- * علم النص
- * تحليل الخطاب
- * الأسلوبية

الباب الثالث: نحو تحديث تدريس البلاغة العربية

ويركز الباب الأخير على:

- * أسس تعليمية البلاغة
- * مظاهر الممارسة البلاغية
- * سبل تحديث البلاغة العربية

وهذا الباب الأخير يتناول الجانب التطبيقي إذ يتعرض لل بلاغة في التعليم الثانوي والجامعي، من حيث الممارسة والتطلعات.

أما الصعوبات المتصلة بهذا البحث فتتمثل أساسا في:

- الإلمام بعلم اللسان الحديثة كلها، نظرا لتشعبها وتداخلها حيناً وتقاطعها حيناً آخر.

- الإطلاع على جميع الدراسات والبحوث الحديثة المتعلقة بعلم اللسان، وهي غزيرة، سواء منها العربية - المشرقية والمغربية - أو الفرنسية.

- صعوبة ترجمة المصطلحات بسبب عدم الإجماع حول الكثير منها (فعلى سبيل المثال، تترجم كلمة énonciation بالأداء / القول / الكلام / التلفظ ، وكلمة pertinence بالوجاهة / الحصافة...).

ومع ذلك، سعينا إلى تقديم حصيلة، وإن لم تكن شمولية، للأسس التي ينبغي أن

يبني عليها تحديث تعليمية البلاغة العربية.

الباب الأول

ملاحح البلاغة العربية وعلاقتها بالبلاغة الأوربية

تمهيد الباب الأول

الفصل الأول : ميدان البلاغة العربية

- 1- حول مفهوم البلاغة العربية
- 2- مكانة البلاغة بين الأمس واليوم
- 3- تطور البلاغة العربية
- 4- التأليف البلاغي

الفصل الثاني : مصطلحات ومفاهيم البلاغة العربية القديمة

- 1- بين الفصاحة والبلاغة والبيان
- 2- فروع البلاغة
- 3- النقد والبلاغة والذوق الجمالي
- 4- اللفظ والمعنى والنظم

الفصل الثالث: احتكاك البلاغة العربية بالبلاغة الأوربية

- 1- تأثر البلاغة العربية بالثقافة الأجنبية
 - 2- من أرسطو إلى البلاغيين العرب
 - 3- تطور البلاغة الأوربية
- خاتمة الباب الأول

تمهيد الباب الأول

من الأهمية بما كان أن نستهل هذا العمل في بابه الأول بتحديد "ملامح البلاغة العربية و علاقتها بالبلاغة الأوربية"، وذلك بتسليط الضوء على خصوصيات البلاغة العربية وطبيعة احتكاكها بالبلاغة الأوربية. ومن أجل ذلك، يتفرع هذا الباب إلى ثلاثة فصول.

فخصص الفصل الأول، الذي جاء تحت عنوان " ميدان البلاغة العربية"، لتحديد مفهوم البلاغة العربية، ومكانتها بالنسبة إلى النشاط الفكري لدى الفرد والمجتمع، وتبين مكانتها في القديم وفي أيامنا . وبعد ذلك يتم تتبع تطور البلاغة العربية عبر أهم مراحل التاريخ وكذلك من خلال طرائق تأليف الكتب المتصلة بها.

يحاول الفصل الثاني، "مصطلحات ومفاهيم البلاغة العربية القديمة"، أن يحصر حدود المصطلحات التي راجت لدى دارسي البلاغة وكيفية تفريعها إلى ثلاثة علوم متكاملة، وتداخلها بعلوم كانت شديدة القرابة منها، ولم تعرف كعلوم مستقلة. ويقدم لنا الفصل الثالث، الذي يحمل عنوان "احتكاك البلاغة العربية بالبلاغة الأوربية"، الدليل على أن البلاغة العربية لم تكن مغلقة على نفسها، معزولة عن الشعوب الأخرى، بل إنها تفتحت على بلاغة الأمم التي جاورتها وعاشتها كالفرس، والأمم التي اكتشفت جانبا من ثقافتها عن طريق الترجمة كاليونان، وأرسطو بوجه خاص.

ونظرا إلى أن الباب الأول من هذا العمل هو باب تمهيدي، يتسم أكثر بالطابع التاريخي، فإننا اختصرنا المعلومات المتصلة بتاريخ البلاغة العربية والبلاغة الغربية، مركزين على أبرز ما ميزهما، دون تحليل الظواهر اللغوية الكثيرة والأساسية التي تركت بصمتها في مسيرتهما.

ومرد ذلك أننا نرمي إلى " وصف الإطار الطبيعي" الذي نمت فيه البلاغة العربية ومدى استعدادها للاحتكاك والتطور، وقدرتها على التأثير والتأثر.

الفصل الأول

ميدان البلاغة العربية

- 1- حول مفهوم البلاغة العربية
- 2- مكانة البلاغة بين الأمس و اليوم
- 3- تطور البلاغة العربية
- 4- التأليف البلاغي

1- حول مفهوم البلاغة العربية

تتفق المصادر اللغوية المختلفة على أن البلاغة اسم معنى من بلغ، ومعناه لغة الوصول والانتهاء.

والعبارة " شيء بالغ، وأمر بالغ " تعني أمرا جيدا، ومن هنا حملت البلاغة معنى جودة الكلام.

وكلمة البلاغة في أصل اشتقاقها اللغوي، تعني كذلك التبليغ والتوصيل، أي القدرة على نقل معنى يعتمل في النفس إلى خارجها وتبليغه إلى آخر؛ وذلك يتم عن طريق الكلام بالدرجة الأولى، ولكنه يتم كذلك عن طريق القرائن غير اللغوية المساعدة على الكلام (كالإيماءات، والإشارات، ودرجة الصوت، وتنغيمه ...)، أو تلك الوسائل التي تساعد على نقل الكلام لسامع غير مباشر بسبب حاجز المكان والزمان، وأشهر تلك الوسائل في التاريخ البشري الكتابة التي وسعت من معنى التوصيل وأكسبته بعدا كبيرا في المكان، وامتدادا غير متناه في الزمان.

ولا تكون البلاغة صفة للكلمة لأن الكلمة المفردة تعجز عن الوفاء بالمعنى المطلوب.

وهي وصف للكلام والمنتكلم : وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال (والحال هو الأمر الداعي للمتكلم) أو الاعتبار المناسب، وهذا الاعتبار ذو وجوه لا حصر لها، وكل منها يعد مقاما يتطلب خصوصية معينة في الكلام، وهذه الخصوصية هي ما تعنيه كلمة " مقتضى ".

فإنكار المخاطب للمعنى حال يقضي أن تؤكد له الجملة فتقول : " إن الطقس حار " وذلك التأكيد هو مقتضى الحال.

ومن الشواهد التي تبين كيف تتم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ما يأتي¹ :

1- إذا أردت أن تنفي عن نفسك فعل شيء من غير أن تشير إلى أن غيرك فعله، قلت: " ما فعلت "؛ فإذا أردت أن تشير إلى أن غيرك فعله تقول: " ما أنا

¹ - د. محمد عبد المنعم خفاجي و د. عبد العزيز شرف: نحو بلاغة جديدة . مصر، مكتبة غريب، د.ت. ص 108 و 109

فعلت ". فأنت قد جعلت لكل معنى من هذين مقالا على وفقه، وطابقت بقولك مقتضى الحال.

2- قال تعالى في سورة الجن:

" وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ".

ففعل الإرادة جاء مع الشر على صورة المبني للمجهول، ومع الرشد على صورة المبني للمعلوم، والحال الداعية إلى بناء الأول للمجهول للتأديب في جانب الله تعالى بعدم نسبة الشر صراحة إليه.

3- إذا قلت: " على الله أعتمد " فقد أردت أن تقصر اعتمادك على الله وحده، ودلت على ذلك بتقديم " على الله " على الفعل " أعتمد "، ولو قلت: أعتمد على الله، فإرادة القصر على أبسط الصور الدالة عليه، حال دعت إلى تقديم الجار والمجرور على الفعل.

وتكون المطابقة لما يقتضيه المقام وحال المخاطبين أيضا واعتبار مستوياتهم

الثقافية وقوتهم البيانية، ولذلك كانت مراتب البلاغة متفاوتة، أعلاها طبقة ما وصل حد الإعجاز حتى أخرج الفصحاء وأعيى البلغاء، وهي بلاغة القرآن الكريم، وأدناها طبقة ما يخاطب به عامة الناس. وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ في أي معنى قصد.

والبلاغة تستلزم أمرين :

أحدهما الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، والآخر تمييز الكلام الفصيح عن غيره. والاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، تكفل به علم المعاني، لأنه هو العلم الذي يدرس كيفية المطابقة بين الكلام والمقام، وتمييز الكلام الفصيح عن غيره يرجع بعض منه إلى ما يدرك بالحس اللغوي وهو التناظر، وبعض آخر يرجع إلى المعرفة الواسعة بمفردات اللغة وهو الغرابة، ويرجع جزء ثالث إلى الإلمام بقواعد الصرف والنحو وهو مخالفة القياس والتعقيد اللفظي؛ فالدارس لعلمي الصرف والنحو يكون على وعي بأبنية الكلمات، وصيغ المفردات، والأنماط الصحيحة للتركيب في اللغة العربية، بحيث يحول هذا الوعي بينه وبين الانزلاق إلى أي من العييين السابقين.

أما التعقيد المعنوي فإن تجنبه في الكلام لا يتم، في رأيهم، إلا بعلم البيان، وهو العلم الثاني من علوم البلاغة.

وبعد تحقق الفصاحة في الكلام ومطابقتها لمقتضى الحال يأتي دور " علم البديع " العلم الثالث والأخير من علوم البلاغة، ففيه تعرف وجوه تحسين الكلام وتزيينه . البلاغة، إذن، هي الدراسة التي تمكن من معرفة جيد الكلام من رديئه بأن ترسم للأديب القواعد والأصول التي تعينه على صنعة هذا الكلام الجيد شعرا كان أو نثرا.

ولعل أقدم وصف للبلاغة هو ما ورد عن عمرو بن عبيد المعتزلي (ت 144 هـ)، حيث قال بأنها " تخيير اللفظ في حسن الإفهام " ¹.

يروى الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " : " أخبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حيان وحدثني محمد بن أبان - ولا أدري كاتب من كان . فقال: قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندي: ما البلاغة ؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذ كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالنظر.

وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر، ثم قال : وزين ذلك كله وبهاؤه، وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والصمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال.

على هذا النحو يمكن تقييم الإجابة عن السؤال: ما البلاغة ؟ الذي وجه إلى كل من الفارسي واليوناني والرومي والهندي، فليست الإجابات التي ذكرها الجاحظ خصائص محددة يمكن أن تنطبق كل واحدة منها على البلاغة التي اقترنت بها لا تتعداها إلى

¹ - الجاحظ : البيان و التبيين، ج 1. ص 144

غيرها، وإنما هي خصائص متداخلة يمكن أن تمثل تصور العربي في هذه الفترة لخصائص بلاغة الآخرين أكثر من كونها استقراء علميا لخصائص هذه البلاغات. على أن الاستقراء والوصف العلميين اللذين لم يحققهما الكاتب وهو يتحدث عن بلاغة الأمم الأخرى، قد حققه وهو يتحدث عن البلاغة العربية من خلال استقراء و وصف أحوال البلغاء والخطباء أنفسهم وملاحظة سلوكهم أثناء أدائهم لفنهم، للتأثير الكامل لهذا الفن في نفوس سامعيه.

وفي هذا الصدد فإن الجاحظ يهتم بالخطيب قدر اهتمامه بالخطابة، وبالبلغ قدر اهتمامه بالبلاغة، وهي اهتمامات ضعفت في العصور التالية حين تحول الاهتمام كله إلى الخطابة والبلاغة وقواعدها التفصيلية.¹

ويشير أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) في مقدمة كتابه " الصناعتين " إلى الأهمية الكبيرة لعلم البلاغة وإلى الدرجة التي تحتلها في سلم المعارف، وهي عنده تأتي مباشرة بعد المعرفة بالله . وهو يرى أن عدة القارىء الحقيقية تقوم على مبدأ الاختيار والانتقاء، والقدرة على التمييز بين الجيد والرديء فيما يقدم إليه ... أي أن هذه القدرة النقدية يمنحها له علم البلاغة، والتي يمثل غيابها نقصا خطيرا في تكوين شخصيته. وغاية البلاغة يغلب عليها " الاتجاه إلى القوة الفكرية وإقناع العقل إقناعا قائما على ذكائه أو بلادته وعلى شكه أو إنكاره ؛ ولكن هذا لا يعني تغذية الفكر وحده، فهناك قوى نفسية أخرى تعنى البلاغة بتغذيتها وتهذيبها، كقوة الانفعال والحس الجمالي "².

إن أظهر ما يميز بلاغة العرب هو الطابع الأدبي لاعتماد هذا المنهج في دراسة البلاغة على التراث الأدبي عند العرب ب وتمحيص الجيد منه والإشارة إلى خصائص الجمال فيه؛ ثم الإكثار من الشواهد الأدبية والأمثلة وبخاصة من القرآن الكريم؛

¹ - عن أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 65-68
² - أحمد الشايب: الأسلوب، ط 12. ص 19-21

"... وعنايتها بالمقاييس الفنية في الحكم على النص الأدبي ومرددها في ذلك هو الذوق والإحساس الفطري، وهدفها البحث عن الجمال في القطعة الأدبية، بعني دا عن التحديدات المنطقية ومسائل الفلسفة"¹.

ومن الدارسين من يعود بأوليات البلاغة إلى الجاهلية، " حيث يدعو إلى التماس هذه الأوليات في مناظرات الشعراء، وفي المجالس التي كان يتصدر للحكم فيها على الشعراء أمثال النابغة الذبياني، وفيما كان يثار حول الشعراء من جدل ونقاش في أسواق العرب وأنديتهم، وفي تنقيح الشعر وتجويده، ففي كل ذلك دليل على تقيد الجاهليين بمقاييس بلاغية يطبقونها على الشعر حين ينشئونه وحين ينقحونه وحين يحكمون عليه أو يختلفون حوله "².

وهكذا يمكننا القول: إن أول بليغ كان أول بلاغي، لأنه أخضع قوله لمقاييس فنية يراعيها ويحرص على تطبيقها.

" ومعنى ذلك أن " البلاغة " مورست عمليا قبل أن ينتبه الناس إلى أنها علم، لقد ولدت بدون علم البيئات التي ولدتها "³.

" وظلت البلاغة بمعناها العلمي مجهولة الاسم والهوية حتى العصر العباسي، لأنها كانت مختلطة ممتزجة بمسائل علم النحو واللغة والنقد، حين قدم أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابه الذي يعده البلاغيون أول كتاب في البلاغة أسماه " مجاز القرآن "⁴. وإن لم يطلق اسم المجاز على ما نسميه " البلاغة "، فإن أسماء أخرى أطلقت عليها، فسميت حيناً " بيانا " وسميت أحيانا " بديعا " كما سميت بلاغة وفصاحة.

¹ - عمر الملاحوش: إعجاز القرآن و علم المعاني. ص 209 و 211

² - عبد العزيز عتيق: تاريخ البلاغة العربية. ص 10 و ما بعدها.

³ - إسماعيل الصيفي و آخرون: فصول من البلاغة و النقد الأدبي. ص 12

⁴ - د. بدوي طبانة: البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب و مناهجها و مصادرها الكبرى، ط 3. مكتبة الأنجلو المصرية،

1962. ص 23

ولعل الذي أسهم أكبر إسهام في تسمية " البلاغة " باسمها عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري بكتابه العظيم " أسرار البلاغة " فبعد صدور هذا الكتاب عرفت البيئات الأدبية " علم " البلاغة وأمراء البلاغة.

ثم أخذ هذا " العلم " منذ القرن السابع الهجري صورته المحددة، على يد أبي يعقوب يوسف السكاكي، الذي قدم كتابه (مفتاح العلوم) فعالج فيه البلاغة بعقلية غير بلاغية، إلا أن كتابه هذا وما نشأ حوله من تلخيصات وشروح لهذه التلخيصات قد أدت إلى أن ينحصر مفهوم علم البلاغة في أنه العلم الـ ذي يبحث في ثلاثة علوم هي علم المعاني، علم البيان وعلم البديع .

" ويلاحظ أن الصورة البلاغية قد انحصرت في مجال الحس والتطابق الشكلي، ولم تخرج بنا إلى مجال الشعور، وهذه سمة من سمات الصورة القديمة، الأمر الذي يضعف الصورة فنيا؛ لأن الشاعر يقف بنا عند حدود الحس مما تسميه البلاغة العربية القديمة (الجامع في كل) دون النظر إلى ربط هذا التشابه الحسي بجوهر الشعور والفكرة في الموقف"¹.

والبليغ لا يوصف بالبلاغة إلا إذا " عرف ما يقتضيه المقام من مقال، وقال فيه من الكلام ما يحسن أن يقال في مثله، واختار للمعاني من الألفاظ والجمل والأساليب ما يتناسب وعقول القارئین والسامعين وشعورهم وذوقهم، فتلك هي البلاغة " ².

وحتى يكون الأسلوب بليغا، وافيا بالغرض، يشترط أن تراعى فيه ثلاث مطابقات هي:

1- مطابقة الأسلوب للموضوع الذي يتكلم فيه، فيكون سهلا في الموضوعات السهلة، جز لا فيما يناسب الجزالة في الموضوعات والمعاني، كما أن بعض الموضوعات يناسب الإطناب، وبعضها يناسب الإيجاز، وبعضها يحتاج إلى أسلوب خطابي، وبعضها إلى أسلوب منطقي.

¹ - اسماعيل الصيفي و آخرون: فصول من البلاغة و النقد الأدبي. ص 38

² - نحو بلاغة جديدة. ص 52

والوسيلة إلى إدراك أوفق الأساليب للموضوع الذي يتكلم فيه البليغ تتمثل في تربية الذوق الأدبي.

2- مطابقة الأسلوب لعقلية القارئ والسامعين، فيجب أن يكون الأسلوب في متناول عقولهم يستطيعون أن يدركوه في يسر وسهولة. وخير وسيلة لمراعاة هذه المطابقة أن يكون الخطيب أو الكاتب على علم تام بعقلية الناس وطباعهم.

3- مطابقة الأسلوب لنفس المتكلم أو الكاتب، فكثيرا ما يتكلف في كتابه، ويقلد غيره. فترى بعض الناس يتحدث فيحسن حديثه، فإذا كتب سمجت كتابته، لأنه في الأولى طابق نفسه، وفي الثانية تابع غيره.

" فتهذيب الذوق الأدبي حتى يعرف به ما يناسب الموضوع وما لا يناسب ومعرفة طبائع الناس وعقلياتهم وقدرة الكاتب على تصوير مشاعره واستمداده كلامه من روحه إلى كل ما يلزم الأديب ليكون أسلوبه بليغا ¹."

وقد جمع بشر بن المعتمر (ت 210 هـ) متطلبات البلاغة في قوله²:
"...إياك التوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك ... وكن في ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، ويجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي و الخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

¹ - المرجع نفسه و الصفحة نفسها
² - نحو بلاغة جديدة. ص 114

وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".

أما موضوع البلاغة عند المحدثين، فأحمد الشايب¹ يحصره في بابين هما الأسلوب والفنون الأدبية :

1- الأسلوب Style، وفي هذا القسم من علم البلاغة، ندرس القواعد التي إذا تبعت كان التعبير بليغا أي واضحا، فندرس الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة والأسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه.

وفي هذا القسم نضع البلاغة العربية، فعلم المعاني يدخل كله في بحث الجملة، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة، وتبقى المباحث الأخرى مهملة في هذه الكتب التي انتهت إليها الدراسة البلاغية، قد نجد في كتب الأقدمين (الصناعتين ودلائل الإعجاز مثلا) مباحث قيمة تتصل بالعبارة من الناحية الفنية العامة ولكنها غير مستوفاة ولا منظمة.

2- الفنون الأدبية وقد تسمى قسم الابتكار invention وهنا ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية، وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة، والوصف، والرسالة...

حينئذ يمكن القول إن البلاغة تشير فقط إلى ما يتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون أقساما لتنتج الآثار المرجوة، وإن علم البلاغة يميل في جملته إلى الناحية الشكلية أو الأسلوبية، فهو لن يعرض لقيمة الفكرة بل لملاءمتها ولا يخلقها لكنه ينسقها، وهو يعنى كثيرا بالعبارات والأساليب حتى إن بعض الباحثين يطلق عليه كلمة الأسلوب. وهكذا أضحت البلاغة تعتمد إلى الإجابة عن هذين السؤالين : ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

¹ - أحمد الشايب: الأسلوب، ط 12. ص 37 و 38

فلا يقف الناقد بالمعايير البلاغية عند حدود النص الأدبي، لأنه بحاجة إلى أن يحسن قراءته وتفسيره مستعيناً بمعرفته ببواعث النص الأدبي، والموقف الذي قيل فيه، والحالة الشعورية والفكرية لصاحب النص، وعلاقة الأسلوب البلاغي بكل ذلك، وهذا ما تحاول البلاغة الجديدة أن تحققه.

وفي شأن البلاغة و الإعلام يؤكد محمد الصغير بناني : " الاعتماد على مفهوم الإفادة الذي يدل في التعبير الجرجاني على ما يدل عليه مفهوم الإعلام l'information في التعبير الحديث. أعني كمية المعلومات التي تحملها الكلمة أو العبارة أو الجملة و التي بها تقاس درجتها الإعلامية"¹.

ويرتبط بكلمة البلاغة الإبلاغية التي " تقفز فوق الجانبين الموضوعي والفكري للكلام، وتقفز فوق عملية توصيل الأفكار . فالإبلاغية تنتج نحو جوانب أخرى في الكلام الملفوظ أو المكتوب . إن القيم الانفعالية في اللغة، وتناغم الأصوات، والإيقاع، وإبراز عناصر محددة في العبارة، وتداعي الأفكار، والاتجاه إلى التذکر، والأساليب والتعابير الأدبية المتمسمة بالفصاحة والبلاغة، واستخدام العبارات الدارجة وإنزالها منزلة لائقة، إن كل هذه الأشياء تدخل في نطاق الإبلاغية"².

وإذ يعتبر البعد الإبلاغي (وهو جوهر البلاغة) أن اللغة الأدبية مسرحه، فإن الانفعال الكامن في بعض الصيغ والعبارات والاشتقاقات لهي المنهل الأساس الذي ينهل منه.

أما كلمة اتصال communication، القريبة من كلمة التبليغ، فتمتاز بالتعبير عن الفرضية والتفاعل معاً، بمعنى أنها تنطوي على معنى القصد والمشاركة.

¹ - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. ص 344
² - سمير أبو حمدان: الإبلاغية في البلاغة العربية. بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت. ص 37

" واللفظ الأوربي مشتق من الأصل اللاتيني للفعل *communicare* الذي يعني: يذيع أو يشيع وهذا هو الاتصال الشخصي، أو بين شخص و عدة أشخاص أو جماعة وهو الاتصال الجمعي المباشر، وقد يجري بين شخص أو مؤسسة و عدة جماعات متفرقة لا تتصل ببعضها البعض ولا ترى مصدر الاتصال وجها لوجه، و هذا هو الاتصال الجماهيري، الذي يعتبر التحرير الإعلامي صلبه ومنطقه، إذ يتوسل هذا النوع بوسائل جماهيرية هي وسائل الإعلام"¹.

ومن تعريفات الاتصال، تعريف قدمه ليلاند براون Leland Brown مفاده أن الاتصال عبارة عن عملية نقل وتلقي الحقائق والآراء والشعور والاتجاهات والإحساس وطرق الأداء والتفكير بواسطة رموز من شخص إلى آخر.

ونلاحظ تقارباً شديداً الصلة بين هذا التعريف للاتصال وبين المفهوم العربي للبلاغة التي تنبئ لغة عن " الوصول والانتهاة ". يقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه . والبلاغ معناه الإبلاغ أي الإيصال، وكذلك التبليغ.

وهكذا فإن الدلالة اللغوية العربية للبلاغة هي المقابل الصحيح لما نسميه اليوم بعلم الاتصال *communication*؛ وهو علم أشمل من دراسة الجزئيات البيانية والبدئية، وهو علم أقرب إلى ما يسميه الأستاذ أمين الخولي " بفن القول "، كيف و بم يكون، وهو تحديد لجانب من جوانب الاتصال أو البلاغة العربية ويعني به " التحرير الاتصالي ". وبناء على ما تقدم يمكن القول إن وسائل الإعلام والاتصال بالجماهير كامتداد تكنولوجي للغة بمفهومها العام قد جاءت كامتدادات بلاغية لتعطي للبلاغة مفهوماً أشمل يرتبط بمصطلح " الاتصال "، وكي تؤثر بتأثير اجتماعي كبيراً.

يؤكد جون ديوي John Dewey إنسانية الإعلام ويعزو استمرار المجتمع إلى استمرار الإعلام... فالإتصال أو الإعلام هو حجر الزاوية لقيام المجتمع الإنساني وظهور قيمه ومؤسساته.

¹ - د. إبراهيم إمام: الإعلام و الإتصال بالجماهير . ص 24

ومما سبق، نختصر ما تتميز به البلاغة الجديدة في ما يأتي¹:

1- أنها غير مباشرة بمعنى أنها تعتمد على أجهزة ضخمة كالمطابع ومحطات الإذاعة واستوديوهات السينما. وهذه الأجهزة هي وسائل لنقل المعلومات والقيم بين المرسل والمستقبل.

2- أنها تصل إلى الكتل الجماهيرية العريضة حتى يمكن اعتبار الكرة الأرضية، على حد قول ماكلوهان McLuhan قد أصبحت " قرية إلكترونية ".
3- أن الاتصال يتم بسرعة مذهلة، بل إن الإعلام يجري أثناء وقوع الأحداث، عن طريق التلفزيون خاصة الذي يعتبر من أقوى الأجناس الإعلامية لأنه ينتزع الصوت والصورة، ويوزعهما على الناس في بيئة متسعة (باستخدام أقمار الاتصالات).

ويمكن أن يقال بأن هذا الجنس الإعلامي قد استحدث بدوره بلاغة جديدة.

4- أن القائم بالاتصال يضطر إلى افتراض إنسان متوسط الثقافة يوجه إليه رسالته.

2- مكانة البلاغة بين الأمس واليوم

كان للعرب من الدوافع الدينية والسياسية ما حثهم على المزيد من الإسهام والإنعاش لحركة الخطابة: " كان الجدل الديني قد بدأ أولاً بين أنصار العقيدة وأعدائها، لكن ذلك الجدل انتقل بعد فترة ليصير جدلاً بين المسلمين، عندما بدأ انقسام المسلمين في الرأي حول بعض القضايا الدينية، ثم تشعب فأصبح أقساماً إلى فرق وأحزاب، كل فرقة تنتشيع إلى رأي وتناصره، وتتخذ الخطابة في المحافل العامة وسيلة إلى إثبات رأيها"².
ومن هنا شاع ذلك اللون من الخطابة الجدلية، السياسية أو الدينية . وتحولت فنون الكلمة إلى أدوات رئيسة في بناء هيكل الدولة والحضارة، ولعبت دوراً أساسياً في تنقيف

¹ - نحو بلاغة جديدة. ص 118 إلى 120

² - أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 60 و ما بعدها

الأمة، وشرح العقيدة الجديدة للناس . ونشأت حول القرآن وبلاغته علوم كثيرة تفسر جوانب الإعجاز أو أسرار اللغة من خلال هذا النص المقدس.

وإلى جانب الاهتمام بالكلمة، بدأ الاهتمام بالمتكلم كاتباً كان أو خطيباً، وبصناعة الكلام وأدواتها؛ فالخطيب لا يؤثر فقط من خلال كلماته ولكن من خلال طريقة نطق هذه الكلمات وطريقة تنعيمها، بل وطريقة وقفته وهيئته وملبسه. ومن ثم بدأت الأبحاث حول الخطابة، ولعل أشهرها ما دونه الجاحظ في " البيان والتبيين ". وإلى جانب جهد الكتاب ودورهم في تطوير دور الكلمة والدراسات التي دارت حولها، وفي مقدمتها الدراسات الأدبية والبلاغية، يبرز دور علماء الدين من المتكلمين والمفسرين. وقد عرف التأليف البلاغي أول ثماره نتيجة للنقاش بين الكتاب وهذه الطائفة من العلماء.

إن اهتمامات علماء الكلام والتفسير بالبلاغة تشكل مبحثاً رئيساً في مداخل علوم الكلام وأصول الفقه والتفسير . وعلماء الكلام الذين يبحثون عن صفات الله ويقفون أمام صنعة "الكلام" وكون الكلام معجزاً لا يساويه كلام البشر، يمتدون ببحوثهم إلى معرفة الأوجه والخصائص التي تميز بها ذلك الكلام المعجز، وذلك يقودهم إلى صلب علوم البلاغة وأهم مباحثها. وكذلك عندما يأخذ علماء التفسير في التناول التفصيلي لتفسير آيات القرآن، يقفون بالضرورة أمام الأسرار التعبيرية في هذا النص المعجز.

إلى جانب الكتاب وعلماء الكلام والتفسير، أسهم الشعراء بدورهم في إثارة مشاكل تعبيرية استوجبت بحوثاً نظرية لمعرفة مدى صلتها بالتراث القديم. هذه العوامل كلها كانت وراء المؤلفات والاتجاهات التي ساعدت على تكوين التراث الذي يوجد قسم كبير منه بين أيدينا، والتي تعتبر برهاناً قطعياً على المكانة التي احتلتها البلاغة في الحضارة العربية الإسلامية.

أما في الحضارة اليونانية، فمكانة البلاغة تأسست على وظيفتها الأولى والأساسية، ألا وهي وظيفة " الإقناع " باعتبارها هدفاً يسعى معلم البلاغة لتلقين وسائله لطلابها، ولم

يحتل السوفسطائيون مكانة متميزة في تاريخ البلاغة إلا من خلال احترافهم لهذه الوظيفة.¹

"وإذا كانت وظيفة الإقناع تلك قد بدأت في كثير من مظاهرها بداية " عملية نفعية " حين دارت حول قضايا مثل " الإقناع القضائي " وكيفية تعلم الدفاع عن الحقوق الخاصة، فإنها امتدت بعد ذلك إلى جوانب من الدفاع عن الحقوق العامة مثل " الإقناع السياسي " ثم امتدت شيئاً فشيئاً إلى " الإقناع الوجداني " في التعبيرات الأدبية، وهو جانب الإقناع الذي جعل وظيفة البلاغة تمتد إلى جوانب التعبير الأدبي من كل زواياه.²

تشارك في هذه الوظيفة الثقافة اليونانية (بل والأوربية بصفة عامة) والثقافة العربية.

وقد شكلت وظيفة " الإقناع " في ذاتها محركاً دافعاً إلى التطوير والتجديد في الوسائل البلاغية، فالإقناع معناه الحوار بين طرفين بهدف تسليم أحدهما برأي الآخر، والطرفان يتغيران من جيل إلى جيل . و "البلاغي" كان عليه أن يتنبه في كل عصر إلى الفرق بين "الثابت" و "المتغير" في وظيفته، وأن عليه أن يوائم بين الحقيقة " الثابتة " المتمثلة في الوصول إلى الإقناع، والمتلقي " المتغير " لأن يرضخ. وانطلاقاً من ذلك كان هذا التفريق الرئيس عند عبد القاهر الجرجاني بين فرع كالأعراب الذي يهتم به النحو المؤلف وفرع كالمعاني النفسية الذي يهتم به النحو الجمالي.

فالحقيقة الثابتة في " نحو الإعراب " لا تتغير من جيل إلى جيل، عليها فقط أن تعلم (رفع الفاعل، نصب المفعول... ليس في ذلك جمال وإنما فيه صواب) أما الحقيقة المتغيرة في إحلالك التكرير محل التعريف، أو التقديم محل التأخير - حيث يسمح النحو بكلا الموقفين - فإن فيه عنصر الاختيار الذي يقود إلى الإقناع الجمالي.

ولقد قاد ذلك البلاغي التقليدي إلى أن يضع المثل قي دائماً في حسابه، وأن يوجه إليه الخطاب، وأن يحاول إجراء الحوار معه، وهو يقدم له القاعدة التي يرتضيها أملاً في

¹ - Groupe U : rhétorique générale. p 69

² - أحمد درويش : النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 9

إقناعه بوجهة نظره، وهو يقف هنا عكس موقف " النحوي التقليدي " الذي لا ينتظر من قارئه أن يحاوره بقدر ما ينتظر فيه أن يتلقى القاعدة.

وانطلاقاً من عمق مهمة " الإقناع " والحوار في جوهر البلاغة، جعل البلاغيون المتأخرون الحديث عن " الاستدلال " حديثاً أساسياً من أحاديث البلاغة.

فالسكاكي كان يغالب في عصره، في القرن السابع الهجري، تياراً لا يرى ضرورة إدخال الحديث عن الاستدلال والإقناع بين مباحث البلاغة الأساسية.

" وأصبح النص البلاغي ذاته، وقد خلا من الإقناع والاستدلال، منقطع الصلة بالمتلقي، لا يوجه إليه الخطاب - كما كان يفعل الجرجاني في عباراته الشهيرة " ألا ترى أنك " و " تأمل "...- وإنما أصبح يسوق إليه القواعد كما يسوقها النحاة مبسطة أو مفصلة أو مجملة.

وتغيرت طبيعة " المثال " أو " الشاهد "، فلم يعد نصاً يتناقش فيه البلاغي والمتلقي، وإنما أصبح نصاً نموذجياً يأتي مجمداً من الماضي وتأتي معه " مفاتيحه " البلاغية، ويقتصر دور البلاغي على تلقين النص و " المفتاح " إلى جيله الذي يسلمهما بدوره إلى جيل تال مهتماً أصابهما الصدا¹.

لقد ظل " الإقناع " كوظيفة بلاغية رئيسية، و " الاستدلال " كأداة لأداء هذه الوظيفة، عنصراً حياً و طريقاً من الطرق التي حاول البلاغيون المحدثون في أوروبا إعادة إنعاش البلاغة من خلال الحوار حولها، وفي هذا الإطار كانت واحدة من المحاولات في طريق ما سمي بالبلاغة الجديدة في خمسينيات القرن الماضي عندما كتب المفكر البلجيكي برلمان PERELMAN كتاباً بعنوان " مقال في البرهان البلاغة الجديدة " وأقام نظريته على أساس فكرة البرهان Argumentation وهي الفكرة التي تقوم على ضرورة أن تهتم البلاغة بدراسة تقنيات الخطاب من خلال الوصول إلى فكرة إثارة المتلقي وكسب تعاطفه مع النص المطروح. وإذا كانت هذه الفكرة قد ساهمت جزئياً في إنعاش البلاغة الأوروبية الحديثة فإنها قد تكون قابلة كذلك لأن تساهم - جزئياً - في إنعاش البلاغة العربية

¹ - المرجع نفسه، ص 12

الحديثة، فيمكن معالجة النصوص ال حديثة، بل وإعادة معالجة النصوص القديمة كذلك بروح حديثة من خلال التزود بوسائل الإقناع والاستدلال الأكثر مناسبة للقارىء الحديث .

فرق الفكر الأوربي في بعض مراحلها بين مصطلحين للاستدلال، أحدهما Dialectique وهو يطلق على ذلك الجدل المنطقي الفلسفي في مقابل مصطلح Rhétorique الذي يعني البلاغة وما تشتمل عليه من جدل أدبي . وإذا كانت البلاغة في بعض مراحل العصور الوسيطة قد انجذبت إلى ذلك النوع من الجدل المنطقي، فأصابها من الجفاف ما أصابها، فإن بعض ألوان الدراسات البلاغية الحديثة، شدتها حدة ودقة البرهان الرياضي، فاعتمدت في الاستدلال على الإحصاء والأرقام والجداول والرسوم البيانية، " ولا شك أن قدرا ضروريا من هذه الوسائل كلها، مهم لمخاطبة العقل الحديث، ولإثبات جدية البحث وصرامته، ولكن المبالغة فيها قد تؤدي إلى الابتعاد عن مناخ الاستدلال البلاغي، وعن مذاق المحاجة الأدبية، ولعل العودة إلى طريقة المحاجة المنطقية اللغوية القديمة ... وتطورها بما يلائم وسائل التطور التي اكتسبتها دراسات اللغة والبلاغة الحديثة قد يكون أهدى سبيل¹ . ومن النماذج التطبيقية في الدراسات البلاغية الحديثة لهذا الاتجاه كتاب " اللغة العليا " Haut langage لجون كوين الذي يرى أن الشعر قوة ثانية للغة وطاقة سحر وافتنان .

وهناك منعطف آخر ينبغي التنبيه إليه ونحن نستعير طريقة الإقناع والاستدلال من البلاغة القديمة، يكمن في أن الاستدلال هناك كان يدور حول " بلاغة العبارة الشعرية "، ونحن الآن قد انتقلنا إلى " بلاغة النص الأدبي " وهو انتقال أملاه تنوع الأجناس التي لم يعد يملك الشعر فيها المكانة التي احتلها يوما ما، ثم أملاه اختلاف وسيلة بناء النص في الأجناس الأخرى ذات الطبيعة المتلاحمة، وحتى في الجنس الشعري الغنائي ذاته، الذي يجنح إلى بلاغة النص بدلا من بلاغة العبارة.

¹ - أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 14

وقد يكون منهج " القراءة " الفنية الذي يتم اللجوء إليه الآن أحيانا، خطوة هامة في هذا الطريق إذا كانت قراءة ذات طابع " بلاغي " بمعنى أن يكون جانب من اهتمامها موجها إلى اكتشاف النسق الفني في بناء التعبير الذي يحتضيه النص أو يقترحه، وأثر ذلك النسق في الإقناع بهدف ما يتحرك نحوه مجمل العمل الأدبي، على أن هذا النوع من القراءة قد ينتهي إلى اكتشاف نسق معين لنص معين، وهو بذلك يقدم خطوة أولى تتطلب خطوة ثانية، تتمثل في اكتشاف نسق بلاغي أوسع دائرة تلتقي حوله جملة من النصوص أو جنس أدبي معين.

وعلى البلاغي أن ينقبه كذلك إلى الانتقال الذي حدث في مزاج القارئ الحديث، وانتقل خلاله من دائرة " الإقناع السمعي المجرّد " إلى " الإقناع البصري المحسوس ". إن الانتقال الواسع النطاق من عالم المشاهدة إلى عالم القراءة في ميدان المعرفة قد ترك أثره الواسع على متلقي الأدب العربي، وعلى طريقة بناء النص التي يستريح إليها، ومن ثم طريقة الاستدلال التي يوظفها في نقاشه، ثم إن ميدان الإقناع والاستدلال قد وجهت إليه وسائل أخرى، أخذت من الإعلام والإقناع فنا وعلماء.

" إن استثمار معطيات العلم، التداخل بين الفنون والآداب، وامتداد بحوث اللغات والآداب إلى أفاق لم تكن تمس من قبل، كل ذلك خلق متلقيا من نمط جديد، لا بد أن يجرب معه البلاغي الجديد وسائل في الاستدلال والمحاكاة طيبة متطورة محافظة على توازنها، بين وظيفة البلاغة القديمة في الإقناع وبين روح الأدب في مخاطبة مزيج الذوق والوجدان والعقل، وبين روح العصر في زوبان كثير من الحدود الصارمة بين الآداب والفنون والعلوم الإنسانية والتقدم العلمي"¹.

¹ - المرجع نفسه، ص 15

3- تطور البلاغة العربية

لقد نشأ في آخر القرن الأول و أوائل القرن الثاني في البصرة والكوفة جماعة من المتكلمين كانت غايتهم الدفاع بالمنطق عن الدين.

إن هؤلاء الفلاسفة الإسلاميين أو المتكلمين سموا " بأهل النظر " واستخدموا الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطوطالي في ترتيب الأفكار للدفاع عن عقائدهم بصورة منطقية منظمة، و وظفوا اللغة العربية وسيلة لذلك، فقرأوا الأدب شعرا ونثرا. ويشير الجاحظ إلى أن المتكلمين من المعتزلة هم أكثر الناس حفظا للشعر العربي.¹

وكان الجدل محتدما بين المتكلمين وخصومهم، بل وبين المتكلمين أنفسهم . فكانوا يفكرون في كيفية الوصول إلى قلب السامع، ومن هنا بدأوا يفكرون في البلاغة وفي مناسبة المقال للمقام؛ وأخذوا يوسعون القول في كلمة " اللفظة " التي هي إحدى أركان البيان في علم الكلام.

من هنا بدأت البلاغة تتكون، حيث أخذ المتكلمون وخاصة المعتزلة، ومنهم الجاحظ، في النظر في نوع الألفاظ التي يختارها المتكلم حين يخوض مع العامة، ونوع الألفاظ التي يستخدمها حين يخوض مع أهل النظر في علم الكلام أو علم المنطق. ومن هنا نظروا، لكونهم فلاسفة عقليين منطقيين، في ما يلائم اللفظ من معنى والتفريق بين اللفظ الحقيقي واللفظ المجازي.

فالبلاغة نشأت أول الأمر في أحضان علم الكلام وعنه انشقت ورعاها المتكلمون. والجاحظ يعتبر المؤسس بحق لعلم البلاغة لأنه لم يكن جماعا لأراء أصحاب البلاغة في عصره بل كان ناقدا لها، وقد جاء ببعض الردود، بالإضافة إلى أنه ذو آراء قد تكون جديدة بالنسبة إلى علم ناشئ.

والجاحظ وإن لم يؤلف كتابا خاصا في مواضيع البلاغة ولم يقصره عليها ولكنه في آرائه المتفرقة في " البيان والتبيين " و " الحيوان " يعتبر رئيس هؤلاء البلاغيين.

¹ - الحيوان، ج 6. ص 405

وإن كانت نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطورت بعده، غير أنها دراسة متأخرة في نشأتها، باعتبارها علما مدروسا.

اعتمدت الحياة على القرآن كتاب الإسلام، فكان مصدر التشريع، وأساس الأخلاق . مما أدى إلى أن التزم أصحاب الدراسات الدينية بحث أسلوب القرآن ، وطرق فهمه في القول، فكانت لعلماء أصول الفقه مثلا أبحاث بلاغية تحتل المقدمة اللغوية لعلم الأصول . وحين امتد الفتح الإسلامي وبسطت الدولة جناحيها من حدود الصين إلى شاطئ الأطلنطي استظل بها أخلاط من صنوف البشر، قويت حاجتهم إلى دراسة اللغة العربية والتفوق في أدبها ليظفروا بولاية أعمال الدولة . وقد كان للكتاب بمؤلفاتهم أثر واضح في حياة البلاغة حيث قدموا لدراسة البلاغة العربية خدمات جليلة.

"... في وادي الأدب العربي نهيرات تتبع من بيئات مختلفة، من البيئة الدينية : كلامية وأصولية؛ ومن البيئة الأدبية : بيئة الكتاب، وبيئة الشعراء؛ وبيئة الرواة وأهل اللغة. وتلتقي هذه النهيرات جميعا في نقطة واحدة، هي معرفة طرق إدراك جيد الكلام، وكيف يكون التفريق بين كلام جيد، وآخر رديء. أو الاقتدار على صنع كلام جيد"¹ .

وحيث نبحت عن مولد البلاغة ونشأتها، يسير بنا البحث في اتجاهين : الشعر والقرآن. وإن كان الشعر العربي أقدم في وجوده وأسبق، فالكلام عن القضايا التي طرحها القرآن أولى؛ وذلك لسببين : الأول، لأن الأمة العربية قبل الإسلام كانت أمة أمية على وجه الإجمال ولم تكن وثيقة الصلة بالبحث العلمي واللغوي . والثاني، لأن البحث في القرآن كان هو الدافع للبحث في الشعر واللغة على حد سواء . حينئذ، يعود للقرآن فضل تكوين العقل العلمي عند العرب والمسلمين، وتسيير الجهد العلمي والبحث الأصولي.

إضافة إلى أثر الإشكاليات التي طرحها أهل المذاهب والفرق في تقوية الدرس اللغوي وتعميقه، حظيت الدراسات الأدبية والبلاغية من جراء كل هذا بنصيب وافر من النظر والعناية، لا سيما أن القاسم المشترك بين الدرس القرآني والدرس الأدبي كان يقوم

¹ - مصطفى الصاوي الجويني : البيان فن الصورة. ص 10

على محور واحد هو محور اللغة . وقد أدى هذا الأمر إلى تكوين نقاد الأدب، اختصوا به وعملوا على وضع أسس لدرسه، ومعايير لنقده.

وهكذا، إن البحث اللغوي عند السلف، بمعناه العلمي، قد ابتدأ بدراسة الإعجاز في القرآن، إذ تداخل الشاغل الديني بالشاغل اللغوي . وقد أجرى الباحثون مقارنات بين لغة القرآن وغيره، ودرسوه من حيث هو نص لغوي لاكتشاف سر الإعجاز فيه، فدرس غريب لفظه، كما درس تركيبه، ومجازه، وطرق تصرفه في الكلام.

وباختصار، فقد وقفوا فيه على مسائل ليست من خصوصيات الأدب – لأن القرآن كما جزموا القول فيه ليس نصا أدبيا – ولكنها من خصوصيات " الأدبية " كما نقول اليوم. وهذا يعني أنهم وقفوا فيه على أمور تجعل منه كلاما يوازي كلام العرب ويفارقه في الوقت نفسه.

ولقد كان هذا التوجه إيذانا مبكرا لإرساء بعض القواعد المنهجية لعدد من الدراسات التي اتصلت العلوم اللسانية بها حديثا فقط وهي : الدراسات الأسلوبية والمقارنة، والدراسات النقدية أو ما يسمى " لسانيات النص، وعلم الدلالة، والتداولية، وعلم الإشارة ".

وابتداء من القرن الثا ني الهجري حاول النقاد والأدباء والكتاب فهم أسرار البيان و وضع أصول موجزة تحدد آراءهم في جمال الأسلوب، وقد جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى.

وأهم ما ألف في هذا الطور "البيان والتبيين" للجاحظ¹، الذي قد تعرض لتحديد البلاغة والبيان وما حولهما من آراء كانت ذائعة في عصره، وفيه كثير من بحوث البيان وأصوله التي كانت ذات أثر كبير في نشأة البيان وكانت سببا في أن يعد الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان.

¹ - نحو بلاغة جديدة. ص 4

ويبدأ التدوين في صميم البيان بتأليف ابن المعتز (247-296 هـ) كتابه

" البديع " عام 274 هـ الذي تناول فيه ألوان علم البيان والبديع.

وبعد ذلك ظهر كتابا "نقد الشعر" و " نقد النثر" لقدماء الذي عبر فيهما عن ذوقه

العربي وثقافته اليونانية معا.

أما كتاب الصناعتين لأبي هلال (ت 395 هـ) ففيه تحديد للبلاغة والبيان ، وقد

تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدماء إلى حد بعيد.

وجاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربية (ت 471 هـ)

فألف في البلاغة كتابين:

- **أسرار البلاغة** ، وفيه دراسات تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة،

وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.

- **دلائل الإعجاز** ، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني . كما أنه تحدث فيه عن

الكناية والتمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات . وهذه البحوث كلها هي عنده علم البيان .

وقد سلك في هذين الأثرين الأسلوب التعليمي والمنهجي، وأسلوب التعليل في تبيان سر

معاني النصوص. حتى أصبح عبد القاهر الجرجاني يعد إمام البلاغة العربية، وهو بهذين

الكتابين أول واضع لعلم البلاغة العربية وشارح لمسائلها ومبتكر لمسائلها .بالإضافة إلى

كونه أديب متذوقا، وناقدا يتعمق في فهم النصوص ويجيد تحليلها ودراستها والموازنة

بينها، من أجل الكشف عن الأسرار والخصائص والأسباب.

ولا يزال هذان الكتابان عمدة الباحثين في البيان العربي حتى الآن، وهما أهم مصدر

للسكاكي في كتابه المفتاح.

وقد درس السكاكي، (و هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، المتوفى

عام 626 هـ)، المنطق والفلسفة واللغة دراسة واسعة وألف كتابه "المفتاح" في شتى علوم

العربية وخص البلاغة بالقسم الثالث منه، وصاغ خلاصات لعلوم النحو والصرف

والبلاغة والمنطق والعروض والقافية. وهو أول من قسم علم البلاغة إلى ثلاثة علوم: علم

المعاني، علم البيان، علم البديع.

وهو أكثر ميلا إلى المنطق، وأظهر بعدا عن ميدان الأدب والنقد، وقد استفاد من جهود عبد القاهر وسواه من علماء البلاغة السابقين فائدة كبيرة.

وهكذا نشط البحث البلاغي، وتنوعت مصادره، ورحبت آفاقه منذ القرن الثالث الهجري، وحتى القرن الخامس، ثم ركن بعد ذلك إلى الدعة وانتابته نوبة طويلة من الركود، اكتسبت فيه الظواهر البلاغية نوعا من الثبات والجمود على أيدي مدرسة التقعيد والتقنين التي كان رائدها أبو يعقوب السكاكي ومن بعده أصحاب الشروح والحواشي، وتوالت أجيال من الدارسين تتناقل القواعد والأمثلة مع شيء يسير من التغيير في طريقة العرض أحيانا، وإضافة بعض الأمثلة أحيانا أخرى، ودعا بعض المحدثين إلى تجديد الفكر البلاغي لكن دعوته ظلت دعوة نظرية أكثر منها تطبيقية.

من هنا تبرز أهمية مراجعة هذا اللون من التفكير الذي استقرت مباحثه منذ القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا، وهي محاولة تستهدف الإسهام في إحيائه أو دفعه في طريق الدرس الأسلوبى النقدي الحديث، وذلك بتمحيص ما قال السابقون، وتنقية الدرس البلاغي من الأفكار الدخيلة التي أثقلت كاهله، وربطه بأساليب التعبير الأدبية المستحدثة التي لا تحفل بها الدراسات البلاغية التقليدية بل توليها ظهرها¹.

والبلاغة من العلوم العربية التي لم يطرأ عليها تطور يذكر منذ استقرت - أو تجمدت - بشكل نهائي على يد أبي يعقوب السكاكي، فعلم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ظلت على نفس الصورة التي تركها عليها السكاكي ومدرسته . والفنون التي تتدرج تحت كل علم من هذه العلوم لا تزال في مجملها على النحو الذي حددها عليه السكاكي وتلاميذه.

وحتى مناهج البحث البلاغي وأساليبه لا تزال تنهج نفس النهج العقيم الذي استنته السكاكي وسار عليه من بعده تلاميذه.

¹ - البحث البلاغي عند العرب : تأصيل و تقييم. ص 169

وقصارى ما طرأ على البلاغة من تطور في تلك الحقبة الطويلة هو تفريع البديع إلى عدة فنون.

على أن البلاغة العربية قبل أن تصل إلى هذه الصيغة كانت قد قطعت رحلة طويلة دامت أربعة قرون، وتوزعت على عدة مراحل هي:

أولاً : مرحلة النشأة

ثانياً : مرحلة التكامل المشترك

ثالثاً : مرحلة الاستقرار والتفرد

رابعاً: مرحلة الجمود

خامساً: مرحلة العصر الحديث

" ولكن لا بد من الإشارة إلى أنه من الصعب تحديد بدايات تلك المراحل ونهاياتها على نحو حاسم دقيق . فكثيراً ما كانت المراحل تتداخل، فكنا نجد في إحدى المراحل بعض المؤلفات تنتمي في سماتها وخصائصها - أو الكثير منها - إلى مرحلة سابقة، بينما نجد في نفس المرحلة كتاباً رائداً - أو أكثر من كتاب - يبشر بمرحلة مستقبلية. غير أن هذا لا يمنع من التعرف على سمات كل مرحلة من هذه المراحل، من خلال النتائج العلمي الذي يمثلها ويحمل ملامحها، ودراسة الظواهر العلمية التي شاعت في كل مرحلة"¹.

• مرحلة النشأة

نشأت البلاغة - شأن كل علم في بدايته - مجرد أفكار وملاحظات ساذجة متناثرة على هامش العلوم العربية والإسلامية الأخرى التي سبقتها إلى الوجود. وأهم العلوم التي احتضنت البلاغة في نشأتها ثلاث مجموعات من العلوم، هي " العلوم الأدبية "، " العلوم اللغوية " و " العلوم القرآنية ".

¹- علي عشري زايد : البلاغة العربية، تاريخها مصادرنا منهاجها ، ط 2 . القاهرة، مكتبة الشباب، 1994. ص 11 و ما بعدها

مع أن مساهمة " العلوم القرآنية " في نشأة البلاغة العربية كانت بنصيب قد يفوق نصيب مجموعتي " العلوم الأدبية " و " العلوم اللغوية " مجتمعتين.

* العلوم القرآنية :

والمقصود من مصطلح " العلوم القرآنية " هنا مجموعة العلوم التي اهتمت بالنص القرآني الكريم، سواء من ناحية شرحه وتفسيره كعلم التفسير، أو من ناحية بيان وجوه إعجازه كعلم الكلام، والصلة بين علم التفسير والبلاغة واضحة ومنطقية، فالتفسير علم يهتم في مجمله بتحليل النص القرآني من نواحيه اللغوية والبيانية، وتحليل الجانب البلاغي في القرآن مستوى من مستويات التفسير . أما الصلة بين البلاغة وعلم الكلام فتتمثل في نقطتين :

1- قضية الإعجاز القرآني، التي كانت واحدة من أهم القضايا التي عني بها علم الكلام منذ نشأته، وهي قضية بلاغية بمقدار ما كانت قضية كلامية . فقد كان الجانب البلاغي في القرآن الكريم هو أبرز وجوه إعجازه.

2- حرص علماء الكلام أنفسهم على حذق فنون البيان والتمرس بأساليب القول وطرقه حتى يتمكنوا من شرح عقائدهم الكلامية وإيصالها إلى الناس من ناحية، والدفاع عنها ضد هجوم الخصوم من ناحية أخرى، وكل ذلك يقتضي مهارات بلاغية خاصة، حرص زعماء المذاهب الكلامية على توفيرها لأنفسهم ولأتباعهم . على أن صلة البلاغة بالعلوم القرآنية لم تقف ع ند هذه المرحلة من حياة البلاغة العربية، وإنما ظلت العلوم القرآنية تحتضن الدراسات البلاغية في مرحلة نموها أيضا، وكان علماء الدراسات القرآنية في تلك المرحلة بلاغيين بقدر ما كانوا متكلمين أو مفسرين (الرماني والخطابي والباقلاني وابن قتيبة وغيرهم)، وأهم كتب الدراسات القرآنية هي في نفس الوقت من أهم مصادر البلاغة (مجاز القرآن لأبي عبيدة، معاني القرآن للفراء، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة...).

بل إنه من الممكن اعتبار البلاغة ذاتها في تلك المرحلة علما قرانيا، حيث يعرف يحيى بن حمزة العلوي (وهو صاحب "الطراز") البلاغة بأنها: "علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز".¹

* العلوم الأدبية :

تتمحور هذه العلوم حول النص الأدبي، سواء من ناحية تقييمه وتحليل ظواهره الفنية كالنقد الأدبي، أو من ناحية التأريخ له كتاريخ الأدب، أو من ناحية شرحه وتفسيره كعلم الأدب، غير أن تأثير هذه المجموعة من العلوم الأدبية في نشأة البلاغة قد تأخر عن تأثير العلوم القرآنية. ولعل أبرز مظاهر تأثير العلوم الأدبية في تلك المرحلة، تتمثل في "البيان والتبيين" الذي اختلط فيه النقد بالأدب والبلاغة على نحو يعكس طبيعة التأليف العلمي في تلك المرحلة.

وقد احتوى الكتاب على مجموعة من أهم الأصول البلاغية التي قامت عليها دعائم علم البلاغة فيما بعد، والتي جعلت مؤرخي البلاغة يعتبرون الجاحظ واحدا من الآباء الشرعيين الأوائل لعلم البلاغة، على الرغم من أن الكتاب لا يشتمل على نظرية علمية متكاملة، أو حتى على قضايا بلاغية محددة، وإنما هي أفكار بلاغية متناثرة هنا وهناك وسط حشد هائل من النصوص والأخبار الأدبية وتراجم الأدباء، ولكن هذه الآراء المتناثرة كانت هي البذور التي نماها البلاغيون فيما بعد، والأصول الأولى التي شادوا عليها صرح البلاغة العربية.

ومن العلماء الذين احتفظ لنا الجاحظ ببعض آرائهم البلاغية بشر بن المعتمر الذي نقل لنا الجاحظ صحيفته المشهورة² التي اشتملت على عدد من الأفكار والملاحظات البلاغية والنقدية ذات الشأن، كفكرة ضرورة مراعاة مقتضيات الأحوال والمقامات

¹ - يحيى بن حمزة العلوي : الطراز، ج 1. القاهرة، طبعة المقتطف، 1914. ص 13
² - الجاحظ: البيان و التبيين، ج 1. طبعة عبد السلام هارون. ص 135 و ما بعدها

الأدبية، هذه الفكرة التي كانت هي الأساس الذي اعتمد عليه علم اء البلاغة المتأخرون في تحديد مفهوم مصطلح البلاغة، حين عرفوها بأنها "مراعاة الكلام لمقتضى الحال". وقد ظلت العلوم الأدبية تمارس هي الأخرى تأثيرها على البلاغة العربية لفترة طويلة تجاوزت مرحلة النشأة إلى مرحلة النمو، وكان لتلك المعرفة الأدبية الكبرى التي قامت منذ بداية العصر العباسي بين أنصار الجديد - أو ما أطلقوا عليه اسم " البديع " - وأنصار التقاليد المحافظة - التي أطلقوا عليها اسم " عمود الشعر " - كان لهذه المعركة أثرها البالغ في نضج البلاغة العربية ونموها، حيث أسفرت عن مجموعة من المؤلفات الأدبية والنقدية.

* العلوم اللغوية :

كانت علوم اللغة بدورها من مجموعة العلوم التي نشأت البلاغة على هامشها وترعرعت في كنفها، فقد قام اللغويون والرواة بدور هام في طرح القضايا والأفكار البلاغية الأولى. إذا كان الهم الأول لأولئك اللغويين والرواة هو رواية النصوص الشعرية والنثرية، واستنباط القواعد اللغوية منها، فإنهم كانوا يعرضون لبعض الجوانب الأسلوبية والتعبيرية في هذه النصوص، لأن مجرد استخلاص قاعدة لغوية من نص ما يقتضي تحليل البناء اللغوي لهذا النص، وتناول الجوانب الأسلوبية فيه، ومن ثم فقد تناثرت هنا وهناك عبر مؤلفات هؤلاء اللغويين بعض الأفكار والملاحظات البلاغية العامة، التي كانت بمثابة الأصول الأولى التي قام عليها علم البلاغة.

وقد نشأ علم المعاني نشأة لغوية خالصة، بل إنه يعد جزءا من النحو بمعناه الواسع، وهذه حقيقة فطن إليها عبد القاهر الجرجاني أول من أرسى قواعد علم المعاني على نحو متكامل في كتابه " دلائل الإعجاز " حيث يعرف " النظم " - الذي يشمل مباحث علم المعاني و أبوابه - بأنه مراعاة معاني النحو: " لا يفيد الكلام إلا بالتأليف. و في ثبوت هذا

الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، و حصولها على صورة من التأليف مخصوصة، و هذا الحكم – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل ولن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم و تأخير، و تخصيص في ترتيب و تنزيل.

وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدونة، فقول: من حق هذا أن يسبق ذلك، ومن حكم ما هاهنا أن يقع هنالك، كما قيل في المبتدأ أو الخبر والمفعول والفاعل...¹.

أما "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت 210 هـ) فيعرض فيه صاحبه للأساليب الدقيقة في القرآن الكريم ويحللها تحليلا لغويا، ويستشهد لها بمحفوظه الوفير من التراث الشعري والنثري العربي، ومن استعمالات العرب اللغوية . وهو يعرض لسور القرآن بالترتيب فيستخرج من كل سورة ما يعتقد أنه في حاجة إلى تفسير فيفسره، وفي خلال تحليله اللغوي لبعض هذه الأساليب وتفسيره لها تتناثر بعض الأفكار والملاحظات البلاغية هنا وهناك.

وهكذا يعتمد الكتاب على التفسير وعلم اللغة والبلاغة . ويعدده مؤرخو البلاغة أول كتاب وصلنا يحتوي على بعض الإشارات البلاغية المنهجية.

أما مفهوم المجاز عنده فكان أعم بكثير من المدلول الذي حدده البلاغيون المتأخرون للمصطلح ففي تأويله لقوله تعالى : " وأرسلنا السماء عليهم مدرارا " يقول: "مجاز السماء هنا مجاز المطر " ففي الآية بالفعل مجاز في استعمال كلمة سماء بمعنى المطر، وهو ما أطلق عليه "المجاز المرسل" وعرف بأنه الكلام المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة، تفريقا بينه وبين الاستعارة التي تكون العلاقة فيها المشابهة.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ج 1، ط 2، ص 97

لقد درس أبو عبيدة - إضافة إلى المجاز، والتشبيه، والكناية - عددا من الفنون البلاغية الأخرى منها الإيجاز بالحذف . ومن الأساليب البلاغية التي أشار إليها أبو عبيدة وأصبحت فيما بعد من المباحث الأساسية في علم المعاني خروج الاستفهام عن ظاهر معناه إلى أغراض بلاغية أخرى (كالتقرير والإنكار) لمقتضيات بلاغية . وانتبه أيضا إلى أسلوب التقديم والتأخير . ومن الأساليب البلاغية الهامة التي اكتشفها أبو عبيدة ونبه إليها أسلوب "الانقذات" وإن كان لم يطلق عليه هذا الاسم الاصطلاحي ولكنه حدده تحديدا دقيقا، وما زالت الأمثلة التي أشار إليها أبو عبيدة في هذا الموضوع تتردد في كتب البلاغة إلى الآن .

إن جهود أبي عبيدة البلاغية في كتابه "مجاز القرآن" محدودة القيمة العلمية ، ولكنها، سواء من ناحية طرح بعض المصطلحات، أو من ناحية اكتشاف بعض الفنون والأساليب البلاغية، كانت من المحاولات الأولى في تاريخ البلاغة العربية .

مميزات التأليف البلاغي في مرحلة النشأة :

اتسمت الكتابة البلاغية في تلك المرحلة بغياب المنهج العلمي، شأن البلاغة في ذلك شأن العلوم الأخرى في نشأتها .

وأبرز ما يمثل افتقار المؤلفات البلاغية إلى المنهج العلمي أربع سمات أساسية هي:

- عدم التبويب،
- اضطراب مدلولات المصطلحات،
- اختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى،
- عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض .

١- عدم التبويب : لم تعرف المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة التبويب العلمي الدقيق الذي هو أبرز خصائص المنهج العلمي، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد .

وإلى جانب هذا الاستطراد والخروج عن الموضوع الأصلي كان المؤلف يبعثر الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب مما يجهد القارئ في لم شتات تلك الفكرة وجمع أجزائها المتناثرة.

كما كان المؤلف أحيانا يكرر الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب بدون مبرر منهجي واضح.

وأخيرا لم يكن هناك ترابط علمي بين فصول تلك الكتب وأبوابها، مما يفقدها وحدتها العلمية.

وكانت ظاهرة عدم التبويب العلمي أكثر بروزا في مؤلفات الجاحظ.

ب- اضطراب مدلول المصطلحات : تردد في كتب هذه المرحلة مصطلحات "بلاغة" و"فصاحة" و"بديع" و"مجاز" و"تشبيه" و"استعارة" و"إيجاز" و"إطناب".

ولكن المؤلفين لم يكونوا يستخدمون تلك المصطلحات بمدلولات علمية خاصة، على نحو ما تحدد لها فيما بعد من مدلولات، وإنما كانت تدور في مؤلفاتهم بمدلولات عامة أقرب ما تكون إلى دلالتها اللغوية الوضعية.

" ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة، ولكنه لم يعرفه أو يشر إلى فنونه، بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقا".¹

فهو يذهب إلى أن "البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت كل لسان"².

وهكذا نجد الجاحظ يحصر البديع في نطاق الشعر الجديد الطريف، وإن كان لم يحدد خصائص هذا البديع و حدوده، ولم يضع مفهوما واضحا محددًا للمصطلح.

1 _ د. أحمد مطلوب : مصطلحات بلاغية . ص 82

2 _ البيان و التبيين . ج 4 . ص 55-56

ج- اختلاط القضايا البلاغية بقضايا العلوم الأخرى : ساعد على بروز هذه السمة في

مؤلفات تلك المرحلة عاملان بارزان:

أولهما: أن العلوم العربية والإسلامية التي نشأت البلاغة على هامشها لم تكن هي ذاتها قد تبلورت لها معالم واضحة محددة . فقد تداخلت حدود هذه العلوم وتشابكت إلى الحد الذي يندر معه العثور على كتاب خالص لعلم من العلوم في تلك المرحلة (كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة مثلا، يعده علماء التفسير كتاب تفسير، ويعده اللغويون كتاب لغة، ويعده

مؤرخو البلاغة كتاب بلاغة).

ثانيهما: أن علماء تلك المرحلة كانوا علماء موسوعيين . الأمر الذي ترتب عليه عدم

وجود المؤلف المتخصص في البلاغة - أو في أي علم من العلوم - فكان المؤلف البلاغي مثلا متكلمًا، أو ناقداً، أو لغويًا ... (كان الجاحظ أديبا ومؤرخا للأدب وناقدا ومتكلمًا تنسب إليه فرقة من فرق المعتزلة هي فرقة الجاحظية).

د- عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة : تصنيف علوم البلاغة الثلاثة إلى ثلاث مجموعات

يمثل كل منها فرعًا من فروع البلاغة الثلاثة قضية لم تطرح في مؤلفات هذه المرحلة على أي نحو . فلم يكن هناك أي فصل بين الفنون التي نهض عليها فيما بعد علم البيان - مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وقد أشار إليها جميعا علماء تلك المرحلة - وهذه التي أصبحت ركائز علم المعاني - كالإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، وخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى والتي صنفت في المرحلة الثالثة من البلاغة تحت علم البديع.

• مرحلة التكامل

أصبح الامتزاج في هذه المرحلة متكافئًا متعادلاً، تتجاوز في إطاره الفصول والأبواب المخصصة للقضايا والمباحث البلاغية مع الفصول والأبواب المخصصة لقضايا العلوم الأخرى ومباحثها في مؤلفات تلك المرحلة.

دور علم الكلام قد صار أكثر وضوحاً وأهمية حيث أصبح واحداً من العلوم التي تمتاز قضاياها بقضايا البلاغة، إلى الحد الذي يمكن معه اعتبار هذه المؤلفات كتباً بلاغية بنفس القدر الذي يمكن اعتبارها به كتباً كلامية، بل إن الجانب البلاغي في بعض هذه المؤلفات قد طغى على الجانب الكلامي بحيث أصبحت تلك المؤلفات كتباً بلاغية أكثر منها كلامية.

فكتاب " النكت في إعجاز القرآن " لأبي الحسن الرماني، يعد من الكتب الرائدة حول قضية الإعجاز القرآني، وهو في الوقت ذاته واحد من المصادر الأساسية الأولى في البلاغة العربية.

وعمق تأثير هذه الرسالة على مسار التأليف البلاغي والنقدي يظهر في عدد البلاغيين والنقاد الكبار الذين نقلوا كثيرًا من آراء الرماني ونظراته البلاغية والنقدية في هذه الرسالة، حتى إن بعضهم نقل أبواباً برمتها من النكت، كأبي هلال العسكري الذي نقل في كتابه " الصناعتين " ذلك الباب القيم الذي كتبه الرماني عن التشبيه في " النكت " نقلًا يكاد يكون حرفياً، دون أن يشير إلى الرماني.

وممن تأثروا بآراء الرماني البلاغية والنقدية في " النكت " الخطابي في " بيان إعجاز القرآن " والباقلاني في " إعجاز القرآن " وابن سنان الخفاجي في " سر الفصاحة " وابن رشيق في " العمدة " وابن أبي الأصعب في " بديع القرآن " وغيرهم من علماء البلاغة والنقد والكلام. إن نظرة الرماني النقدية الثاقبة لماهية الصورة البلاغية تلتقي بأحدث ما وصل إليه

النقد الحديث من نظريات في هذا المجال؛ فهو يرى أن الصورة البلاغية تتألف من عنصرين متكاملين لا غنى لأحدهما عن الآخر، هما للصورة بمثابة وجهي العملة، وهذان العنصران هما : الوظيفة التعبيرية للصورة، والقيمة الجمالية لها، وأية صورة بلاغية تفتقر إلى هذين العنصرين أو أحدهما يعتبرها خارجة عن نطاق البلاغة.

ويختار الرماني للبلاغة مفهوماً، وهو " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ". فالشطر الأول من التعريف يعكس اهتمامه بالوظيفة التعبيرية للصورة (دورها الدلالي أو التعبيري)، أما الشطر الثاني من التعريف فيعكس اهتمام الرماني بالقيمة الجمالية للصورة.

ويحصر الرماني البلاغة - باعتبارها من أبرز وجوه الإعجاز - في عشرة أبواب هي: الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة، حسن البيان.

في الباب الذي عقده للإيجاز في القرآن تحدث عن نوعي الإيجاز المعروفين وهما: إيجاز الحذف وإيجاز القصر، محللا نماذج لكل نوع من هذين النوعين ومبيناً ما فيها من بلاغة. ومن آرائه البارعة في هذا المجال تعليقه لبلاغة الحذف ببعض أجوبة الشرط في القرآن الكريم إذ يلتقي ونظرة النقد الحديث إلى بلاغة أسلوب الحذف والإضمار، وقدرة هذا الأسلوب على الإيحاء الرحيب اللامحدود، ودوره في تنشيط خيال المتلقي ودفعه إلى الإسهام في إبداع العمل الفني مع الأديب . وهو يرى أن الحذف قد يصير أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان. وهذا التعليق نفسه هو الذي اقتبسه الخطابي وعلل به بلاغة أسلوب الحذف في بعض أجوبة الشرط في القرآن الكريم.

فالرماني يركز على الوظيفة التعبيرية لإيجاز الحذف، ولبيان بلاغة الحذف يعتمد على القيمة الجمالية في تفضيله لآيات القرآن الكريم على بلاغة البشر، لأنها تتوافر على الإيجاز والسلامة من التكرار وتلاؤم الحروف وحسن تألفها.

أما في تفرقة بين الإطناب والتطويل فإن الرماني يعتمد على الوظيفة التعبيرية والقيمة الجمالية كليهما، فهو بعد أن يعتبر الإطناب بلاغة والتطويل عيا، معتمداً على الوظيفة التعبيرية للإطناب يعود فيعبر عن إحساسه بالقيمة الجمالية للإطناب في صورة تشبيهية بارعة، حيث يشبه الذي يقع في التطويل بمن يسلك إلى غايته طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب، أما الذي يستخدم أسلوب الإطناب فهو يـستخدم إلى غايته طريقاً بعيداً لا جهلاً منه بالطريق القريب، وإنما لأن سيره في هذا الطريق الطويل يحقق له متعة إضافية لما فيه من مناظر جميلة ونزهة للنفس.

أما في معالجة التشبيه فإن الرماني يوجه جل اهتمامه إلى الوظيفة التعبيرية للتشبيه في القرآن الكريم، فلا يهتم كثيراً بذلك الحديث العقيم الذي تحفل به كتب البلاغة عن

أركان التشبيه وأقسامه وأنواعه، وإنما يهتم في الدرجة الأولى بالوظائف التعبيرية للتشبيه التي تظهر في:

- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه.

- إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به.

- إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها.

- إخراج ما ليس له قوة في الصفة إلى ما له قوة فيها.

وفي حديثه عن الاستعارة يركز الرماني أيضا على وظيفتها التعبيرية حيث يرى أن كل استعارة توجب بلاغة بيان لا تتوب مناباة الحقيقة في هذا السياق، أي أن كل استعارة تؤدي وظيفة دلالية لا تؤديها الحقيقة في نفس السياق.

ففي تحليله لقوله تعالى: " واشتعل الرأس شيبا " يذكر أن أصل الاشتعال للنار وليس للشيب، وأنه مستعمل هنا بمعنى كثرة الشيب وانتشاره، إضافة إلى التزايد السريع للانتشار وصعوبة تلافيه.

أما الجوانب النظرية للاستعارة، أي الجوانب التقليدية التي يشغل البلاغيون أنفسهم بها عادة، كأركانها وبيان العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، إلى الحديث عن القرينة المانعة من إيراد المعنى الحقيقي، فإن الرماني لا يوليها كبير اهتمام ويوجه جل اهتمامه إلى بيان الوظيفة التعبيرية للاستعارة وتحليل البناء الفني لبعض الاستعارات القرآنية.

ومن جهة أخرى، يؤثر الرماني مصطلح " الفواصل " تعبيرا عن توافق رؤوس الأبي عن مصطلح "السجع"، وذلك لأن السجع لا يقوم دائما بوظيفة تعبيرية في الكلام، بل كثيرا ما يكون المعنى تابعا للسجع بدل أن يكون السجع تابعا له، أما في الفواصل فإنها دائما تكون تابعة للمعنى حيث يقتضيها المعنى ويستلزمها، أي أنها موظفة توظيفا تعبيريا في القرآن، وهذه نظرة بالغة النفاذ والتطور إلى قضية المحسنات البديعية التي لا يمكن أن تكون لها قيمة بلاغية في ذاتها، بل لابد أن يكون لها دور في أداء المعنى وإلا كانت عيبا وليست بلاغة.

ويتضح لنا مدى تقدمية نظرة الرماني إذا ما قارناها بالنظرة التي سادت في عصور التخلف البلاغي إلى المحسنات البديعية باعتبارها قيمة في ذاتها، تلك النظرة التي جنت على البلاغة وعلى الأدب كليهما أكبر جنافية.

وبهذه الرؤية النقدية الثاقبة ترك الرماني أثره العميق في مسار التأليف البلاغي والنقدي، وبهذه النظرات النافذة في ماهية الصورة البلاغية وضع أساسا ومهد طريقا لدراسة الصورة البلاغية.

ولقد نما دور العلوم اللغوية والأدبية في المرحلة الثانية، وظلت بنفس القدر الذي نما به دور العلوم القرآنية، وإن العلوم اللغوية في تلك المرحلة تمارس في ظل القرآن الكريم، والقضايا التي كان يثيرها . وأصبحت هذه القضايا مباحث متكاملة تحتل أبوابا وفصولا مستقلة في مؤلفات هذه المرحلة.

" كما اهتمت هذه المرحلة برصد الظواهر والفنون والأنماط البديعية والبيانية، ولم تنتمي فنون البلاغة بعضها عن البعض، حيث درج كثير من الباحثين في ميدان الدراسة البلاغية على إطلاق مصطلحي : البيان والبديع مرادفين للبلاغة " ¹.
ومن أهم إنتاج هذه المرحلة كتابان : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ونقد الشعر لقدامة بن جعفر.

فكتاب: " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) يحمل بعض سمات المرحلة الثانية.

وفي هذا المؤلف يزداد البحث البلاغي والبحث اللغوي كلاهما تبلورا ونضجا؛ فالأفكار البلاغية واللغوية المتناثرة في مؤلفات المرحلة الأولى وكتبها اللغوية تصبح أبوابا وفصولا مستقلة في " تأويل مشكل القرآن "، والملاحظات العابرة السريعة هناك تصبح وقفات علمية متأنية هنا، تبحث وتحلل وتعلل، والآراء المبعثرة تتجمع وتتلاحم لتصبح قضايا علمية.

¹ - سعد سليمان حمودة : البلاغة العربية. ص 260

أصبحت ملاحظات أبي عبيدة العابرة عن المجاز والحذف والاختصار ... وغيرها من الفنون البلاغية أبوابا مستقلة في كتاب ابن قتيبة، ولكن مفهوم هذه الفنون لم يتحدد عنده على نحو حاسم.

ولا شك أن اضطراب مدلولات المصطلحات في كتاب ابن قتيبة هو أثر من آثار المرحلة الأولى. كان ابن قتيبة لغويا في الأساس ولم يكن بلاغيا، ولقد كان ذوقه اللغوي كثيرا ما يغلبه حتى في تناوله للقضايا البلاغية، فيحلل الصور البلاغية تحليلا لغويا غافلا الجوانب الجمالية الفنية فيها. لذلك ظل كتابه نموذجا بارزا لدور العلوم اللغوية في تطور البلاغة العربية في هذه المرحلة الثانية.

وكان من الصعب التفريق في كثير من النتائج النقدي والبلاغي في تلك المرحلة بين ما هو مؤلفات نقدية، وما هو مؤلفات بلاغية.

أما " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر (ت 337 هـ) فهذا الكتاب من أهم الكتب في تاريخ النقد العربي و البلاغة العربية على السواء. " ترجع أهميته أولا إلى كونه امتزجت فيه قضايا النقد بقضايا البلاغة، إضافة إلى عدة عوامل منها¹ :

- كتاب قدامة يعد من أوضح نماذج تأثير الثقافة اليونانية على النقد و البلاغة العربيين، بعد أن كانت نشأتها في المرحلة السابقة نشأة عربية خالصة على أن تأثر قدامة بالفكر الأرسطي لم يكن مقصورا على الجانب النقدي من هذا الفكر، وإنما شمل معه الجانب المنطقي الذي تمثل في اهتمام قدامة بدقة التعريفات والتقسيمات، وحرصه على أن يكون كل تعريف جامعا مانعا.

- وثاني عوامل أهمية هذا الكتاب أن قدامة قد حشد فيه مجموعة ضخمة من المصطلحات البلاغية و النقدية، التي أصبحت تشكل جزءا هاما من مادة معجم البلاغة العربية، إذ كان يحرص على أن يحدد مفهوم كل مصطلح يستخدمه.

¹ - الدكتور بدوي طبانة: البيان العربي. ص 138

وقد شاعت مصطلحات قدامة في النتاج البلاغي اللاحق له إلى الحد الذي جعل علماء البلاغة اللاحقين يعتبرونه من رواد البلاغة الأول، ويعدونه مع ابن المعتز مؤسسي علم البديع.

- وثالث العوامل - ويعد نتيجة للعاملين السابقين - أن هذا الكتاب من أهم الكتب التي حولت كلا من النقد العربي والبلاغة العربية إلى علم، حيث حاول أن يضع لهما الأساس النظري الدقيق، بعد أن كانا قبله مجرد ملاحظات انطباعية. غير أن محاولة قدامة، بمقدار ما وفرت للبحث البلاغي والنقدي من موضوعية ومنهجية علمية، سلّبت الجانب التذوقي التحليلي، والحاسة الفنية المرهفة التي هي لازمة للبلاغة والنقد الأدبي لزوم الموضوعية العلمية لهما.

- ورابع هذه العوامل أن قدامة قد اكتشف في كتابه هذا مجموعة من الفنون البلاغية التي لم يسبقه أحد إلى اكتشافها، درسها دراسة موضوعية، ولهذا اعتبر مؤرخو البلاغة وعلماءها قدامة واحدا من المخترعين الأوائل لعلم البديع، ووضعوه مع ابن المعتز على صعيد واحد.

ويعتبر قدامة واحدا من الذين أسهموا إسهاما كبيرا في تحديد ملامح البلاغة، و التمهيد لانفصالها عن النقد الأدبي في القرن التالي، فالنزعة التقنيية العقلية لدى قدامة هي أقرب إلى طبيعة البلاغة منها إلى طبيعة النقد الأدبي، ولقد عرض قدامة لمجموعة من الفنون البلاغية التي أصبحت فيما بعد قوام علمي البيان والبديع.

• مرحلة الاستقرار

يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مرحلتين : مرحلة بداية استقرار البلاغة مع ابن المعتز ومرحلة تجمد الهلاغة مع السكاكي.

في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطور التأليف البلاغي استقرت البلاغة العربية على صورتها الأخيرة التي ما تزال عليها إلى اليوم، وتبلورت علما مستقلا له

أصوله وقواعده العلمية الخاصة، وله مباحثه و قضاياها المتميزة، وله في الوقت ذاته كتبه ومؤلفاته المستقلة التي لا يشركه فيها أي علم من العلوم الأخرى .

" وهذه المرحلة هي التي حاول فيها الباحثون الكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي من خلال تحليله وشرحه شرحاً أدبياً، توجه فيه العناية للكشف عن أوجه الجمال في التعبير . وكانت هذه المرحلة من أنصع المراحل التي مر بها التأليف البلاغي حيث كان التعليل لوجوه مواضع الجمال في المثال الأدبي يعتمد على أسس موضوعية من خلال شرح هذا المثال شرحاً أدبياً يكشف عن معانيه و مرامييه و غاياته الإبداعية، ومن ثم الوقوف على الوظيفة التي يؤديها المثال البلاغي في خدمة المعنى العام للسياق. ولعل الدراسات التي قام بها عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" أصدق مثال على ذلك"¹.

يصنف بعض الدارسين الآثار البلاغية و النقدية إلى ثلاث مجموعات²:

الأولى: الدراسات العامة، و هي دراسات لم تحظ الجوانب البلاغية فيها بالاهتمام الأ كبر لدى مؤلفيها، بل كان معظمها مشغولاً بالحديث في نظرية الشعر بوجه عام أو نقده.

الثانية: الدراسات المنهجية التي ارتفعت عن حيز الدراسات الجزئية و الشكلية للشعر إلى دراسة شعر شاعر بعينه أو ظاهرة شعرية معينة، و التي خرجت من نطاق دراسة البيت إلى نطاق دراسة القصيدة، هذا في الشعر، و في دراسات القرآن، خرجت من حيز إبداء الملاحظات العامة إلى مجال دراسة سور بعينها.

الثالثة: الدراسات الموضوعية التي أخلصها مؤلفوها للبحث عن النواحي البلاغية .وقد وصل هذا الاتجاه قمته على يد عبد القاهر ثم على يد الزمخشري من بعده؛ حيث كان "دلائل الإعجاز" منطلقاً في البدء من النصوص القرآنية التي توسع فيها للكشف عن أسرار

¹ - سعد سليمان حمودة : البلاغة العربية. ص 276

² - المرجع نفسه. ص 60

البلاغة فيها فيتابع الظاهرة الواحدة من خلال نصوص متعددة وهو يقلب في ثنايا النصوص حتى يجد هنا أو هناك ملمحا يضاف إلى الظاهرة العامة. وكان عبد القاهر يتناول كل ذلك بما عرف لدى بعض الباحثين، بفقہ النصوص بمعنى أن غايته لم تكن البحث عن القاعدة المجردة بقدر ما كانت تذوق الجمال الكامن في النص.

وبعد كتاب " البديع " لابن المعتز، احتاجت البلاغة لقراءة قرنين آخرين من الزمان لترسخ دعائمها، وتبلغ ذروة نضجها وازدهارها على يد "عبد القاهر الجرجاني" في كتابيه اللذين تكاملت فيهما المباحث البلاغية، و استقرت للبلاغة ملامحها الأخيرة، وبلغت أقصى ما قدر لها أن تبلغه من نضج واكتمال على امتداد تاريخها كله.

ورغم أن مباحث علم البيان، والكثير من مباحث علم المعاني كانت معروفة قبل عبد القاهر إلا أنها لم تتبلور في نظرية بلاغية متكاملة إلا على يد عبد القاهر، ولم تدرس من قبله بالعمق والإحاطة والنضج التي درس عبد القاهر بها هذه القضايا.

" ولقد كان فضل عبد القاهر على علم المعاني أضعاف فضله على علم البيان، لأن معظم فنون البيان كانت مدروسة قبل عبد القاهر بصورة أو ب أخرى، واقتصر دور عبد القاهر على لم شتات ما تبعثر من مباحث هذا العلم و تصنيفه و تبويبه واستكمال ما فات سابقه. وتناول ذلك كله من خلال منهج علمي جديد، وتبلورت على يديه لأول مرة نظرية البيان متكاملة.

أما علم المعاني فقد كانت معظم مباحثه مجهولة قبل عبد القاهر، وما عرف منها كان مبعثرا في ثنايا الكتب، فجاء عبد القاهر وأنشأ معظم مباحث المعاني، وحتى ما كان معروفا من هذه المباحث تناوله تناولا جديدا وكأنه يبدعه لأول مرة، ومن ثم فإنه يمكن القول إن علم المعاني قد نشأ واكتمل على يد عبد القاهر".¹

بقي علم البديع، وكان حظه من اهتمام عبد القاهر محدودا، ولكنه قدم لنا منها فذا في دراسته من خلال تناوله "للتجنيس" و "السجع".

¹ علي عشري زايد : البلاغة العربية. ص 104 و ما بعدها

هذا هو دور عبد القاهر الجرجاني في استقرار البلاغة العربية وازدهارها، و لقد كان عبد القاهر مؤهلاً لأن يقوم بهذا الدور، حيث صبت فيه كل روافد ثقافة عصره، فه و نحوي تتلمذ على كبار النحويين في عصره، ودرس عليهم النحو دراسة بالغة العمق أفاد منها فائدة كبرى في وضع نظريته في النظم التي كانت محور نظريته البلاغية كلها، كما أن له في النحو مؤلفات معروفة، و هو متكلم أشعري استغل كل ثقافته الكلامية المنطقية في وضع نظريته البلاغية في صيغتها العلمية المكتملة.

عبد القاهر ناقد أديب يتمتع بذوق أدبي بالغ الرهافة ساعده على تلمس جوانب الجمال الفني في النص الأدبي، وعلى بلورة هذه الجوانب في نظرية بلاغية بارعة، واللافت للانتباه أنه قد اطلع على طرف من الثقافة اليونانية، سواء عن طريق بعض ترجمات كتابي أرسطو " فن الشعر " و " الخطابة "، أو عن طريق تلخيص بعض الفلاسفة المسلمين - كابن سينا - لخطابة أرسطو.

ورغم الفضل الذي يعترف به الباحثون للجرجاني إلا أن مصطفى الصاوي الجويني يريد " تصحيح ما شاع عن عبد القاهر، فيقول¹:
يسمون فكرته عن " النظم " نظرية، ومن ناحية الشكل، لو كانت كذلك لوجدنا موضوعاتها مثبتة في مكان واحد، أو متقارب في " الدلائل " أو في " الأسرار " لا تفاريق هنا وهناك.

ويقولون إنه مؤسس نظرية في علم المعاني وفي علم البيان . أما في علم المعاني، فلم نجد عنده إلا ستة موضوعات هي : التقديم والتأخير، فرق الخبر، فروق الحال، القصر، الحذف، الفصل والوصل.

ومن حيث علم البيان نجد موضوعاً في " الدلائل " هو: الكناية، وموضوعين في " الأسرار " هما : التشبيه و الاستعارة، والبديع قليل جداً.
يقولون إنه مؤسس علم البلاغة، وهذا تعصب، لأنه مسبق بجهود كثيرة ، شارك فيها المفسرون واللغويون والأدباء والكتاب والكلاميون والنفاد ... الخ.

¹ - مصطفى الصاوي الجويني : المعاني علم الأسلوب. ص 67

إنه ليس مخترعا لفكرة " النظم " فهو مسبق إليها عند الجاحظ والخطابي والباقلاني وغيرهم. بل نجد فكرته عن النظم بشقيها : التركيب الأدبي والتأثير النفسي موجودة عند الخطابي.

إن بدايات التفكير في الكتابة حول مسائل البلاغة بدأت مع السؤال الذي طرح على أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت سنة 206 هـ) حول استخدام القرآن لألوان من التشبيه غير شائعة في مثل قوله تعالى عن نباتات النار " طلعتها كأنه رؤوس الشياطين " وكانت محاولة الإجابة على هذا السؤال هي الدافع وراء تأليف كتاب " المجاز " لأبي عبيدة. لكن هذا الاهتمام بالدراسات البلاغية عند علماء الدين يتزايد وعلى نحو خاص عند علماء الكلام، ومع انقسام هؤلاء العلماء إلى فرقتين كبيرتين هما المعتزلة والأشاعرة يزداد التنافس بينهما و يحاول كل منهما أن يقدم في هذا المجال ما يتفوق به على الفريق الآخر. فقد حاول علماء الكلام أن يجدوا تفسيراً علمياً لسر الإعجاز اللغوي للقرآن. و نادى فريق منهم في البدء بما أسماه بفكرة " الصرفة " ويعنون بها أن الله قد صرف قوى العرب عن أن تتحدى القرآن، أو أن تأتي بمثله، ولم يقبل هذا الرأي من جمهور العلماء لأن قبوله كان معناه الاعتراف بأن القرآن ليس معجزاً في ذاته، وإنما قيد العرب عن أن يأتيوا بمثله.

" أخذ المتكلمون يبحثون عن تفسير آخر للإعجاز القرآني، وفي هذا المجال كتب علي بن عيسى الرماني (ت 386 هـ) كتاباً بعنوان " النكت في إعجاز القرآن الكريم " عرض فيه للجانب البلاغي في الإعجاز، ثم تلاه أبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ) فكتب عن " إعجاز القرآن ". وفيه أيضاً يتعرض للجانب البلاغي من الإعجاز القرآني ويناقش الفرق بين بلاغة البشر المتمثلة في شعرهم ونثرهم وبين بلاغة القرآن . إن البلاغة لدى هؤلاء الذين عرفوا بأنهم أمراء البيان في عصورهم (امرؤ القيس، البحتري، الجاحظ)

إنما هي بلاغة تتفاوت في أجزاء كلامهم قوة وضعفا على عكس بلاغة القرآن التي تظل دائما على درجة من القوة لا تفاوت فيها " ¹

وفي فترة معاصرة للباقلاني يكتب القاضي عبد الجبار وهو أحد أعلام المعتزلة كتابا أيضا عن إعجاز القرآن يهتدي فيه إلى نظرية يطلق عليها نظرية " الضم " وهي واحدة من النظريات التي مهدت لظهور نظرية " النظم " عند عبد القاهر فيما بعد.

ولم تكن دراسات عبد القاهر، وهي تمثل قمة التطور في الدراسات البلاغية القديمة، إلا امتدادا لدراسات علماء الكلام، وقد كان عبد القاهر متكلمًا أشعريًا. على أن هذه الدراسات كانت ذات طابع نظري، تضع الأسس العامة التي يمكن أن يستكشف الإعجاز على أساس منها . وتستشهد بالآيات القرآنية لتوضيح هذه الأسس، ولم تكن قد نمت بعد محاولة تطبيقية متكاملة على القرآن الكريم إ لى أن جاء الزمخشري (538 هـ) وكان بدوره واحدا من علماء الكلام المعتزلة لكنه كان شديد الثقافة والإلمام بما كتبه السابقون عليه من مختلف المذاهب في قضية الإعجاز، وكان معجبا على نحو خاص بما كتبه عبد القاهر الجرجاني، وعلى هذا الأساس شرع في كتابة تفسيره " الكشاف " ليبين جوانب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم من الناحية التطبيقية.

ولم يكن الزمخشري فيما كتب مجرد مفسر يستعين بدراسة البلاغيين بل إنه كان هو نفسه بلاغيا أثر في تاريخ وتطور هذا الفرع، وحتى تقسيم البلاغة إلى فروعها الثلاثة (المعاني البيان البديع) إنما هو تقسيم يرجع إلى الزمخشري نفسه، فهو الذي وضع هذا التقسيم في مقدمة تفسيره واستقر عليه البلاغيون حتى اليوم.

ولقد كانت تطبيقات الزمخشري فرصة طيبة لإظهار الجوانب العملية من تصورات عبد القاهر النظرية في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، بل إن هذه التطبيقات كانت مجالا أتاح للزمخشري أن يضيف من التفاصيل ما لم يذكره عبد القاهر، وأن يضع

¹ - أحمد درويش : النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 143

اللمسات الأخيرة لعلمي البيان والمعاني خاصة وقد استقرا عند البلاغيين من بعده على النحو الذي انتهى إليه عنده.

إن هذه النزعة البلاغية في التفسير القرآني لم تتوقف، بل إنه اظلت موجودة في كل عصر، ولكنها عادت مرة أخرى للظهور بقوة في العصر الحديث، ومعظم التفسيرات الكبرى في القرن العشرين عند الإمام عبده أو الشيخ الجوهري الطنطاوي أو الشيخ سيد قطب أو غيرهم تنزع هذا المنزع البلاغي في فهم أسرار الكتاب الكريم.

• مرحلة الجمود:

ويأتي بعد الزمخشري عصر آخر يخفت معه صوت الابتكار والتجديد في الأدب، ويبدأ الأدباء في تقليد السابقين عليهم ومحاكاتهم، وتضعف نزعة دراسة البلاغة من خلال تحليل النصوص و فقها.

وبدأت تظهر كتب تحاول أن تستخلص القواعد المجردة من كتب عبد القاهر خاصة و تحولها إلى قواعد في أبواب يتم من خلالها استقصاء مسائل العلم وتحديدها وتعريفها.

وكان أول كتاب ألف على هذه الطريقة هو " نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز " للفخر الرازي (ت 606 هـ) وهو محاولة للاختصار الشديد لما كتبه عبد القاهر . ولكي يتم الاختصار في الكتب التي تعنى بتحليل النصوص الأدبية، فإن أكثر مظاهر هذا التحليل لا بد أن يتم الاستغناء عنها ويبقى بعد ذلك ما يشبه الهيكل العظمي لذلك التحليل . وهذا ما فعله الفخر الرازي في كتابه بطريقة تشبه التلخيص المدرسي.

لكن الكتاب الذي ذاعت شهرته كثيرا في مجال القيام بهذا التلخيص ووضع القواعد الثابتة هو كتاب "مفتاح العلوم للسكاكي" (ت 626 هـ) وهذا الكتاب قسمه السكاكي إلى ثلاثة أقسام تحدث في الأول منها عن علم الصرف و ما يتصل به من الاشتقاق وجعل الثاني لعلم النحو، أما الثالث فقد خصه بمباحث علمي المعاني والبيان، وألحق بهما مباحث الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية وعلم العروض، وقد جاء الكتاب دقيقا من حيث

ضبطه للقواعد و إحصاؤها، ولكنه جاء جافا بسبب ولعه بالتحديد والتعريف والمنطق وخلوه من مناقشة النصوص مناقشة أدبية، ولكن هذا المنهج وجد استجابة كبيرة من معاصريه وممن جاء بعده، فقد أغناهم عن أن يرجعوا إلى المصادر الرئيسية اكتفاء بهذا الإجمال. لكن الكتاب استعان بكثير من مقولات المنطق ومقدمات الفلسفة فساعد هذا على إشاعة لون من الغموض فيه.

وقد هدت السكاكي عقليته المنطقية المنظمة إلى محاولة تقنين البلاغة العربية وتبويبها، وإخضاعها للتقعيد، ولكن محاولته ك انت من الدقة والصرامة بحيث تحولت بالبلاغة إلى مجموعة من القوانين الجامدة و القواعد الجافة، والتقسيمات الصارمة، التي تشبه إلى حد كبير قواعد النحو والصرف والعروض وتقسيماتها، هذه العلوم التي جمع بينها السكاكي وبين البلاغة في كتابه " المفتاح " .

إن السكاكي لم يستوعب من فكر عبد القاهر البلاغي - الذي تأثر به - إلا الجانب النظري التقني، أما الجانب الذوقي التحليلي فلم يستطع استيعابه والإفادة منه . وصحيح أن السكاكي بلغ ما يريد من تقنين البلاغة وتبويبها تبويبا صارما، ولكنه ضحى في سبيل ذلك بأهم ما يميز البلاغة كعلم جمالي ذوقي في الدرجة الأولى، وظيفته الأولى أن يبحث عن جوانب الجمال الفني في العمل الأدبي قبل أن يبحث عن القاعدة، بل إنه إذا اهتم بالقاعدة فمن أجل المساعدة على الوقوف على هذه الجوانب الفنية.

ومن هنا فقد بدأت دراسة البلاغيين بعد السكاكي تتجه إلى كتاب المفتاح لكي تكتب شروحا عليها، وقد يكتب " الشرح " على الكتاب و يأتي مؤلف ثالث، فيكتب " حاشية " على هذا الشرح، وقد يتبعه مؤلف رابع لكي يكتب " تقريرا " على هذه الحاشية. وهذه الامتدادات كلها ليست استفاضة في شرح النصوص ولكن في شرح القواعد ومداخلها المنطقية، ومن هذه الشروح شروح الشيرازي والترمذي والشريف الجرجاني وغيرهم.

على أن التعليق في كتاب " المفتاح " كان يأخذ في بعض الأحيان اتجاهها آخر، وهو تلخيص الكتاب وتحويله إلى " متن " صغير، وقد يجيء مؤلف آخر فيشرح ذلك المتن، كما حدث مثلاً في كتاب الخطيب القزويني المسمى " كتاب الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح " في علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فالقزويني كما يذكر في مقدمة الكتاب كان قد ألف هو نفسه " مختصراً " للمفتاح، ثم ألف إيضاحاً "لذلك المختصر".

وحول كتاب المفتاح للسكاكي وشروحه تجمد التأليف البلاغي منذ ال قرن السابع الهجري، واستمر كذلك طوال فترة " العصور الوسطى " حيث لم يكن يعنى في مجال علمي المعاني و البيان إلا بهذا الكتاب و الكتب الدائرة حوله.

أما علم البديع الذي اهتم بحصر المحسنات البديعية التي تجيء في الكلام، فقد أخذ بدوره اتجاهها موازياً لعلمي المعاني والبيان وإن كان متميزاً بشكل خاص . ذلك أن استخدام المحسنات البديعية في الشعر بل و الإفراط في استخدامها كان سمة من سمات الشعر في ذلك العصر، ومن هنا فقد بدأ الاهتمام يتزايد بجمع هذه المحسنات ؛ وإن نبيه الجرجاني قائلاً: " ولن تجد ... أجلب للاستحسان من أن ترسل ا لمعاني على سجيبتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها، فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم"¹.

وفي الوقت الذي كان فيه ابن المعتز في كتابه البديع قد أحصى نحو ثمانية عشر نوعاً من المحسنات، فإن ابن أبي الأصبغ المصري في القرن السابع يحصي من هذه المحسنات أكثر من مائة وعشرين محسناً.

وشاع لون إحصاء البديع : " البديعيات " وهي قصائد في المديح ا لنبوي حيث يضمن الشاعر كل بيت منها محسناً بديعياً مختلفاً، حتى يصل عدد الأبيات إلى مائة بيت مثلاً، ويكون بها مائة محسن بديعي مختلف.

¹ - المرجع نفسه، ص 106

وهكذا قدر لعلوم البلاغة منذ القرن السابع الهجري حتى فترة الإحياء الحديثة أن تتحول إلى دراسة أقرب ما تكون إلى شكل الدراسات النحوية تساق فيها القاعدة والشاهد الذي لا يغير عادة، وحين يكتفي الدارس باستيعاب القاعدة واستظهار الشاهد فإن ذلك لا يعينه في الغالب على قراءة نص أدبي وتذوقه.

وعلى الرغم من أن بداية استقلال البلاغة العربية واستقرارها تعود إلى أواخر القرن الثالث الهجري ، فإنها احتلجت إلى قرنين من الزمان لتبلغ قمة نضجها وازدهارها على يد عبد القاهر الجرجاني ، حيث استوت - في القرن السابع- علما له أصوله وحدوده وفروعه على النحو الذي أبان عنه السكاكي في " المفتاح " .

وهكذا لم تلبث البلاغة أن انتكست في بداية القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي . ولم تعرف الفترة التي فصلت بين عبد القاهر والسكاكي عملا بلاغيا يضارع في نضجه و عمقه كتابي عبد القاهر العظيمين .

4 - التأليف البلاغي

عرفت البلاغة العربية على امتداد تاريخها مجموعة من مناهج البحث أو مناهج التأليف، وقد تقاسم المؤلفات البلاغية منهجان متقابلان من مناهج البحث البلاغي، يبرز أولهما في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني ومن نهج نهجه، بينما يتضح الثاني في مؤلفات السكاكي و مدرسته البلاغية . وكان قد سبق هذين المنهجين منهجان آخران في التأليف البلاغي تحددت صورتها النهائية في المرحلة الثانية، وإن لم يكونا في إحكام المنجيين الآخرين.

وهكذا عرفت البلاغة العربية أربع مناهج أساسية في التأليف البلاغي هي:

المنهج التجميعي

المنهج الانطباعي

المنهج التحليلي الفني

المنهج التقني المنطقي

• المنهج التجميعي

يعمل هذا المنهج على تجميع مجموعة من الأمثلة تجسد فنون البلاغة المختلفة وتصنيفها حسب هذه الفنون دون دراسة أو تحليل، وأحيانا أخرى كان يتتبع أمثلة فن بلاغي معين في القرآن الكريم و يجمعها، وأحيانا ثالثة كان يجمع آراء البلاغيين السابقين ويووبها.

وهكذا كان منحنى هذا المنهج هو تجميع المادة البلاغية وتبويبها على نحو خاص.

ويمكن أن نميز بين ثلاث صور أساسية من صور تبويب المادة البلاغية:

- الصورة الأولى: تجميع أمثلة فن بلاغي أو أكثر في القرآن الكريم . يعكس هذه الصورة أبو عبيدة في " مجاز القرآن "، ثم الشريف الرضي (ت 406 هـ) في كتابه " تلخيص البيان في مجاز القرآن " حيث رتب أمثلة المجاز في القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف الشريف.

- الصورة الثانية: الدراسة بالتمثيل تعرض الفنون البلاغية المختلفة حيث يعرف كل فن ويمثل له بمجموعة من الأمثلة الشعرية والنثرية دون دراسة أو تحليل . ويمثل هذه الصورة كتاب " البديع " لابن المعتز.

- الصورة الثالثة : تجميع الآراء البلاغية . تقوم هذه الكتب أساسا على تجميع آراء السابقين البلاغية وتبويبها على نحو ما، وقد يضيف المؤلف إليها أو يعدل في بعضها . وأحسن مثال على هذه الصورة كتاب " الصناعتين " لأبي هلال العسكري الذي كان يذكر فيه الشاهد الأدبي، ثم يشرحه أو ينقده.

كان منهج كتابه كله يقوم على النقل والتبويب حتى قال فيه الدكتور إحسان عباس: " صورة عجيبة لعدم الاستقلال بأي رأي ذاتي، وليس لأبي هلال فيه إلا تنسيق المادة، وترتيبها في فصول، والاستكثار من الأمثلة".¹

¹ - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص 355

إلا أن قيمة هذا الكتاب، إذ ا ما وضعناه في إطاره التاريخي، تظل قيمة بالغة في تاريخ البلاغة العربية لأنه جمع قضايا البلاغة والنقد المبعثرة في الكتب والمؤلفات، ثم بوبها وصنفها.

• المنهج الانطباعي

يعتمد على الذوق الخالص في التأليف البلاغي، وتتسم الأحكام الصادرة في إطاره بالعاطفية والعموم والافتقار إلى التبرير العلمي، وعدم الاتكاء على نظرية بلاغية محددة. شاعت ملامح هذا المنهج إلى جانب مناهج أخرى، وخاصة المنهج التجميعي. قام هذا المنهج على استحسان صورة بلاغية أو استهجان أخرى، أو تفضيل بيت على بيت آخر، وهي أحكام عاطفية متحاملة.

والمثال الواضح لهذه الأحكام الانطباعية يظهر في كتب الجاحظ متمثلا في حماسه الشديد للعروبة واللغة العربية (هو القائل " البديع مقصور على العرب "). ولا يعني هذا أن الجاحظ كان ناقدا أو بلاغيا انطباعيا فهو لم يكن ملتزما هذا المنهج دائما.

وقد نضج هذا المنهج وتبلورت ملامحه في بعض المؤلفات مثل كتاب " الموازنة " للآمدي الذي كانت درجته و تمرسه بفنون النقد ورهافة ذوقه قد أكسبت آراءه في كثير من الأحيان قيمة نقدية كبيرة.

• المنهج التحليلي الفني

يعد هذا المنهج أنضج مناهج التأليف البلاغي، في إطاره تتأزر القاعدة والتحليل الفني تآزرا كاملا، فالتحليل الفني للنص هو السبيل إلى استخلاص القاعدة، التي لا تفرض فرضا منذ البداية؛ ثم يبحث بعد ذلك عن النص "الشاهد" عليها. فالنص هو مصدر القاعدة ومنبع النظرية.

بلغ هذا المنهج ذروة اكتماله في كتابي عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز"
و"أسرار البلاغة".

ومن كتاب هذا المنهج، أبو الحسن الرماني في "النكت في إعجاز القرآن" وأبو
بكر الباقلاني في "إعجاز القرآن" وإن لم يكن تحليلهما في عمق تحليلات عبد القاهر.
وعبد القاهر ينطلق في بحثه البلاغي من مقولة يمكن أن نعتبرها مقولة معاصرة
وهي أن النص الأدبي ه و تشكيل لغوي، أو بناء لغوي في الدرجة الأولى، وأن علينا أن
ننشد أسرار جماله الفني في تحليل بنائه اللغوي وهذه المقولة هي ما عرف في فكر عبد
القاهر البلاغي باسم "نظرية النظم".

• المنهج التقني المنطقي

يطغى في هذا المنهج القانون على الحس الفني، وتلغى النظرية التحليلية، ويتسم
بإهمال النص الأدبي كمنبع أساسي لاستخلاص النظرية الأدبية و تطبيقها.
ويعتبر هذا المنهج أكثر المناهج الأربعة دقة و إحكاما حيث لا يترك مجالاً لغير
العقل والمنطق في البحث والمعالجة العلمية.
ويتضح ذلك في التركيز على التعريفات الجامعة المانعة، والحرص على التقسيم
المنطقي العقلي و استيفاء الأقسام، والشغف بالتعريفات والتشعيبات الكثيرة للموضوع
الواحد، و إقحام مباحث منطقية خالصة على البحث البلاغي.
وأبرز مثال على هذا المنهج مؤلفات أبي يعقوب السكاكي وشارحي مفتاحه، وإن
كنا نجد بداياته الأولى في كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر، الذي لم يسرف في هذا
الاتجاه إسراف السكاكي ومدرسته، حيث نجد للنص الأدبي مكانة في كتاب قدامة، فهو
حريص على الأمثلة الشعرية، وعلى تحليل بعض الأمثلة تحليلاً بلاغياً ونقدياً.
ولكن البلاغة في إطار هذا المنهج قد تحددت لها مباحثها الأساسية على نحو من
الإحكام والدقة والتنظيم لم تعرفه قبل السكاكي، الذي جمع شتات هذه المباحث وبوبها
تبويباً منهجياً شديداً الصرامة.

يجسد هذا المنهج مؤلفات السكاكي ومدرسته في أوضح صورته. فالقسم الثالث من " المفتاح " حول البلاغة إلى علم تعديدي جاف ينهض على مجموعة من القواعد التي تحفظ وتستظهر، أما القيم الجمالية في الفن البلاغي، ووظيفة هذه القيم في إيصال المعنى إلى المتلقي فلم يكن لها كبير اعتبار عند صاحب " المفتاح " ومدرسته من بعده. تأثر السكاكي بآثار عبد القاهر الجرجاني، ولكنه جرد هذه الآثار من جانبها الفني التحليلي، واهتم بالجانب النظري بعد أن حوله إلى مجموعة من القواعد والقوانين الصارمة.

بعد أن ينتهي السكاكي من تعريف كل علم يأخذ في تقسيمه وتعريف كل قسم، وربما فرع كل قسم إلى فروع جديدة وعرف كل فرع، وفي النهاية يمثل لكل فرع بمثال غالبا ما يكون من عنده.

هذا التقسيم قائم على أساس منطقي ذهني وليس على أساس فني أو اعتبارات بلاغية جمالية.

ثم إن النص لا يحتل من اهتمامه إلا حيزا هامشيا . فاهتمامه الأول موجه إلى القاعدة واستيفاء الأقسام العقلية ثم يأتي بعد ذلك المثال، وهو ليس مثالا شعريا أو نثريا مختارا وإنما هو من صنع السكاكي، فهو بدوره مثال منطقي ذهني سقيم، المهم فيه أن يطابق القاعدة التي وضعها حتى وإن لم يطابق البلاغة . وإلا فأى بليغ يجول في خاطره أن يشبه إنسانا بالفرس¹ أو العكس في الطول، أو أن يشبه إنسانا قصيرا بالطويل ... إن هذه الأمثلة لا يمكن أن تدخل في نطاق البلاغة من الأساس لأنها لا يمكن أن تجري على لسان إنسان بليغ.

يقوم هذا التقسيم على أساس منطقي ذهني، وليس على أساس فني أو اعتبارات بلاغية جمالية فاشترك المشبه مع المشبه به في الصفة أو الحقيقة أو عدم اشتراكه معه فيهما ليس من الاعتبارات الجمالية في شيء ! وثاني ما يلاحظ جفاف الصياغة ومنطقيتها وخلوها من الحس الفني.

¹ - يقول السكاكي : " لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين : مشبها و مشبها به، و اشتراكا بينهما من وجه، و افتراقا من وجه آخر، مثل أن يشتركا في الحقيقة و يختلفا في الصفة أو العكس؛ فالأول كالإنسانين إذا اختلفا صفة طولاً و قصرًا، و الثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنسانا و فرسا ... " المفتاح، ص 177

وحديث السكاكي عن " التجنيس " مثل واضح لاصطناع المنهج المنطقي في البحث البلاغي بكل سماته : الاهتمام أولاً بالقاعدة والتعريف والتقسيم والإسراف في التفريع والتشقيق والتسميات؛ فكثير من الأقسام التي ذكرها متداخلة، ومن الممكن دمج بعضها في بعض، و الاكتفاء بقسمين أساسيين أو ثلاثة تندمج فيهما بقية الأقسام . ولكن النزعة المنطقية الذهنية إلى التقسيم دفعته إلى تشقيق الشيء الواحد إلى مجموعة من الفروع دون أي مبرر علمي سوى إشباع الرغبة المسرفة في استيفاء الأقسام، وأخيراً يأتي ال مثال في النهاية مجرد شاهد على القاعدة ، وإن كان في " التجنيس " استشهد بعدد من الآيات الكريمة وبعض الأبيات الشعرية، ولكن بدون أي لون من ألوان التحليل الفني، أو أية محاولة لاستشفاف القيم الجمالية في الأمثلة التي ذكرها.

تناول عبد القاهر الموضوع ذاته، فانطلق من اعتبار الجنس فنا بلاغيا له جانبه الجمالي الفني، وله دوره في إيصال المعنى والتعبير عنه، وبمقدار استيفائه لهذين الجانبين عن طريق انسجامه مع بقية عناصر التركيب اللغوي من ناحية، وأدائه لوظيفته التعبيرية - التي لمس جانبها النفسي بذكاء - من ناحية أخرى تكون قيمة الجنس . ثم إن الجرجاني، من خلال تحليله للنص الأدبي كان يضع مقاييسه، ويبلور نظريته البلاغية، فيرفض الجنس إذا ما جاء زخرفة شكلية متكلفة لا تسهم في إيصال المعنى، ويرحب به إذا ما قام بوظيفته التعبيرية، وانسجم مع السياق العام، وهو أخيراً لا يهتم بما اهتم ب ه السكاكي من تقسيم وتشقيق لأنواع الجنس لأنه لا يرى جدوى من وراء ذلك .

والمنهاج الذي رسمه عبد القاهر الجرجاني لنفسه¹، يكاد يكون أول منهاج علمي في البحث، يعرضه في كلماته قائلاً :

" واعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إليه الفكر : أن نبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، ونتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما، ونأتي بها في أثرهما. وذلك لأن المجاز أعم من الاستعارة.

¹ - عبد العزيز عتيق: في تاريخ البلاغة العربية ص 249

والواجب في قضايا المراتب : أن نبدأ بالعام قبل الخاص، والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيهة بالفرع له، أو صورة مقتضبة من صورته. إلا أن ههنا أمورا اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة، وبيان صدر منها، والتشبيه على طرق الانقسام فيها، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها، ويقف على سعة مجالها، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الأخيرين فوفى حقوقهما، وبين فروقهما، ثم ينصرف إلى استقصاء القول في الاستعارة¹ .

ذلك هو المنهج الذي أخذ به لنفسه، وجمع فيه لأول مرة مباحث علم البيان بعضها إلى بعض، ورتبها من حيث الكلام عنها ترتيبا منطقيا منظما، يبدأ فيه بالعام قبل الخاص، وبالأصل يتلوه الفرع، مع العناية بتوضيح ما بين التشبيه والتمثيل من فروق، وباستقصاء القول في الاستعارة.

" كانت الدراسات البلاغية قبل عبد القاهر قد شهدت تطورا مر بها من مرحلة الملاحظة الخارجية إلى محاولات التأليف المنهجي إلى الدخول في مرحلة التحديد والتعريف... ولقد حاول عبد القاهر أن يستفيد من الدراسات النحوية - وهو نحوي - في الدخول بالدراسات البلاغية مرحلة " التنظير " من خلال وضع نظرية عامة تفسر المباحث الجزئية المتفرقة² ."

وقد وقف " أمام تفصيلات كثيرة وتفريعات دقيقة في مباحث التشبيه والاستعارة، ووجد لكل لون منها شواهد متعددة من القرآن الكريم و من كلام العرب شعرا ونثرا ... ولم يكن أمام البلاغيين من بعده إلا أن يتابعوا تقسيماته وتفريعاته وكثيرا من أمثله. كان السابقون يكتفون غالبا بإيراد الشواهد والأمثلة مع قدر من التعليق يكفي لإفهام القاعدة، لكن عبد القاهر كان يعتبر النص هدفا في ذاته فيتأمل كثيرا في أسرار بنائه ويقف على الكثير من خصائص تراكيبه، وكل ذلك يتم بذوق ناقد و حس أديب، وهذا الاتجاه في تحليل النصوص يعاود الظهور بقوة على مسرح النقد الأدبي الحديث، وليس المذهب

¹ - الجرجاني: أسرار البلاغة ص 21-22

² - أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 132

البنائي الذي يعتبر من أشهر المذاهب النقدية في أوربا إلا تعبيراً معاصراً عن هذا الاتجاه القديم.

لقد استطاع عبد القاهر أن يقدم محاولة نموذجية في قراءة النصوص وتحليلها، واستحق بذلك أن يكون اسمه من ألق الأسماء في تاريخ البلاغة العربية¹.
وقد ساعد على شيوع المنهج التقني المنطقي في البحث البلاغي أن الأدب العربي ذاته كان قد بدأ رحلة انحداره وأصبح تعبيراً عن ذوق سقيم.
ولكن - إنصافاً للسكاكي ومنهجه - يعتبر الدارسون أن البلاغة في إطار هذا المنهج قد تحددت لها مباحثها الأساسية على نحو من الإحكام والدقة والتنظيم لم تعرفه قبل السكاكي، وأنه جمع شتات هذه المباحث وبوبها تبويبا منهجياً شديداً الصرامة.

¹ - المرجع نفسه، ص 135

الفصل الثاني

مصطلحات ومفاهيم البلاغة العربية القديمة

- 1- بين الفصاحة والبلاغة والبيان
- 2- فروع البلاغة
- 3- النقد والبلاغة والذوق الجمالي
- 4- اللفظ والمعنى والنظم

1- بين الفصاحة والبلاغة والبيان

لم يهتم الدارسون القدامى، في بداية الأمر بالتفريق بين الفصاحة والبلاغة، كما يظهر من استعمال الجاحظ في " البيان والتبيين " .
وقد تحدث الجاحظ حديثا واسعا مستقيضا عن البيان¹ شاملا الحديث عن الفصاحة بما هي سلامة الحروف والأصوات اللسانية من العيوب التي تعتري النطق واللسان أو بما هي الصورة الأدائية للمعنى وما يجب أن تكون عليه من صحة وسلامة لفظية وصوتية.
ويمكن إجمال موضوعات البيان التي دار عليها البحث البلاغي لهذه الفترة في هذه الموضوعات الأربعة :

- أولا : الكلام على صحة مخارج الحروف ثم على عيوب النطق اللسانية.
- ثانيا : الكلام على سلامة اللغة، والصلة بين الألفاظ بعضها وبعض، والعيوب الناشئة من تنافر الحروف تنافرا يمجه السمع وينفر منه الذوق.
- ثالثا : الكلام على الجملة، والعلاقة بين المعنى وبين اللفظ، ثم على الإيجاز والإطناب، والملاءمة بين الخطبة وبين موضوعها وبينها وبين جمهور المستمعين إليها.
- رابعا : الكلام على هيئة الخطيب وإشاراته.

وقد جرى لفظ البيان مرادفا للبلاغة، كما جرى استخدام البيان عند الجاحظ بمعنى الدلالة الواضحة للتعبير اللغوي تعبيرا تتوافر فيه شروط الفصاحة اللفظية.
قال الجاحظ (ت 255هـ) في تعريف البيان كما هو في علم الكلام : " البيان، اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصله كائننا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل

¹ - سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996. ص 15 و ما بعدها

لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع".¹

ولعل تعريف البلاغة في كتاب " البيان والتبيين "، فلم يقصد به الجاحظ إلا " وصول المعنى وبلوغه قلب السامع مع تفهم لهذا المعنى وقبوله له . ومتى كان الشاعر أو الأديب أشد بلوغاً لرضى السامع وأسرع في هذا البلوغ كان أفصح وأدل على المعنى بقليل من اللفظ ".²

والجاحظ يرى أن أول شرط في البليغ أن تكون ألفاظه عربية فصيحة سليمة من العجمة.

ولذا فهو لا يوافق من يرى في البلاغة " أن يكون السامع يفهم معنى القائل " فإن هذا الرأي لا يقيم للفصاحة وزناً ولا يجعل للفظ أية قيمة.

ويفترض الجاحظ أن الناس تتفاضل في معانيها بما تلبسها من لفظ. فالكاتب يفضل الكاتب- وإن تشابها في المعنى الواحد- بالأسلوب وباختياره ألفاظه وقدرته على الإجابة أكثر من غيره.

ويضيف: " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال ".³

أما عند الجرجاني ففصاحة الألفاظ وبلاغتها " لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي توصف بها، وإنما ترجع إلى صورتها ومعرضها الذي تتجلى فيه، وبعبارة أخرى ترجع إلى نظمها وما يطوى فيه من خصائص. ومعنى ذلك أن هذه الصفات ليست صفات

¹ - البيان و التبيين، ج 1. ص 76

² - د. داود سلوم: النقد المنهجي عند الجاحظ، ط 2، بيروت، مكتبة النهضة العربية، 1986. ص 91

³ - الحيوان، ج 3. ص 39

عارضة للألفاظ في أنفسها، وإنما هي صفات عارضة لها في التأليف والصيغة بسبب دقائق بلاغية لم تكن لها قبل سياقها الذي أخذته في صور نظمها.¹

ثم يفصل عبد القاهر القول في الكلام الفصيح في العبارات الآتية: " اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر.²

فالمقدمون كالإمام عبد القاهر الجرجاني ومن لف لفه، يرون أن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ألفاظ مترادفة لا تتصف بها المفردات، وإنما يوصف بها الكلام بعد توخي معاني النحو فيما بين الكلم بحسب الأغراض التي يصاغ لها.

وكما يقول أبو هلال العسكري: " وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة تترجمان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له وعلى أن اختلاف الأصل اللغوي كان سبب تفريق بينهما، ظل ينمو مع الزمن حتى استقر الاصطلاح التعليمي الغالب، على أن الفصاحة توصف بها الكلمة والكلام والمتكلم، وأنها تكون بدون البلاغة، وأن البلاغة يوصف بها الكلام والمتكلم دون الكلمة المفردة، ولا تكون بدرجة الفصاحة. وظلت الكتب المتأخرة تشير إلى إمكان التسوية بين الكلمتين... فنقول بلاغة الكلام وبلاغة الكلمة، كما تستطيع أن تقول: بلاغة الألفاظ وبلاغة المعاني أي جودة كل ذلك.³

أما المتأخرون كأبي يعقوب يوسف السكاكي وابن الأثير، ومن شايعهما، فيرون إخراج الفصاحة من كنف البلاغة، ويجعلونها اسما لما كان بعيدا عن تنافر الحروف

1 - د. شوقي ضيف: البلاغة، تطور و تاريخ، ط 2. مصر، دار المعارف، 1965. ص 160

2 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 301

3 - أبو هلال العسكري: الصناعتين. الأستانة، 1320 هـ. ص 7

وغرابة الألفاظ ومخالفة القياس، ويجعلون البلاغة اسما لما طابق مقتضى الحال مع الفصاحة.

وعلى هذا الرأي فالبلاغة كل والفصاحة جزؤه، وعليه فالفصاحة من صفات المفرد كما هي من صفات المركب.

" والبلاغة باختصار، هي فن التعبير الجميل، سمة الفصحاء والأذكياء من الناس، وأرباب الذوق الرفيع. ولئن عدد العلماء شروطا شتى في الكلمة المفردة لتكون فصيحة، وفي التركيب ليكون بليغا، إنهم ما أغفلوا جانبا آخر لا يقل أهمية عن الشروط كلها، ألا وهو موافقة الكلام مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام ¹. وكل إخلال بهذا الميزان إخلال بالصياغة الفنية.

وقد سعى الخطيب القزويني (ت 739 هـ)، أحد تلاميذ السكاكي إلى بلورة مفهوم البلاغة وتقديمه في الصيغة الآتية :

" البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "

وهي عبارة اكتسبت ذيوعا وشهرة بين الدارسين فتداولوها فيما بينهم وما تزال كذلك حتى وقتنا الراهن.

ثم إن ما قاله هؤلاء البلاغيون عن فصاحة الكلمة لا يكاد يخرج عن فصاحة الكلام، فالشروط جميعا تدور حول الوضوح والصحة اللغوية . " على أن النظرة إلى اللفظة المفردة والحكم عليها بمعزل عن سياقها لا يؤدي إلى الفهم الصحيح للنصوص في كثير من الأحيان، فليست مفردات العبارة اللغوية الواردة في سياق واحد كيانات منفصلة، يستقل كل منها بذاته، وإنما ترتبط جميعا برباط وثيق، ومن هنا كان للسياق دوره الفعال في إعطاء الكلمة المعينة من الدلالات ما ليس لها في ذاتها مجردة عن أي سياق، حتى لو بدت تلك الكلمة مفتقرة إلى بعض ما اشترطه البلاغيون في فصاحة الكلمة، من حسن

¹ - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ط 4، 2002. ص 38 و 42

الجرس، وسهولة النطق ... وهكذا نجد طائفة كبيرة من مفردات اللغة تبدو ثقيلة الجرس لكنها تؤدي وظيفة فنية في تشكيل الصورة وإبراز معالمها¹.

ومن أسس هذا المعيار أيضا البعد عن الغرابة ومدلولها عندهم أن تكون الكلمة وحشية يحتاج فهم معناها إلى بحث وتنقيب في كتب اللغة ؛ والحق أن بعض البلاغيين علق الحكم بالغرابة أو الألفة ع لى الذوق السليم، وربط ألفة الكلمة بكثرة تداولها واستعمالها بين أهل اللغة فيأنس الذوق إليها ويرتاح لها أو غرابتها بهجران الناس لها وتجنبهم إياها فينبو عنها الذوق . مع العلم أن اختلاف الأذواق متصل باختلاف البيئات والعصور.

وحرصا على وضوح الدلالة في الكلام - وهو أمر جوهري في البلاغة العربية - كان رفض البلاغيين لكل ما يجلب الغموض، وإفاضتهم في الحديث عما أسموه " التعقيد " أو " المعازلة " أو " سوء التأليف "، بمعنى اختلال وضع الألفاظ نحويا في تركيب معين، على نحو ينشأ عنه غموض الدلالة واضطرابها . ولا ريب أن الوضوح م طلب في لغة الفهم والإفهام، فاللغة في هذا المستوى وسيلة.

لكن، حين تكون اللغة وسيلة وغاية معا، كما هو الحال في الفن الأدبي، فإن الميزان يختلف؛ إذ يتطلب الأمر عناية بالغة بالتشكيل اللغوي للنص بما ينجم عن ذلك في كثير من الأحيان من خفاء وغموض يزداد به العمل الأدبي عمقا، ويسمو به على سطحية الأداء الساذج، ويبقى نابضا بسر الإمتاع والجمال . " والحق أن عبد القاهر التفت إلى هذه الفكرة، وعبر عنها تعبيرا صريحا أيده بالشواهد والأمثلة، وذلك حين كان يتحدث عما ينطوي عليه " التمثيل " من مزية الخفاء في المعنى، بحيث لا ينجلي لل قارئ في أكثر الأحيان إلا بعد طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه.²

¹ - شفيق السيد: البحث البلاغي عند العرب، تأصيل و تقييم. ص 170 و 172
² - المرجع نفسه. ص 175

وينبه عبد القاهر قائلاً : " ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة"¹.

وعد القاهر، شأنه شأن النقاد المحدثين الذين أشادوا بالغموض الشفيف وسيلة فنية في العمل الأدبي، وخاصة في الشعر، مع ملاحظة الفرق في طبيعة الغموض بين النماذج الشعرية القديمة، والنماذج الشعرية الحديثة التي تحفل بالرموز والأساطير والصور السريالية المكثفة، وهو فرق منشؤه اختلاف العصر، وتغير مفهوم الفن عند المبدعين والنقاد على السواء.

ويقدر أحمد الهاشمي أن: " الكلام باعتبار " المعاني والبيان " يقال إنه " فصيح " من حيث اللفظ - لأن النظر في الفصاحة إلى مجرد اللفظ دون المعنى - و" بليغ " - من حيث اللفظ والمعنى جميعاً - لأن البلاغة ينظر فيها إلى الجانبين ..."².

فإذا أدى شخص المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغاً، وإذا أورد الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح فلا يكون أيضاً بليغاً لوجوب وجود الفصاحة في البلاغة، ويدخل في تمييز الكلام الفصيح عن غيره تمييز الكلمات الفصيحة عن غيرها لتوقفه عليها.

2- فروع البلاغة

سميت الفنون البلاغية قديماً صنعة الشعر، كما سميت أحياناً نقد الشعر أو نقد الكلام. أما التقسيم الثلاثي للبلاغة فلم يكن معروفاً قبل عصر السكاكي (ت 623 هـ أو 626 هـ) بل كان الشائع استخدام " علم البيان " وأحياناً " البديع ".

لقد وضع " علم الصرف " للنظر في أبنية الألفاظ و وضع علم النحو للنظر في إعراب ما تركيب منها، و وضع " البيان " للنظر في أمر هذا التركيب، فأصبحت ثلاثة علوم: العلم الأول، ما يحتز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم لإيصاله

¹ - أسرار البلاغة ص 110-111

² - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع، ط 6. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت. ص 3

إلى ذهن السامع، ويسمى " علم المعاني ". العلم الثاني، ما يحترز به عن التعقيد المعنوي، أي عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد، ويسمى " علم البيان ". أما العلم الثالث، فهو ما يراد به تحسين الكلام، ويسمى " علم اليديع".

وقد مثلت البلاغة في كثير من جوانبها العلاقة بين الأسلوب والمعنى . وصلة هذا الأسلوب بما تتعرض له الجملة هو الذي يدخل تحت ما سمي بعلم المعاني الذي يختص بتتبع سمات تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ احترازاً من الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وخاصية التركيب منظور إليها من جانبين : المبدع باعباره مصدر هذه الخواص التركيبية - وإن لم يلق هذا المبدع ما يستحقه من أهمية - ثم المتلقي من خلال قيامه بعملية الفهم والمعرفة.

وبين هذين الطرفين تأتي الرسالة بشقيها الإبداعي والإخباري، ويبدو واضحاً إدراك السكاكي لهذين الشقين، وإن كان إدراكاً محكوماً بمنطقيته الصارمة.

" فالكلام يدور بين احتمالات ثلاثة، هي :

خلو الذهن من الحكم، أو التردد في قبوله، أو إنكاره كلية . والصيغة تأخذ خواصها التركيبية في كل حالة باستخدام الأدوات اللغوية، التي تقدم ال كلام خالياً من التوكيد، أو مؤكداً مراعاة لمقتضى الحال . ويختص المستوى الإبداعي بتجاوزه مجرد الإخبار إلى أهداف جمالية، تتأتى بالتغيير في الصياغة والتركيب بترك المسند إليه أو ذكره، وبتعريفه أو تكثيره، وبتقييده أو إطلاقه، وبتقديمه أو تأخيرته؛ ففي مثل هذه الصياغة تأتي الإفادة اللطيفة"¹.

وإذا كان علم المعاني يتصل بدراسة الأسلوب من حيث ما يعرض للجملة، فإن علم البيان يتصل بها من حيث ما يعرض للمفرد، " فالمبدع في مجال البيان تواتيه المقدرة الفنية على إيراد المعنى الواحد في صياغات متعددة، أو في طرق مختلفة، وهي طرق تتميز بالتغاير في الوضوح والخفاء ...

¹ - السكاكي: مفتاح العلوم. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت. ص 70

وإذا كانت مباحث المعاني تتناول الدلالات المركبة، ومباحث البيان تتناول الدلالات الإفرادية، فإن مباحث البديع تتناول جوهر اللفظ وما يحمله من ألقاب بحسب تأليفه مع غيره من ألفاظ¹.

تدور مباحث البديع في مستويين : أحدهما المستوى السطحي الذي يختص بالناحية المحسوسة من النطق، كالجناس والسجع والازدواج. والآخر، يتمثل في المستوى الأعمق، وهو الذي يتصل بالفصاحة المعنوية كالطباق والمقابلة والتورية.

ويرتبط البديع في هذين المستويين بالصياغة من حيث تشكيلها الحسي في النطق أو في اللقطة، ثم من حيث تشكيلها المعنوي.

" غير أن البلاغيين أفسدوا هذا المبحث عندما جعلوه شيئاً إضافياً يأتي وراء الإفادة وظهور الدلالة، وجودة المطابقة للمقام، وبعد مراعاة مقتضى الحال، وكأنهم بذلك جوزوا أن يكون المبدع عابثاً في جزء من صياغته، بحيث يقدم بعض أجزائها لمجرد الزينة الشكلية التي لا تفيد شيئاً في وضوح الفكرة أو خفائها، كما لا تفيد شيئاً في التعبير عن العاطفة أو الإحساس"².

• علم المعاني :

لعل من أهم أصول التفكير البلاغي التي تضمنها كتاب "البيان والتبيين" تلك الفكرة التي صارت فيما بعد حجر الزاوية في مفهوم البلاغة عند البلاغيين المتأخرين، وحولها دارت مباحث علم من علومها الثلاثة حسب تقسيماتهم، وهو ما يسمى "علم المعاني"، وهي فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال ". والحق أن هذه الفكرة ليست خالصة النسب للجاحظ، وفضله فيها يرجع إلى أنه كان أول من سجلها في كتاب، فعرفه الناس عن طريقه. أما صاحبها فهو واحد من أقطاب المعتزلة وأمع شعرائها وخطبائها، بشر بن المعتمر (ت 210هـ) الذي خلف وراءه أثراً نقدياً بالغ الأهمية، يتمثل في صحيفته التي نقل الجاحظ نصها، وأشار إلى أن بشراً ألقى بها إلى مجموعة من فتيان المعتزلة حينما مر

¹ - البلاغة و الأسلوبية. ص 354

² - المرجع نفسه. ص 267

عليهم و هم بمجلس يتعلمون فيه أصول فن الخطابة، ودعا إلى الموازنة بين الكلام والمقام، فكانت هذه الفكرة بذرة "المطابقة" التي عرفها بأنها: "مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال".¹ ويؤكد على "دعوة الخطيب أو المتكلم بعامة إلى اختيار ما هو مناسب لحالات المستمعين".²

يبدو أن أول من سمي علم المعاني بهذه التسمية الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " ولقد كان يقصد بكلمة المعاني : معاني النحو أولا وأخيرا ".³ يبحث هذا الفرع من فروع البلاغة في أنواع الجمل المختلفة واستعماله ا، يقولون: إن علم المعاني يعلمنا كيف نركب الجملة العربية لنصيب بها الغرض المعنوي الذي نريد، على اختلاف الظروف والأحوال.

وقالوا في علم المعاني : إنه ينحصر في ثمانية أبواب لأن الكلام إما خبر أو إنشاء، والخبر لا بد له من مسند ومسند إليه وإسناد، فعقدوا لذلك باب أحوال الإسناد الخبري، وباب أحوال المسند إليه وباب أحوال المسند . ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو ما في معناه . فعقدوا باب متعلقات الفعل وكل من الإسناد والتعلق إما بقصر أو بغير قصر فعقدوا باب القصر . ثم خصوا الإنشاء بباب مستقل والجملة مع الأخرى إما معطوفة أو لا وهذا باب الفصل والوصل . والكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد، وهذا باب الإيجاز والإطناب والمساواة.

وعلم المعاني، عند السكاكي، هو " تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ".⁴

¹ - البيان و التبيين، ج1. ص136

² - المرجع نفسه. ص138-139

³ - د. بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد. ص 49

⁴ - السكاكي : مفتاح العلوم، ط1. مصر، المطبعة الأدبية، 1317 هـ. ص 86

اتصل العديد من الدراسات بعلم المعاني لأهميته في ملكة البلاغة، إذ به يعرف كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال وفق الغرض الذي يساق إليه . وبه يحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وبه أيضا تعرف دواعي التقدي م والتأخير والذكر والحذف والإيجاز والإطناب والمساواة والفصل والوصل وما إلى ذلك.

ولا يكون الكلام بليغا إلا إذا كان مطابقا لمقتضى حال السامعين وللمقام، وقد قيل : لكل مقام مقال.

فعلم المعاني هو الذي يمكننا من التمييز بين التراكيب، كالتقديم والتأخير وأنواع المبتدأ والخبر وطبيعة العناصر المكونة للجملة ... ويميز بين المعاني المتباينة لكل هذه التراكيب.

وعند الجرجاني، المراد من علم المعاني هو ائتلاف الألفاظ و وضعها في الجملة الموضوع الذي يفرضه معناها النحوي، وقد قال :

" واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضوع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها . هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه، إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، و وضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له " ¹.

إذن، علم المعاني هو روح النحو، وبيان أغراضه وأحواله . إضافة إلى هذا فهو يعلمنا متى نجعل الجملة خبرية، ومتى نجعلها إنشائية، ويبين لنا السبب في هذه أ و تلك . يعلمنا متى يجب القصر، والوصل، والفصل، ومتى لا يجب، مع بيان السبب والغاية . يعلمنا متى نذكر المسند إليه، ومتى نعرفه، ومتى نقدمه، ومتى نؤخره، ولماذا فعلنا ذلك.

¹ - دلائل الإعجاز ص 64-65

رصد عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" مباحث علم "المعاني" الذي أصبح أول علوم البلاغة الثلاثة، وإن كان عبد القاهر لم يطلق على مجموع هذه المباحث اسم "المعاني" على الرغم من أنه أرسى في كتابه كل أسس هذا العلم وبلور كل ملامحه، ولم يستطع أحد ممن جاء بعده أن يضيف إلى ما وضعه عبد القاهر شيئاً ذا بال، بل إن أحداً ممن جاءوا بعد عبد القاهر لم يستطع أن يرقى إلى المستوى الفذ الذي وصل إليه عبد القاهر في تناوله لفروع هذا العلم وموضوعاته.

وقد جعل عبد القاهر مدخله إلى معالجة فروع هذا العلم وشعبه تلك النظرية العبقريّة التي عرفت في تاريخ النقد العربي والبلاغة باسم "نظرية النظم" والتي يقدم عبد القاهر من خلالها مذهباً بارعاً لدراسة النص الأدبي باعتباره بناء لغويّاً خاصاً، يكتسب قيمته من صياغته وتأليفه، وقد تعرض كثير من العلماء قبل عبد القاهر إلى النظم. ولكننا لا نعرف أحداً قبله جعل من النظم نظرية بلاغية ونقدية متكاملة الأركان، ومنهجاً بلاغياً في تناول النص الأدبي وتقييمه، وإطاراً عاماً لقواعد بلاغية تفصيلية تقدم لدارس النص الأدبي أدوات عملية لتذوق هذا النص ومعالجته.

ومفهوم النحو عند عبد القاهر يتسع ليشمل - إلى جوار مراعاة أحوال أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء - تركيب الجملة وتأليفها وفق ما يقتضي المعنى، ومعرفة الخواص التركيبية للعبارة، ومن ثم فإن كل مباحث علم المعاني داخلة في إطار النحو بهذا المفهوم، ولهذا فإننا نجد عبد القاهر يتطرق من خلال بسطه لنظريته في النظم - الذي عرفه بأنه مراعاة قوانين النحو وأصوله - إلى تناول كل مباحث علم المعاني من تقديم وتأخير، وتعريف، وتكثير، وذكر، وحذف وفصل، ووصل، وقصر، باعتبار أن النظم عنده ليس شيئاً سوى معرفة هذه الأبواب.

ولا يشغل عبد القاهر نفسه كثيراً بما شغل به البلاغيون بعده أنفسهم به، من حصر واستقصاء الفروع والأقسام التي تندرج تحت كل باب من هذه الأبواب حتى تحولت البلاغة في بعض جوانبها لديهم إلى عملية رياضية إحصائية، وإنما شغل نفسه في الدرجة الأولى بما ينبغي أن يشغل به البلاغي نفسه من بيان القيمة البلاغية لكل باب واستخلاص المعايير العامة من خلال التحليل الفني للنصوص والأمثلة.

فهو حين يتحدث عن "الحذف" مثلا لايهتم كثيرا باستقصاء كل مواضع الحذف، بل يوجه اهتمامه الأول إلى بيان بلاغة الحذف، والوظيفة التعبيرية التي يؤديها الحذف في الكلام حيث " ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تتطق، وأبين ما تكون إذا لم تبين".¹

يعتبر عبد القاهر صاحب الفضل الأكبر في نشأة علم المعاني وتبلور مباحثه، ولا يهون من قيمة دوره في نشأة هذا العلم أن بعض مباحثه قد عرفت قبله وتناثرت بعض الأحاديث عنها في كتب السابقين عليه، ولا يهون من قيمة هذا الدور أيضا أنه أغفل تناول بعض فروع علم المعاني وبعض شعبه، فالحق أنه " لا يكفي أن يكون هناك من تحدثوا عن باب الفصل والوصل، وباب الإيجاز والإطناب . فالحديث عن ذلك كله في شكل ملاحظات جزئية تنتثر هنا وهناك شيء، وضمها إلى نظرية متشعبة شيء آخر، نظرية نشأ عنها فيما بعد علم مستقل من علوم البلاغة هو علم المعاني الذي وضع عبد القاهر أصوله وصور فصوله وحدودها وشعبها تصويرا دقيقا، وإن كان قد فاته فرع أو شعبة. ومع أن من جاءوا بعده أضافوا إليها بعض إضافات فإن كتاباته فيها ظلت المنارة الهادية بأضوائها الكثيرة".²

ولقد استعمل نظرية علم المعاني³ في دراسة إعجاز القرآن وتوصل من خلالها إلى ضبط الفروق الجوهرية بين " كلام الله " وكلام البشر.

كان عبد القاهر يرى أن المعركة التي قامت قبله بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى في النقد الأدبي، معركة تبتعد عن العناصر الحقيقية في التعبير الأدبي، وهي تجزيء ما لا يقبل التجزئة، وكان يرى أن الأدب بناء ينبغي أن يتم اختيار عناصره اللغوية بدقة ثم التأليف فيما بينها على أسس معينة، وأن أي خلل في ذلك الاختيار أو ذلك التأليف يخل بوحدة البناء وتماسكه . لكن ذلك الاختيار لا بد أن يتم على أساس معين ومبادئ يتفق عليها، وفي غياب هذا الأساس وتلك المبادئ يمكن أن يزعم كل واحد

¹ - دلائل الإعجاز. ص 106

² - شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ. ص 189

³ - أحمد درويش : النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 132-134

أن اختياره هو الأمتل، وأن ذوقه هو الأقرب للصواب . وعبد القاهر يرتضي أن تكون معاني النحو هي أساس الاختيار الذي يتم بمقتضاه بناء النص، ويسمي النجاح في اختيار " معاني النحو " الملائمة، والاهتداء إلى التراكيب التي تعبر عنها، يسمي هذا بالنظم ...ويقدم عبد القاهر فكرته قائلا :

"... لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق . وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج . وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : " جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بما في نفي الحال وبلا إذا أراد نفي الاستقبال وبأن فيما يترجح بين أن يكون ولا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائناً، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف في التعريف والتكثير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك في مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"¹.

هكذا لخص عبد القاهر في هذا النص من كتابه "دلائل الإعجاز" الأبواب التي تشكل مباحث "علم المعاني" بناء على هذه النظرة الشاملة عنده للعلاقة بين المعنى النفسي والمعنى النحوي. فكل موضع أو حرف نحوي له معنى خاص، ولو استعملنا

¹ - دلائل الإعجاز ص 65

من حروف العطف مثلا الواو فإن معناها النحوي الربط بين الحكم السابق واللاحق عليها، فقولنا جاء محمد وعلي حكم بالمجيء سوف ينسحب عليهما معا، وذلك ناتج من أن الكلمة محمد في العبارة هي فاعل لجاء أي أن محمدا هو الذي قام بالمجيء و وجود الواو بين محمد وعلي تعطي للثانية منهما حكما الإعرابي وهو الرفع ومعناها النحوي أيضا وهو الفاعلية، ومن هنا فلا ينبغي أن تجيء هذه الواو بين كلمتين لا يمكن أن يتحقق بينهما الاشتراك في هاتين الناحيتين.

لكننا نلاحظ أن هذا الاشتراك يمكن أن يتحقق عن طريق استعمال حروف أخرى غير الواو، مثل الفاء وثم، وهنا ينبغي أن يتم الاختيار على أساس الفروق الدقيقة في المعنى بينها، فعلى حين تشير الواو إلى مجرد الجمع في الحدث بين الكلمتين فإن الفاء تشير إلى الترتيب بمعنى أن ما قبلها سبق ما بعدها وإلى ال تعقيب بمعنى أن الفاصل الزمني بينهما لم يكن كبيرا . و " ثم " تشير إلى هذا الترتيب لكنها تشير معه إلى " التراخي " أي إلى وجود فاصل زمني كبير بين الحدثين.

في مثل هذه الدائرة تدور مباحث علم المعاني في تحليل النصوص، فترى إلى أي حد التزم النص بالاستعمال السائد للمعاني النحوية، وإلى أي حد خرج عليها . وتمتد هذه المباحث لتشمل مجمل العلاقات بين أجزاء الكلام الرئيسية، الاسم والفعل والحرف، سواء على مستوى الجملة الواحدة أو الكلام المتصل، ولا يقف الأمر عند الحديث عن العلاقات داخل الجملة على التعرض لما هو مذكور بل يتعداه إلى التعرض لما لم يقل (أي الحذف)، فإذا كانت الأركان الرئيسية للجملة الاسمية تتمثل في المبتدأ والخبر، فإن أحد هذين الركنين يمكن في بعض سياقات الكلام أن يكون حذفه أبلغ من ذكره، وكذلك الشأن بالنسبة للجملة الفعلية التي تتكون من الفعل والفاعل والمفعول به، فإن الركن الأخير منها يتعرض كذلك للحذف ويحمل ذلك دلالات بلاغية متعددة .

وهكذا قد غطى كتاب دلائل الإعجاز مباحث علم المعاني وفتح الباب للبلاغيين حتى الآن لكي يعالجوا تحت هذا العنوان مجمل المباحث التي عالجهها عبد القاهر في الدلائل.

ولقد تبنى علماء البلاغة المتأخرون تعريفا لهذا العلم ينسب إلى الخطيب القزويني (666 هـ - 739 هـ) في كتابه " الإيضاح "، مفاده أن علم المعاني هو العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال . وعلى هذا التعريف درج سائر المؤلفين المتأخرين.

يعرف الشيخ جلال الدين محمد بن عمر القزويني الشافعي بقاضي القضاة، إذ تولى القضاء والخطابة في المسجد؛ ومن أهم مؤلفاته " تلخيص المفتاح " و" الإيضاح في المعاني والبيان " اللذان اقتفى فيهما خطى السكاكي وبعض آثار الجرجاني، وعرض فيهما خلاصات لبحوث علماء البلاغة في مختلف العصور قبل هـ؛ ساعيا إلى التحليل والشرح والتفصيل والبسط، وإضافة بعض الآراء الشخصية.

ولا يزال منهج الخطيب في البلاغة هو المنهج العلمي الذي يعتمد عليه كثير من دارسي البلاغة إلى عصرنا الراهن؛ كما يعد البلاغيون كتاب "الإيضاح" أهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر باعتبار هـ أوفى كتاب في بحوث البلاغة وأوضح الكتب المؤلفة في البلاغة نظاما وأسلوبا، وهو إضافة إلى جانبه النظري - المتمثل في البحث والتعمق والاستنباط - يمتاز بجانبه التطبيقي في البلاغة.

وعلى العموم، يركز درس البلاغي على مستويات تظهر في علم المعاني كالاتي:

* **المستوى الدلالي** : وذلك بمعرفة الدلالة اللغوية العامة ثم دلالتها في النسق اللغوي

أو الاجتماعي أو الثقافي العام.

* **المستوى الصرفي** : وهو التعرف على بنية الكلمة ودلالاتها الصرفية وكيف وضعت

لإعطاء قيم معنوية وجمالية صوتية معا.

* **المستوى النحوي** : وهو بناء التركيب اللغوي تركيبا منطقيا يعطي المضمون وضوحا

ويكون في أوضاع الكلمة من التركيب وعلامات إعرابها ما يضيف دلالة على المعنى

ويكسبه قيمة جمالية معنوية.

* **المستوى البلاغي:** ويشتمل علوم البيان والمعاني والبديع . أما علم البيان فيختص بفن الصورة والخيال، وأما علم المعاني فيلاحظ العلاقات الجمالية التي تحدث في التراكيب اللغوية وفقا لتوظيف المعارف الدلالية اللغوية والنحوية والصرفية. وبما أن علم البديع هو لغة الموسيقى والزخرف في النص الأدبي ، تعد هذه المستويات عناصر أساسية في علم النص.

• علم البيان :

كانت مباحث البيان وموضوعاته قبل عصر عبد القاهر تبحث بحثا غير دقيق ولم تكن تتميز عن غيرها من مباحث وموضوعات البلاغة الأخرى.

ويعتبر كتاب عبد القاهر "أسرار البلاغة" أول محاولة جادة لتمييز أقسام البلاغة وفروعها تمييزا دقيقا حيث قام بدراسة موضوعاتها دراسة وافية دقيقة يعينه على ذلك ثقافة عربية واسعة وذوق رهيف و قدرة بارعة في تحليل النصوص الأدبية والكشف عن أسرارها ومكوناتها.

لم يطلق اسم البيان علما على هذه المباحث والموضوعات إذ كانت ألفاظ ومصطلحات الفصاحة البيان والبلاغة تتردد في كتاباته بمفهوم يكاد أن يكون واحدا. ولم يتمثل تمثلا تاما استقلال علم البيان على الصورة التي صار إليها عند خالفه من البلاغيين المتأخرين.

" يشير عبد القاهر إلى البيان الذي ميز الله به الإنسان عن سائر الحيوان " الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان " وربما يكون هذا ما دفع المتأخرين من علماء البلاغة إلى تسمية العلم الذي يبحث في الفنون البلاغية بهذا الاسم : علم البيان"¹. وعلم البيان، يعلم الإنسان صناعة الكلام الفصيح من غير إبهام، ومباحثه التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز . يعلمنا البيان كيف نصوغ الصورة الفنية لتظهر الدلالة المقصودة بوضوح.

¹ - سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية. ص 176

والبلاغيون منذ القرن الثالث الهجري ينتبهون إلى التعبير البياني في الأسلوب الأدبي فيرصدونه، ويدرسون مباحثه، ويقدمون تصورا نظريا للفروع المختلفة التي يتكون منها رافد البيان.

" ولم يقتصر جهد البلاغيين على التصور النظري المتماسك لفروع الدوحة البيانية وإنما دعموا هذا التصور النظري بتطبيق تحليلي على النماذج الشعرية والنثرية التي اعتمدت على التعبير البياني في صياغتها، وكان هذا التحليل قائما على عنصر الانتقاء والاختيار من العصور المختلفة".¹

ومن ثم جهد الدرس البلاغي، وإن كنا نقدر تلك الومضات الذكية التي كانت تلمع بين الحين والحين لتضيء آفاق البلاغة بنظرات ذوقية رائعة وتكشف عن القيم الجمالية في النص الأدبي، وتضع أيدينا على أسرار الفن التي أبدعتها مخيلة الأديب . ويمثل عبد القاهر الجرجاني بكتابه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" هذه الفترات المضيئة من حياة الدراسات البيانية خصوصا والبلاغية عموما قبل أن تخضع للمنهج الكلامي المنطقي.

إن العلماء يختلفون في واضع البيان العربي اختلافا كبيرا : فبعضهم وعلى رأسهم طه حسين يعتقد أن أول مؤسس للبيان العربي حقا هو الجاحظ الذي كان أول من اهتم به وألف في بحوثه، وجمع آراء كثيرة فيه في كتابه " البيان والتبيين ".
" ويذهب باحث محدث إلى أن سيبويه إمام النحو العربي (م 189 هـ) هو الذي بدأ بوضع علم البيان والبلاغة".²

ويرى جمهور العلماء أن واضع البيان العربي هو عبد القاهر الجرجاني، ويذهب آخرون، ومنهم ابن خلدون، إلى أنه السكاكي.
ورغم أن الجاحظ وابن المعتز عاشا في فترة واحدة (القرن الثالث) إلا أن لفظتي "البيان" في مؤلف الجاحظ، و " البديع " في مؤلف ابن المعتز لا تعنيان تماما المعنى

¹ - نحو بلاغة جديدة ص7
² - المرجع نفسه و الصفحة نفسها

البلاغي الاصطلاحي الذي استقر مفهومه عند السكاكي في القرن السابع الهجري وما تلاه إلى اليوم. وإنها بيان الجاحظ يعني العبارة وبديع ابن المعتز يعني المستحدث".¹
أما عبد القاهر، فقد أتى بعد كثير من العلماء الذين أفاد منهم، ثم جاء السكاكي الذي نهج نهج عبد القاهر مع عمق الإفادة من المنطق في دراسة البيان، ومع التحديد والتقسيم والتبويب بين بحوث البيان والمعاني.

" والباحثون يعترفون بأثر ابن المعتز وكتابه في دراسات البلاغة والبيان : يقول المستشرق كراتشكوفسكي الذي نشر البديع لأول مرة في أوروبا، في مقدمته : إن لهذا الكتاب أثرا فعلا في تطور هذا الفرع من المعرفة الذي ألف فيه، وقل من الكتب في موضعه ما يدانيه تأثيرا في الأجيال التي تلتها، ... نهج ابن المعتز نهجا جديدا فيه ".²

على الرغم من أن مباحث علم البيان كانت في مجملها قد اكتشفت ودرست على نحو أو آخر قبل أن يكتب عبد القاهر كتابه " أسرار البلاغة " إلا أن ملامح هذا العلم من علوم البلاغة الثلاثة لم تتبلور في نظرية متكاملة إلا في هذا الكتاب، حيث كان دوره تعميق هذه النظرات العامة السريعة التي اتسمت بها معالجة معظم من تناولوا موضوعات علم البيان ومباحثه قبله، وأضاف إلى ما قالوه الكثير من الأبواب والفصول، الأمر الذي يمكن معه القول باطمئنان بأن عبد القاهر هو الذي أرسى دعائم علم البيان، كما أرسى من قبل دعائم المعاني.

وقد رصد عبد القاهر كتابه " أسرار البلاغة " كله لدراسة مباحث علم البيان - وإن كان لم يطلق عليه هذا الاسم - كما تناول بعض مباحثه أيضا في كتاب " دلائل الإعجاز " بل إن بابا كاملا من أبواب علم البيان وهو باب " الكناية " لم يعرض له عبد القاهر في " أسرار البلاغة " مكتفيا بتناوله لها في " دلائل الإعجاز "؛ ووجه جل اهتمامه إلى التشبيه والاستعارة حيث افتن - كما لم يفعل أحد قبله ولا بعده - في تعمق أسرار بلاغتهما، وما يمتلكانه من طاقات فنية وتعبيرية بالغة الغنى والتنوع.

¹ - د مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 18
² - نحو بلاغة جديدة. ص 9

ومعظم ما تناوله عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " من مباحث علم البيان كان الهدف منه التذليل على أن نظريته ليست محصورة فحسب في أبواب علم المعاني، وإنما تمتد لتشمل الصور البيانية التي حاول أن يثبت أن جمالها الفني لا يرجع إلى مجرد ما فيها من استعارة ومجاز وإنما هو راجع قبل ذلك إلى طريقة تأليف هذه الاستعارة وصوغها ونظمها. فقوله تعالى مثلا : " واشتعل الرأس شيبا " ليس مرد البلاغة فيه إلى مجرد استعارة الاشتعال لمعاني الشيب في الرأس، وإنما مرده قبل ذلك إلى ما فيه من نظم و تأليف حيث أسند الفعل (اشتعل) إلى الرأس، ولم يسند إلى فاعله الأصلي وهو الشيب الذي جاء منصوبا على التمييز، وقد أفاد هذا التأليف الخاص ما لا تفيده الاستعارة في ذاتها من الشمول وسرعة الانتشار لو لم تنظم على هذا النحو الذي نظمت به.

أما في " أسرار البلاغة " فإن عبد القاهر تتبع فروع البيان بتعمق أكبر، حيث تناول التشبيه والاستعارة بأعمق وأوسع ما قدر لهما أن يتناولاه من بحث ودراسة، مبينا ضروبهما وصورهما وجوانب بلاغتهما من خلال معالجته للنصوص الأدبية.

وعلى هذا النحو البارع من التحليل والبحث يعالج عبد القاهر في مباحث علم البيان الذي استوى في " أسرار البلاغة " علما متكاملًا من علوم البلاغة الثلاثة، وإن كان عبد القاهر نفسه لم يخطر في ذهنه أن يجعل من هذه المباحث والموضوعات علما مستقلا متفردا ومقابلا لعلمي المعاني والبديع، فتلك التفرقة الصارمة بين الفروع الثلاثة لم تعرف إلا في مرحلة متأخرة.

وما تركه لنا من دراسة لفنون البيان ظل هو الأساس الذي تنهض عليه نظرية البيان حتى اليوم، والذي لم يستطع اللاحقون أن يضيفوا إليه شيئا ذا بال. أسس عبد القاهر مدرسة بيانية، قوامها الذوق وعمق النقد والفهم والتحليل للأدب، والموازنة بين مآثوراته، وهو الذي عرض لمسائل البيان بالتفصيل والإطناب والتحليل والتمثيل، وأفاد منه كل من أتى بعده من رجال البيان والبلاغة.

لقد أثر عبد القاهر في بناء البلاغة العربية، بوضعه أول المؤلفات العلمية في هذه الفنون، وبأسلوبه المتميز الذي يجمع بين " قوة الجدل المنطقي، والمعرفة باصطلاح الفلاسفة والمتكلمين، إلى الروح الأدبي والقدرة على النقد وصناعة الكلام . إلا أن أسلوبه في دلائل الإعجاز أميل إلى طريقة المتكلمين، بينما تراه في أسرار البلاغة يلتزم عذوبة وسلاسة إلى قوة الشكيمة في الحجاج، وتام الآلة في الجدل وإحالة للمخاطب على الذوق وإدراك الجمال الفني بنفسه، ويصل إلى ما قد وصل إلى إدراكه بعد طول البحث والاختيار".¹

• علم البديع :

يبحث البديع في محسنات الكلام، ويتناول عددا كبيرا من صور القول كالمقابلة والقلب والتورية ... وبفضل علم البديع، نتعلم كيف نوشي الصورة في معناها ومبناها، ونزخرفها الزخرفة الحية الملائمة لنزيد المعنى بهاء والمبنى رواء . فنحصل على التحسين المعنوي والتحسين اللفظي . وعلم البديع هو أقدم علوم البلاغة، حيث أصدر الأمير عبد الله بن المعتز، الشاعر العباسي (ت 296هـ) " كتاب البديع " في عام 274 هـ.

" هناك من يرى أن ابن المعتز يجب أن يعد أول مؤلف في البلاغة بتأليف كتاب البديع الذي هو أول عرض لموضوعات البلاغة أو لعلم البيان والبديع خاصة، بشكل سهل مع الشواهد والأمثلة".²

لم يكن ابن المعتز حين استخدم كلمة " البديع " عنوانا لكتابه يقصد بها المعنى الذي تطورت إليه عند البلاغيين، منذ عصر السكاكي وأتباعه، وإنما كان يقصد بها دلالتها المعجمية، بمعنى الشيء الطريف أو الجديد الذي لم يسبق إليه، ولذلك شملت كل ما يصدق عليه هذا المفهوم من الظواهر البلاغية مما كان يدعيه بعض الشعراء المولدين، ويزعمون أنهم أول من ابتكره واستخدمه في العربية، فأراد أن يرد عليهم ادعاءهم هذا بتأليف كتابه.

¹ - نحو بلاغة جديدة. ص 12

² - د. محمد عبد المنعم خفاجي و د. عبد العزيز شرف: نحو بلاغة جديدة. القاهرة، دار غريب للطباعة، د.ت. ص 37

ولم يكن غريبا إذن، أن تكون الاستعارة أول ظاهرة يتحدث عنها.

ثم كان التحول في معنى البديع وتخصيصه على أيدي السكاكي ومدرسته، وبه صار اسما لفرع من فروع الدراسات البلاغية مقصورا على "وجوه تحسين الكلام" التي تكون إما لفظية أو معنوية. " وكان لهذا التخصيص جنايته على مسار الدرس البلاغي، فقد عزل الظواهر الأسلوبية بعضها عن بعض، وأصبح دور "علم البديع" بمقتضاه دورا هامشيا أشبه بالتلوين الخارجي الذي لا تأثير له على جوهر المعنى".¹

وتأكد ذلك بما جاء صراحة في تعريفه، من أنه " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، و وضوح الدلالة ".² وكأن عملية التعبير اللغوي عملية متميزة العناصر، يمكن التحكم في عنصر منها دون الآخر.

ولم تسلم دراسة البلاغيين لهذا العلم من آفة الإفراط في تقسيم الظواهر وتشقيقها أكثر من الفرعين الآخر ين؛ فقد تبارى كثير من البلاغيين في القرون الأخيرة في تسجيل ظواهر بديعية زيادة على ما قدمه السابقون عليهم، وعرف البحث البلاغي نفرا من هؤلاء الذين سموا بأصحاب " البديعيات " وهي منظومات شعرية تحوي تعريفا بألوان البديع المختلفة على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، ومن أشهر هؤلاء ابن حجة الحموي في القرن التاسع الهجري.

ولا شك أن نضوب ينابيع الإبداع و ضحالة العطاء الفني عند شعراء تلك العصور كان له أثر على البحث البلاغي الذي أضحي يتكلف إحصاء الظواهر، والاستزادة منها، دون أدنى اهتمام بما ينبغي أن يكون غاية أساسية لدراستها، وهو تحليل مدى تأثيرها في تشكيل الصورة الفنية في الشعر والنثر، وعوامل شيوع ظاهرة ما عند شاعر معين، أو لدى شعراء عصر بذاته، وعلاقة ذلك بالمناخ الفكري والنفسي للشاعر أو للعصر كله.

¹ - شفيح السيد : البحث البلاغي عند العرب. ص 273

² - الخطيب القزويني: الإيضاح. ص 192

يمكننا القول إن حياة مصطلح " البديع " قد انقسمت إلى قسمين ظاهرين أحدهما حياته الطبيعية النابضة، والأخرى حياته السطحية العقيمة، وإن حياته النابضة استمرت سبعة قرون، ثم سيطرت الفكرة العقيمة عليه فجعلته جثة هامدة.

ومن واقع معنى " البديع " في القرآن الكريم، كما وردت في الآية الكريمة " بديع السموات والأرض " (البقرة / 17) و (الأنعام / 101)، بمعنى المنشئ على غير مثال سابق، والمبدئ بلا حذو يحتذيه . وكلمة " بديع "، في لسان العرب تعني : أبداع الشيء يبدعه وابتدعه ، أنشأه وبدأه .

فالبديع هو : الجديد، والغريب، والبارع، والعجيب، ومن هنا فهم البلاغيون القدماء مصطلح البديع، على أنه درجة خاصة من التميز يظفر بها الفنان المطبوع، لذا نراهم يوسعون دائرته تارة ويجعلونها مرادفة للبلاغة، وأخرى يضيقونها ويجعلونها خاصة بالتفرد في فنون بعينها.

والبديع كما يحدده السكاكي " وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام " ¹.

ويحدد الجرجاني شروط هذا البديع قائلا : " وعلى الجملة، فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تتبغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ... " ².

هذا هو البديع الذي سماه القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ) بالفصاحة، وسماه الرماني (ت 384 هـ) بالبلاغة، وسماه الجرجاني بالنظم.

" إن البديع هو البلاغة في أسمى درجاتها، فالأسلوب المتميز المبتدع هو الذي يؤدي إلى البلاغة، وهو ال ذي يعطيها البديع، وبالتالي، تكون الفنون البلاغية كلها فنونا لتحقيق درجة الإبداع، فالتشبيه والمجاز والكناية والطباق والفصل والوصل والقصر

¹ - المفتاح ص 1790
² - الأسرار . ص 7

وغيرها من الفنون، إنما هي أوعية يحاول الفنان أن يصب فيها ابتكاره وإبداعه ونبوغه، وقد ينجح وقد لا، فليس هناك فنون بديعية، إنما هناك فنون تحاول أن تحقق البديع، أن تحقق البلاغة في أبداع صورها".¹

عندما يتحدث الجرجاني عن التجنيس، وهو رأس البديع اللفظي، يرجع الحسن فيه إلى العقل، فيرى أنه لا يستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل حميدا. ويثبت أن الجمال في الجناس والسجع لا يرجع إلى جرس الحروف وظاهر الوضع اللغوي وإنما يرجع إلى أمور معنوية من شأنها أن ترضي العقل. " فالجمال في الجناس راجع إلى هذا الخداع اللفظي الذي يوهم أن معنى الكلمة الثانية هو بعينه معنى الكلمة الأولى . وسرعان ما ندرك أنها ليست إياها وأنها تعطينا معنى جديدا غير المعنى الذي تقدمه الكلمة الأولى ... وهو أمر يعود إلى المعنى أكثر من عوده إلى اللفظ بما هو صوت مسموع".²

أما الإيقاع فهو التناغم الذي يقيمه الفنان بينه وبين المخاطب عن طريق الموضوع، هو الموسيقى النابعة من داخل الصياغة، وهو ليس نغمات مكررة فقط، بل هـ و تصوير لجو المعنى للتواصل المستمر بين المتكلم والمخاطب والموضوع:

" فأصوات الحروف، وتركيب المقاطع، وتناغم الحركات مع السكّنات، والعلاقات الوطيدة بين مخارج الحروف ومعانيها وتناسقها في مسافات مرسومة، كل هذه أدوات لتهيئة الجو العام النفسي للإيقاع، فالموضوع يوحى بالإيقاع، والإيقاع يبرز الموضوع، والعلاقة بينهما عضوية لا تنفصم".³

كان علم "البديع" أهون علوم البلاغة الثلاثة حظا من اهتمام عبد القاهر وعنايته، فإذا كان قد أفرد لكل من علمي "المعاني" و "البيان" كتابا مستقلا تناول فيه بالبحث الدقيق مباحثه، فإن مباحث علم "البديع" لم تحظ منه بأكثر من صفحات معدودة في كتابيه، تناول فيها فنين اثنين فقط من فنون "البديع" الكثيرة وهما التجنيس والسجع. وإن قدم منها جديدا

¹ - د. منير سلطان: البديع تأصيل و تجديد. ص 20

² - سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية. ص 178

³ - د. منير سلطان: البديع تأصيل و تجديد. ص 23

لدراستهما وتناولهما. ولعل عبد القاهر وجد أن الفنون الأساسية التي انحصرت فيما بعد تحت عنوان البديع " قد قتلت بحثاً منذ اكتشافها ابن المعتز وقدامة بن جعفر، وأن الذين تناولوها من بعدهما قد ضلوا طريق التناول السليم، حيث لم يعبأوا ببيان وظيفتهما البلاغية، ومن ثم رأى عبد القاهر أن ما تحتاجه هذه الفنون هو طرح منهج جديد لدراستها.

وقد ركز عبد القاهر في دراسته للتجنيس والسجع على الوظيفة التعبيرية والأثر النفسي لهما من ناحية وعلى تلاؤمهما وانسجامهما مع النظم من ناحية أخرى، فالمحسن البديعي لا ينبغي أن يكون هدفاً في ذاته، ولا حلية شكلية تضاف إلى الصورة، وإنما لا بد أن يكون له دور في نقل المعنى وإيصاله وأن ينسجم في الوقت نفسه مع البناء العام للتركيب البلاغي ولا يكون على حساب هذا البناء. فالأثر كله للنظم وللتأليف والصياغة.

" وقف العلماء في مطلع العصر العباسي على ألوان محدودة ومعدودة في البديع، لا تكاد تتجاوز أصابع اليدين، ومع مرور الزمن كان العلماء والأدباء يضيفون إليها أنواعاً وألواناً جديدة، حتى بلغ صفي الدين الحلي ما يزيد على مائة نوع منها، لكن الشعراء والمبدعين لم يحدوا أنفسهم بحدود؛ وكانت تصدر عنهم مبتدعات جديدة وظريفة"¹. هذه الألوان الجديدة التي ولد كثير منها في العصور المتأخرة، ولم يدرجها مؤلفو البديع المعاصرون في كتبهم، إما لأنهم لم يطلعوا عليها، أو لأنهم حاروا في أمرها. فكان موقف معظم المؤلفين المعاصرين أنهم رفضوا كل ما جاء به العصر المملوكي والعثماني وأواخر العصر العباسي.

والبديعيات هي تلك القصائد المطولة التي تزيد الواحدة منها على خمسين بيتاً، وقد تبلغ المائة، أو المائة والخمسين بيتاً، وقد تصل أحياناً إلى ما يقرب من ثلاثمائة بيت.

¹ - د. بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البديع، ج 3، ط 3، ص 6

الهدف الرئيس في هذه القصائد هو مدح الرسول - ص - كما يتضمن كل بيت من هذه القصيدة لونا من ألوان البديع المذكورا صراحة أو ضمنا.
ولقد التزم شعراء البديعيات جميعا بأن ينظموا بديعياتهم ع لى وزن البحر البسيط، وأن يجعلوا رويها الميم المكسورة على الدوام . وكل قصيدة خلت من أحد هذه الشروط لا تعد من البديعيات.

والذي فجر ينبوع البديعيات شاعر مصري من قرية "بوصير" هو الصنهاجي البوصيري (ت 696 هـ). وأسباب ذبوع هذه القصيدة في عصر البوصيري وفي العصور التي تلت إلى يومنا هذا، وعلى امتداد العالم الإسلامي، ورغبة الشعراء في النظم على منوالها هي كالتالي :

موضوع القصيدة، أي تمجيد محمد رسول الله.
سلاسة النظم و عذوبته، ورقة الألفاظ، وجمال التراكيب.
روعة الموسيقى وانسيابها عبر وزن البحر البسيط وخفة وقع القافية ، وجمال الميم المكسورة في الروي.

قصة الرؤيا التي تحدث عنها البوصيري، فقد ذكر أنه بعد نظم هذه القصيدة رأى رسول الله - ص - في المنام، فأنشده إياها، فخلع عليه بردته ونهض البوصيري مستيقظا، فرأى فيه نهضة ونشاطا، و وجد أن الله تعالى قد شفاه من فالجه، وأمده بالصحة فخرج من بيته يمشي.

" إن ناظمي البديعيات لم يكونوا شعراء فحسب، وإنما كانوا شعراء أدباء، قد امتلكوا زمام الأدب، و وجدنا مجموعة كبيرة من المؤلفات التي دارت حول البديعيات، كونت جانبا لا يستهان به في التراث الأدبي في العصور المتأخرة.

كما أن مضمون هذه المؤلفات ، وما حوته في ثنايا صفحاتها من فنون الأدب الشعري والنثري، والقصص والأمثال، ولمحات من النحو والصرف والعروض والتاريخ، إضافة إلى الشواهد من الشعر، وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول -ص-¹. كل ذلك كان له الأثر البليغ في التأليف، وهكذا يبدو أن الفتح الجديد للبلاغة بعامة، وللبديع بخاصة، كان يوم نظم البوصري برده، ويوم نظم صفي الدين الحلي معارضته للبردة: إن هذين العملين فتحا القلوب للبديعيات أولاً، ثم لفنون البديع بشكل خاص، وعلوم البلاغة بشكل عام.

لقد جعلت البديعيات من البلاغة " فنا شعبيا "، بعد أن كانت ع لماً متربعا في برج عاجي لا يدركه إلا خواص المثقفين، ولم تتل العلوم البلاغية الأخرى في مباحث المعاني والبيان ما ناله البديع من تقدير . فالبديعيات " متون " تعليمية جمعت فنون البديع وقدمتها سهلة سائغة إلى الناس جميعا.

وفي العصر الحديث، تكاد معظم كتب البلاغة المتداولة بين أيدي المتعلمين تتفق على تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة، وكأن البلاغة في أصلها متفرعة إلى هذه الفروع، وأنه لا يمكن دراستها إلا بهذه السبل.

ولو رجعنا إلى كتب القدماء المتصلة بموضوع البلاغة لرأيناها على صور شتى، وطرائق في التأليف مختلفة كل الاختلاف عن كتب المعاصرين وأساليبهم.

فابن المعتز هو أول من ألف كتابا مستقلا في هذا الموضوع، وأسماه " البديع " جمع فيه بحوثا تتوزعها الكتب الحديثة في علم البيان تارة، وعلم المعاني تارة أخرى، وعلم البديع حيناً.

كذلك شأن العلماء الذين سبقوا ابن المعتز، أو عاصروه، أو تأخروا عنه بضعة قرون، فلقد كانوا يضمنون بحوث البلاغة خلال دراسة الإعجاز القرآني، أو النقد الأدبي، أو عند الحديث عن السرقات الشعرية، أو الكلام عن روعة بيان العرب وفصاحتهم.

¹ - المرجع نفسه، ص 22-23

" فقدمة بن جعفر (ت 337 هـ) أدرج حديثه عن البلاغة في كلامه عن نقد الشعر، دون أن يميز هذا من ذلك. ومثله فعل ابن طباطبا (ت 322 هـ) في كتابه " عيار الشعر "، والآمدي في كتابه " الموازنة بين الطائيين "، والقاضي الجرجاني (ت 392 هـ) في " الوساطة بين المتبني وخصومه "، والعسكري في كتابه " الصناعتين"، وابن رشيق في كتابه " العمدة في صناعة الشعر و نقده "، وابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) في " سر الفصاحة "، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه : " دلالة الإعجاز " و " أسرار البلاغة "، والزمخشري (ت 538 هـ) في تفسيره " الكشاف "، مع اختلاف ليس بالكبير بين طرائقهم ومناهجهم ¹.

كان انشغالهم الأكبر بالذوق والفن الرفيع وروعة التعبير، ولم يكن يشغل بالهم تفریع البلاغة وتهشيمها وتععيد القواعد لها، وتقسيمها إلى علوم وجزئيات.

" ودارت الأيام وخلف علماء البلاغة البلغاء خلف من علماء البلاغة، ولكنهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم، ولم يكونوا متذوقين مواطن الجمال، فجردوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد، ثم صنفوا ذلك مستعنيين عليه، كل بحسب ثقافته، بالفلسفة والكلام والمنطق، وفرعوا وقسموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية - في معظم الأحيان - مما كانت به بلاغة، جاءت مجردة من أسباب الحياة، جافة لا روح فيها، معقدة لا بيان يوضحها: " كانت البلاغة فنا يدرك بالحس الجمالي، أو كانت جمالا يدرك بالذوق، فأصبحت على أيديهم أحكاما أو معارف صاغوها في حدود التعريفات " ².

لقد ابتدأ الفخر الرازي (ت 606 هـ) في كتابه " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " بتلخيص كتب الجرجاني تلخيصا أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص، ويقترّب بها من الحدود والقوانين، ثم استكملت تعقيدها على يد السكاكي في كتابه " مفتاح العلوم ". وما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم لعلوم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده، وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا.

¹ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد ص 44-45
² - المرجع نفسه ص 45

فإذا عرفنا أن السكاكي كان متأثراً بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية، وعرفنا أنه صيغ البلاغة في كتابه بصيغة هذه العلوم، عرفنا سبب طغيان القوالب والحدود على علوم البلاغة، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من حذا حذوه.

3- النقد والبلاغة والذوق الجمالي

التقى النقد بالبلاغة، فلم يفرد لهما بحث خاص، ولا علم خاص : " لم يكن علم يسمى البلاغة في القرن الثالث الهجري، وإنما هذا العلم كان جزءاً من النقد الأدبي، وما دعا إلى استقلاله عن النقد الدراسات القرآنية الباحثة عن الإعجاز والجمال البياني فيه، ولقد بدأ الاستقلال البلاغي في القرن الرابع الهجري".¹

فاستأثر النقد بالشعر والبلاغة بالقرآن، وإن كان النقد في أحيان كثيرة استحال ملامحه وطغت عليه البلاغة، " وممن أشار إلى هذه القضية أحمد أمين في كتابه (النقد الأدبي)، وتابعه من بعده محمد مندور في (النقد المنهجي) وسهير القلماوي في (النقد الأدبي)".²

والأمر الذي أدى إلى التداخل بين النقد والبلاغة أن " ميدانها واحد : هو النص الأدبي. فالنص الأدبي، يعنى بتحليل القطعة الأدبية، فيتناولها مضمونها وشكلها وأسلوبها، للوقوف على ما فيها من غث وسمين، وتقدير قيمتها الأدبية، في حين تعنى البلاغة بالأسلوب أكثر، فتفرض أن الأديب عنده مادة يريد أداءها مهما تكن قيمتها".³

والبلاغة هي تلك القوانين والمعايير التي بها يحكم على الأدب حسناً أو قبحاً، جمالاً أو رداءة؛ علماً بأن الأدب هو فن يلون الكلام بألوان من التناسق اللفظي، والنسق التعبيري والتلاؤم الفكري. ومن ثم كان نتاج الأدباء من الشعراء والكتاب والخطباء. والأدب نتاج عقول لها قوة التفكير وروعة التصوير ونتاج عواطف ومشاعر وأحاسيس لها قوة التأثير بما يشاهد وقوة التأثير على من تعبر له .

والبلاغة هي ذلك الم عيار الذي يوزن به هذا الأدب ويحكم عليه . فالبلاغة بهذا المعنى علم يحدد القوانين العامة التي لا بد أن يسير فيها النمط الأدبي والتي بها يمكن للأديب أن ينظم كلماته وأن يرتب أفكاره في تناسق وتسلسل وانسجام.

¹ - مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 19

² - المرجع نفسه. ص 126

³ - عمر الملاحوش: إعجاز القرآن و علم المعاني. الكويت، مكتبة الفلاح، 1986. ص 189

" والأدب لا يسمى أدبا إلا إذا كان قائما على أساس من علم البلاغة. وعلم البلاغة نفسه لم ينشأ إلا بالوقوف على ما في الأدب من جمال ... " ¹

وأداة الجمال هي الذوق " الذي لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقا مأمونة، إلى عمل من الأعمال وإن كان يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة . وفي الأقوال المأثورة : لا جدال في ذوق، لذلك لا نستطيع أن نطلقه في الأدب حتى لا تكون الفوضى، ولا أن نقيده بالقواعد حتى لا يكون الجمود " ².

والذوق الأدبي " جزء منه غريزي لا دخل للإنسان فيه، وجزء مكتسب يكتسبه الكاتب بمخالطته للأدباء المجيدين وبالمطالعة في الكتب الأدبية الراقية وبالمران في الكتابة، فهو بهذا كله يستطيع أن يدرك الألفاظ والأساليب التي تناسب الموضوعات ... وأي كلام يناسب المقام. وهذا الذوق الراقي هو غاية ما يصبو إليه الأديب " ³.

تختلف الأذواق من شخص لآخر، ومن مجتمع لآخر، ولا تخضع لأي منطق أو أي معيار قيمي . فإن الكثير من نقاد الأدب يطلقون الأحكام الدقيقة والسريعة على الأعمال الإبداعية في لحظة الإدراك الجمالي لها . والأذواق الجمالية والفنية، لا تصدر عفوا، وإنما تأتي نتيجة تجربة حياتية طويلة ومضنية.

إن خلق الذوق الراقي القادر على كشف مواطن القوة والضعف، الجمال أو الابتذال في الأعمال الفنية والأدبية هو مهمة النقد وعلم الجمال . ويتطلب الأمر التغلب على النظرات الجامدة والمحافظة والقدرة على مسايرة الزمن وتعديل القناعات الثابتة بما يتساق وروح العصر وتطور الإنسان نفسه، وحينئذ يتعين على الجميع اكتساب المهارات الفنية، وتوكيد الذوق الجمالي، وإمكان تربيته والارتقاء به ببذل الجهد والوقت في المطالعة؛ فالذوق يمتلك مميزات فردية إلى جانب الملامح العامة التي تجمعها بذوق الغير في مجتمع واحد وبيئة واحدة.

¹ - أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 176

² - المرجع نفسه. ص 165

³ - نحو بلاغة جديدة. ص 53

والذوق قدرة روحية وعملية وانفعالية يتم تشكيلها أثناء عملية تربية الإنسان وتكوينه، وهنا يكمن سر ارتباطه بالمعايير الجمالية الأخرى، وتتبع أحكام الذوق من مدى قدرته على تقويم الظواهر الحقيقية والآثار الفنية من وجهة نظر الآراء الجمالية حول القبيح والجميل، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الذوق خاضع للتغير من بيئة إلى أخرى، ومن إنسان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر.

"لا يتم الذوق ولا تتولد الأحكام إلا بعد الاندماج بالموضوع ... مما يولد علاقة جمالية بين الذات المدركة والموضوع المدرك . ومن هنا نبع الظن بأن مفهوم الذوق يقوم على الأحاسيس لا على الأحكام، إلا أن الذوق لا يقوم إلا على تقييم ما، وحيث يوجد التقييم توجد علاقة ما، وهذه العلاقة تولد سلوكا معيناً ... يتشكل الذوق نتيجة تشابك وتضافر الوعي الحسي والعقلي"¹.

والنقد الأدبي يثير جميع العوامل النفسية التي وراء التعبير، ومعنى هذا أن هناك ربطاً بين النقد الأدبي وعلم النفس، ووظيفة الناقد عندئذ هي أن يميز بين تجارب الأدباء المختلفة وخبراتهم، ولن يستطيع الناقد أن يؤدي وظيفته هذه دون أن يدرك طبيعة التجربة التي دفعت الأديب إلى التعبير، وهو يرى كذلك أن للغة وظيفة انفعالية غير الوظيفة الرمزية التي يجب أن تقتصر عليها لغة التفكير العقلي.

والفرق بين الاستعمال الرمزي والاستعمال الانفعالي للغة : أن الاستعمال الرمزي للكلام وهو تقرير القضايا وتنظيمها وتوصيلها إلى الآخرين، أما الاستعمال الانفعالي فيستعمل الكلمات بقصد التعبير عن الإحساسات أو المشاعر والمواقف العاطفية.

ولغة الأدب أقرب إلى الاستعمال الانفعالي وإن كانت لا تخلو من الاستعمال الرمزي. "فكأن النقد الأدبي بهذا المعنى يحل ويحكم ويقوم الأدب في ضوء الحقائق البلاغية من ناحية قديمها وحديثها، وفي ضوء الوظيفة العملية للغة والوظيفة الانفعالية لها"².

¹ - د. حسين جمعة: قضايا الإبداع الفني. بيروت، منشورات دار الآداب، 1983. ص 95-98
² - المرجع نفسه، ص 477

" وموضوع التأثير النفسي للأدب نبه إليه المعتزلة مثل بشر بن المعتز والجاحظ والرماني وعبد الجبار وتداوله أهل السنة كالخطابي والأشاعرة كالباقلائي وعبد القاهر. ولنقف عند عبد الجبار الذي رأى أن إعجاز القرآن في فصاحة لفظه المنظوم من ثلاث جهات:

- من حيث وضعها،

- ومن حيث موضعه،

- ومن حيث حركتها الإعرابية.

وهو بهذا يرى أن الجمال يتحقق بالقيم الموسيقية في خاصية اللفظ وفي القيم الجمالية من حيث تشكيل اللفظة وموضعها من السياق وبالقيمة المعنوية التي ترمز إليها حركة اللفظة الدالة على موقع اللفظة المعنوي أو المعنى الوظيفي لنمو الكلام. هذه الحساسية الجمالية للفظ عند المعتزلة هي مدخلهم إلى الجمال المعنوي، وهو هدفهم الأخير في العبارة، ولذلك فهم يعرضون مثلاً عن الجمال البديعي. أما عبد القاهر فقد نادى بنظرية عبد الجبار ولكنه ركز كل الجمال في الخاصية الثالثة وهي معاني النحو، فمدخله إلى الجمال المعنوي هو ناتج عن علاقات معنوية بين الألفاظ. ويشاد لعبد القاهر مع المعتزلة في العناية بقيمة التأثير النفسي للأدب".¹

والأبحاث التي كتبت في البلاغة العربية على يد الأعلام الكبار في هذا اللون من الدراسات هي التي نابت عند العرب مناب الجمالية وفلسفة الفن لأنها قد ارتقت، من جهة، إلى مستويات المنهجية المنطقية ترابطاً وعمقا، كما أنها، من جهة أخرى، قد انطلقت إلى أغراضها من نظرة شمولية أساسية إلى الحياة والعالم، هي هنا نظرة الدين الإسلامي ومفاهيمه ورؤياه الأيديولوجية إلى الإنسان والمجتمع والكون.

وليس علم البلاغة، من هذه الزاوية، سوى علم الجمال باسم آخر غير اسمه:

" البلاغة العربية هي علم الجمال الأدبي عند العربي ... وفي الكشف عن معالم

الفكر الأدبي عند الجاحظ كشف عن بذور الفكر النقدي العربي، وعن جذور الجمالية

¹ - مصطفى الصاوي الجويني: المعاني علم الأسلوب. ص 385

الأدبية التي نمت وتطورت في مفاهيم البلاغة من بع ده باعتبار أن الجاحظ فاتحة الفكر البلاغي، وباكورة الجمالية الأدبية التي أئعت في العصور العباسية اللاحقة".¹

وعلى ذلك فالأدب والبلاغة والنقد الأدبي بينها علاقة وثيقة : فالأديب ينتج في ضوء البلاغة وأسسها، والناقد ينقد مستخدما مبادئ نقده من البلاغة . ولا شك أن الأدب والبلاغة والنقد تهدف كلها إلى أن توجد عند القارئ أو السامع إحساسا بالتذوق الفني وإدراكا لصور الجمال في التعبير واستمتاعا بالإبداع الخلاق الذي يبدو في الأدب وتلك هي الحصيلة النهائية من هذه الدراسات كلها.

ولكي يضطلع الناقد بهذه المهام، ينبغي أن يكون قادرا على:²

- تقدير الجمال الفني ومعرفة أسسه ومبادئه، وأن يكون على بينة من جمال التصوير و وسائل الإبداع وأن يدرك أن الصورة الفنية في الكلام هي أكثر أساليب التعبير تأثيرا عند القارئ أو السامع عن الألفاظ منفردة.

- الإلمام بأسس التعبير الجيد والإحساس بجمال التعبير وتناسقها وبقيمة اللفظ في تأدية المعنى.

وبالإضافة إلى ما سبق، يكون الناقد :

مطلعا على آليات بناء النص بمختلف أنماطه وأجناسه

مرهف الحس رقيق المشاعر، دارسا للبلاغة وأسسها.

قادرا على الاستمتاع بالأدب ملما بالكثير من آثاره المعاصرة والغابرة.

دارسا لنظريات النقد الأدبي، فالنقد علم له أصوله وقواعده.

ملاحظا جيدا، وذكيا فطنا يرصد المعاني الدقيقة الخفية في النص ويكشف عنها.

¹ - المرجع نفسه. ص 439
² - المرجع نفسه. ص 478

4- اللفظ والمعنى والنظم

اجتهد الدارسون من أجل تحديد مجال البلاغة، فاتخذ كل واحد عنصرا من عناصر القول مرتكزا لبحثه، مقلدا من شأن العناصر الأخرى، ومعللا - ما أمكن - ما يذهب إليه.

• أنصار اللفظ :

اتجه النقاد منذ أوائل العصر العباسي إلى العناية بفصاحة الألفاظ وبلاغة التركيب وبخاصة البيئة الكلامية، التي يمثلها الجاحظ الذي أعطى قيمة كبيرة للفظ باعتباره عنصرا مهما من عناصر النظم . يقول : " المعاني مطروحة على الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي . إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير . والجمع بين التصوير و الصياغة عند الجاحظ هو الذي جعل كلمة اللفظ تشمل عند جميع النقاد الذين خلفوه الصورة البيانية. " فالحديث عن " إقامة الوزن و تخير اللفظ " ثم " جودة السبك " التي تؤدي منطقيا إلى " إنما الشعر صناعة و ضرب من النسيج و جنس من التصوير " وهي مفردات سوف تتردد كثيرا عند الجاحظ وغيره من البلاغيين العرب، وخاصة مفردات " النسيج " و " التصوير " . وهذا السياق كله يشير في اتجاه واحد، أو في أحد اتجاهاته على الأقل، نحو الصياغة والنظم ¹.

أدرك الجاحظ ما للبيئة من أثر في الحس اللغوي والتأثر بالألفاظ، فابن البيئة الصحراوية حين تلفظ بقربه ألفاظ " النار والحرارة والصيف " توحى له بما في مخيلته من حرارة الصحراء و عواصفها ... ولا يرى ابن البيئة الباردة في هذه الألفاظ إلا معاني الدفاء، وحين تسمعه ألفاظ " الثلج والبرد والشتاء " توحى له بما في ذهنه من آثار ومشاعر عن البرد القارس.

ومما جدد فيه الجاحظ، حديثه عن اللفظ، حيث قال : " وكما لا ينبغي أن يكون

اللفظ عاميا ساقطا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا

¹ - المرايا المقعرة. ص 231

أعرابيا فإن الوحشي من الكلام يفهمه من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي . وكلام الناس في طبقات كما أن الناس في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمح والخفيف والثقيل وكله عربي¹.

أصبح هذا القول فيما بعد أساسا مهما لقاعدة مهمة في فصاحة اللفظ لدى أهل البلاغة.

كان الجاحظ لا يرى أن تستعمل ألفاظ المتكلمين في غير مقامها، فلا يجوز أن يستعملها الفرد في خطبة في الناس، ولا يجوز أن يخاطب بألفاظ المتكلمين العامة، ولا أن يتكلم في ذلك مع أهله وعبيده، وإنما يخوض فيما يخوضون . يقول الجاحظ في خلاصة رأيه : " من الخطأ أن يجلب (المتكلم) ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل "². ومن هنا، اعتبر الجاحظ قاعدة "لكل مقام مقال" التي حورها البلاغيون المتأخرون عندما عرفوا البلاغة بأنها "الكلام حسب مقتضى الحال".

ويجيء ابن المعتز بعد الجاحظ ... ويرى أن جودة الكلام إنما تعود إلى اللفظ وألوان المحسنات التي جمعها في كتابه " البديع ". ولا تلبث أن تشيع فكرة أن إعجاز القرآن لا يفهم إلا عن طريق علوم البلاغة، فنجد من الباحثين من يحاول وضع أسس لها مثل أبي هلال العسكري في كتابه "الصناعتين".

وقد كتب أبو هلال العسكري كتابه معتمدا كل الاعتماد على ما كتب الجاحظ مع تبديل نظرية الجاحظ في اللفظ و المعنى . فأبو هلال لم ينظر نظرة الجاحظ في أن اللفظ والمعنى متساويان إلا أن اللفظ يتقدم قليلا على المعنى، ولكن أبا هلال رأى أن الألفاظ هي الأساس الذي عليه يقوم التفاضل بين الشعراء والأدباء وهو في ذلك قد اعتمد على كتاب " البيان والتبيين " كثيورا وأورد اسم الجاحظ مرارا مما يدل على تأثره به.

¹ - البيان و التبيين، ج 1. ص 256
² - الحيوان، ج 3. ص 368

فقد اقتبس الكثير من أقواله كما أنه شرح بعض هذه الأقوال و وسعها ومثل لها .
قال أبو هلال في اللفظ والمعنى : " وليس الشأن في إيراد المعاني - لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي - وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أذى النظم والتأليف. وليس من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون ما وصفناه من نعوته التي تقدمت.

ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن ا لخطب الرائعة والأشعار الراقية ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب معانيه على فضل قائله . وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني.

ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ويغنون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم وحذقهم في بضاعتهم . ولو كان الأمر في المعاني لطحوا أكثر ذلك فربحوا كذا كثيرا وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً¹ .
ذهب أبو هلال إلى أن المعاني لا قيمة لها لأن بعض المتكلمين من أصحاب الصناعة يزينون أحاديثهم وأشعارهم بالبديع لضحالة المعنى في أنفسهم وعدم قدرتهم وعجزهم عن التعبير، فاستنتج أبو هلال أن هذا الشرط يلزم الشاعر، وأن الألفاظ هي التي يقوم عليها أساس التفاضل.

وسار ابن خلدون في هذا الاتجاه، فقد كان يرى أن الأصل في صناعة النظم والنثر إنما هو اللفظ، والمعاني تابعة للفظ " لأن المعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوق كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة"².

¹ - الصناعتين ص 58
² - ابن خلدون: المقدمة. ص 1302

أدى الإيمان بهذا الاتجاه بفريق من الأدباء العرب في القرن الخ امس الهجري،
وفيما تلاه من القرون إلى أن ينزعوا إلى جانب تفضيل الألفاظ، والتأنق بالأساليب على
حساب المعنى والجوهر؛ فغدا أدب هذه العصور ألفاظا مرصوفة، وقوالب جامدة،
وأجساما بدون روح، فانهار الأدب، وطغت عليه عوامل الانحطاط.

وفي العصر الحديث، ينضم أحمد حسن الزييات (ت 1968 م) إلى مرجحي اللفظ
على المعنى، حيث يقول: "والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة
الديباجة، و وثاقة السرد، ونصاعة الإيجاز، وبراعة الصنعة، فإذا كان مع كل ذلك المعنى
البكر، والشعور الصادق، كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما
هو لرونق اللفظ، وبراعة التركيب، من أن المعنى المبذول أو التافه قد يتسم بالجمال،
ويظفر بالخلود، إذا جاد سبكه، وحسن معرضه".¹

• أنصار المعنى :

انحاز الفريق الثاني من الدارسين إلى المعنى، ونجده ممثلا في ابن جني
(ت 322 هـ) على وجه الخصوص. فقد رأى أن العرب إذا اعتنت بألفاظها، فإنما هي تخدم
المعاني التي تحملها تلك الألفاظ، والمعاني عندها أكرم قدرا، وأرفع شأنا وأعلى مكانا من
الألفاظ والشأن - كل الشأن - للمعاني.

ويمثل هذا الفريق كذلك الشريف الرضي في كتابه "تلخيص البيان في مجازات
القرآن" حيث يقول: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها
وهذبوها، وصقلوا غروبها² وأرهفوها، فلا تزين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل
هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها... ونظير ذلك إصلاح الوعاء
وتحصينه وتزكيته، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يعطر

¹ - أحمد حسن الزييات: دفاع عن البلاغة. ص 38
² - استعارة من غروب الأسنان، أي أطرافها

نشره، ولا يعر¹ جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه، ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه².

• مدرسة النظم :

أما الفريق الثالث، وهو الأعم الأغلب في تاريخ البلاغة العربية، فقد وحد النظرة إلى وجهي الكلمة : لفظها ومعناها، ورأى فيها جسدا وروحا متكاملين .
" وكان من زعماء هذا الفريق أكبر رجل عرفته البلاغة العربية على مدى تاريخها الطويل، هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، ولا سيما في كتابه " دلائل الإعجاز "، حيث استطاع أن يفسر نظرية النظم تفسيرا ردها فيه إلى المعاني الثانية أو المعاني الإضافية التي تلتصق في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس، وهي معان ترجع إلى الإسناد و خصائص مختلفة في المسند إليه والمسند وفي أضرب الخبر وفي متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال وفي الف صل بين الجمل والوصل وفي القصر وفي الإيجاز والإطناب . وهي نفسها الأبواب التي ألف منها من خلفوه علم المعاني³ ."

إن ثنائية اللفظ والمعنى قد أصبحت خطرا على النقد والبلاغة معا . أما على المستوى النقدي فإن الانحياز إلى اللفظ قتل " الفكر " الذي يعتقد الجرجاني أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظ دون أخرى، وأما على المستوى البلاغي فإن الجرجاني لم يستطع أن يتصور الفصاحة في اللفظة، وإنما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيبا من عدة ألفاظ.

ومن جهة ثانية خطأ الجرجاني المنحازين إلى جانب المعنى بشدة، فقال: " واعلم أن الداء الدوي والذي أعيا أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى . يقول : " ما في

¹ - يعر : يسيء و أصله من العر و هو الجرب.

² - تلخيص البيان في مجازات القرآن . ص 215

³ - د. شوقي ضيف: البلاغة، تطور و تاريخ، ط 4. مصر، دار المعارف، 1965. ص 189

اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟ " فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع
حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر".¹

ويضيف الجرجاني: " يتقرر في نفس المتأمل كيف ينبغي أن يحكم تفاضل الأقوال،
ليس بمجرد اللفظ. كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها
إلى وجه دون وجه من التراكيب والترتيب؟ فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر
فعددت كلماته عدا كيف جاء وانفق وأبطلت بضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ
المعنى وأجرى، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان
المراد نحو أن تقول: " في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (منزل قفا ذكرى من نبك
حبيب) أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان... وأسقطت نسبته من صاحبه وقطعت
الرحم بينه وبين منشئه".²

ويخلص الجرجاني إلى أن: " المعنى هو الغاية واللفظ هو الوسيلة التي بها يلبس
المعنى اللباس المناسب".³

فالجرجاني هو الذي منح فكرة النظم صيغة جديدة، " جعلت منها بحثا عميقا في
العلاقات الممتدة المتداخلة بين مفردات التراكيب، ولونا من الدراسات الأسلوبية، انبثق عن
العربية بخواصها وأنماط بنائها، فهو الذي تحول " النظم " عنده إلى مصطلح ذي مفهوم
محدد، ينبع من حيوية الدور الذي يقوم به الموقع الإعرابي في الكلام".⁴

فالألفاظ، كما يقول، " مغلقة على معانيها، والإعراب هو الذي يفتحها، والأغراض
كامنة فيها والإعراب هو الذي يتولى استخراجها، فهو المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام
ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه".⁵
من هذا الإدراك لوظيفة الإعراب في الكلام نبع مفهوم النظم عند عبد القاهر، فقال
عنه: " هو أن تضع كلامك في المواضع التي يقتضيها علم النحو أو علم الإعراب، وهو
بهذا المفهوم لا يتعلق إلا بالتراكيب، أما الكلمة المفردة فليس لها من الوجهة البلاغية قيمة

¹ - الدلائل. ص 194

² - أسرار البلاغة. ص 8

³ - المرجع نفسه. ص 9

⁴ - د. شفيق السيد: البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم، ط 2. مصر، دار الفكر العربي، 1996. ص 67

⁵ - دلائل الإعجاز. ص 28

في ذاتها، اللهم إلا أن يقال عنها إنها مأنوسة في الاستعمال، أو حسنة الوقع في السمع، ولا تصبح لها قيمة بلاغية إلا إذا دخلت في نظم معين¹.

ويؤكد عبد القاهر التلاحم بين النظم و المعاني النحوية، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، بما يوصف به الكلام سلبا أو إيجابا، "فليس هنا كلام يوصف نظمه بالخطأ أو الصواب، بالفساد أو الحسن إلا كان مرد ذلك إلى ما اعترى العلاقات النحوية فيه من اضطراب واختلال، أو ما جاءت عليه من دقة وانتظام"².

وقد عنى عبد القاهر بتفصيل القول في الظواهر الأسلوبية المتعددة التي يتشكل فيها نظم الكلام كالتقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتكثير، والاختصاص والفصل والوصل بين الجمل، كما عنى بتبيان الفروق الدلالية الدقيقة الناشئة عما بين أساليب المعنى النحوي الواحد من اختلاف في النظم.

وفي تناوله لظاهرة الحذف، قام بتحليل سبب الحذف في بعض النماذج الشعرية تحليلا نفسيا، وكان تارة لم يقم تحليلا لسبب الحذف، ويلجأ إلى القارئ طالبا منه أن يستشف ذلك بنفسه، وأن ينفذ إليه بإحساسه الخاص، مكتفيا بإطلاق بعض الأوصاف العامة.

ومن الأفكار البلاغية التي عرض لها عبد القاهر من خلال نظرية النظم ما ذكره من فرق في الدلالة بين الإخبار بالاسم، والإخبار بالفعل.

لقد اتسعت آفاق نظرية النظم التي رآها عبد القاهر، أول الأمر، طريقا إلى إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن، لتصبح دراسة أسلوبية واسعة النطاق لأنساق التراكيب في العربية، على اختلافها وتنوعها. وكانت أولى ثمارها تفسير الزمخشري (ت 538 هـ) للقرآن الكريم الذي يعد بحق نموذجا تطبيقيا رائعا لها. ثم كان ظهور "علم المعاني" بمباحثه المعروفة في البلاغة العربية التقليدية، على أيدي السكاكي ورجاله من البلاغيين المتأخرين، أثرا آخر من آثارها.

¹ - المرجع نفسه، ص 44 - 48

² - المرجع نفسه، ص 81 - 84

" يذكر أحمد مطلوب ("عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونقده") أن أقدم نص عثر علي في كتب العربية يرجع إلى ابن المقفع يشير فيه إلى صياغة الكلام . يقول النص :
" فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليلاً و وضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رقيقاً ."
وبرغم أن ابن المقفع يستخدم لفظ " نظم " في سياق تشبيهه بين صانع البديع وصائغ الجواهر فإن العقل العربي كان مازال بعيداً بشكل واضح عن مفهوم النظم عند عبد القاهر ¹ .

وهكذا كان الإدراك المبكر بضرورة وجود نظام تحدد على أساسه صحة الأماكن وأوجه التشابه أو التعالق التي تربط المفردات في سياق جديد .
استطاع عبد القاهر أن يقدم نظرية متكاملة للمعاني من خلال حديثه عن النظم، وتفسيره إعجاز القرآن بكونه كامناً في نظمه وليس في فصا حته، أو في صورته اللفظية أو المعنوية . ويمكن إجمال نظرية النظم التي خص بها عبد القاهر كتابه " دلائل الإعجاز " فيما يلي ² :

أولاً : إنه لا ميزة للألفاظ من حيث هي أصوات مسموعة دون مراعاة للسياق المنتظمة فيه، إذ ليس للفظ من قيمة ذاتية في نفسها بمعزل عن الس ياق الواردة فيه الذي يتحدد من خلاله معناها .

يرى عبد القاهر بهذا الشأن أن : " الألفاظ... لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد " .

ثانياً : القضاء على النظرية الشائعة في النقد العربي لذلك العهد - نظرية اللفظ والمعنى - ومن ثم القضاء على الفصل المزعوم بين اللفظ وبين معناه أو بين الصورة

¹ - المرايا المقعرة. ص 230
² - سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية. ص 159-175

اللفظية والمحتوى الفكري للعمل الأدبي . وهكذا تبني عبد القاهر النظم و أرجع إليه كل مميزات العمل الأدبي . فهو يرى أن الألفاظ لم توضع لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها، وإنما وضعت لتستعمل في الإخبار عن تلك الأشياء بصفة أو حدث أو علاقة . وإذا فالمهم في اللغة ليس الألفاظ، بل مجموعة الروابط التي نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية. وتلك الروابط هي المعاني المختلفة التي نعبر عنها، ومن ثم كانت أهميتها، وما لها من صدارة على الألفاظ.

ثالثا : توظيف المعاني النحوية في السياق لخدمة المعاني العامة للنص الأدبي، ولا يمكن الوقوف على معاني النص إلا عن طريق المعاني النحوية، وقد كان تفسير عبد القاهر للنظم بأنه توخى معاني النحو وعلاقاته، وهي اللبنة التي قامت عليها مباحث " علم المعاني " وهي مباحث ومعان مستمدة من معاني النحو وأحكامه. فالنظم عند عبد القاهر يقوم على ترتيب معاني الألفاظ في النظم وفق ترتيبها في النفس، مع مراعاة المعاني النحوية التي تجري وفق أصولها وأحكامها.

رابعا : إن القيمة التي تقدمها الألوان والصور البيانية في التعبير أو السياق لا تك من فحسب في القيمة الذاتية لهذه الأغراض والوجوه البلاغية وما تؤديه في السياق، بقدر ما تعود إلى النظم وما يجب أن يراعى فيه التمييز الواعي بين الفروق الدقيقة للمعاني النحوية، وعلى قدر هذه المقدرة الواعية للتمييز بين وجوه المعاني النحوية والقدرة على استعمالها استعمالا دقيقا مراعى فيه علاقات النظم ومقتضياته.

تقوم نظرية النظم على أن النص الأدبي هو تشكيل لغوي، أو بناء لغوي في الدرجة الأولى، وأن علينا أن ننشد أسرار جماله الفني في تحليل بنائه اللغوي الذي يرجع إليه وحده كل ما في النص الأدبي من جمال وروعة، أو من فساد و اختلال، وهذه المقولة الناضجة هي ما عرف في فكر عبد القاهر البلاغي باسم " نظرية النظم " وقد رصد عبد

القاهر جل جهده العلمي لإرساء دعائم هذه النظرية وبلورة ملامحها العلمية، ثم اتخذها بعد ذلك منطلقاً أساسياً لدراسته البلاغية، وبخاصة قضايا علم المعاني.

وقد ابتدأ عبد القاهر بلورة ملامح نظريته هذه من خلال مناقشته لمقولتين شائعتين في النقد والبلاغة، ترى أولاهما أن قيمة العمل الأدبي تكمن في ألفاظه المجردة من حيث هي كلمات مفردة، وأن هذه الألفاظ تتفاضل فيما بينها وتوصف بالفصاحة والجمال، وبعكس هذه الصفات، وبمقدار فصاحة الألفاظ المفردة وجمالها يكون الكلام فصيحاً، بينما تذهب المقولة الثانية إلى أن قيمة العمل الأدبي فيما يحتويه من معان وأفكار، فبمقدار نبل هذه المعاني وشرف هذه الأفكار ترتفع قيمة العمل الأدبي، وقد انتهى عبد القاهر من مناقشته للمقولتين إلى رفضهما كليهما ليُنْتَهِي من ذلك إلى أن القيمة الفنية للنص الأدبي إنما تكمن في صياغته ونظمه، وأن هذا النظم هو مناط إبداع الأديب، ومظهر عبقريته.

وقد استغل عبد القاهر في مناقشته لهاتين المقولتين كل خبرته العقلية الجدلية كمتكلم، وكل ذوقه الأدبي المرهف. وهو يبدأ بمناقشة المقولة الأولى يرى أنه لا يمكن أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة قبل دخولهما في النظم والتأليف حتى تكون إحداها أدل على معناها الذي وضعت لتدل عليه من الأخرى على المعنى الذي وضعت له.

ولا يمكن المفاضلة بين لفظين إلا بعد وضعهما في نظم معين، وفي تركيب لغوي مخصوص، وبمقدار ملاءمة اللفظة لبقية الألفاظ التي يتكون منها التركيب اللغوي تكسب الكلمة جمالها ولطفها، وبمقدار تنافرها مع جاراتها في التركيب تكون درجتها من النقل والاستكراه.¹

يقول عبد القاهر :

" وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : " وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك، ويا سماءُ أقلعي وغيضَ الماءِ وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ". فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا الأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض،

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 35-36

وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل ما حصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت

لأدت من الفصاحة ماتؤديه وهي في مكانها من الآية؟

قل (ابلعي) واعتبره وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك

اعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ الفطرة في أن نوديت الأرض،

ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أي نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى

الكاف دون أن يقال : ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء

السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل وغيض الماء، فجاء الفعل على صيغة (فُعل)

الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى

" وقضي الأمر " ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو " استوت على الجودي " ثم

إضمار السفينة، قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم كالمقابلة

" قيل " في الخاتمة " بقيل " في الفاتحة...".¹

فمناطق الإعجاز في الآية كامن في هذا التناسق بين معاني الألفاظ التي يتكون منها

سياق الآية، وهي معان نحوية و بلاغية ، يستوي في ذلك دقة الاستخدام للمعاني النحوية

وجمال التصوير في الصور البيانية إلى التناسق العجيب بين معاني الألفاظ على نحو ما

كشفت عنه عبد القاهر.

وإذا تساءلنا: " ما النظم إذن؟ " ² نجد تعريفا لا تكاد دراسة في التراث النقدي

العربي تخلو منه، هو تعريف عبد القاهر الجرجاني المعروف: " معلوم أن النظم ليس

سوى تعليق الكلم بعضها ببعض و جعل بعضها بسبب من بعض " .

وبرغم الإيجاز الشديد الذي يعبر به عبد القاهر هنا عن مفهومه للنظم، فإن

التعريف في الواقع يقدم كل مكونات نظريته.

¹ - دلالات الإعجاز. ص 350
² - المرايا المقعرة. ص 225 و ما بعدها

فالنسق أو النظام *Système* ، في المنظور الح ديث، بل البنيوي، لا يضيف الكثير إلى مفهوم النظم كما تراتب النقاد العرب على شرحه قبل عبد القاهر وبعده.

لا يمكن لمنطوق أدبي، لعمل أدبي، أن يكون له معنى إذا تجرد من النسق الأدبي. إن العقل العربي كان قد طور نظريته الخاصة بالنسق أو النظم، منذ ما يقرب من ألف عام، بل إن النظم الذي ارتبط باسم عبد القاهر يجمع كل مفردات النسق الحدائي. في الحديث عن النسق يؤكد على مبدئين جوهريين:

الأول: إن التصوت اللغوي لا معنى له من دون نسق يحكم علاقات وحداته، أي أن تحقق الدلالة أو المعنى لا يتم إلا بوجود نسق لغوي هو قانون الإرسال والتلقي الذي يتفق عليه المتلفظ والمستمع.

الثاني: كيفية الوصول إلى النسق. يرى جمهرة اللغويين أسبقية الكلام *Parole* عن اللسان أو اللغة *Langue*. فالنسق تطور من نماذج الكلام الفردية. ولكي يتحول ذلك النسق إلى قانون عام له مصداقية العلم، يجب أن يتحول من الظواهر الفردية إلى اللغة. وبعد ذلك يطبق ذلك القانون العام على حالات الكلام الفردية قبل أن تتحقق دلالة التلفظ.

وهكذا يمثل عبد القاهر قمة النضج في الحديث عن نظرية النظم العربية وإن كانت آراؤه حول النظم لم تأت من العدم، بل كانت تتويجا لاجتهادات البلاغيين والنحاة من قبله، بعضهم عالج مفهوم النظم دون أن يذكر المصطلح وبعضهم الآخر ناقش المفهوم واستخدم المصطلح.

وقد كان الجاحظ من البلاغيين المبكرين الذين تنبهوا إلى أهمية دراسة القرآن من حيث أسلوبه وعجيب نظمه.

وإذا كانت نظرية النظم قد استمرت لمدة قرنين كاملين موضوعا للدراسة، إلا أن الإضافات والتعديلات التي أدخلها من جاؤوا بعد عبد القاهر لم تزحزح الرجل عن مكانه فوق الذروة، فقد عجزت الاجتهادات التالية عن إضافة الجديد حقا إلى النظرية كما طورها الجرجاني.

يعالج كل من عبد الجبار (415 هـ) وعبد القاهر (472 هـ) مفهوم النظم¹، بصرف النظر عن استخدام الأول لفظ " ضم " والثاني لفظ " نظم ". ويتقارب فكر الرجلين إلى درجة تدفع البعض إلى إرجاع فضل نظرية النظم إلى عبد الجبار وليس إلى عبد القاهر الذي يقتصر إنجازة، من هذا المنظور، على شرح فكرة الأول وتحليلها وإثرائها بالأمثلة الشارحة.

نتوقف عند مفهوم " الضم " كما قدمه القاضي عبد الجبار:
" اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة... "
حالة الضم هذه هي مفهوم النظم نفسه . بل إن عبد الجبار يعطي النحو دوراً يمهّد للدور الأكبر الذي سيعطيه له عبد القاهر في النظم (نظم قائم على شبكة من العلاقات تتحكم فيها قواعد النحو لتحقيق الدلالة).

وهنا يبدأ دور عبد القاهر الجرجاني الذي كان أكبر من مجرد شرح فكرة عبد الجبار وتحليلها وإثرائها بالأمثلة. صحيح أن الجرجاني لم يبدأ من فراغ، لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقياً ورأسياً . وبهذا يكون الجرجاني ، كما قال محمد مندور، قد قدم نظرية للغة العربية " ثماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث في أوربا ".
ويعلق محمد خلف الله أحمد على دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة بما يأتي:

" وأظهر ما يميز أسلوب المؤلف فيهما منهجه الواضح القائم على الاستقراء الذوقي الشامل من جهة وعلى التحليل العلمي الدقيق من جهة أخرى لتكاد بحوثه فيهما تقرب في دقتها وتسلسل مراحلها من أسلوب العصر الحاضر في بحوثه العلمية ".

¹ - المرايا المقعرة. ص 231 و ما بعدها

ومن النصوص المطولة التي تساعد على اكتشاف جوهر فكرة النظم لدى الجرجاني

ما يقوله فيما يأتي :

" ينبغي أن ننظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة

التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه، من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية ؟ ... وهل نجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن

ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه : قلقة ونابية، ومستكرهة إلا وغرضهم عن أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ؟ "

والواقع أن ما يقوله الجرجاني هنا يتم عن وعي جمالي متقدم، فالقول إن الكل هو الذي يحدد قيمة الجزء يقع في صلب النظرية الجمالية الغربية والنقد الجديد . لكن أبرز ما تؤكد سطور عبد القاهر الجرجاني هو شبكة العلاقات التي تجمع أو تربط مفردات نظام العلامات في كل بنية لغوية مفيدة أو دالة.

الفصل الثالث

احتكاك البلاغة العربية بالبلاغة الأوربية

1- تأثر البلاغة العربية بالثقافة الأجنبية

2- من أرسطو إلى البلاغيين العرب

3- تطور البلاغة الأوربية

خاتمة الباب الأول

1- تأثر البلاغة العربية بالثقافة الأجنبية

" ظل الاعتقاد السائد في أوساط الدارسين حتى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين أن الظواهر البلاغية بمصطلحاتها ومفاهيمها عربية النشأة والجذور، ولم يثر أحد من المؤلفين العرب موضوع تأثرها بأي تفكير أجنبي قبل هذا التاريخ ¹. فالأسباب التي دعت المتقدمين من علماء البلاغة إلى تعلمها تجعل منها علما عربيا صميما، إذ يذكرون في مقدمة هذه الأسباب معرفة وجوه إعجاز القرآن الكريم. ومع ذلك نجد عند الجاحظ إشارات إلى البلاغ ة عند الأمم الأخرى، وقدامة يتأثر بالبلاغة اليونانية، وابن قتيبة يحارب الاتجاه إلى الفلسفة اليونانية والتأثر بها، ومنهم من يفارق بين بلاغتي العرب والعجم.

وفي العصر الحديث تعرض للقضية طه حسين في مقدمة كتابه "نقد النثر"، وشارك فيها الدكتور إبراهيم سلامة في كتابه "بلاغة أرسطو بين العرب واليونان"، ومحمد مندور في "النقد المنهجي"، وعرض لها بدوي طبانة، وشكري عياد في "كتاب الشعر في البلاغة العربية".

" ترجم كتاب الخطابة لأرسطو في النصف الثاني من القرن الثالث، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي، وكان يجهل كتاب الشعر، وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأي طه حسين يظهر أول مرة في " نقد الشعر " ثم في " نقد النثر " الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة ثم يظهر عند عبد القاهر واضحا جليا ².

¹ - البحث البلاغي عند العرب: تأصيل و تقييم. ص 115
² - نحو بلاغة جديدة. ص 6

إن المشتغلين بالفلسفة اليونانية قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان، واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم في دراسة البلاغة والتأليف فيها، كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثرا ما في البلاغة العربية. وهكذا يشترك في البي ان العربي عناصر ثلاثة : عنصر عربي، وعنصر فارسي وعنصر يوناني.

إذن، نشأة البلاغة كانت عربية، لكن العنصر الأجنبي قد اتصل بها. وقد تحقق هذا التوفيق في القرن الخامس على يدي عبد القاهر الجرجاني : " صنف عبد القاهر كتابين، عندما نقرأ أولهما نكاد نجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذي عقده ابن سينا للعبارة. والواقع أنه درس " الحقيقة " و " المجاز " فتبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم. قسم المجاز إلى نوعين: لغوي وعقلي، ثم قسم اللغوي إلى قسمين: أحدهما يقوم على التشبيه وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما... وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذي يجيز إطلاق اسم الجنس على النوع، واسم النوع على الجنس، واسم النوع على نوع آخر، فمجاز أرسطو هذا هو ما يسميه عبد القاهر " مجازا مرسلا "، وأما المجاز الذي يقوم على التشبيه والذي يسميه أرسطو "صورة" فيسميه عبد القاهر "استعارة"، وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه".¹

ولكي يقرر عبد القاهر مذهبه هذا، فإنه يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق إليه، ولكن من غير أن يخرج بحال من الحدود التي رسمها أرسطو، أما المجاز العقلي فهو من ابتكار عبد القاهر.

يحاول عبد القاهر أن يثبت إعجاز القرآن في "دلائل الإعجاز"، وهو أمر جعله علماء الكلام الغرض من البيان من عهد بعيد، ولكي يصل عبد القاهر إلى هذه الغاية أيد بحثه بنقض نظريتين قديمتين : إحداهما: تجعل جمال الكلام في اللفظ. والأخرى: تجعله في المعنى.

¹ - المرجع نفسه، ص 13

ثم ينتهي به البحث إلى أن الجمال ليس في اللفظ ولا في المعنى، وإنما هو في نظم الكلام، أي في الأسلوب، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته، فيدرس الجملة بالتفصيل: منفردة ومتصلة، ويضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف وقيمة الإيجاز والإطناب، وضرورة م طابقة الكلام لمقتضى الحال، وبذلك يضع أساس " علم المعاني " .

ومن يقرأ " دلائل الإعجاز "، يعترف بما أنفق الجرجاني من جهد في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة، والأسلوب والفصول . وإذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقاً، فعبد القاهر هو الذي رفع قواعده وأحكم بناءه.

" قدم الدكتور طه حسين بحثاً إلى المؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين الذي عقد في مدينة " ليدن " في سبتمبر سنة 1931، موضوعه " البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، ووضعه مقدمة لكتاب " نقد النثر " " فقد ربط الدكتور طه حسين في هذا البحث البيان العربي، كما يبدو في كتابات الجاحظ، ومن أتى بعده من علماء البيان العربي حتى عبد القاهر في القرن الخامس الهجري، بالبيان اليوناني متمثلاً، بخاصة في كتاب الخطابة لأرسطو. ورأى أنه حتى منتصف القرن الثالث الهجري لم يكن قد وجد بيان عربي تام التكوين، وإنما كانت هناك جهود صادقة مفيدة ترمي إلى إنشاء هذا البيان"¹.

وفي هذا الطور من أطوار البيان تلاقى الروح العربي مع الروح الفارسي والروح اليوناني، وعملت تلك العناصر الثلاثة معاً في خصوبة وانسجام . ويقول الدكتور طه حسين في مقدمة كتاب نقد النثر أن ابن سينا بتعريبه كتاب " الخطابة " لأرسطو وجعله في متناول الفكر العربي، قد هياً بذلك أسباب التوفيق بين البيانيين : العربي و اليوناني – اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا.

" ومنذ منتصف القرن الثالث وجد بيانان : أحدهما عربي محافظ لا يقرب الفلسفة

اليونانية إلا في كثير من التحفظ والاحتراس، وآخر يوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو،

¹ - البحث البلاغي عند العرب : تأصيل و تقييم. ص 115-116

فاستهدف بذلك حملات المحافظين المنكرة ¹. على أن البيان الأول، وهو البيان العربي المحافظ، لم يسلم - في رأيه - من تأثير الفكر الأرسطي.

ويبسط الدكتور طه حسين رأيه، فيقول إن تصور هؤلاء المؤلفين من العرب للتشبيه، والمجاز، والمقابلة، ووزن الكلام قريب مما نجده في كتاب "الخطابة"، وإذا كانوا لم يذكروا الأمثلة التي يمثل بها أرسطو فذلك لأنهم لم يفهموها... وعلماء البيان من العرب - لجهلهم التام بنظم اليونان وآدابهم - لم يستطيعوا فهم الأنواع الخطابية، وما يتصل بها، ولا الشواهد التي استخلصها أرسطو من غرر الأدب اليوناني، ولكن لا شك في أنهم مقابل ذلك وجدوا فصولاً أخرى تتحدث إليهم عن أشياء يعرفونها، ويجدونها دائماً في شعرهم، وأنهم عثروا في مواضع مختلفة في كتاب "الخطابة" على أفكار عامة وقرية من تناولهم.

أما النوع الآخر من البيان، وهو البيان اليوناني فقد ظهر في الساحة العربية حين تولت الفلسفة مهمة التشريع للأدب، وظهر ذلك أول ما ظهر، في كتاب "نقد الشعر" لقدماء. ويرى الدكتور طه حسين أن تأثير قدماء بفكر أرسطو في كتابيه "الخطابة والمنطق" تأثر نابع عن فهم صحيح حيناً، وخاطيء حيناً آخر.

ثم كان التقاء هذين التيارين من البيان - كما يذهب إليه الدكتور طه حسين - في القرن الخامس الهجري على يد عبد القاهر الجرجاني من خلال إحدى القنوات الفلسفية المتمثلة في ابن سينا (370 - 428 هـ) الذي قام بتحليل كتابي أرسطو في الخطابة والشعر، وشرحهما في كتابه (الشفاء). وقد تحقق التوفيق بين البيانيين في القرن الخامس بفضل عبد القاهر في كتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز".

ففي الكتاب الأول، أفاد عبد القاهر مما كتب ابن سينا، وقال طه حسين عن ارتباطه بأرسطو: "إن عبد القاهر لم يكن عندم ا وضع في القرن الخامس كتاب "أسرار البلاغة" المعبر غرة كتب البيان العربي إلا فيلسوفاً جيد شرح أرسطو والتعليق عليه" ¹.

¹ - مقدمة نقد النثر. ص 11

وفي الكتاب الثاني الذي يدور حول النظم الذي جعله عبد القاهر محور إعجاز القرآن الكريم لا يسع القارئ - كما يقول طه حسين - إلا أن يعترف بما أنفق الرجل من جهد صادق، خصب، في التأليف بين قواعد النحو العربي وآراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول، وقد وفق فيما حاول توفيقاً يدعو إلى الإعجاب . ويبلغ طه حسين المدى في الإيمان بقوة تأثير البيان اليوناني على البيان العربي، حين يختتم بحثه بالقول بأن أرسطو لم يكن المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك كان معلمهم الأول في علم البيان .

أثار الدكتور طه حسين بهذا البحث أذهان الباحثين المعاصرين، وفتح أمامهم مجالاً جديداً في البحث البلاغي يخرج به من آفاقه العربية إلى آفاق أجنبية، وقد اتخذ الذين عرضوا لهذا الموضوع يعقدون المقارنات بين ما قال أرسطو في بعض الظواهر البلاغية، وما قاله فيها، أو في قريب منها، بعض علماء البيان العرب، ويكشفون عما بين النصوص المنسوبة إلى كلا الطرفين من أوجه الشبه والاتفاق، معتمدين في مشروعية هذه المقارنة على معرفة الـ عرب بكتاب الخطابة بعد ترجمته على يد اسحق بن حنين (ت عام 298 أو 299 هـ).

ويذهب الدكتور مندور أن الاستعارة عند ابن المعتز بتعريفها أنها استعارة الكلمة لشيء يعرف بها من شيء قد عرف بها " يكاد يكون تعريف أرسطو ... وهو نقل اسم شيء إلى غيره " ².

أما الدكتور شكري عياد فالتزم جانب الاحتراس والحيطه اللازمين للمنهج العلمي، وجاءت عباراته بصيغة الترجيح والظن.

على حين يبدو الدكتور إبراهيم سلامة، في تناوله لهذا الموضوع مضطرباً بعض الشيء، يتأرجح بين إثبات التأثير ونفيه، وينحاز إلى أرسطو لأدنى شبهة.

¹ -قدامة بن جعفر: نقد النثر. ص 29 - 30

² - النقد المنهجي. ص 62 - 63

أما " المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في ترجيحه أصالة ابن المعتز، وعدم تأثره بغيره في كتابه " البديع " فإنه يعزز رأيه بسند منطقي وجيه يتمثل في أن غاية ابن المعتز التي توخاها من كتابه هي أن يبين للشعراء المحدثين، أن ما يعزى إليهم من ظواهر أسلوبية جديدة، ليست جديدة، فقد سبقوا إليها في القرآن الكريم، والحديث الشريف وشعر الشعراء ونثر الخطباء في عصر الجاهلية و صدر الإسلام . فلو صح أنه نقل عن أرسطو لبادر بعضهم في سبيل الرد عليه إلى التهوين من عمله بتعريفه مصادره التي استمد منها دون إعلان " ¹.

وهكذا أثار بحث الدكتور طه حسين هـ مم الباحثين، وحفزهم على تلمس مواطن التشابه بين التفكير البلاغي عند أرسطو، وتفكير البلاغيين العرب.

2- من أرسطو إلى البلاغيين العرب

كان أول من اهتم بوضع قوانين للبلاغة وفن القول في الحضارة القديمة السفسطائيين.

تعني كلمة سفسطائي Sophiste معلم الحكمة، لكن ما يفهم منها اليوم محب الجدل لذات الجدل.

ونتيجة الحوار مع السفسطائيين والرد على آرائهم اهتدى سقراط، وعلى نحو خاص أرسطو فيما بعد إلى قواعد بناء العبارة وتنظيم أجزاء القول، وهي القواعد التي كان لها أثر كبير في البلاغة.

اقترن اسم أرسطو في تاريخ البلاغة والنقد والفلسفة، باسمين آخرين سبقاه وهما سقراط وأفلاطون، حيث يقدم مجمل فكر هذا الثالوث صورة متكاملة للفكر الإغريقي من كثير من زواياه.

ميز أرسطو بين الحقيقة الثابتة في المجال العلمي، والحقيقة النسبية التي تعتمد على القياس المضمرة وهو القياس الذي يتكون من مقدمات ونتائج احتمالية ظنية لا حتمية، وتلك الحقيقة يمكن أن نلتقي بها في مجال الخطابة حيث نتيج لنا أن نذكر ما للشيء وما عليه.

¹ - البحث البلاغي عند العرب: تأصيل و تقييم. ص 124

محاولات أرسطو لتوضيح طريق تطبيق ذلك القياس المضمّر قادتته إلى تفصيلات في فن الخطابة والبلاغة¹، حيث تمكن من تقديم أصول الفن ومبادئه، في شكل قواعد يسهل تعلمها.

ولقد انتهى أرسطو إلى وضع هيكل عام للعناصر البلاغية التي تنظم العمل الأدبي خطابة كان أو مقالا، وهو هيكل ظل يحظى باهتمام البلاغيين والأدباء حتى العصر الحديث، ويشتمل هذا الهيكل على عناصر ثلاثة:

العنصر الأول :

هو الابتكار invention، ويعني به أرسطو تجميع الوسائل الضرورية أو المواد الخام التي سوف يتشكل منها المقال أو الخطبة، ومن بين هذه الوسائل تأتي وسائل الاحتجاج . وكذلك ما يسميه أرسطو بالأفكار المشتركة، ويعني بها اللجوء إلى المعلوم الشائع للخلاص منه إلى المجهول الذي يراد الوصول إليه، وقيمة هذا العنصر تكمن في أنها تحاول أن تربط السامع أو المتلقي بالمتكلم أو الكاتب وتدرج به في غير تعسف لكي توصل إليه الأفكار الجديدة ثم تأتي المشاعر لكي تمتزج مع الأفكار العامة والحجج في حمل السامع على الإقناع.

العنصر الثاني :

هو عنصر الترتيب Disposition، ويعني به تنظيم الوسائل التي وردت في العنصر الأول بحيث تبدو الأفكار في النهاية متناسقة ومحكمة . ويفصل شراح أرسطو عنصر الترتيب فيوصون بأن يتحول العمل إلى مدخل عام وعرض للفكرة الرئيسية propos وتقسيمها إلى أجزائها الأساسية Division ثم سرد وتنفيذ هذه الأجزاء Narration.

¹ - ROBRIEUX, J. – J : Eléments de rhétorique et d'argumentation. Paris, Dunod, 1993. pp 16-22

العنصر الثالث :

وهو عنصر الفصاحة Elocution وتفصيل القول في طريقة محاولة تحقيق الفصاحة في العمل الأدبي هو المجال الواسع لعلم البلاغة بتفريعاته المختلفة، لكن هناك في المنهج الأرسطي سمات عامة للأسلوب تكسبه الفصاحة مثل الصفاء والتجديد وعدم التكلف وعدم السوقية والاتساق بين أجزاء القول.

هذا التقنين العام للهيكل البلاغي المنشود تبعا للبلاغة الأرسطية، كان له أثره على تطور تاريخ الدراسات البلاغية.

ربما عرف كتاب الخطابة ترجمته الأولى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، أو في أواخر النصف الأول منه، أي في الفترة التي بدأ فيها التأليف البلاغي؛ الأمر الذي يدفع كثيرا من الباحثين، وعلى رأسهم طه حسين، إلى تلمس آثار بعض آراء أرسطو على البلاغة العربية.

وعلى الرغم من أن التفكير البلاغي والنقدي قد يبدو للوهلة الأولى متصلا بالجانب الشكلي من اللغة الذي يصعب نقله من لغة إلى لغة، على عكس الجانب الفلسفي، فقد أثبت التفكير النقدي و البلاغي لأرسطو قدرة هائلة على التحرك على المسار الأفقي والرأسي على خريطة اللغات والأزمنة واستطاع أن يجدد حيويته من فترة إلى أخرى " وسائط " تجسدت في شخصيات كبار " الشراح " والملخصين لأرسطو في اللغات المختلفة، ومنهم قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) وهو نموذج للمفكر الذي التفت فيه كثير من العناصر التي كونت ما اصطلح على تسميته بالحضارة الإسلامية إلى جانب اشتهاره بمعرفته العميقة للفلسفة والمنطق نتيجة اتصاله المباشر أو غير المباشر بالحضارة اليونانية.

وكان قدامة قرأ كتاب ("الخطابة")، وذلك التأثير على البلاغة واضح عند قدامة ومن أتى بعده من البلاغيين.

قسم أرسطو كتابه في الخطابة إلى ثلاثة أقسام: تحدث في الأول عن أنواع الخطابة الثلاثة: السياسية وتتطلب معرفة نظم الحكم، والحفلية وتتطلب معرفة الفضائل والردائل، والقضائية وتتطلب معرفة العدل والظلم.

كما تناول أرسطو صور الاستدلال ووسائل الإقناع.

وفي القسم الثاني يتحدث عن المستمع وعواطفه وطريقة استمالاته وضرورة ملاءمة الكلام للموقف، أو على حد تعبير البلاغيين العرب مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وهذان القسمان من كتاب الخطابة لأرسطو لم يكن من شأنهما أن يؤثر كثيرا في الفكر العربي، بل إنهما لم يفهما من خلال الترجمة على نحو تام، وسبب ذلك أن الأمور التي يثيرها القسم الأول فيما يتصل بأنواع الخطابة، تعبر عن مجتمع يعرف نظاما سياسيا يقوم فيه الحكم على أساس يختلف عما عرفته القبيلة أو الدولة في النظام العربي الإسلامي.

وكذلك الشأن فيما يتصل بالخطابة القضائية التي كانت تصورات القوانين فيها وما يترتب عليها من نظم الدفاع والرد مختلفة عن مثيلاتها في الفكر العربي. وكل ذلك من شأنه أن يقيم حواجز في الترجمة على مستوى التصور والعتور على المصطلح الملائم وحتى على مستوى الفهم الأولي ذاته.

أما القسم الثالث من كتاب الخطابة فهو يتعرض لمباحث " العبارة " وذلك القسم هو الذي فهم فهما جيدا وأثر تأثيرا هاما على البلاغيين العرب، فقد قارن أرسطو في هذا القسم بين لغة الشعر ولغة النثر، وبين أن الغموض إذا كان خاصة من خواص اللغة الشعرية، فإن الوضوح ينبغي أن يكون طابع لغة الخطابة وعلى الخطيب ألا يجنح إلى الغموض أو التعمية.

ويتحدث أرسطو عن الإيقاع أو جرس الكلام في كل من الشعر والنثر. ويقوده ذلك إلى الحديث عن السجع والفواصل والازدواج، و تساوي أجزاء ال عبارات، ثم البناء الداخلي للعبارة من الناحية النحوية، كما يتعرض إلى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والإيجاز والإطناب والمساواة والغلو والمقابلة.

هذه الألوان جميعها تناولها البلاغيون العرب عندما تعرضوا أيضا لبحث بلاغة العبارة، وكان تناولهم لها في أعقاب ترجمة أرسطو، وبعضهم أشار إليه واقتبس من أمثله. وذلك كله هو الذي يدفع إلى القول بوجود صلة بين الفكر الأرسطي والبلاغة العربية.

لكن مظاهر التأثير لا توجد فقط في تشابه القضايا المدروسة، ولكن أيضا في طريقة دراستها المعتمدة على التحديدات والتعريفات " المنطقية ". يقدم لنا قدامة تعريفا للشعر يحدده بأنه " قول موزون مقفى يدل على معنى " ويتابع شرح هذا التعريف على طريقة المناطقة فيقول: " قولنا " قول " دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا " موزون " يفصله مما ليس بموزون، إذ كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا " مقفى " فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا " يدل على معنى " يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى، فإنه لو أراد مرید أن يعمل من ذلك شيئا كثيرا على هذه الجهة لأمكنه وما تعذر عليه".¹

على هذا النحو يسوق قدامة تعريفا مانعا جامعا، ويحاول أن يخرج فيه المحترزات على طريقة المناطقة.

ويسيطر هذا المنهج على بقية كتاب قدامة فيقسم الشعر من خلال التعريف إلى عناصر أربعة: اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وينظر في نوات الجودة التي يمكن أن تعزى إلى كل عنصر منها مفردا على حدة أو تعزى إليه من خلال ائتلافه مع غيره من العناصر.

لقد كان قدامة متأثرا بدون شك بمن سبقه من البلاغيين العرب من أمثال الجاحظ وابن المعتز، ولكنه أيضا كان شديد التأثر بأرسطو، وقد نجح في إدخال عنصر التحديد والتعريف من الفكر اليوناني إلى البلاغة العربية، ونقلها بذلك من مجرد ملاحظات

¹ - قدامة: نقد الشعر. ص 4 و ما بعدها

استقصائية عند سابقه إلى علم مفصل مبوب على يديه وقد تابعه في ذلك كثير من البلاغيين العرب.

ولكن الجفاف النسبي للغة قدامة من ناحية، والنتاج عن عدم انتمائه الخالص للعربية، ونزعة المنطق التي كانت جديدة على البلاغة من ناحية ثانية، هذان العاملان قللا بعض الشيء من رواء الدرس البلاغي عند قدامة.

ولم تكن النزعات النقدية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين أقل اهتماما بالآثار الأرسطية النقدية والبلاغية ومحاولة الإفادة منها في بنية الاتجاهات النقدية الحديثة ذات الاهتمام بالطابع اللغوي والبلاغي، ومن أبرز هؤلاء رولان بارت Roland BARTHES الذي دعا منذ فترة الستينيات إلى إعادة تمثيل التراث البلاغي في ضوء النظرية البنائية.

وجيرار جنيت Gérard GENETTE وتودورف TODOROV وجاكوبسون JAKOBSON وجون كوين Jean COHEN وغيرهم من النقاد والبلاغيين المحدثين الذين أحسنوا الإفادة من التراث الأرسطي البلاغي والنقدي لخدمة حركة التطور في الاتجاهات النقدية والبلاغية المعاصرة.

وإذا نظرنا في المقابل إلى الجهد العربي الوسيط في استقبال التراث الأرسطي النقدي والبلاغي، فإننا نجده يمثل دون شك حلقة هامة في تاريخ ذلك التراث استقبالا أو ترجمة أو شرحا أو اختصارا أو نقلا إلى الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الأوروبية التي لا ينكر مؤرخوها الدور الهام للحلقة العربية الوسيطة في نقل التفكير الأرسطي وتأثيره.

ولكن السؤال المتعلق بمدى تفاعل ذلك الفكر الأرسطي في جانبه البلاغي والنقدي، والإفادة منه في مسيرة تطور النقد والبلاغة العربية، طرح نفسه أمام دراسات طه حسين وكراتشوفسكي وأمين الخولي وشكري عياد في دراستهم حول ابن المعتز وقدامة وعبد القاهر.

أما ابن رشد، وبناء على النص الأر سطي وقواعده، فحاول أن يمزج أفكاره
بنصوص من الأدب العربي القديم أو المعاصر له وبنصوص القرآن الكريم.
فالسعي وراء " تحديث " الفكر النقدي والبلاغي العربي مع احتفاظه بهويته هو
الهدف الذي سار فيه - بعد ابن رشد قليلا - حازم القرطجاني .
" ولقد شق هذا الهدف طريقا ثالثة في علاقة التفكير البلاغي والنقدي الأرسطي
بمثيله العربي، بالإضافة إلى التيارين اللذين عرفا بالتيار العربي الخالص والتيار الفلسفي
اليوناني، تمثلها محاولات الأمدي والجرجاني وابن المعتز وقدامة وغيرهم"¹.

بحث ابن رشد عن لون من التمثيل والتعريب للفكر الأرسطي، وتجاوز فكرة الوقوف
عند الترجمة والتلخيص، ولقد استشهد بست عشرة آية من القرآن الكريم في مواقف
مختلفة عند تعرضه لبناء العبارة أو للبنية القصصية، حاول من خلال هذه الآيات فتح
مجال يتسم بالجدة النسبية في محاولة التعرف على الآفاق التي استشرفها الشعر ال درامي
العربي ومدى القصور الذي لحق به من خلال تأمل البنية الدرامية للقصص القرآني
أو البنية الخيالية للتراكيب، فضلا عن المقارنة مع الشعر الدرامي اليوناني الذي كان مادة
للتأمل النقدي لأرسطو في " كتاب الشعر " على قدر ما استوعبه ابن رشد فيه.
أما الشعر العربي فقد توزعت شواهدة على مختلف عصور الشعر منذ المهلهل بن
أبي ربيعة حتى الشعراء المعاصرين لابن رشد.

واتساع الخريطة الزمانية التي انتقى منها ابن رشد شواهدة الشعرية، واختلاف
الاتجاهات الفنية داخلها يدل على أي مدى كان يمتد الطموح بابن رشد في تلخيصه لكي
يجعل قوانين المعلم الأول قابلة لإنعاش الإبداع الشعري العربي.
وهكذا كتب ابن رشد " تلخيص الخطابة " في أواخر القرن السادس الهجري
(حوالي 570 هـ)، بناء على كتاب " الخطابة " لأرسطو. فكان ابن رشد واحدا من كبار
الذين قدموا فكر أرسطو إلى الحضارة الإسلامية الوسيطة، وكان أيضا من كبار من اقترن
اسمهم باسم أرسطو في الحضارة الأوربية الحديثة في بدايات عصر النهضة.

¹ - د.بكري شيخ أمين : البلاغة العربية في ثوبها الجديد . علم البديع . ج 3 . ط 3 . ص 6

ولعل جهد ابن رشد هو الذي أغرى خلفه حازم القرطاجني بمحاولة تقديم تأويل نقدي بلاغي لأرسطي للإنتاج العربي الأدبي، وهي محاولات قدر لها أن تنتكس عندما سادت روح الشروح المنطقية البلاغية الجافة واختفت أو كادت الروح النقدية ودخل التفكير النقدي البلاغي عندنا في أعقاب ذلك في مرحلة البيات الطويل الذي استمر أكثر من ستة قرون، على حين استمرت المسيرة من النقطة التي كان فيها ابن رشد ولكن في لغة أخرى وبلاغة أخرى في الحضارة الأوربية الوسيطة، ولم يحاول تفكيرنا النقدي والبلاغي الخروج من سباته إلا في مرحلة قريبة.

3- تطور البلاغة الأوربية

تأثرت بعض كتب البلاغة العربية بالترجمات التي نقلت إلى العربية عن الفكر الإغريقي ومنها ترجمات أرسطو.

والحضارة العربية أسلمت بدورها ميراث الحضارة الإغريقية مضافا إليه خلاصة الحضارة الإسلامية، أسلمت كل ذلك إلى الفكر الأوربي في العصور الوسطى لكي تقوده تلك الشعلة إلى مشارف عصر النهضة وعصور التنوير التي تلتها، حيث أثر أرسطو باعتباره الخيط الذي يصل بين الحضارة الإغريقية والحضارة العربية الوسيطة، ثم الحضارة الأوربية الحديثة.

كانت مجمل آراء أرسطو و شيشرون و كانتيليان تساق على أنها البلاغة القديمة. " ولم يكن حقل هذه البلاغة عند الأوربيين هو حقل الجمل والتعبيرات الجزئية كما كان الشأن في كثير من بحوث البلاغة العربية، ولكن كان الاهتمام يوجه أيضا إلى العمل في جنسه الأدبي الذي ينتهي إليه، وفي تناسق أجزاء القول بعضها مع البعض الآخر؛ حتى تتعاون في إحداث التأثير الذي ينشده مبدع العمل الأدبي، ومن هنا فقد استخلص من التراث البلاغي القديم قواعد " الإقناع " التي تركز على قواعد رئيسة من أهمها: الابتكار

والترتيب والأسلوب والحدث، مع اختلاف مدارس التفكير البلاغي في التركيز على هذا العنصر أو ذلك في فترات التاريخ الأوربي الوسيط والمعاصر".¹

لكن هذه العناصر العامة للإقناع ترجع في معظمها إلى ما يمكن أن يسمى بالمنطق، فهي قواعد من شأنها أن تساعد العملية الذهنية في الإبداع الأدبي، ويبقى بعد ذلك عناصر أقرب إلى الجانب الأدبي الخالص في عملية الإبداع، ومن هنا عرفت البلاغة الأوربية الوسيطة تقسيمات للإنتاج القولي يعتمد على دعائم ثلاث هي : الأجناس، والأساليب، والصور.

أما الأجناس فهي ذلك التقسيم التقليدي الذي يعد أساسا تلتزمه كل الآداب العالمية، وتتوزع على أساسه ألوان الإنتاج الأدبي، ومنذ القرن السادس قبل الميلاد عرف الأدب اليوناني التفرقة بين الأجناس الشعرية والأجناس النثرية، وتحت كل فرع من هذين القسمين تتفرع أقسام كثيرة، مثل الشعر الغنائي والشعر الملحمي والمأساة والملهاة والخطابة القضائية والخطابة السياسية... إلخ، وتظل هذه الأجناس تتفرع وتضيق أو تتسع حسب الظروف التاريخية والثقافية التي تمر بها في أمة من الأمم.

إن حماية القوانين التعليمية للبلاغة هي التي منعت دفنها نهائيا (سواء في الثقافة الغربية أو في الثقافة العربية).

" يهزو كثير من البلاغيين البنيويين سبب موت البلاغة القديمة في الثقافة العالمية إلى الانحصار التدريجي للمجال البلاغي، فمنذ الإغريق أخذت البلاغة في الواقع تنحصر قليلا قليلا في مجال بعض الخواص اللغوية للنصوص.

وذلك ببتن جناحيها الرئيسين - كما يقولون - وهما الاستدلال والترتيب. وفي نطاق هذه الخصائص اللغوية فإن الأمر ما لبث أن اقتصر في نهاية الأمر على مجرد تصنيف الأشكال البلاغية، وأخذت نفس هذه الأشكال تضيق حتى انحصرت في مرحلة تالية في

¹ - أحمد درويش : النص البلاغي في التراث العربي والأوربي. ص 172

الصيغ المجازية فحسب. ثم لم تلبث أن ركزت على ثنائية الاستعارة والكناية قبل أن تضع الاستعارة وحدها في بؤرة الضوء المركزية¹.

بعد أن هجرت البلاغة أمدًا طويلاً، استرجعت العناية والاهتمام اللذين كانت تحظى بهما من قبل، وذلك " بفضل تأثير تطور اللسانيات (على أيدي بارت R.BARTHES وجينيت G.GENETTE وأمثالهما)، والتحليل اللغوية لعلم الدلالة ال تي سمحت بتأسيس، بطريقة أكثر أماناً، تحاليل " آثار المعنى" التي تحدث عنها تودوروف في مقال له².

اتصلت البلاغة القديمة بالتقاليد والأعراف اليونانية والرومانية (لدى أرسطو ARISTOTE وكانتيليان QUINTILIEN)؛ وكانت في القرون الوسطى مندمجة في النحو والجدلية. ثم أدرجت في التعليم الرسمي حتى القرن التاسع عشر. أما اليوم، فتبدو البلاغة وكأنها نظرية للخطاب ما قبل العلمي، موسومة بالسياق الثقافي الذي نمت بداخله.

ومما يفسر الاهتمام المتزايد بالبلاغة حالياً، ظهور إشكالية الخطاب من جديد، تحت دفع السيميائية.

ورغم أن بعض الحقول النظرية التابعة للبلاغة القديمة لا يمكن، لأسباب بديهية، أن تدمج في سيميائية الخطاب، غير أنها تعكس الانشغالات الحالية و بالتالي تستحق أن تستثمر.

يجسد اعتبارنا الخطاب ككل، واعترافنا " بأجزاء الخطاب " وتنظيمه السياقي (" الترتيب dispositio ")، انشغالنا بإحداث قطع في وحدات الخطاب (الأكبر من الجملة) وتحديدها.

وإن كانت البلاغة، التي عرفت منذ القدم " كفن الكلام الجيد "، أو " فن الإقناع " غير معنية إلا بصنف واحد من أصناف الخطاب وهو الخطابات الإقناعية.

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 181

² - PEYTARD, Jean ; GENOUVRIER, Emile: Linguistique et enseignement du français. Paris, Librairie Larousse, 1970. p 252

إضافة إلى ذلك، تكتسي البلاغة طابعا معياريا شديدا، بسبب تحملها مهمة إعداد "قواعد الفن"، على شاكلة النحو المعياري، الذي يوازيها. يستحق جزء البلاغة المسمى "الإبداع inventio"، والمهم إلى حد الآن، دراسة دقيقة وفحصا جديدا باعتباره "مستودعا" لأهم موضوعات الخطاب، أو كعلم أساسي للتصنيف الدلالي taxinomie sémantique.

أما "الحديث élocutio"، فهو شبيه بعلم التصنيف الخاص بالصور البلاغية، ليس على مستوى الخطاب، ولكن على مستوى الجملة أو الكلمة. يحظى هذا الجزء حاليا بعناية حثيثة للتحديث، بإدماجه، كمركبة أسلوبية، في سيميائية الخطاب والنص.

ورغم أهمية هذه المبادرة، إلا أن أخطارها واضحة: فنتيجة تراكمات دامت قرونا، لا يمكن أن يبلغ جرد الصور البلاغية مكانة علم تصنيف منسجم. لذا، ينبغي إعادة تقييم كامل، مؤسس على اللسانيات، حتى تدمج في نظرية الخطاب. تحاول مجموعة "مو" من لياج Liège أن تعيد النظر في هذه المسألة، معتمدة على النظرية اللغوية التي أسسها يلمسليف HJELMSLEV، بغية تكوين بلاغة عامة جديدة¹.

وقد استقرت البلاغة الكلاسيكية على تقسيم الأجناس إلى خمسة أجناس شعرية

وأربعة أجناس نثرية هي²:

- الغنائي : وهو التعبير الخيالي المتوهج عن مشاعر الروح مثل المدح، والأيح، والأغاني، والأهازيج والسونيتا... إلخ،
- الملحمي : وهو حكاية شعرية لمغامرة بطولية رائعة،
- الدرامي : وهو تقديم الحياة في شكل أحداث،
- التعليمي : تلقين الفضيلة والسلوك الخلقى والمادي،

¹- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Paris, Hachette, 1979. pp 317-318

²- GUIRAUD, Pierre : la stylistique.p 56

- الرعوي : رسم مشاهد وعادات الريف في شكل أغان بسيطة ساذجة،
- الخطابي : وينقسم بدوره إلى قضائي واستدلالي وجدلي،
- التاريخي : الرواية الحقيقية للأحداث الهامة التي تشكل حياة أمة،
- التعليمي النثري : تلقين فروع المعرفة الإنسانية المختلفة،
- الروائي : رواية مغامرة قد تكون حقيقية وقد تكون متخيلة . وفي داخل هذا الجنس توجد الرواية الريفية، ورواية المغامرة وغيرهما.

هذا التقسيم العام للأجناس الأدبية الذي أخذت به البلاغة الأوربية الوسيطة واعتمدت فيه على البلاغة القديمة ظل بدوره يمثل الهيكل العام للإنتاج الأدبي حتى بدايات القرن العشرين، وما زالت كثير من عناصره تمثل أجناسا أدبية قائمة حتى اليوم. " وترتبط الأجناس بدورها بالأساليب، وكما أن هناك أجناسا شعرية وأخرى نثرية، وأجناسا تعتمد على الحقيقة وأخرى تنزع إلى التخيل، فإن هناك كذلك من الأساليب ما يتناسب مع كل جنس، وقد حددت البلاغة الأوربية - متابعة في ذلك للبلاغة اليونانية والرومانية - خصائص الأساليب المتنوعة على مستوى تركيبها وحتى على مستوى مفرداتها والصور التي يمكن أن تستعمل فيها، وألوان التزيين التي يمكن أن تقبلها.¹ وكان القدماء قد استقروا على وجود ثلاثة ألوان من الأساليب هي : الأسلوب البسيط والأسلوب المتوسط، والأسلوب السامي . واتفق الشراح اللاتينيون على أن خير نماذج تمثل هذه الأساليب الثلاثة هي إنتاج الشاعر الروماني " فيرجيل " الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، فديوانه الشعري الأول الذي كتبه عن حياة الفلاحين ودار في شكل قصائد حوارية، وسماه قصائد ريفية Bucolique ، هذا الديوان يعد أسل وبه نموذجا للأسلوب البسيط، أما ديوانه الثاني الذي خصصه للشعر الخلفي والذي قصد من ورائه إلى حث الرومان على التمسك بحب أرضهم الزراعية ومن ثم أطلق على الديوان اسم قصائد زراعية Géorgique، فهو يعد نموذجا للأسلوب المتوسط.

¹ - المرجع نفسه، ص 174

أما ملحمة الشهيرة " الإنيادة " L'eneid والتي عدت من أكثر الملاحم القديمة شيوعا، والتي حاول من خلالها فرجيل أن يقدم للأدب الروماني عملا خالدا ينافس به ملحمة " الإلياذة " لهوميروس، هذه الملحمة الفرجيلية تعد عند البلاغيين النموذج الأمثل للنوع الثالث من الأسلوب وهو الأسلوب السامي.

على هذا الأساس من التقسيم الثلاثي للأسلوب وإرساء العلاقة بينه وبين إنتاج فرجيل، شاع عن البلاغيين ما عرف بدائرة " فرجيل " في الأسلوب، وهي دائرة ترسم على أساس محاولة توزيع هذه الأقسام الثلاثة على الطبقات الاجتماعية المتنوعة، ومن ثم توزيع المفردات، والصور ومظاهر الطبيعة وأسماء الحيوانات، والآلات والأماكن على الطبقات الملائمة، وفي هذا الإطار ترسم الحدود الفاصلة بدقة، فإذا اتفق مثلا على أن كلمة الماشية تتناسب مع طبقة الزراع، وهذه الطبقة يلائمها الأسلوب البسيط فإنه لا ينبغي أن تنتقل هذه الكلمة إلى الأسلوب المتوسط الذي يلائم التجار والصناع، ولا إلى الأسلوب العالي الذي يلائم القواد والأمراء والمفكرين، لأن لكل عالم من هذه الأقسام كائناته التي تتحرك داخله، وأماكنه التي تليق به، وأناسه الذين يتعامل معهم، ومن هنا فينبغي أن تكون له لغته الخاصة به.

ولا تقتصر هذه الحدود على مفردات اللغة فقط ولكنها تمتد أيضا إلى صورها وألوان التزيين الخاصة بها، ويكاد يرتبط احترام هذا التقسيم بين طبقات الأسلوب، باحترام التقسيم بين طبقات المجتمع، وهو تقسيم يمتد في الروح الأوربية القديمة والوسيطه ولم يتم الخروج عليه في العصور الحديثة إلا من خلال ثورات دامية.

تستقر إذن قواعد البلاغة الأوربية حول محورين هما تقسيمات الأجناس وأنواع الأساليب، والتقابل الذي يحدث بينهما، ولكن القواعد عندما تتحدد تتجه نحو التجمد . ويظهر أناس يهتمون بحرفية القواعد أكثر من اهتمامهم بروح الأدب . وهؤلاء ينتهي بهم الأمر إلى كتابة إنتاج لا تنقصه مراعاة أصول الشكل المتفق عليه بقدر ما تنقصه حيوية الروح الأدبية، ومثل هذا الإنتاج يلفت النظر إلى ضرورة الخروج على الأطر الجامدة

للقواعد، وهو خروج يقود حركته كبار المفكرين، فمنذ القرن السادس عشر يعلن فونتاني Fontanier ، في كتابه " صور الخطاب Les figures du discours " ، الذي ألفه ما بين 1821 و1830، " ثورته على الكلام الفخم الذي يغطي خواء الفكر، ويعلن أن يبحث عن كلام يحتفظ بنفس القدر من الصلابة على الورق وعلى اللسان"¹.

ويعلن ديكارت (1596 - 1630) أن أولئك الذين يمتلكون أفكارا معقولة ويتمثلون على نحو عميق هذه الأفكار لكي يؤدوها واضحة ومفهومة، أكثر قدرة على الإقناع من أولئك الذين يهتمون فقط بالقوالب البلاغية.

وهذه الملاحظات الجزئية تمثل ثورة العصر على القوالب العامة التي كانت سمة العصور الكلاسيكية، وسوف تتجمع هذه الملاحظات وتعمق، وتقدم على نحو متكامل عند جورج بوفون Georges BUFFON (1707 - 1788) في عمله المشهور : مقال في الأسلوب Discours sur le style الذي أعلن فيه " التحول من الاعتقاد بأن الأسلوب هو الجنس الأدبي والطبقة الاجتماعية التي يتم التعبير عنها إلى أن " الأسلوب هو الرجل " والذي أصبح فيما بعد شديد الشيوع.²

وفي رأي بوفون، تستلزم البلاغة الحقيقية، إعمال الموهبة وتنقيف النفس معا؛ والأسلوب ليس إلا النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارهما . الأسلوب هو الرجل ذاته، فإذا كان الأسلوب راقيا ونبيلًا وساميا، فإن الكاتب س وف يعد كذلك في كل العصور.

لقد أذكت الحركة الرومانتيكية على نحو خاص هذا الاتجاه الذي يسعى إلى تشجيع دراسات بلاغية تجديدية، تلتزم جزءا من الهيكل العام القديم للدراسات البلاغية وتضيف إليه أجزاء أخرى، وتعيد النظر في هذا التقسيم الصارم للأجناس وتستفيد من التراتبية الأدبية الكبير الذي عرفته أوروبا منذ بدأت حركة البلاغة الوسيطة.

¹ - أحمد درويش : النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي . ص 176 - 193
² - المرجع نفسه . ص 176

وقدر للبلاغة أن يخفت صوتها في أوروبا منذ أواخر القرن التاسع عشر وطوال النصف الأول من القرن العشرين، حيث تظهر اتجاهات أخرى في تحليل الأعمال الأدبية، سواء كانت اتجاهات راجعة إلى تطور البحث في فرع وع المعرفة الإنسانية مثل التحليل النفسي وعلوم الاجتماع والتاريخ أو كانت اتجاهات راجعة إلى بعض التغييرات السياسية الكبرى في هذا العصر، وأهمها تزايد قوة الحركة الاشتراكية ونجاح الثورة الروسية، أمام هذه الاتجاهات ينحصر الاهتمام بالجانب البلاغي في النص، وتصبح البلاغة واحدة من العلوم التي تنتمي إلى القرن التاسع عشر وما قبله.

لكن التطور الكبير الذي أصاب الدراسات البلاغية في العقود الأخيرة، قفز فجأة بالبلاغة إلى علم يقف في الصف الأول من صفوف علوم الدراسات الأدبية؛ بل وأصبح أحد المذاهب النقدية التي شاعت اليوم في الـ غرب، وهو المذهب البنائي le structuralisme الذي يعتمد أساسا في الدراسات البلاغية الحديثة.

وقد غيرت هذه الدراسات الحديثة من الأساس المنهجي الذي كانت تقوم عليه الدراسات البلاغية القديمة وهو " الأساس المعياري " أي الذي يعتمد على المعايير الثابتة التي اتفق عليها كقواعد منذ القديم، والتي كان على الناقد أن يكون مسلحا بها قبل مواجهة النص.

أصبحت البلاغة الحديثة تعتمد على " الأساس الوصفي " أي الاعتماد على وصف الظاهرة وصفا علميا من خارجها، ومحاولة استخلاص الخصائص الجمالية من خلال هذا الوصف، وفي هذا المجال فإن هذه الدراسات تعتمد كثيرا على مبادئ هذه العلوم. يحتل التحليل البلاغي اليوم مكانة شديدة التميز في صدر النقد الأدبي، وهي مكانة مهدت لها على استحياء بعض كتابات " بول فاليري " في حقبة مبكرة من هذا القرن، ودعمتها أبحاث مدرسة " الأسلوبية الأدبية " عن كارل فسلر وليو سبتزر ، ولكن الذي دفع بهذه الأبحاث لأن تحتل مكان الصدارة، وأن تكون جزءا من طموحات المستقبل، لا مجرد وجه من وجوه إحياء التراث، هم أصحاب المدرسة البنائية، ومنهم رولان بارت الذي دعا سنة 1964 إلى إعادة تمثيل التراث البلاغي في ضوء النظرية البنائية.

ولم يكن بارت وحده هو الذي اهتم بهذا الجانب من بين البنائين؛ فهذا هو ذا جيرار جينيت يهتم بدوره بتحقيق التراث البلاغي ودراسته، ثم ها هو تودوروف يقدم دراسات تحليلية حول المجاز . وتظل إسهامات رومان جاكوبسون في هذا المجال واضحة حيث يقف واسطة بين الدراسات اللغوية والأدبية من خلال اعتماده على الدراسات البلاغية التي تمتد جذورها في كلا الحقلين . أما جون كوين فيقدم دراسته التحليلية المستفيضة بعنوان : " بناء لغة الشعر "، وهو يقيم الدراسة على أساس من إعادة معالجة التراث البلاغي والنحوي من خلال منظور بنائي، واستغلال ذلك كله في إعادة تحديد الخصائص الجمالية للشعر .

إن ذلك الاهتمام المركز بالبلاغة في التحليل النقدي الحديث قد دفع إلى الأضواء مرة أخرى نصوصا من البلاغة القديمة والوسيطية، جرى التركيز عليها، وإعادة تحليلها وتقديمها والإفادة منها .

وكان الكشف عن مرحلة البلاغة الأوربية الوسيطة كشف عن مرحلة ضرورية لا بد من اجتيازها بين المرحلة التراثية والمرحلة الحديثة .

وقد اهتم أنصار الاتجاه البنيوي بتحليل علاقات الأجزاء الخمسة المعروفة في البلاغة الغربية القديمة وهي : الأغراض، والترتيب، والعبارة، والذاكرة والفعل؛ بنظائرها في النظام اللغوي الحديث . وذلك عن طريق التمييز بين عمليات التلطف واللفظ ذاته . فجعلوا الذاكرة والفعل من قبيل عمليات التلطف والعناصر الثلاثة الباقية هي اللفظ ذاته . كما أن هناك منهم من ربط مفهوم الغرض البلاغي بالمستوى الدلالي، ومفهوم الترتيب بالمستوى النحوي . وجعلوا العبارة قاصرة على المستويين الصوتي والصرفي .

" بيد أن البلاغة العامة تعتمد أولا إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على

أسس جديدة، باعتبارها تحولات أو انحرافات، تتضمن تصورات عديدة، وتميز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التحولات : إحداهما تتصل بجوهر المادة، والأخرى بعلاقاتها،

فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحول، والثانية تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقاتها".¹

خرج كثير من ممثلي هذا الاتجاه عليه واتهموه بالقصور والنقص، وعلى رأسهم "جينيت" الذي أعلن نقده لهذا الاتجاه الحصري للبلاغة، فهو يتهمها بأنها ظلت تدور حول "العبارة" فحسب، أو حول بعض أشكالها التصويرية. مما كاد أن ينتهي بها إلى أن تنحصر في مجرد نظرية للاستعارة تقوم في صلبها على تحديد الانحرافات وطرائق تصويبها . حينئذ، تحدث بعض الباحثين الآخرين مثل "ريكور" عن الخداع الذي ينطوي عليه تقديمها باعتبارها بلاغة عامة تدعي أنها تريد هز المبنى البلاغي بأكمله، في الوقت الذي لا يتجاوز فيه إنجازها الفعلي مجرد مراجعة قوائم الأشكال البلاغية التقليدية وملامسة مشكلات المعنى والمجاز دون حلول جذرية لها. الأمر الذي يفسح المجال للتحليل التداولي للخطاب وبدائل علم النص.

¹ - بلاغة الخطاب و علم النص. ص 83

خاتمة الباب الأول

إلى هنا نكون قد استجلينا تاريخ البلاغة العربية الذي مر بمراحل لامعة سطرها أعلام بحثوا ودرسوا وثبتوا مبادئ البلاغة، متكئين على علوم مجاورة تقدمت بتقدم البلاغة وتطورت بجوارها.

وقد زرنا المحطات التي حط عندها هؤلاء العلماء، لنذكر ما حظيت به البلاغة من عناية واهتمام لترقى بارتقاء الحركة العلمية التي كان يدفعها إلى الأمام أسماء بارزة في التاريخ، ثم تدبّل وتتقلص بفقدان رجالها إلى النفس العلمي وتقايسهم.

أطلعنا تاريخ البلاغة العربية على ثراء الدراسات التي ترعرعت في وكرها ومكانة رجالها، وأكد لنا أن البلاغة لم تبتدىء بعبد القاهر الجرجاني الذي أسهم أيما إسهام في وضع أصولها وابتكار بحوثها في القرن الخامس الهجري، وأنها لم تبتدىء كذلك بالسكاكي الذي وضع مصطلحاتها الفنية و ضبط تقسيمها نهائياً إلى ثلاثة علوم : المعاني، والبيان، والبديع؛ و وضع لكل منها فروعه ومقوماته. إنما البلاغة حركة فكرية بيانية مستمرة قادرة على التطور والتكيف إن وجدت من يتكفل بها والبيئة العلمية النشطة.

وهذا موضوع الباب الثاني.

الهـاب الثاني

علوم اللسان الحديثة وأثرها على البلاغة

تمهيد الباب الثاني

الفصل الأول : النظرية اللغوية في الغرب وعند العرب

1- النظرية اللغوية الغربية

1- الأسس العامة للنظرية اللغوية الغربية

2- أهم أركان المنهج البنيوي

2- مدرسة جاكوبسون

1- النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون

2- نظرية التواصل لدى جاكوبسون

3- تأثير آراء جاكوبسون في الدرس اللغوي

4- مكانة جاكوبسون العلمية

3- النظرية اللغوية عند العرب

1- استثمار التراث اللغوي

2- نظريات لغوية مبكرة

3- تحليل لغوي تطبيقي

الفصل الثاني: علم النص

1 تعريف النص

2 النص في النقد الحديث

3 لسانيات النص

4 علم النص و البلاغة

5 الأبنية النصية

6 بلاغة السرد

الفصل الثالث: تحليل الخطاب

1- مفهوم الخطاب

2- منهج تحليل الخطاب

3- التحليل التداولي للخطاب

4- تحليل الخطاب في النقد المعاصر

- 5- تحليل الخطاب في الدراسات العربية
- 6- بعض العلوم المتصلة بتحليل الخطاب
- 7- البلاغة الجديدة
- 8- بنية الشكل البلاغي
- 9- مستويات تصنيف الأشكال البلاغية

الفصل الرابع : الأسلوبية

- 1- تعريف الأسلوب
- 1- في حد الأسلوب
- 2- مفهوم الأسلوب في تراث العرب القدامى
- 3- صفات الأسلوب

2- مجال الأسلوبية

- 1- تعريف الأسلوبية
- 2- ميادين الدراسة الأسلوبية
- 3- أنواع الأسلوبية
- 4- الأسلوبية عند ميشال ريفاتير

3- علاقة الأسلوبية بعلوم لسانية أخرى

- 1- الأسلوبية وعلم اللغة
- 2- الأسلوبية والبلاغة
- 3- الأسلوبية والنقد وتاريخ الأدب
- 4- الأسلوبية ولسانيات القول
- 5- الأسلوبية وتحليل الخطاب

4- التجديد في الأسلوبية العربية

- 1- الاتجاهات الأسلوبية في الوطن العربي
- 2- تجربة عبد السلام المسدي

خاتمة الباب الثاني

تمهيد الباب الثاني

" تعد اللسانيات الدراسة العلمية للغة البشرية ¹."

ومنه، عرفت اللسانيات الحديثة نمواً أفرز فروعاً كثيرة وتيارات، سارت جنباً إلى جنب مرة، وتقاطعت مرة، واختلفت أو اتحدت مرات أخرى.

واجتهد رواد هذه العلوم الفرعية، مع اختلاف مشاربهم، من أجل تحديد مجالها وبناء نظرياتها؛ مدعمين بحوثهم بالتجارب على موضوع مشترك ألا وهو اللغة / الكلام. غير أن إحصاء كل هذه العلوم والتمييز الدقيق بينها يبدو مستعصياً لكثرتها وتنوع أقسامها وتشعب مجالاتها واتجاهاتها.

لذلك، اعتمدنا على أهم العلوم التي برزت في مجال اللسانيات الحديثة والتي اتصل بها البحث اللساني العربي واتخذ نتائجها مرتكزاً لأعماله مرة، ولمراجعة تراثه ومستلها منها زاده مرة أخرى؛ فنعثر بين الحين والحين على نظرات تقدمية في التراث العربي، يعتبرها بعض الدارسين "تنبئية". و من هنا تناولنا في الباب الثاني " علوم اللسان الحديثة وأثرها في البلاغة "، لإبراز العلاقة القائمة بين فروع اللسانيات الحديثة والبلاغة كعلم قديم متجدد في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة. فكانت الانطلاقة من النظرية اللغوية لدى رائد اللسانيات الحديثة ألا وهو دي سوسير. وذلك لإرساء أهم المفاهيم التي جاء بها والتي، بناء عليها، سار الباحثون ووضعوا نظرياتهم.

ومن هؤلاء جاكوبسون الذي دقق بعض المفاهيم اللسانية وأرسى نظرية التواصل فاتحا الطريق أمام باحثين مثل لاكان وتشومسكي ولوغوارن وليفي شتراوس وغيرهم.

" عكف العقل العربي منذ القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن الخامس على تطوير نظرية لغوية لا تختلف في مكوناتها كثيراً عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي

¹ - MARTINET, André : Eléments de linguistique générale, 4 e ed. Paris, Armand Colin / Masson, 1996. p 6

أسس له فرديناند دي سوسير في بداية القرن العشرين . والاختلافات - وهي قائمة بالطبع - بين علم اللغة العربي وعلم اللغة الأوروربي الحديث خلافات منطقية، فقد طور العرب مدرستهم اللغوية قبل الغرب بعشرة قرون على الأقل... فقد استطاع العقل الغربي في ثمانين عاما على أكثر تقدير أن يطور علم اللغة من صورته البسيطة كما قدمه سوسير على مذاهب ومدارس يتوه الدارس المتخصص في سراديبها بل متاهاتها"¹. فبلاغتنا، مثلما اتصلت قديما بالنطق والفلسفة الإغريقية، اتصلت حديثا بعلم اللسان التي تطورت في الغرب.

وإذا سلمنا بأن علوم اللسان تعالج الظواهر اللغوية المتصلة باللغة والكلام، فهذا يساعدنا على إدراك أسباب تركيز الباحثين تن قبيهم المستمر لمجالات مثل : النص، الخطاب، الأسلوب والعلوم التي نشأت حولها. وهذا ما جعلنا- على سبيل التمثيل لا الحصر - نسجل أهم الخطوات التي خطاها البحث في هذه المجالات، محاولين قدر الإمكان، تلمس التشعبات التي شهدتها هذه العلوم.

¹ - عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة. ص 243

الفصل الأول

النظرية اللغوية في الغرب وعند العرب

1- النظرية اللغوية الغربية

1- الأسس العامة للنظرية اللغوية الغربية

2- أهم أركان المنهج البنوي

2- مدرسة جاكوبسون

1- النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون

2- نظرية التواصل لدى جاكوبسون

3- تأثير آراء جاكوبسون في درس اللغوي

4- مكانة جاكوبسون العلمية

3- النظرية اللغوية عند العرب

1- استثمار التراث اللغوي

2- نظريات لغوية مبكرة

3- تحليل لغوي تطبيقي

1- النظرية اللغوية الغربية

يتشكل الخطاب النصي من أبنية لغوية، الأمر الذي يقتضي من أية مقارنة علمية أن تتأسس على اللغة . ومن ثم فإن نظرية اللغة تقع في ذروة النسق المعرفي المتصل بالبلاغة والأدب.

1 - الأسس العامة للنظرية اللغوية الغربية

- أرسى سوسير نظريته اللغوية على مبادئ عامة في اللسانيات، مركزا خاصة على:
- طبيعة العلامة اللغوية، بشقيها الدال والمدلول. فحدد لها مبدئين هما:
 - * اعتباطية العلامة،
 - * الطابع الخطي للدال.
 - تحول العلامة وعدم تحولها.
 - الثنائية الداخلية لكل العلوم التي تعمل على القيم.
 - القانون التزامني والقانون التعاقبي.

ونظرية سوسور Saussure في اللغة، نسق من العلامات غير السببية، كل شيء فيه علاقة وتخالف. وهو يعني بذلك أن أي دال من الدوال لا يؤدي وظيفته بوصفه صوتا له دلالاته المباشرة على شيء أو معنى ما . بل بوصفه في جوهره مختلفا عن غيره من الدوال. ومعنى هذا أن معاني الكلمات تتوقف على مواقعها في الجمل واختلافها عن غيرها. هذه النظرية تفسر بوضوح قدرة الكلمات، مهما جمدت معاني الألفاظ في المعاجم، على خلق معان جديدة، وهذا هو صلب عملية التوليد البلاغي.

من الباحثين من يقترح فكرة حركة المعنى بما هي حركة ذات أثر رجعي، لا تتبين بمقتضاها معاني الكلمات إلا بانتهاء الجملة أو المقال.

ويتوقف ظهور المعاني الجديدة على طبيعة العلاقات بين كل حد من حدود النسق وغيره من الحدود. وهذه العلاقات لا تخرج عن نوعين كما هو معروف في الفكر اللغوي الحديث : الترابط التركيبي والاستبدال.

وعلى هذا فإن بلاغة الخطاب الجديدة قد ورثت تصورا عن اللغة، أخذ يتعزز ويتأكد خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وذلك بتأثير تعاليم سوسير التي تتمثل في قوله :

" اللغة نظام من العلامات ولا تعد الأصوات إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها، وإلا فهي مجرد أصوات. ولكي تعبر الأصوات عن الأفكار أو تنقلها ينبغي لها أن تكون جزءا من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار. وبعبارة أخرى، ينبغي لها أن تكون جزءا من نظام من العلامات . والعلامة هي اتحاد بين شكل يدل، يسميه سوسير الدال Signifiant وفكرة يدل عليها تسمى المدلول Signifié. ومع أننا قد نتكلم عن الدال والمدلول، كما لو كانا عنصرين منفصلين، فإنه ما لا يوجدان إلا بوصفهما مكونين للعلامة اللغوية"¹.

هذه الأركان الرئيسية لنظرية سوسير اللغوية أسس عليها البنيويون نظريتهم في النقد، وبناء عليها أقاموا استراتيجيات التعامل مع النص. يتمثل الركن الأول في كون اللغة نظاما من العلامات يكتسب قوة العرف الاجتماعي عندما يتفق عليه المستخدمون له . وهذا الاتفاق يتم بشكل اعتباطي Arbitraire؛ معنى ذلك أن اللغة نشاط اجتماعي بالدرجة الأولى. ونظرية سوسير في ركنها الثاني تقوم على أن العلامة اللغوية هي الصوت أو الأصوات، وعلى ثنائية الكلام Parole واللغة المكتوبة Langue التي تمثل العمود الفقري، ليس لنظرية سوسير اللغوية فقط، بل لكل النظريات اللغوية والنقدية التي شهدها القرن العشرون.

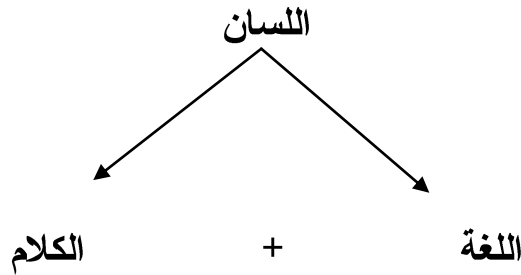
" يعتبر التقابل الذي أجراه سوسير بين اللغة langue والكلام parole من بين أهم النظريات اللسانية البنيوية التي أح دثت ثورة في مجال الدراسات اللغوية، حينما دعا سوسير إلى ضرورة النظر إلى اللغة بوصفها نظاما من العلامات . واللسانيات نفسها ما

¹ - د. عبد العزيز حمودة: المرابا المقعرة. ص 202

هي سوى جزء من علم كبير هو السيميولوجيا الذي يدرس جميع العلامات في صدر الحياة الاجتماعية.

لقد ميز سوسير في تقابله بين ثلاثة عناصر :

اللسان language واللغة langue والكلام parole كما هو مبين في هذا الشكل :



فاللغة هي تلك الآثار المرتسمة في الدماغ والخاضعة لمجموعة الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع واحد، أما خاصية الكلام فهي خاضعة لحرية الإ نسان، لذا نجد سوسير يفرق في التركيب بين واقعة اللغة التي هي عبارة عن علامات الاستعمال الجمعي وبين واقعة الكلام الخاضعة للحرية الشخصية¹.

أما الركن الثالث فيعتمد على عنصرين :

- رفض النظرية التقليدية التي تقول إن العلامة تتكون من دال يشير إلى شيء - مدلول - ويدل عليه. فعند سوسير لا يشير الدال إلى شيء، بل يشير إلى مفهوم الشيء أو فكرته في العقل.

- رفض فكرة انفصال الدال والمدلول، فتقسيم العلامة إلى دال ومدلول يعني أنهما عنصران مكونان للعلامة.

¹ - خالد بوزياني : الصورة الأدبية و خصائصها اللغوية بين البلاغيين و الأسلوبيين . أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007. ص 239-240

وفي مجال الحديث عن اللغة كنظام علامات، وكيفية حدوث الدلالة، يحدد سوسير نوعين من العلاقات الداخلية، هما العلاقة السياقية Syntagmatique والعلاقة الاستبدالية Paradigmatique.

فالعلاقة السياقية أو الأفقية أو التركيبية تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات في الجملة على أساس التتابع أو التعاقب؛ أما العلاقة الاستبدالية أو الرأسية أو التصريفية فتقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر في النص.

* المحور التركيبي Syntagmatique

" تربط العلامات المستعملة علاقات معينة فيما بينها، بفضل ترتيبها على سلسلة الكلام؛ أي أن تركيب الجمل صار ممكنا بفضل قواعد النحو. وبعبارة أخرى، إن العلامات اللغوية المستعملة " تتعلق " من أجل تشكيل مجموعات أو تراكيب syntagmes، تخضع لقوانين شديدة الدقة في اللغة. وتسمى هذه القوانين تركيبية. فكل لغة تستعمل، ضمانا لعملها، محورا تركيبيا تنعكس قوانينه على سلسلة الحديث. ولتكوين رسالة انطلاقا من لغة معينة، ينبغي أن يستعمل المتحدث علامات هذه اللغة، وهو يراعي، لتعليقها على سلسلة الحديث، القوانين التركيبية التي تتحكم فيها. علما أن هذه القوانين التركيبية تكون منظومة خاصة بكل لغة"¹.

* المحور الاستبدالي paradigmatic

" وجدول التصريف paradigme هو مجموعة من الألفاظ التابعة لصنف نحوي واحد، تستطيع القيام بوظيفة معادلة، في بنية معينة تحكمها القوانين التركيبية؛ علما أن كل جدول تصريفي ناتج عن توازن باقية من التقابلات ويشكل منظومة فرعية للغة. إذن، تعمل اللغة وفق محورين : المحور التركيبي الذي يتحكم في العلاقات الممكنة للعلامات اللغوية، والمحور الاستبدالي الذي يعكس العلاقات الموجودة بين العلامات التي تستطيع أن تقوم بوظيفة واحدة"¹.

¹ - PEYARD, Jean. GENOUVRIER, Emile: Linguistique et enseignement du français. Paris, Librairie Larousse, 1970. p102-103

2- أهم أركان المنهج البنيوي

إن البنيوية الأدبية ارتبطت في نشأتها بالبنيوية اللغوية التي أسسها سوسور في بداية القرن العشرين.

يحدد إيميل بنفنيست E.BENVENISTE ملامح البنيوية اللغوية قائلا :
" إذا سلمنا بأن اللغة نسق، يصبح الأمر هو تحليل بنائها Structure. إن كل نظام، وحيث إنه يتكون من وحدات تؤثر في بعضها البعض، يختلف عن الأنساق الأخرى بفضل الترتيبات الداخلية لهذه الوحدات، ترتيبات تمثل بناءها بعض التركيبات Combinaisons متكررة، وبعضها نادر إلى حد كبير، بينما البعض الآخر، وهو ممكن نظريا، لا يتحقق أبدا. إن تصور لغة ما (أو كل جزء من لغة، مثل صوتياتها أو المورفولوجيا الخاصة بها ... إلخ) باعتبارها نسقا ينظمه بناء يجب الكشف عنه و وصفه، يعتبر تبنيا لوجهة النظر البنيوية".²

يعتبر بعض الباحثين أن بذور المنهج البنيوي تكمن في فلسفة ديكارت الذي يرى أن دراسة مسألة ما يقتضي نقلها إلى عناصرها البسيطة وتجزئتها إلى عدد من الأجزاء الممكنة.

هذا أهم مبدأ من مبادئ التقنية البنيوية، وهو تجزئة الظاهرة المدروسة إلى عناصر قائمة منطقيا.

وهكذا يكون في منظومة معايير المنهج البنيوي أنماط المعايير الآتية³:

معايير مادة التحليل البنيوي،

معايير عملية التحليل البنيوي،

معايير نسق التحليل البنيوي.

¹ - المرجع نفسه. ص 105
² - د. عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998. ص 200 و ما بعدها
³ - د. حسين جمعة: قضايا الإبداع الفني، ط 1. بيروت، منشورات دار الآداب، 1983. ص 139 و ما بعدها

وهذه الأنماط التي صاغتها البريوية وطبقها في الممارسة العملية تعتمد على مكونات

ثابتة هي :

1- معايير مادة التحليل البنيوي	
الخاصة:	العامّة:
1- المرسل	1- الإشارة / الدلالة
2- المرسل إليه أو المستقبل	2- الكلام / اللغة
3- البلاغ (الخبر)	3- النص / السياق
4- القانون المتعارف عليه	4- الثقافة / الطبيعة
2- معايير عملية التحليل البنيوي	
عمليات التحليل البنيوي	
- القراءة (القراءة السريعة، القراءة العميقة، القراءة الفاحصة)	
- التحليل المبسط	
- التفسير، التأويل	
- حل الشفرة، فك الرموز	
- القولية	
3- معايير منظومة التحليل البنيوي	
1- السلمية	1 - العنصر
2- الموقع	2- النسق
3- الضد	3- العلاقة
4- القالب	4- البنية
	5- المستوى

تستخدم معايير مادة التحليل البنيوي لتحديد موضوع البحث والذي يجري فحصه

كتعدد (نسق) منظم مكون من وحدات منفردة (عناصر)، تأتي في علاقات محددة،

أو كعنصر داخل في تعدد أوسع.

أما المعايير الخاصة فهي الوصف النظري للبنية الشكلية لعملية الاتصال كما تم طرحها في نطاق البحث الإنساني الاجتماعي عند لاسويل، الذي صاغ عملية الاتصال منذ نصف قرن كما يلي:

- من يقدم الخبر؟ (تحليل الإرسالية)

- ماذا يرسل؟ (تحليل المضمون)

- في أي قناة؟ (تحليل الوسيلة)

- لمن؟ (تحليل القاعة)

- بأي نجاح؟ (تحليل الأثر)

إلا أن لاسويل نفسه يعترف بأن تحليل عملية الاتصال انطلاقاً من الجزئيات البنيوية الخمس لا يشمل اللحظات الاجتماعية والأيدولوجية للاتصال، ومن أجل ذلك ينبغي إضافة سؤال آخر وهو: من أجل أي هدف يتم الإبلاغ؟

تهدف البنيوية إلى تعليم القارئ "قراءة" ظواهر الثقافة والفن بطريقة كفيلة بتغيير مجرى الثقافة وحتى بنية المجتمع ذاته. ويرتكز موضوع الدراسة عند البنيويين على الجزئيات الأولية، والهياكل النحوية والوسائل الشكلية التي تحدد - حسب فهمهم - الخواص الجمالية للعمل. وتتكون هذه الجزئيات من التعابير اللغوية، والتعابير من كلمات، والكلمات من مقاطع، والمقاطع من أصوات، والأصوات من فونيمات. يرى تودوروف أن مهمة علم الأدب يجب أن تقتصر على إبراز أن العمل ينتمي إلى بنية أدبية عامة، وكذلك ضرورة البحث عن المخطط العام في العمل الواحد المدروس يعني أن البنيويين على مختلف مشاربهم يرفضون النظر إلى الأدب في علاقته بالحياة الاجتماعية، ويحاولون دراسته كبنية مغلقة على نفسها، معزولة عن الجوانب الواسفة (الجوانب اللاأدبية).

وهكذا تناسى البنيويون تكامل العمل الفني، تطبيقاً لمقولة سوسور بأن اللغة ينبغي أن "تدرس في ذاتها ولذاتها".

وقد أكد سوسور على أن اللغة تشكل منظومة مغلقة على نفسها، وليس لها أية علاقة لا بالثقافة ولا بالأدب، رغم أنه اعترف بدلالة النصوص الأدبية في تاريخ اللغة. هذا المفهوم للبنىوية اللغوية التي أسسها سوسير هو المفهوم الذي تبناه أقطاب البنىوية الأدبية جميعا.

يهدف التحليل البنيوي، إلى التكفل بالعلاقات بين وحدات أو بنى العمل الفردي من ناحية، وعلاقتها مع النظام أو النسق اللغوي العام، من ناحية أخرى . وفي محاولة تحديد هذه العلاقات بنوعها فإن اللغوي البنيوي يركز على كيفية تحقيق الدلالة وكيف يحدد النظام الكلي قدرة البنى الصغرى على الدلالة . لكنه لا يكثر كثيرا للدلالة نفسها، فليست من مهام اللغوي البنيوي التوقف عند أكثر من "كيف" يتم تحقيق الدلالة.

* المحور الرأسي والمحور الأفقي

إن اللغة، بالنسبة إلى مؤسس البنىوية اللغوية، شكل وليست مادة . لذلك، يركز التحليل اللغوي على الداخل، على الوظائف الداخلية للأنساق الصغرى في علاقتها ببعضها بعض. ثانيا، يجب تقسيم التعبير اللغوي إلى عدد محدد من العناصر . ثالثا، عناصر اللغة تحدها علاقاتها المتبادلة، وهذه العلاقات استبدالية Synchroniques يمكن على أساسها لعنصر أن يحل محل عنصر أو عناصر أخرى، وتعاقبية Diachroniques بين عناصر تجتمع معا في نفس الوقت.

وضع سوسير ثنائية التزامن / التعاقب للتعبير عن مقاربتين متميزتين للظواهر اللغوية. وإن كان في الحقيقة يهتم سوسير بمفهوم التزامن وحده، لأن ه يسمح له بتأسيس اللسانيات كدراسة لمنظومات منسجمة : ومنه أصبح مصطلح **التعاقب** يشمل ميدان دراسة النحو التاريخي ... ويمكن تصور التعاقب في شكل تحويلات واقعة داخل منظومة سيميائية (أو لغة طبيعية)¹.

¹ - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Paris, Hachette, 1979. p 97

ومقارنة نص أدبي ما من منظور بنيوي تقتضي الاهتمام بالبنى والوحدات اللغوية في علاقتها بعضها البعض من ناحية، وفي علاقتها بالنظام الكلي الذي يفرضه النوع من ناحية ثانية، بحثاً عن نوع العلاقة التي تعطي الكلمة داخل نسق الجملة اللغوية القدرة على الدلالة والمعنى.

وينقسم البنيويون حول ما يسمى بالمحورين الأفقي horizontal ، والعمودي Vertical. فالمحور الأفقي يعني ذلك الخط الذي تتوالى أو تتتابع فوقه مفردات الجملة أو وحداتها الصغرى. أما الرأسي فهو ذلك الخط الذي يضم مفردات محتملة تمثل حصيلة لغوية يكتسبها الكاتب، وتختلف من كاتب لآخر بقدر مخزونه من التراث اللغوي والأدبي . إن الكلمات التي لا وجود لها في النص من الممكن أن تحل محل الكلمة التي استخدمت بالفعل. ويمكن تصور انتماء هذه الكلمات التي استبعدت من النص إلى عدد من جداول الاستبدال : كلمات بديلة لها نفس الوظيفة النحوية، أو كلمات بديلة أخرى لها معان ذات صلة (المرادفات أو المتناقضات).

" تتعدد التسميات اللغوية للمحورين . فالمحور العمودي بالفرنسية يسمى : Vertical,synchronique et paradigmatic . أما المحور الأفقي فيسمى Linéaire, horizontal, diachronique et syntagmatic . لكن الألفاظ شائعة الاستعمال هي synchronique, paradigmatic للدلالة على المحور الرأسي، و diachronique et syntagmatic للمحور الأفقي. أما في العربية فالمصطلحات المستخدمة هي : الرأسي، العامودي، التبادلي، الاستبدالي، الجدولي، الآني، التزامني، الترابطي، المتسقي بالنسبة إلى المحور الأول . و: الأفقي، التتابعي، التراصفي، التعاقبي، الزماني والنسقي بالنسبة إلى المحور الثاني."¹

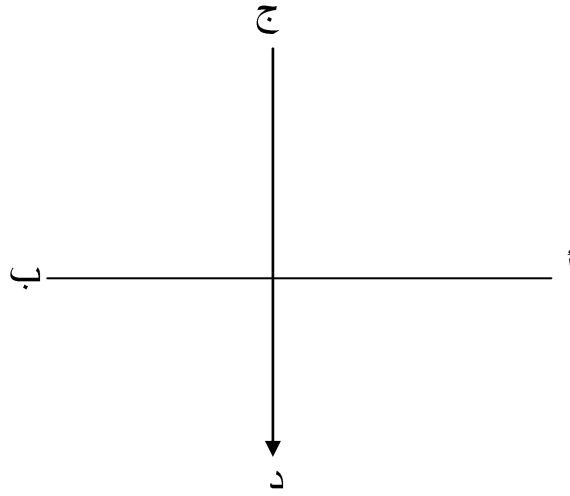
فللتزامن synchronie والتعاقب diachronie ، "هما علمان لسانيان ينظران إلى اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية، تخضع للزمن : فهي منتج الماضي وتوجد في الحاضر الذي يحدد مسبقاً المستقبل. ومنه، تتطور اللغات وتكون لنفسها تاريخاً.

¹ - المرايا المحدبة. ص 262

وعليه، نميز في كل العلوم بين:

1- محور التزامن (أ، ب) المتمثل في العلاقات بين الأشياء المتجاورة التي يستبعد فيها كل تدخل للوقت.

2- ومحور التعاقب (ج/د) الذي لا نتناول فيه إلا شيئاً واحداً في كل مرة، ولكن هو الذي تقع فيه كل أشياء المحور الأول مع تغييراتها.



ويمثل المحوران الفرق بين علمين لسانيين :

- العلم الأول، تبعاً للمحور (ج، د) يجري عمليات في الزمن؛ فقد يدرس مثلاً التطور الصوتي لكلمة . وهو يعمل بشكل تعاقبي (ويسمى هذا العلم باللسانيات التعاقبية أو التاريخية).

- أما العلم الآخر فإنه يجهل تماماً عامل الزمن، ويعمل وفق المحور (أ، ب) ويدرس اللغة في شموليتها داخل مجموعة تتحدث بها هنا والآن (وهذه اللسانيات تزامنية، أو آنية أو وصفية).

إذن، تظهر اللغة تزامنياً وتعاقبياً في آن واحد، لذا ينبغي دراستها تاريخياً

وآنياً¹.

¹- PEYTARD, Jean ; GENOUVRIER, Emile: Linguistique et enseignement du français. Paris, Librairie Larousse, 1970. p 93-94

وعليه، نعثر على تطبيق المحور الاستبدالي و المحور السياقي في مجال البلاغة:
" من المرتكزات اللسانية التي اعتمد عليها كوهن التقابل السوسيري بين المحور
الاستبدالي والمحور السياقي، وذلك في معرض حديثه عن الاستعارة التي يرى بأنها
صورة تتحقق على المستوى الاستبدالي، في حين أن الأنماط الأخرى كالقافية والحذف
والنعت والتقديم والتأخير فهي انزياحات تتم على المستوى السياقي.

فالاستعارة صورة تتحقق على الم ستوى الاستبدالي لا على المستوى السياقي، أي
أننا بصدد استبدال للمعنى حيث لا يكتفي مفكك الرسالة بالخضوع للقانون اللغوي الذي
يستلزم لكل دال مدلولاً معيناً بل يلجأ إلى تفكيك ثانٍ للوصول إلى المعنى الثاني، وعليه
فالاستعارة لا تتحقق في المعنى الأول بل في المعنى الثـاني وذلك بسبب الخرق الذي
يشكل منافرة، وبفضل المعنى الثاني تستعاد الملاءمة، فالاستعارة هنا تتدخل لأجل نفي
الانزياح المترتب عن هذه المنافرة. وبهذا التحليل يتوصل كوهن إلى نتيجة مفادها وجود
انزياحين متكاملين لكنهما لا يتحققان في المستوى اللغوي نفسه"¹.

وهكذا، قد يتبادر إلى كل من يشرع اليوم في دراسة اللسانيات، وذهنه خال من أفكار
مسبقة، أنه من العادي أن نستهل هذه الدراسة بفحص الأداة أثناء عملها، قبل البحث عن
كيفية تغييرها وأسباب هذا التغيير على مر الزمن.

" وفي الحقيقة، ينبغي أن يكون الوصف تزامنياً خالصاً، أي مؤسساً فقط على
الملاحظات الصادرة أثناء مدة زمنية قصيرة نسبياً؛ حتى يتجسد هذا الوصف عملياً، في
شكل نقطة على محور الزمن. ويمكننا في الدراسة التزامنية أن نلاحظ اتجاه اللغة نحو
التطور بمقارنة استعمالات الأجيال المختلفة المتعاصرة.

حينئذ، سنتحدث عن **تزامن ديناميكي**، كما نتحدث عن **التعاقب** في حالة مقارنة
حالات التزامن الديناميكي المتتالية في كل لغة"².

¹ - خالد بوزياني : الصورة الأدبية و خصائصها اللغوية بين البلاغيين و الأسلوبيين . أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007. ص 241
² - MARTINET, A : Eléments de linguistique générale. p 28

* النسق اللغوي

إن أبرز إنجازات سوسور يتمثل في نظرية النظام أو النسق *Systeme* اللغوي الذي يحكم الاستخدام الفردي للغة، بالإضافة إلى تطوير مفهوم العلامة *signe* اللغوية بشقيها الدال والمدلول.

نبدأ دراستنا لأي لغة بشواهد الكلام الفردي، نسجلها ونرصدها ونحللها، ثم ننقل بعد ذلك إلى الضبط، إلى وضع القواعد العامة التي تحكم الكلام . هذا هو النسق وهذه هي اللغة. وحينما نصل إلى النسق فإن تطبيقه على الكلام، على الحالات الفردية لاستخدام اللغة، هو الذي يعطي الكلام معنى، ومن دون هذا النسق يصبح الكلام أصواتا بلا دلالة أو معنى . ويقع نفس الشيء بالنسبة إلى النسق الأدبي، حيث يكسب ذلك النسق العام الأعمال الفردية دلالاتها ومعناها.

النسق إذن هو مجموعة القوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي للنوع وتمكنه من الدلالة . النسق ليس نظاما ثابتا وجامدا، بل هو نتيجة الظروف والقوى الاجتماعية والثقافية من جهة، والإنتاج الفردي للنوع من ناحية أخرى. كما أنه ذاتي التنظيم من جهة، ومتغير يتكيف مع الظروف الجديدة من جهة ثانية . أي أنه في الوقت الذي يحتفظ فيه ببنائه المنتظمة، يغير ملامحه عن طريق التكيف المستمر مع المستجدات الاجتماعية والثقافية. واللغوي السوسيري يضع العلامة وسط النسق اللغوي، فالعلامة في رأيه لا توجد خارج النسق اللغوي.

ثم إن النسق اللغوي عنده نسق اختلافات تتمثل في تضادات ثنائية، وهذا هو جوهر البنيوية اللغوية عند سوسور.

* النسق الأدبي

النسق الأدبي هو جوهر البنيوية الأدبية، وقد كانت النقلة من البنيوية اللغوية إلى البنيوية الأدبية في أوائل الستينيات، بفضل جهود جاكوبسون وبروب وجيل من الشكليين الماركسيين، الذين أحدثوا تيارا فرض نفسه بقوة على الحياة الثقافية في الشرق والغرب،

حتى تحول كتاب ليفي - شتراوس "الأنثروبولوجيا البنيوية" في 1958 إلى مرجع أساسي للدراسات البنيوية في سنوات قليلة.

وإن كانت دراسة بروب تسبق دراسة شتراوس في إثبات إمكان نقل النموذج اللغوي إلى أنساق غير لغوية، أو نقل النموذج البنيوي اللغوي إلى الدراسات الأدبية. فبالرغم من أن دراسته انصبحت على القصص الخرافية التي تقترب في طبيعتها من الأساطير، فإن مناقشته لبناء المائة قصة التي جمعها تقدم لنا أول دراسة بنيوية لبناء شكل قصصي، وهو في الحقيقة أقرب إلى الشكل الروائي منه إلى بناء الأسطورة. إنه بالفعل يصل في تحليله لتلك القصص إلى تحديد علاقات الوحدات المكونة للرواية . وهو إنجاز يضع دراسته في مقدمة الدراسات البنيوية للأدب، بناء على أن معظم النقاد البنيويين يجمعون على أن المنهج البنيوي يصلح في تحليل الرواية والأشكال السردية أكثر من أي شكل أدبي آخر.

وفي دراسته لمجموعة القصص الخرافية الروسية، يحاول بروب تحديد العناصر الثابتة والعناصر المتغيرة فيها . ويخلص إلى أنه، رغم تغير شخوص القصة، إلا أن "وظائفهم" محددة وثابتة.

ثم يحصر الحد الأقصى من "الوظائف" المشتركة بإحدى و ثلاثين وظيفة، يقسمه إلى وحدات تحدد مراحل تطور الحدث في القصة الخرافية بصورة لا تختلف كثيرا عن تطور الحدث أو الحكمة في الرواية الأدبية . فهو يقول إن الوظائف السبع الأولى تشكل "وحدة" تقدم الإعداد والبدائية، أما الوحدة التالية التي تغطي الوظائف من 8 إلى 10 فتقدم التعقيد، أما الوظائف الباقية فتقسم إلى وحدات تجسد الصراع والانقلاب أو التحول ثم الاكتشاف. إن أهمية بروب كبنيوي مبكر تتأكد بشكل قاطع حينما ينتقل من دراسة القصة الخيالية الواحدة كوحدة بنائية مفردة، إلى تصور بنية كلية عامة للقصة يسميها القصة العمدة أو الأنموذج.

ومما لا شك فيه أن بروب بهذا السبق يعتبر أكثر قربا من البنيوية الأدبية من ليفي شتراوس. وحينما يظهر كتاب ليفي شتراوس عن الأنثروبولوجيا البنيوية تكتمل النقطة النهائية للمنهج البنيوي من مجال اللغويات الصرف إلى مجالات ثقافية أخرى غير اللغة،

وهي ، في دراسة شتر اوس، الأنثروبولوجيا والنقد الأدبي . ويتم انتقال البنيوية اللغوية إلى المجالات الجديدة دون تعديلات تذكر .

ورغم بعض الاختلافات الأساسية بين المنهجين إلا أن "وحدات" ليفي شتراوس التي يقسم إليها الأسطورة، ثم مسرحية أديب ملكا لسوفوكلس، لا تختلف كثيرا عن "وظائف" بروب التي تنظم القصة الشعبية والخرافية.

* الدلالة

إن أخطر مشاكل البنيوية¹، والبنيوية الأدبية على وجه التحديد، هي مشكلة المعنى أو قدرة النص الأدبي على الدلالة.

والواقع أن مشكلة المعنى أو الدلالة هي مشكلة المشروعين النقديين اللذين ولدته ما حدثت حتى الآن، وهما البنيوية الأدبية والتفكيك . يقول البنيويون بأن المعنى يستخرج أو يستمد من النسق وليس العكس، في حين يتحدث التفكيكيون عن موت المؤلف . وهذه المشكلة أكثر إلحاحا في البنيوية الأدبية.

فالدلالة التي يعبر عنها النسق اللغوي غير الأديبي محددة إلى حد كبير لأن اللغة في الأنساق غير الأدبية لا تعتمد على "المراوغة" أو تعدد الدلالة، ولا تعتمد على الرمز أو البلاغة لتحقيق ذلك. وهذا الحكم لا ينطبق على الأنساق العلمية الصرف. وهكذا لا يمثل تحليل الأنساق اللغوية لنص غير أدبي مشكلة ف يما يتعلق بتحديد الدلالة . ويزترتب على ذلك عدم ملاءمة المقولة الثانية القائلة بموت المؤلف.

في النص العلمي، المؤلف غير موجود؛ والقراءة العلمية لا تمنحنا فرصة الحديث عن الفجوة بين "قصديّة" محتملة للمؤلف والدلالة التي تصل إلى المتلقي، فالقصديّة والدلالة تتوحدان داخل النسق أو النص العلمي.

فمشكلة الدلالة قائمة بالدرجة الأولى في تحليل النص الأدبي.

إن عملية التحليل البنيوي ترمي إلى اكتشاف قواعد التركيب وآلية المعنى "تشكل المعنى" في النص بوصفه الخطوة الحاسمة من أجل الدخول إلى عالم النص واجتلاء رؤيته.

¹ - المرايا المحدبة. ص 239 و ما بعدها

وتحليل النص يعني الوعي بوجوده داخل أنساق ثلاثة : نسقه الخاص كبناء مستقل،
النسق الأدبي العام للنوع الذي ينتمي إليه، ثم الأنساق الأخرى غير الأدبية التي تؤثر في
تشكيل المزاج الثقافي الذي ينتج النص في نهاية الأمر.

" إن لرولان بارت Roland BARTHE الفضل الأكبر في وضع نموذج منهجي حول
كيفية تحليل المعنى مواصلة لأفكار دو سوسير، حيث يميز بارت بين نظامين للدلالة
والمعنى :

فهناك أولا الدلالة التصريحية أو الرئيسية Dénotation التي ترتبط بالنظام الأول الذي
اشتغل دو سوسير على ضوءه، وهو يصف العلاقة بين الدال والمدلول داخل ال علامة
أو الإشارة، من جهة وعلاقة بمرجعها الخارجي من جهة أخرى.
وهناك الدلالة المصاحبة أو الإيحائية connotation التي ترتبط بالنظام الثاني وطريقة
اشتغال العلامة في هذا النظام - الثاني - إذ يذهب بارت إلى القول إن العامل الحاسم في
المعنى المصاحب هو الدال في النظام الأول، حيث يصبح دال النظام الأول هنا العلاقة
في المعنى المصاحب.

ويربط بارت بين المعنى المصاحب هنا وتأثير مشاعر المرسل، أو مستخدم اللغة،
خاصة عندما تمس العلامة مشاعر المرسل وقيم حضارته وتتأثر " المفسرة " بفاعلية
وظيفة " المؤول " بقدر التأثير بالموضوع أو العلامة.

ويقدم الباحث مثالا توضيحيا لهذين النظامين : فالمعنى الرئيس أو التصريحي شبيه
بالإنتاج الآلي للموضوع على الفيلم الذي تلتقطه آلة التصوير، بينما المعنى المصاحب
أو الإيحائي يشير إلى الدور الإنساني في العملية والذي يتعلق باخ تيار البؤرة وزاوية
النظر والإطار وما إلى ذلك¹.

¹ - أحمد الشايب: الأسلوب. ص 198

* مناطق الفراغ والصمت

إن النص يحفل بفجوات ومناطق صمت يجب على الناقد أن يملأها وينطقها، وإن وجود هذه الفجوات والصوامت يعني أن النص غير مكتمل . والصوامت هي المناطق التي لا تكون فيها العلاقة بين دال ومدلول محدد علاقة واضحة ومباشرة بل قد تكون غير موجودة، لأن إنطاق الصوامت هنا يعني قراءة المعنى بين السطور وليس في السطور ذاتها، لأن الناقد البنيوي لا يناقش ما يقوله النص بل ما لا يقوله ويصمت عليه .

"إن مفهوم الفراغ أو المراوغة أو مواقع الصمت يرتبط بجوهر البن يوية القائم على إنكار القيمة المرجعية أو الإحالية référentielle، للوحدة اللغوية خارج النسق الذي يحدد هو فقط قدرتها على الدلالة . فذاتية النسق اللغوي ورفض الربط التقليدي بين الدال والمدلول هو الذي يميز النص الأدبي عن النص غير الأدبي، حيث يكون الدال مساويا لل مدلول بلا غموض أو مداعبة أو مراوغة، وهي صفات ترتبط بطبيعة الدلالة في النصوص الأدبية"¹.

إن الوحدات الصغرى، في تجمعها داخل الأنساق الأكبر، مثل الجملة ثم النص في مجال الكتابة العلمية، تقدم عالما حدوده الدالات والمدلولات والعلاقات المتوازنة بينها، بحيث لا تغطي الدالة على المدلول أو العكس . لكن تلك الوحدات حينما تتوحد داخل نسق أدبي لا تهدف إلى نقل عالم تحدده العلاقات المتوازنة بين الدالات والمدلولات، بل هي تخلق عالما يقوم على قدرة وحدة التخيل على تكوينه بحيث لا يمكن رده إلى واقع خارجي . ولهذا تفقد العلامة قدرتها على الدلالة المحدودة، بل يجب أن تفقدها وإلا تحول النص إلى نص مباشر وغير أدبي، ثم تكتسب قدرة جديدة على الإيحاء بدلالات متعددة، بل لا نهائية.

* المفارقة contraste والتقابل opposition

ويرتبط مفهوم العلاقات الأفقية والرأسية بمفهوم آخر جوهرى هو ارتباط تحقق الدال بالاختلاف، الذي يعتبر أساس الثنائيات المتعارضة أو التعارضات الثنائية

¹ - المرايا المحدبة. ص 253

Opposition binaire عند البنيويين. والفكرة تقوم على أساس قيمة اللفظ اللغوي، حينما يطلب من شخص ما التمييز بين القيم التي تدل عليها العلامات اللغوية، مثل قيمة "بني"، فإنه سوف ينجح في نهاية الأمر في تحديد قيمة ذلك اللون على أساس أن "البنّي" هو ما ليس أحمر أو أسود أو رمادياً.

فالوحدات اللغوية، سواء كانت علامات أو وحدات صوتية phonèmes، تتصل فيما بينها وفق نوعين متميزين من العلاقات : فهي، من جهة، علاقات موجودة في الملفوظ énoncé وتسمى سياقيه syntagmatiques، وهي قابلة للملاحظة بطريقة مباشرة؛ ولتعيين هذه العلاقات، يستحسن استعمال كلمة المفارقة.

وهي، من جهة أخرى، علاقات نتصور وجودها بين الوحدات التي يمكن أن تظهر في سياق واحد، والتي، على الأقل في السياق ذاته، تتنافى بعضها بعضاً . وتسمى هذه العلاقات استبدالية paradigmatiques، كما يطلق عليها كذلك كلمة تقابل¹.

" يطلق لفظ التقابل على العلاقة " أو ... أو " التي تتأسس، على المحور الاستبدالي paradigmatique بين وحدات متساوية تنتمي إلى رتبة واحدة. ويسمى حينئذ المحور الاستبدالي محور ال تقابلات (أو محور الانتقاء عند جاكوبسون) ويتميز هكذا عن المحور السياقي، المسمى محور المفارقات contrastes (أو محور التراكيب)².

ويستعمل بعض اللغويين كلمة " المفارقة " للتعبير عن العلاقة " و... و " التي تربط، على المحور السياقي، وحدات متساوية compatibles ومن رتبة واحدة. حينئذ، نقول إن المحور السياقي هو محور المفارقات، تميزاً له عن المحور الاستبدالي أو محور التقابلات³.

¹ - MARTINET, A : Eléments de linguistique générale. p 27

² - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Paris, Hachette, 1979. p262

³ - المرجع نفسه. ص62

* العلامة

الحديث عن اللغة في المشروع البنيوي¹ يعني الحديث عن العلامة، التي تتكون من دال ومدلول. وما توصله العلامة هو الدلالة signification. قد توجد العلامة في شكل وحدة لغوية مفردة هي الكلمة، وقد توجد داخل نسق كلي مصغر هو الجملة، وقد توجد على شكل نص أو نسق أكبر ينظم عددا من الوحدات الصغرى داخل عدد من الأنساق الصغرى، وهو "النص أو العمل".

واللغة، كأداة للدلالة، سواء منطوقة بالصوت فقط، أو مكتوبة على شكل كلمات، نسق من العلامات.

تحدث سوسور في دراسته اللغوية عن الكلمة، أو المفردة اللغوية، مقروءة أو مكتوبة، باعتبارها علامة؛ والعلامة في ظل الفصل بين العلامة والمدلول المادي الخارجي، لا تشير لمجسد مادي خارجي، فكلمة " قطار " مثلا لا تشير إلى القطار الحقيقي في الواقع الخارجي، أو إلى قطار بعينه، لكنها تشير إلى الصورة الذهنية المشتركة الموجودة في عقل المتحدث مثلا، والتي يترجمها إلى صورة صوتية image acoustique يتلقاها السامع في صورتها الصوتية ويترجمها بدوره إلى صورة ذهنية، قد ينقلها بدوره إلى متلق، قد يكون هو المرسل عاكسا العملية، فبدلا من القيام بالتلقي يقوم بالإرسال . ويشرح سوسير ما يحدث هنا على أساس أنه دائرة مغلقة Circuit fermé.

تلك هي الطريقة التي تحقق بها العلامة الدلالة التي تتم عن طريق اكتمال العلاقة بين الدال والمدلول ، وليس عن طريق الربط بين العلامة والموجودات المادية في العالم الخارجي.

يدخل جاكوبسون تعديلات على نظام العلامة الذي وضعه سوسور . فهو لا يتحدث عن الكلمة المفردة وإنما العلامة التي يتحدث عنها جزء من نسق أكبر في مستوى جملة أو نص أكبر، قد يكون هذا النص حوارا عاديا، أو خطابا أو قصيدة . النص يحمل رسالة أو ينقلها من مرسل إلى مستقبل . والرسالة تتطلب حدوث اتصال حسي أو نفسي، وتحتاج إلى صوغها في شفرة، ثم إنها يجب أن تشير إلى سياق . إن السياق هو الذي يحمل للمتلقى

¹ - المرجع نفسه. ص 264 و ما بعدها

ماهية الرسالة، لكن ذلك لا يتحقق من دون فهم الشفرة التي تصاغ بها الرسالة . والشفرة بالنسبة إلى جاكوبسون هي وسيط لا يتم الاتصال دونه في حالة النص الأدبي .

2- مدرسة جاكوبسون

1 النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون Roman JAKOBSON

يعد جاكوبسون (1896 - 1982) عضوا مؤسسا لحلقة براغ الألسنية (1926)، ومنشأ لمدرسة " الشكلانية الروسية " التي تعتبر العمل الشعري وحدة لا تتجزأ يجب دراستها على أساس هيمنة الشعرية فيها . بالإضافة إلى أن القافية في نظر أقطاب هذه المدرسة ليست ظاهرة صوتية فقط، بل هي ظاهرة صوتية ومعنوية ونحوية وتوكيدية .

" إذا كانت اللسانيات تبحث عن القوانين العامة التي تحكم الخطاب اللساني، فإن الشعرية تبحث عن القوانين العامة التي تحكم الخطاب الشعري : وإذا كانت اللغة عامة هي موضوع اللسانيات فإن اللغة الشعرية بصفة خاصة هي موضوع الشعرية"¹.

والمقصود مما يطلق عليه جاكوبسون كلمة "شعري" هو " أدبي"، أي كل ما ينتمي إلى نظام خاص من عمل اللغة وتحقيقها ويحمل وظيفة هي "الوظيفة الشعرية".

اتجه جاكوبسون تدريجيا نحو البنيوية التي استلهم مبادئها الأولية من دروس سوسور؛ وفضله الأكبر يكمن في قدرته على الخروج من دائرة اللغة في سبيل التطلع إلى ما هو أبعد وأشمل منه ا في الحياة البشرية، فقد وضع منهجية تعتمد على الخروج من نطاق البحث عن القواعد والأصول للاهتمام باللغة في أقصى اتساعها في سبيل فهمها واحتوائها.

تعد كل أعماله و دراساته نقطة انطلاق لدراسة الشعر . ومن أهم وأشهر مؤلفات جاكوبسون: " دراسات في الألسنية العامة " Essais de linguistique générale، و " مسائل الشعرية " Questions de poétique.

¹- خالد بوزياتي : الصورة الأدبية و خصائصها اللغوية بين البلاغيين و الأسلوبيين . ص 235

وجه هذا العالم جهوده نحو اكتشاف العلاقة الحيوية التي تجوب هيكل اللغة والتي تجعل منها بنية منتظمة، آخذاً في الاعتبار أبعادها : الفيزيولوجية، النفسية، الاجتماعية، الأسطورية، ... الخ التي نجدها قد انتظمت في كتابه " الهيكل الصوتية للغة " La charpente phonique du langage الذي ينتقل فيه المفكر من دراسة وظائف أصوات اللغة وعلاقتها بالدماغ، والمتغيرات الأسلوبية، والسمات التمايزية وعلاقتها بمكونات أصوات اللغة ... الخ.

أسس جاكوبسون نظريته الألسنية على مبادئ عامة¹، منها :

* الانتقال من الجزء إلى الكل :

استوحى جاكوبسون مبدأ الانتقال بين الجزء والكل من أعمال " هوسرل " Husserl. فالمنهجية الأساسية (في كتابات جاكوبسون) تعتمد المرور من البحث في الجزء إلى بناء المبدأ الشمولي.

* العلاقة بين الشكل والمضمون :

إن الشعرية الجديدة تهتم بالشكل والعلاقات، يشدد جاكوبسون على العلاقات القائمة في القصيدة فيقول : " يجب أن نقرأ قصيدة كما نشاهد لوحة، أي أن نفهمها ككل بحيث نحدد جيداً علاقات كل عنصر بالآخر . إن مفهوم العلاقة (ومنها علاقة العناصر المكونة للعمل الفري) هو في أساس التفكير الجاكوبسوني . ويشدد على فكرة أن ليس باستطاعتنا أن نحلل اللغة أو النظام النحوي دون الرجوع إلى دلالة الأشكال (المضمون) .

" إن وظيفة الكلام تأخذ بعين الاعتبار السياق الاجتماعي للبت، ومن ضمنها أهداف المرسل والأوضاع الاجتماعية للمساهمين في عملية التواصل . فالكلام يتخذ شكلاً معيناً تبعاً لتموقعه في المجتمع، وبالتالي تختلف الوظيفة السيميائية بين موقف وآخر .

¹ - فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون. ط 1. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 1993. ص 28 و ما بعدها

فالعلاقة إذن وطيدة بين الشكل والمعنى أو المضمون . فنحن نرى أن الشكل في الشعر يختلف عنه في النثر من حيث القافية والتكرار اللفظي والعروض والأوزان وغيرها من الوسائل التي تعطي للشعر شكله و تحدد معناه وبالتالي دلالاته .
وينتهي جاكوبسون إلى القول إن كل فصل بين أقسام الدراسة اللغوية ما هو إلا تقسيم مصطنع، فنحن لا نستطيع أن ندرس المستوى الشكلي بغض النظر عن المستوى الدلالي. فما الذي نستطيع أن نقوله عن كلام لا نعرف شيئاً عن دلالاته؟¹

* ثنائية التفكير الألسني :

التفكير الثنائي عند جاكوبسون لا يقف عند حد الإشارة بعنصرها الدال والمدلول، بل يتعدى ذلك إلى العمل المحوري للغة، و خاصة في ما يتعلق بقطبي الاستعارة والمجاز المرسل.

- التزامن والتعاقب

من الدراسات الثنائية التي يوليها جاكوبسون اهتمامه ويخصص لها حيزاً لا يستهان به في دراسته اللغوية ثنائية التزامنية والتعاقبية.
" التزامنية Synchronie كلمة وضعها فرديناند دي سوسور في مقابل مفردة التعاقبية Diachronie ليبرهن على أن التزامن هو مقياس لدراسة أحداث لغوية تكون بوقوعها المتزامن حالة من حالات اللغة "².
أما التعاقبية فهي دراسة تاريخية للغة في تطورها وتغيرها . وما ينطبق على الألسنية ينطبق على الدراسات الأدبية والشعرية.
فالمنظار التزامني لا ينظر إلى الأدب في حقبة معينة فقط، بل ينظر إلى ذلك القسم من التراث الذي بقي حياً أو الذي تم إحيائه في الحقبة موضوع البحث.

1-JAKOBSON : essais de linguistique générale.Paris, Minuit,1963.Tome 1.p 261

2-F.De SAUSSURE : cours de linguistique générale.p 130-131

" ولقد انتقد جاكوبسون الفصل بين التزامن والتعاقب، واعتبر أن لا مبرر له، لأن كل

بنية، لغوية كانت أم أدبية، تعمل في حركة وتطور ثابتين ومستمرين مما يجعلها بنية تعاقبية، في حين أن انتماءها إلى نظام ثابت ومنهجي أيضا يجعلها كذلك بنية تزامنية. فلو أخذنا نصا ما لوجدنا فيه عناصر تتفاوت في قدمها، وذلك لأن الحقائق اللغوية لا تتطور جميعها بالسرعة نفسها. ويعتبر جاكوبسون أن التزامن الخالص لا وجود له. فكل نظام تزامني يتضمن ماضيه ومستقبله اللذين يكونان عناصره البنيوية اللازمة له.

والتغيير يحصل دائما في كل مقطع تزامني، لأن التزامن الحقيقي حيوي ومتغير، ففي الأدب كما في اللغة وفي كل الظواهر الاجتماعية هناك دائما بعض التجديد وبعض الخروج على الأشكال القديمة"¹.

اهتم جاكوبسون بالدراسة التزامنية للغة دون أن يهمل الدراسة التعاقبية. فهو يدرس مثلا الصور البيانية مركزا على الاستعارة والمجاز المرسل. هذه الدراسات تحتاج إلى دراسة العلاقات بين المفردات المتواجدة في الجملة الواحدة أو النص الواحد، أي أنها تحتاج إلى الدراسة التزامنية دون اللجوء إلى معرفة تاريخ كل لفظة وتطور استعمالاتها. فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن لا تكون التعاقبية في أساس تفكير جاكوبسون، لأن محور تفكيره ودراساته ليس اللغة أو اللسان، بقدر ما هو وظيفة هذه اللغة أو اللسان، أي الكلام والإنتاجات الخطابية والأدبية.

وقد ارتكز جاكوبسون على نظرية النسبية : فما يكون تزامنيا في هذا الزمان يصبح تعاقبيا بعد حين، فليس هناك من زمن ثابت في مفهوم جاكوبسون، وليس هناك من زمن عالمي، فكل نظام من الأنظمة هو في حركة ذات زمن خاص تختلف سرعته من زمن لآخر.

- المحور الاستبدالي والمحور النظمي :

تفسر النظريات البنيوية الحديثة التراكيب اللغوية بمجملهاء بناء على العلاقات القائمة بين الإشارات التي تتكون منها هذه التراكيب، وذلك على محورين أساسيين هما المحور

1-JAKOBSON : questions de poétique.p 57

الاستبدالي والمحور النظمي وهذا التفسير يقوم كذلك على ثنائية كان سوسور أول من نادى بها.

"العلاقات النظمية Syntagmatiques هي علاقات توجد بين وحدات تنتم ي إلى مستوى واحد، وتكون متقاربة ضمن منطوقة معينة أو عبارة معينة أو مفردة معينة . ويمكن لهذه الوحدات أن تدعى كذلك بالمتفارقة"¹.

" أما العلاقات الاستبدالية Paradigmatiques فهي تنتمي إلى مجموعات (أو مجموعة) فرعية تتكون من وحدات يمكن أن تؤدي وظيفة نظامية واحدة في موضع معين من المنطوقة، أي أن كل واحدة منها يمكن أن تحل محل أي واحدة من أخواتها في منطوقة معينة"².

وينطلق جاكوبسون من هذه الثنائية بين النظمي والاستبدالي عند دي سوسور ليطبقها وفق ما تقتضيه دراسته للغة . ويعمد إلى إعطاء كل جزء من هذه الثنائية قيمة مستقلة.

فلكل محور في رأيه عمله وأهميته، ونحن لا نستطيع أن نفهم أية وحدة لغوية إلا إذا قمنا بعملين عقليين مستقلين هما :

1- مقارنة الإشارة مع الوحدات المماثلة التي يمكن أن تحل محلها والتي تقع على المحور الاستبدالي.

2- إقامة علاقة بين الإشارة والوحدات المجاورة التي تنتمي إلى الفئة النظامية ذاتها . فمعنى مفردة لا يستقيم ولا يتضح إلا بتأثير ما يحيط بها في الحديث و بذكر ما يمكن أن يحل محلها.

وقد أصبحت هذه النظرية بالنسبة إلى جاكوبسون أساسا للصور البلاغية الأكثر تداولاً في اللغة الأدبية كالاستعارة والمجاز المرسل. فجعل قطبي هذه الثنائية أساسا لمعظم دراساته الأدبية (الشعرية منها والنثرية) لدرجة أنه استعمل المحور النظمي كمرادف للمجاز المرسل، والمحور الاستبدالي كمرادف للاستعارة.

1-GALISSON et COSTE : Dictionnaire de didactique des langues.p 395

2- المرجع نفسه. ص 396

وهنا تجدر الإشارة إلى ما أسداه جاكوبسون JAKOBSON للنظرية البلاغية الحديثة

من إنجازات، حينما بين أن الترابط والاستبدال هما محور اللغة، وأن العجز عن الكلام أو الحبسة يمكن أن تنحصر في نمطين : فهي إما أن تكون نتيجة خلل في محور الترابط، أو خلل في محور الاستبدال . ثم تعرض لنظرية الأشكال فبين أنه يمكن ردها إلى قسمين كبيرين حسب وقوعها إما على محور الترابط والتجاور وذلك في حالات الكناية والمجاز المرسل، وإما على محور الاستبدال وذلك في حالة الاستعارة.

- الانتقاء والتنسيق :

يدرس جاكوبسون اللغة فيركز فيها على تلك المظاهر التواصلية، ويسترعي انتباهه اعتماد الإنسان في كلامه على ظاهرتي الانتقاء Sélection والتنسيق Combinaison فيعرفهما على أنهما عمليتان رئيستان في سيرورة الكلام . فالتكلم عنده يتطلب عمليتين أساسيتين أولهما الانتقاء.

يختار المتكلم بعض العناصر المجردة الموجودة في مخزونه اللغوي، ثم يأتي دور العنصر الثاني المتمم وهو التنسيق بين هذه الوحدات المجردة والعناصر المختارة لتكون وحدات لسانية معقدة. فالمتكلم يختار إذاً كلماته من الكنز اللغوي المعجمي الخاص باللغة التي يتكلمها ويؤلف بينها في جمل تخضع لنظام هذه اللغة، والجمل بدورها تتلاحم لتكون عبارات.

ثم تأتي مرحلة جديدة وهي مرحلة تركيب الجمل . وهذا التنظيم يعتمد أيضا النظام الثنائي لإنتاج الكلام، أي الانتقاء والتنسيق . والانتقاء يقوم على أساس التجانس والاختلاف، والترادف والتضاد.

بعد ذلك تأتي العملية الثانية لتتم ما بدأه الاختيار، وهي عملية التنسيق، فيؤلف المتكلم بين الكلمات التي اختارها في جملة تخضع لنحو اللغة التي يستعملها. وهذه الجملة تكون النواة للفقرة، والفقرة بدورها تتألف مع غيرها من الفقرات لتكون النص، وبذلك يكون الثنائي المتلازم، الانتقاء والتنسيق، في أساس تكوين كلامنا.

- الاستعارة والمجاز المرسل :

ينطلق جاكوبسون في دراسته للغة من تحليل سوسور لمحاور الكلام . فالأسني السويسري يميز بين محورين : محور التجاور ومحور التماثل، وهو يرى بأن الكلمات تتجاور فيما بينها بعلاقات تتابع تأتي بموجبها الواحدة تلو الأخرى لاستحالة لفظ عنصرين في آن معا.

فنحصل بذلك على علاقة تركيبية أفقية . في حين يرى أن هناك نوعا آخر من الترابط غير الأفقي يكون مركزه دماغ كل فرد ويجمع بين كلمات تتفق من جانب وتختلف من جانب آخر، ولكنها تتماثل في شيء واحد.

وقد اعتمد جاكوبسون على هذه الثنائية ليبنى لنفسه ثنائية أخرى تقوم على التمييز بين الاستعارة والمجاز المرسل.

يستنتج جاكوبسون من خلال دراساته أن لغة الإنسان تقوم على دعامتين رئيسيتين : الاستعارة وهي إسقاط علاقة استبدالية على المحور اللفظي، والمجاز المرسل. فالمجاز المرسل يقوم على التنسيق والدمج والمجاورة، في حين تقوم الاستعارة على الانتقاء والاستبدال والمثابرة. والمجاز المرسل يعمل خاصة على المحور النظمي، ويقوم على علاقة التجاور، والتجاور هو شكل من أشكال التناسق.

فالمجاز المرسل يسيطر في النثر، لا لشيء إلا لأنه قريب من الأذهان وسهل الفهم، ويتيح للمرسل أن تكشف عن معناها. إلا أن ذلك لا يعني خلو النثر من الاستعارة. وبصفة عامة فإن الاستعارة هي المهيمنة في الشعر، في حين يهيمن المجاز المرسل في النثر . فالاستعارة هي برهان جلي على نبوغ الشاعر . وقد قال أرسطو في ذلك : " إن أعظم شيء أن تكون سيد الاستعارات، الاستعارة علامة العبقرية . إنها لا يمكن أن تلقن، إنها لا تمنح للآخرين " ¹.

¹ - مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ص124

وبما أن علم النحو يهتم بمحور النظم في حين يهتم علم الدلالة بمحور الاستبدال، فإننا نستطيع أن نلخص مجمل نظرية جاكوبسون في الاستعارة والمجاز المرسل بالرسم البياني التالي¹:

القضية	العملية	العلاقة	المحور	الميدان	العامل اللساني
استعارة	انتقاء	تماثل	إبدال	دلالي	الدلالة (في النظام)
مجاز مرسل	تناسق	تجاوز	نظم	نحوي	الدلالة (في السياق)

تكمن قيمة هذا الرسم في صلاحيته لدراسة الأسلوب، فالشمولية التي اعتمدها جاكوبسون في دراسة الاستعارة والمجاز المرسل جعلت من الرسم الذي وضعه، أساسا لكل تفكير، لغويا كان أم أسلوبيا أو حتى فلسفيا . والواقع أن هذه النظرية الثنائية في التمييز بين محاكاة الاستعارة والمجاز قد استعملت فيما بعد كنقطة انطلاق في الدراسات الألسنية والبلاغية عند ميشال لوغوارن Michel Le Guern وفي التفكير الفلسفي عند بول ريكور Paul Ricoeur، وفي التحليل النفسي عند جاك لاكان Jacques Lacan.

– اللغة – الهدف واللغة الواصفة:

" للتمييز جيدا بين اللغة التي نتكلمها عن اللغة التي نتكلم عنها (TARSKI)، لقد استحدث مفهوم " اللغة الواصفة "، ثم كيّف مع حاجات السيميائية على يد يلمسلاف L.HJELMESLEV، ومع حاجات اللسانيات على يد هاريس Z.S. HARRIS. يكفينا أن نلاحظ عمل اللغات الطبيعية لكي ننقطن إلى خاصتها المتمثلة في قدرتها على الكلام، ليس فقط عن " الأشياء "، ولكن كذلك عن ذاتها . ومنه، تضطلع، حسب جاكوبسون، بوظيفة " وصف اللغة ". أما بنفينيست E.BENVENISTE فينظر إلى اللغة الواصفة على أنها لغة النحو"².

2-P. RICOEUR : La métaphore vive.p 227

²- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p224-225

لا بد من التمييز بين اللغة الطبيعية Langue naturelle واللغة الاصطناعية artificielle، " لأن البنيات السيميائية التي تتحكم في تنظيم اللغة الطبيعية باطنية immanentes والفرد لا يساهم فيها إلا كمتعلم؛ في حين أن اللغة الاصطناعية، وعلى عكس ذلك، يبنها ويمارسها الإنسان... واللغة الطبيعية تمنح سمة خاصة للغة، إذ تقترن " بالطبيعة البشرية" وهي تتسامى على الأفراد الذين يستعملونها"¹.

يتناول جاكوبسون اللغة من حيث هي أداة تواصل نستعملها في حياتنا اليومية وكنز لغوي نلجأ إليه عند الحاجة، فهو يجد فيها ما يطابق تفكيره الثنائي . إن اللغة عنده ليست شيئاً جامداً يتكون من كتلة واحدة، بل هي - من هذا المنظار - قسمان يكمل كل واحد منهما الآخر، ولا وجود لأحدهما دون القسم الآخر، وهذان القسمان هما :

اللغة - الهدف (الحسية) Langue - objet، واللغة الواصفة (المجردة) Métalangage .

فنحن إذا ما قمنا في كلامنا بشرح كلمة ما بواسطة الترادف أو التضاد، فإننا نستعمل اللغة الواصفة. في حين أن الكلمة المراد شرحها تكون هي اللغة الهدف.

وهذه العملية الثنائية تعد في علم اللغة علماً يعتمد ربط اللغة المحسوسة بما يقابلها في اللغة المجردة، وهي دراسة علمية لأنها تعتمد على التفكير المنهجي والمنطق . ولكننا نرى أننا نقوم بهذه العملية مئات المرات في كل يوم، وفي كل لحظة، دون أن نفكر بكيفية القيام بها ودون أن نعيها.

وهي مهمة جداً في عملية الفهم والإفهام وفي عملية التواصل بشكل عام.

- الخطاب الخارجي والخطاب الداخلي:

إن الهدف الأساسي من استعمال الكلام هو إيصال رسالة ما إلى شخص معين أو إلى مجموعة من الأشخاص ولذلك فإن استعمال الكلام يستوجب وجود عنصرين لا يكون الحديث إلا بهما وهما المتكلم، الذي يؤلف المر سلة تبعاً لأهوائه ورغباته، والمخاطب، الذي يقوم بفك رموز هذه المرسلات لفهمها . لا بد إذن أن يكون هناك مرسل

¹ - المرجع نفسه، ص 204-205

يبثها المتكلم ليتلقاها المستمع الذي قد يكون شخصا حقيقيا أو وهميا متخيلا من قبل المتكلم. فهذا التواصل الخارجي Discours extérieur لا يقوم إذن إلا بوجود قط بي الحديث (المرسل والمرسل إليه)، بالإضافة إلى ضرورة وجود مرسله تنتمي إلى نظام مشترك بين طرفي التواصل ليتمكن كل منهما من فهم الآخر وإفهامه.

" إلا أن جاكوبسون يميز نوعا آخر من التواصل، وفيه يكون المتلقي والمرسل شخصا واحدا. ويسميه بالخطاب (أو التواصل) الداخلي Discours intérieur وكما يشدد على أهمية التواصل الخارجي في إيصال الأفكار إلى الآخرين والتعامل معهم، فهو لا يفتأ يذكر الحوار الداخلي أيضا.

إلا أن هذا الحوار الداخلي لا يمتلك أية بنية منطقية أو نحوية خاصة به " ¹.

- التواصل بالكلام والتواصل بالكتابة :

أصرت مدرسة براغ على الطبيعة المكتملة للشكلين المتلازمين اللذين لا ينفصلان ويسميان إما اللغة والكلام أو بتعبير جاكوبسون النظام والمرسله. من أهم وظائف اللغة التي نادى بها جاكوبسون وأولها اهتماما بالغا هي وظيفة التواصل التي تتيح للإنسان الاتصال بغيره من بني جنسه، إلا أن لهذه الوظيفة طابعا ثنائيا أيضا يكمن في وجود شكلين من التواصل : التواصل بالكلام Communication orale والتواصل بالكتابة Communication écrite.

فالتواصل بالكلام أو التواصل اللفظي، بمعناه الأكثر شيوعا، هو التواصل بالوسائل اللفظية بين فردين وهو من هذا المنطلق يشمل عمليتي بث واستقبال مرسله لها مدلولات معينة تحدد بالتواضع والاصطلاح المسبق بين المرسل والمرسل إليه وتتم هذه العملية التواصلية تبعا للدوافع النفسية - الفيزيولوجية للمتكلم كما تتحقق عبر القناة السمعية.

والكتابة بمعناها اللغوي الخاص هي تعبير عن اللغة المحكية (الكلام) بواسطة إشارات خطية (مكتوبة)، و ذلك لأغراض شتى منها حفظ الكلام، الذي يزول فور إلقائه شفويا، أو نقله إلى أماكن بعيدة عن المكان الذي ألقى فيه . ففي حين يزول الكلام بمرور

1-JAKOBSON : La charpente phonique du langage.p 99

الزمن، تبقى الكتابة دعامة مهمة أكثر ثبوتية وانتشارا في المك ان والزمان . فالكتابة هي نظام سيميائي مرئي دلالي، يبدي فونيمات ومقاطع تعمل عامة كدالات عن الوحدات المطابقة لها في اللغة المحكية.

ودراسة اللغة لا تتم بشكل كامل إلا إذا تناولت هذين الشكليين من التواصل.

2- نظرية التواصل لدى جاكوبسون

" تتعلق الشعرية بمسائل ذات بنية لغوية ... إلا أن العديد من الملامح الشعرية لا تتعلق باللغة فحسب بل تتعداها إلى كامل نظرية الإشارات، أي إلى السيميائية العامة . فاللغة تشترك في خصائص كثيرة مع بعض أنظمة الإشارات الأخرى، أو حتى مع مجموع هذه الأنظمة (في العناصر السيميائية الجانبية)"¹.

يجب أن تدرس اللغة في مختلف وظائفها . والحديث عن العوامل المكونة لكل عملية لغوية، ولكل تواصل كلامي، بداية بالمرسل الذي يبعث برسلة إلى المرسل إليه . ولكي تكون المرسل فاعلة، فإنها تتطلب أولا سياقاً ترجع إليه (المرجع)، وهو سياق يمكن فهمه من قبل المرسل إليه، ويكون إما كلامياً أو قابلاً لأن يكون كلامياً؛ ثم تتطلب المرسل نظاماً رمزياً، مشتركاً، بكامله أو على الأقل في بعضه، بين المرسل والمرسل إليه (أو بين المرمز ومحل الرموز)؛ وأخيراً، تتطلب المرسل نقطة اتصال، أي قناة طبيعية (فيزيائية مادية) واتصالاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه . وهو اتصال يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه.

" ولكي نفهم الإطار اللساني الذي اعتمدت عليه النظرية الأسلوبية الحديثة، لا بد من العودة إلى عوامل التواصل الكلامي التي قدمها جاكوبسون في رسم بياني متكامل والتي أصبحت فيما بعد في أساس معظم النظريات اللسانية والسيميائية والنقدية والأسلوبية . يأتي هذا الرسم على الشكل التالي"²:

¹ - فاطمة الطبال بركة : النظرية الأسنوية عند رومان جاكوبسون. ص 177 و ما بعدها
² - جورج مولينييه : الأسلوبية. ص 13 - 14

سياق

مرسل مرسله مرسل إليه

اتصال

نظام رموز

كل عامل من هذه العوامل الستة يولد وظيفة لغوية مختلفة¹. إذا ميزنا ست صيغ أساسية في اللغة، فإنه من الصعب أن نجد مرسلات تؤدي فقط وظيفة واحدة. ولا يكمن تنوع المرسلات في استثنائها بهذه الوظيفة أو تلك، بل في اختلاف مراتب هذه الوظائف وهيمنة إحداها على الأخرى. إن البنية اللغوية لمرسلة ما تتعلق قبل كل شيء بالوظيفة المهينة.

تؤدي مقارنة اللغة بنظام إلى استنتاج أن الوظيفة الأساسية للتواصل اللغوي هي نقل المعلومات: فكل ما يقال إنما يكون من أجل الإخبار.

وفي الواقع، تقع المعلومات المختلفة التي يحملها فعل الكلام في مستويات متباينة تماما.

فهناك ما نريد إخبار المستمع به صراحة، وهناك ما نقدمه وكأنه مكسب غير قابل للنقاش ونجعل منه إطارا للحوار. وهناك ما نتركه للمستمع ليكتشفه ويتبأ به دون أن نتحمل مسؤولية قوله.

فلو اكتفى علم الدلالة بما هو بين لكان اصطناعيا، إذ يجعل الخطاب، وهو النشاط الفعلي الذي ينجز بواسطة الكلام، غير قابل للفهم. مما يشوه اللغة ذاتها: إذ من المميزات اللصيقة باللغة والأكثر ثباتا، السماح للمخاطبين بتأسيس شبكة من العلاقات الضمنية بينهم. أما التكرار redondance، الذي "ينتسب إلى نظرية الإعلام، فيدل، بالنسبة إلى كمية معينة من الأخبار، على الفارق بين العدد الأدنى من العلامات (أو عمليات الترميز

¹ - JEANDILLOU, Jean-François: L'analyse textuelle. Paris, Armand Colin / Masson, 1997. p 8

encodage وفك الترميز (décodage) الضرورية لنقل المعلومة، وعدد - ويكون عموما أكبر بكثير - العلامات (أو العمليات) المستعملة فعلا.
تعتبر العلامات مكررة إذا كانت زائدة وغير مفيدة بسبب تكرارها . غير أن فائدة التكرار تكمن في لئونه يسهل استقبال الرسائل¹.

وبناء على أن اللغة وسيلة تواصل، تقوم بالوظائف الآتية²:

- **التواصل:** إذا كانت كل لغة تتغير على مر الزمن، فهذا يرجع أساسا إلى حرصها على التكيف بالطريقة الأكثر اقتصادية، تلبية لحاجات التواصل لدى الجماعة التي تتكلم بها.
 - **دعم الفكر:** تعتبر اللغة القاعدة التي يبني عليها الفكر.
 - **التعبير:** كثيرا ما يستعمل المرء لغته للتعبير، أي لتحليل ما يشعر به وهو لا يبالي بردود فعل مستمعين قد يوجدون بطريقة عرضية أمامه.
 - **الوظيفة الجمالية:** قد نتحدث عن الوظيفة الجمالية للغة . وقد يصعب تحليل هذه الوظيفة، بسبب شدة اختلاطها بوظيفتي التواصل والتعبير.
 - **التفاهم بين الأفراد:** ويعتبر الوظيفة المركزية للغة، وهذه الضرورة الدائمة، من شأنها أن تحافظ على سلامة الأداة و صحتها.
- " كثيرا ما يصرح، منذ سوسير، أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل؛ إذ توحى هذه العبارة بأن الم تلقي شخص أساسي في فعل الكلام، بناء على أن التواصل موجه دائما نحو إنسان ما.

واعتبار التواصل كوظيفة لغوية أساسية هو تقبل فكرة أن الكلام، بطبعه، هو كلام نقصد به الآخر، وأن اللغة تتحقق إذا ما وفرت مكان تلاقي الأفراد³.

لكن، حتى وإن كان من اللازم على لسانيات ا لتواصل أن تدرج في وصفها لفعل الكلام ثنائية المخاطبين interlocuteurs، " كثيرا ما يحصر معنى كلمة " التواصل " في الإشارة فقط إلى نمط خاص من العلاقات يقوم على نقل المعلومة و تبليغها قبل كل شيء،

¹- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p309

²- MARTINET, A : Eléments de linguistique générale. pp 9-10

³- DUCROT, O : Dire et ne pas dire, 2° ed. corrigée et augmentée. Paris, Hermann, 1980. p1

وتمكنين المخاطب من معارف لم تكن بحوزته من قبل . فلا يقع التواصل إلا في حالة ما يبلغ شيء ما.

يتجلى هذا التصور للتواصل عندما نقارن اللغة بنظام، أي بمجموعة من العلامات قابلة للإدراك بالحواس تسمح بتحذير الآخرين من بعض الأحداث التي لا يمكنهم إدراكها مباشرة. يؤدي هذا التصور إلى اعتبار فعل التواصل كفعل لغوي أساسي.

وهكذا، تتسع العلاقات بين المخاطبين فهي لا تنحصر في تبادل المعلومات والمعارف، بل تتجاوزها إلى علاقات إنسانية، توفر لها اللغة الفرصة والوسيلة؛ وكذلك الإطار المؤسسي، والقاعدة.

فاللغة، على هذا الأساس، ليست فقط شرطا للحياة الاجتماعية، ولكنها تصبح كيفية من كفيات الحياة الاجتماعية¹.

أما جاكوبسون فقد حدد الوظائف اللغوية كما يأتي :

- الوظيفة " التعبيرية " أو " الانفعالية "، والتي تركز على المرسل، وتعبّر عن مشاعره وتكشف عن حاله. كما تهدف إلى تعبير مباشر عن موقف الشخص تجاه ما يتكلم عنه.

- الوظيفة الندائية، تتمثل في النداء والأمر، اللذين يتوجه بهما المرسل إلى المرسل إليه لإثارة انتباهه أو ليطلب منه القيام بعمل من الأعمال.

- وظيفة إقامة الاتصال، أو لإطالته، أو لقطعه، وللتأكد من أن حلقة التواصل تعمل (" ألو، أسمعني ؟ ").

- وظيفة " اللغة الواصفة " التي تتناول اللغة نفسها، إذ قد يسأل المرسل : " هل فهمت ما أردت قوله ؟ ". اللغة هنا هي نفسها مادة الدراسة والمرجع الذي تدل عليه.

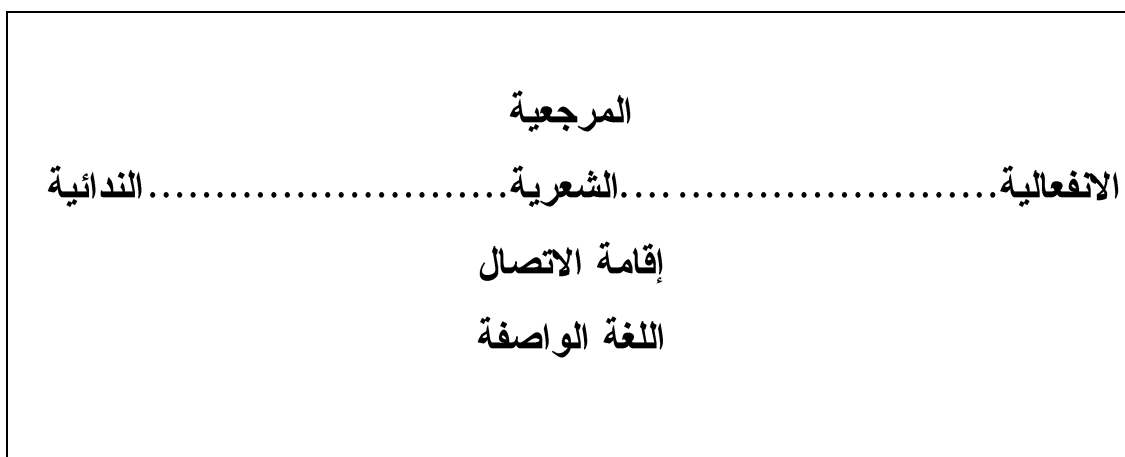
- الوظيفة المرجعية، وهي تحدد العلاقات بين المرسل والمرسل إليه من أشياء موجودة أو متخيلة.

- الوظيفة الشعرية للغة، ويعرفها جاكوبسون بأنها تتميز بالتشديد على المرسل لحسابها الخاص. فهي وظيفة غائية تتجلى في إدراك الكلمة من حيث هي كلمة تتمتع بوزنها

¹ - المرجع نفع ص 4-2

الخاص وبقيمتها الذاتية . والوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة للفن اللغوي، إنها فقط الوظيفة المهيمنة والقاطعة، في حين أنها لا تقوم إلا بدور مساعد وثانوي في النشاطات اللغوية الأخرى.

وفيما يأتي رسم الوظائف اللغوية المذكورة:



يمكن أن تحد الشعرية بكونها هذا القسم من الألسنية الذي يعالج ا لوظيفة الشعرية في علاقاتها مع الوظائف اللغوية الأخرى . والشعرية بالمعنى الواسع للكلمة تهتم بالوظيفة الشعرية ليس في الشعر فقط، حيث تتقدم هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، بل وخارج الشعر أيضا حيث تتقدم هذه الوظيفة أو تلك على الوظيفة الشعرية.

3- تأثير آراء جاكوبسون في الدرس اللغوي

من أهم من تأثر بمبادئ جاكوبسون وأفكاره¹ :

نوام تشومسكي Noam Chomsky

كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss

ميشال لو غوارن Michel Le Guern

جاك لاكان Jacques Lacan

• نوام تشومسكي

يعتبر نوام تشومسكي مؤسس النظرية التوليدية والتحويلية. وموضوع هذه النظرية هو الإنسان من حيث هو متكلم ومستمع مثالي ينتمي إلى بيئة لغوية متجانسة تماما ويتقن لغته جيدا. وتميز هذه النظرية بين المعرفة الضمنية باللغة لدى المتكلم، وهو ما يسمى بالكفاية اللغوية Compétence، وهذه المعرفة تؤمن له إنتاج عدد لا حصر له من الجمل، وبين الأداء الكلامي Performance أي طريقة استعمال الكفاية اللغوية بهدف التواصل. " يؤكد شومسكي، في تعريفه للكفاءة، على استعداد الشخص لإنتاج وفهم عدد غير محدود من الملفوظات، من الجانب النحوي"².

والواقع أن تشومسكي لا يبتعد في ذلك عن بنية جاكوبسون. فعملية التواصل عند هذا الأخير تتطلب إنسانا ملما باللغة التي يتكلمها أو التي يسمعها، ولديه معرفة جيدة بقواعد هذه اللغة بحيث يستطيع أن ينتج عددا لا متناهيا من الجمل، وأن يفهم جملا لم يسبق له أن سمعها معتمدا في ذلك على مخزونه اللغوي والنحوي وبالتالي على معرفته الضمنية باللغة. وهذا ما يقابل مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي مع الفارق أن تفكير تشومسكي ينصب في كيفية استعمال هذا المخزون في البنية السطحية، وعلى أوالية التحولات اللغوية والتركيبية التي تتم عند المرور من الكفاية إلى الأداء. أضف إلى ذلك

¹ - فاطمة الطيال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون. ص 126 و ما بعدها

² - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p 52

أن تشومسكي ينطلق من البنية السطحية¹ باعتبارها القاعدة الظاهرة التي تسمح للباحث بأن يتوصل إلى البنية الكامنة وتحولاتها.

أما الأداء الكلامي فيشمل، عند تشومسكي، العملية التواصلية في مجملها . فهي الجملة التي يبثها المرسل ويسمعها المتلقي و يفهمها، وهذا ما يوازي عملية التواصل عند جاكوبسون. فالمتكلم عند هذا الأخير بعد أن يختار الكلمات من مخزونه اللغوي، يؤلف فيما بينها تبعا لقواعد اللغة التي يستعملها ويكون منها مرسله يعبر فيها عن حاجاته وأفكاره. ثم يبث المرسل هذه المرسله إلى المتلقي الذي يقوم بفك رموزها وفهمها وذلك بالرجوع إلى كفايته اللغوية ومخزونه اللغوي.

فالمرسله هي موضوع التواصل بين المرسل والمرسل إليه عند تشومسكي، وهي موضوع التواصل والغرض الأساسي منه عند جاكوبسون.

درس جاكوبسون العلاقة بين الكل والجزء وكيف أن أجزاء المرسله تساهم في تكوين مرسله كاملة تختلف في معناها عن معنى كل عنصر على حدة، وكيف أن معنى كلمة ما يختلف تبعا للسياق الذي ترد فيه . فجاكوبسون لا يتكلم عن المعنى بل عن المعاني، لأن لكل مفردة معاني عديدة ومختلفة أحيانا، ولا يمكن أن نعرف المعنى الدقيق لمفردة إلا إذا وضعناها ضمن سياق معين . إضافة إلى ما للروابط النحوية وللطريقة التي ننظم بها سياقها معينا من أهمية في فهم وتحديد معنى كل مفردة.

• كلود ليفي - شتراوس

اتخذ شتراوس البنيوية أداة يستطيع بواسطتها أن يحلل مجموعة الظواهر الاجتماعية التي يدرسها . فقد رأى فيها منهجا علميا يعتمد اللغة كوسيلة للوصول إلى الأهداف، كما رأى أن الألسنية تطبق المنهج البنيوي تطبيقا ناجحا، فاتخذها قدوة له سواء في أعماله النظرية أو التطبيقية . وهكذا عرف شتراوس، عن طريق جاكوبسون، أن

¹ - يميز نوام تشومسكي بين بنيتين في اللغة: البنية السطحية الظاهرة عبر تنطق الكلام الذي يلفظه المتكلم و البنية العميقة أي القواعد التي أوجدت هذا التنطق.

الألسنية ستكون خير عون له كعالم أنثروبولوجيا، لأنها بنيوية في منهجها ولغوية في مادتها.

وهو يدمج منهج الفونولوجيا الث نائي بالأنثروبولوجيا في دراسته للعائلة عند الشعوب، إذ إنه يلحظ تشابها، يكاد يكون تاما، بين الوحدات الفونولوجية في اللغة والعلاقات العائلية. إن عالم الأنثروبولوجيا يرى نفسه في موقف شبيه شكليا بموقف عالم الأصوات؛ فعلاقات القرابة هي عناصر دلالية، مثلها في ذلك مثل الفونيمات، وهي على غرارها لا تحمل دلالة إلا إذا اندمجت في نظام معين. كما أن " أنظمة القرابة " هي مثل " أنظمة الأصوات "، تعد في الذهن على مستوى الفكر اللاواعي.

من ناحية أخرى، قدمت النظرية الفونولوجية عند جاكوبسون لشتراوس نموذجا لدراسة التقاليد الاجتماعية عند الشعوب.

فلم يقدم ليفي شتراوس تصورا خاصا به للعلامة، لكنه أسس على لغويات سوسير واستخدم نفس المعادلة عن العلاقة بين الدال والمدلول كوجهين للعلامة. كان موقف شتراوس المبدئي، والذي شاركه فيه عدد من البنيويين الفرنسيين المعاصرين مثل بارت و لاكان و فوكوه، هو أن الدال لا يمثل مشكلة للتفسير، فسواء كان الدال وحدة لغوية أو نسقا، أو وحدة بنائية أو نسقا أدبيا، فهو ثابت يمكن التأكد منه . لكن المدلول هو المشكلة بالنسبة للمفسر البنيوي.

فالدال الواحد قد يحمل مدلولات مختلفة لشخصين مختلفين، بل إنه قد يحمل أكثر من مدلول لنفس الشخص في فترات مختلفة . على هذا الأساس فإن بنيوية شتراوس ترحب بتعدد التفسيرات وترفض التفسير الواحد الموثوق . وهذا ما فعله شتراوس في تفسيراته للأساطير، فهي تفسيرات ممكنة فقط، ولا تغلق الباب أمام أي تفسيرات ممكنة أخرى. ولم يفت شتراوس ما تحمله نظريات جاكوبسون من أهمية لدراسة الأسطورة. فهو يجد علاقات مقارنة بين التحليل الألسني وتحليل الأسطورة . فالأسطورة تستعمل اللغة كأداة تبني بها نظامها الخاص . وهذا النظام عبارة عن مجموعة عناصر تتألف فيما بينها لتعطي دلالات، دون أن يكون لها في ذاتها أي دلالة إذا خرجت م ن نسقتها . ويعطي

شترأوس لهذه العناصر اسم " الميثلم " Mythème بالمقارنة مع الفونيم . فالميثلم هو إذن الوحدة الأسطورية (أو الرمزية الأسطورية) الصغرى .
وهكذا فإن الإطار التحليلي للخطاب اللغوي عند جاكوبسون يقدم لعلم يدرس هيكلية المجتمعات البدائية المنهجية الأساسية التي تسمح له بتقديم صورة مجسمة عن التفاعل والتبادل بين الأفراد والمجتمعات البشرية .

• ميشال لوغوارن

يتناول لوغوارن نظرية جاكوبسون المتعلقة بملاحظاته للمصابين بالحبسة، والتي يخرج منها بنتيجة مهمة وهي أنه " يستحيل وجود الاستعارة في اضطراب المشابهة، كما يستحيل وجود المجاز المرسل في اضطراب المجاورة " . كما يتناول نظريته الأخرى التي تقول بأن المجاورة تقوم على علاقة خارجية في حين تقوم المشابهة على علاقة داخلية .
ينطلق لوغوارن من هاتين المقولتين اللتين تقعان بين طرفين متباعدين (الطب والدراسة اللغوية) ليبنى عليهما نظرية دلالية وبيانية متكاملة، وذلك بمتابعة التمييز عند جاكوبسون بين " الانتقاء - الاستبدال " و " التنسيق - النظم " ومقارنته بنظرية " فريج " في التمييز بين المعنى والمرجع . فالصور البيانية الجديدة هي استعمال لمفردة تتدرج في سياق معين، ويقوم ذلك على علاقة مزدوجة :
- علاقة خارجية تربط بين الوحدة اللغوية والواقع الخارجي دون الأخذ بعين الاعتبار انتماء هذا الواقع إلى العالم المادي (المحسوس) أو الذهني . فكلمة " باب " مثلا، تكون على علاقة خارجية مع التصور الذهني للباب، ويسمى فلاسفة اليونان هذه العملية بالإرجاع أو المرجع Référence . والمرجع référent هو: " السياق اللغوي - الشفاهي أو القابل للمشافهة - هو المكان المرجعي للنص، والعناصر الخاصة بهذا السياق تسمى وقتئذ مراجع" ¹ .

¹ - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p311-312

- وهناك علاقة داخلية تربط الوحدات المعنوية الصغرى فيما بينها ضمن الإشارة اللغوية الواحدة . وهكذا تقوم الاستعارة على تنظيم معنوي، في حين يقوم المجاز المرسل على تغيير في العلاقة المرجعية. ويحدد لوغوارن المجاز المرسل بكونه " انزياحا يصيب المرجع "، ويحدد الاستعارة بكونها " إغفالا يصيب بعض المكونات المعنوية للمفردة المستعملة ".

يقول جاكوبسون إن الاستعارة تقوم على المحور الاستبدالي، في حين يعمل المجاز المرسل على المحور النظمي، ويكون المجاز المرسل غير بعيد دلاليا عن السياق اللغوي للعبارة كلها. ولما كان المجاز المرسل قريبا من الحقل المرجعي للمرسلة اللغوية التي يظهر فيها، فإن الم تلقي لا ينتبه إلى وجوده كصورة بيانية . وهذا ما يجعل من المجاز المرسل صورة تظهر في الكلام العادي ولغة السوق ولغة العامة، أكثر مما تظهر في الكتب الأدبية.

ويرتكز لوغوارن على مفهوم الاستعارة عند جاكوبسون ليدرس علاقتها بالصور البيانية البلاغية الأخرى . فإذا كانت الاستعارة تقوم على المشابهة ونقل المضمون المعنوي، فلا بد أن نقارن بينها وبين التشبيه والرمز . فيجد لوغوارن أن المشابهة في الرمز عقلانية في حين أنها تعتمد في الاستعارة على الخيال والإحساس . أما في التشبيه فلا يحصل أي تحول أو انزياح في معنى الكلمات، فكل مفردة تحتفظ بمضمونها الدلالي دون أن يؤثر السياق على معنى أي منها.

وهكذا، ينطلق لوغوارن من ثنائية جاكوبسون لبيني نظرية شاملة تضم، ليس فقط، الصور البيانية وإنما كامل المكونات الأسلوبية للكلام . فقد اعتمد على ثنائية الاستعارة والمجاز المرسل ليميز بين المعنى (العلاقة الداخلية، ضمن اللغة) وبين المرجع (العلاقة الخارجية، خارج اللغة)، فدمج الأول بعملية الانتقاء والإبدال، والثاني بعملية التنسيق والنظم، واستطاع بذلك أن يعطي نظرة عامة ومتكاملة تضم إولية الاستعمال البياني من جميع أوجهه اللغوية (المعنوية والنظامية والنحوية ...) وغير اللغوية (المرجعية والخارجية ...). وهكذا يساهم لوغوارن في توضيح التمييز بين التعيين

والتضمين، أي بين الدلالة الذاتية Dénotation والدلالة الحافة Connotation، مما يساعد كثيرا في فهم أوعية الاستعارة.

• جاك لاكان

يعترف لاكان بفضل جاكوبسون وسوسور في تقديم مبادئ ونظريات جوهريية إلى الدراسات النفسية. فهو يتناول مسألة التمييز بين الدال والمدلول في الإشارة، ويؤكد على ضرورة إعطاء الدال الأفضلية على المدلول واعتباره لذاته وليس كمدخل للوصول إلى معرفة المدلول. وقد عرف جاكوبسون في بداياته مع الشكلايين بإعطاء الأفضلية للشكل على المعنى وللدال على المدلول. إلا أن لاكان يؤكد أن دراسة الدال لذاته لا يمكن أن تتم بطريقة صحيحة وكاملة إلا عن طريق التحليل النفسي.

قد اهتم لاكان بالدال وأعطاه الأهمية الكبرى في أبحاثه، إلا أنه لم يغفل المدلول نهائيا. فهو لا يلبث أن يعود لدراسة العلاقة بين الدال والمدلول، فيأخذ عن جاكوبسون مبدأ التمييز بين الانتقاء والتنسيق. وتتأكد أهمية عملية الانتقاء والاستبدال في الكلام ليصل لاكان من خلالها إلى التقسيم الثنائي للصور المجازية الذي أقره جاكوبسون بأن قسم الصور المجازية إلى فرعين رئيسيين هما قطب الاستعارة وقطب المجاز المرسل. فهناك في الحالتين استبدال مفردة بمفردة أخرى أكثر ملاءمة ففي حين يعرف جاكوبسون المجاز المرسل بأنه يعمل على المحور النظمي ويقوم على علاقة التجاور، وهذا ما يحول الكلام عن معناه الأصلي ويعطيه معنى آخر جديدا، ويرى لاكان أن الوظيفة المعبرة التي نصادفها في الكلام هي وظيفة أسلوبية تحمل اسم المجاز المرسل.

أما الاستعارة عند جاكوبسون، فتقوم على الانتقاء والاستبدال والمشابهاة. إنها تصوير الأشياء لا بما يرتبط بها مكانيا أو زمنيا بل بما يرمز إليها بعلاقة غالبا ما تكون تشبيهية أو ثقافية. وكما أخذت الاستعارة حيزا مهما من تفكير جاكوبسون، كذلك كان لها مقام مهم عند لاكان، الذي يعتبر أن البرق المبدع في الاستعارة لا ينبثق من وجود صورتين

متجاورتين، أي من وجود دالين متساويين في القوة، بل ينبثق من دالين حل أحدهما محل الآخر وأخذ مكانه في السلسلة الكلامية.

وبذلك يكون لاكان قد تبنى مبادئ الألسنية البنيوية عامة ومبادئ جاكوبسون بشكل خاص، فانطلق من مفهوم التقسيم الثنائي بين المجاز المرسل والاستعارة عند هذا الأخير، وما يتفرع عنه من تمييز بين نمطين مختلفين من العلاقة بين الدالات، ليصل إلى تحديد أو تفسير جديد لتراكيب اللاوعي البشري . فاللاوعي يتكون كلغة ويظهر في ظواهر اللغة.

وهكذا يمكن القول إن لاكان يستند في بحثه التحليلي على وسيلة وحيدة هي الخطاب (بمعنى تحقيق اللغة في كلام فردي وأنّي).

4- مكانة جاكوبسون العلمية

الألسنية علم حديث العهد نسبياً، ولكنه متشعب في مناهجه وفي ميادينها . والتيارات التي انبثقت منه أو تدعي انتماءها إليه كثيرة ومتعددة . ولكن، مهما اختلفت التسميات والتفرعات، يمكننا أن نحصر ميادين الألسنية، وبالتالي منهجيات علومها، في مستويات ثلاثة :

- المستوى الأول هو مستوى اللغة، أي الإشارات اللغوية في بنيتها اللغوية، أ كانت أصواتاً ومقاطع، أم مفردات وعبارات، أم جملاً ونصوصاً . وتنتهي حدود هذا المستوى بحدود الإشارة اللغوية ومضامينها.

- المستوى الثاني هو مستوى علاقة اللغة (الإشارات اللغوية) بما ترجع إليه من مدلولات حسية أو مجردة. وتسمى هذه العلاقة تارة بالمرجعية، وتارة أخرى بالدلالية. ويحد هذا المستوى بالعلاقة الأساسية التي تربط اللغة من جهة وما تدل عليه خارج اللغة من جهة أخرى.

- أما المستوى الثالث، فإنه يضم، بالإضافة إلى المستويين السابقين، عناصر ترتبط بالمرسل والمرسل إليه، ويتضمن الانفعالات والدوافع العقلية والنفسية للمتكلم، بالإضافة

إلى المؤثرات التي ينبغي ممارستها على المرسل إليه. ويسمى هذا المستوى **بالمستوى البراغماتي**.

وإذا نظرنا إلى هذه المستويات الثلاثة، وإذا عدنا في الوقت نفسه إلى العلماء والمفكرين الذين تكلمنا عن تأثير جاكوبسون المباشر عليهم، لرأينا إلى أي مدى استطاع جاكوبسون بفكره الموسوعي ونظرياته الرائدة أن يدخل في صميم التحليل البشري، لغويا كان هذا التحليل أم مرجعيا أم براغماتيا.

فعلى صعيد اللغة والتحليل النحوي والبلاغي للإشارات اللغوية، نجد أن تأثير جاكوبسون كان بيّنا في النظرية النحوية والتوليدية عند نوام تشومسكي، وكان أساسيا في النظرية البيانية عند ميشال لوغوارن . وعلى صعيد المرجعية، استطاع جاك لاكان أن يربط بين الإشارة اللغوية من جهة وبنيات اللاوعي من جهة أخرى . كذلك الأمر بالنسبة للمستوى الثالث، حيث إن المجتمع البشري يقوم على صورة التواصل اللغوي، كما يراها جاكوبسون. فقد وجد كلود ليفي شتراوس في رسم التواصل عند هذا الأخير وسيلة ومنطلقا لدراسة المرسلات البشرية (المرأة) في بنية العلاقات الاجتماعية عند البشر. لا بد من التركيز على أهمية الدور الذي قام به هذا المفكر الكبير ليس فقط في مجال الألسنية الحديثة، بل كذلك في مجال الفكر البشري عامة . فقد كان جاكوبسون الشرارة الأولى والدعامة الأساسية لجانب كبير من الدراسات الإنسانية المعاصرة. فنظريته في الفونولوجيا، وخاصة في التقابلات الفونولوجية، كانت مصدر إلهام لكثير من المناهج التحليلية في دراسة الأدب و غير الأدب . وقد نادى بها مدرسة براغ بشكل عام و جاكوبسون بشكل خاص، بل لقد أصبحت المفاهيم الفونولوجية من بين ركائز التحليل البنيوي للغة.

ذلك أن جاكوبسون هو أول من صاغ القانون الفونولوجي بشكل دقيق، وهو أول من طبقه في مجال اللغة.

والعلاقة بين الصوت والمعنى كانت من أولى الاهتمامات التي شغلت جاكوبسون طيلة حياته، لما لها من أهمية في دراسة الشعر بشكل خاص واللغة بشكل عام، إضافة

إلى نظريته في التواصل وإدخاله المفاهيم الرياضية فيها . بالإضافة إلى الثورة التي أحدثتها دراسته الشعرية في مفهوم الشعر والنقد الأدبي.

لقد استطاع جاكوبسون أن ينتقل من مضمار دراسة اللغة الصرفة إلى علوم تدخل اللغة في تكوينها كالتب والفلسفة والرياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها . إضافة إلى الفنون، كالفولكلور والرسم والموسيقى والسينما ... فهو يأخذ من كل علم وكل فن ما يناسب دراسته للغة فيستخدمه تاركا في كل علم و فن بصماته واضحة وجلية . والملاحظ أن دراسة جاكوبسون للاستعارة والمجاز المرسل لم يكن لها أثر كبير في مجال تحليل اللغة والشعر الذي قام به هو نفسه فحسب، بل ساهمت ولا تزال تساهم في خلق النظريات الجديدة، والدراسات اللغوية العميقة عند عدد كبير من المهتمين بالفنون الأدبية والعلوم الإنسانية، لدرجة أن كل من أراد الاهتمام بالاضطرابات الكلامية وتعليم اللغات الأجنبية وتصويب لفظها، لا بد وأن يطلع على الدراسات التي قدمها جاكوبسون، الذي رفع شعار: " لا وجود للغة بلا أدب. فالأدب هو خيال اللغة " .

والإبداع الفني تصويريا كان أم أدبيا لا بد وأن يمر عبر "الشكل" بالمعنى الألسني للكلمة، ولا بد كذلك أن يمر ببعض البنيات النصية القائمة على النظام الداخلي للنص وعلى العلاقات بين النص وأخيه (أي ما يسمى في النقد الأدبي الحديث بالتناسل

(Intertextualité) .

3- النظرية اللغوية عند العرب

1- استثمار التراث اللغوي

يلاحظ د. عبد العزيز حمودة أن الحدائين العرب في كتاباتهم البنيوية، وعند ذكرهم شبكة العلاقات التي تربط بين العلامات المكونة للنص يستخدمون المصطلحات التي وضعها سوسير أي العلاقة الأفقية و العلاقة الرأسية، ولا يستخدمون مصطلحين عربيين بالغي التحديد هما علاقات "الجوار" وعلاقات "الاختيار" (بدلاً من المصطلحين المعريين "التعاقبي" و "الاستبدالي").

"فكأن إحالة الفكرة إلى اسم أجنبي وصياغة مستوردة تحقق درجة من العلمية تسهم في "تحديث" العقل العربي. وكان الفكرة البسيطة إذا اقترنت باسم / أسماء أجنبية تكتسب علمية تفتقدها حينما تذكر مقرونة بالجرجاني أو قدامة أو القرطجاني ... فهل عرفت البلاغة العربية هاتين العلاقتين بمفهومهما الحديث واستخدمت مصطلحين يمكن الرجوع إليهما؟ ثم، هل أضافت اللغويات الحديثة، على الأقل عند سوسير، الجديد الذي يمكن أن يبرر هذا الانبهار بالفكرة الغربية ومصطلحها؟"¹

والنتيجة التي آل إليها " نسيان " تراث العرب في اللغويات العامة " هي حصول قطع في تسلسل التفكير اللساني عبر الحضارات الإنسانية.

فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني أساساً ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب.

وإذا جاز لنا أن نبسط مصادرة في البحث أمكننا أن نقرر افتراضاً أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت اللسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم. بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد"².

¹ - المرايا المقعرة. ص 249
² - د. عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية. ليبيا / تونس، الدار العربية للكتاب، 1981. ص 23

ومما اطرده عند الدارسين اللغويين أن الحضارة العربية " لم تفرز في مجال اللغويات سوى علم تقني منطلقة وغايته نظام اللغة العربية في حد ذاتها لا غير . والواقع أنه ليس من أمة فكرت في قضايا الظاهرة اللغوية عامة وما قد يحركها من نواميس مختلفة إلا وقد انطلقت في بلورة ذلك من النظر في لغتها النوعية . وهذه الحقيقة تصدق كذلك على أحدث التيارات اللسانية العامة في عصرنا الراهن كما هو الشأن في تصانيف رائد النحو التوليدي شومسكي .

فالقضية إذن مردها قدرة أمة من الأمم على تجاوز ضبط لغتها وتقنينها لإدراك مرتبة التفكير المجرد في شأن الكلام باعتباره ظاهرة بشرية كونية تقتضي الفحص العقلاني بغية الكشف عن نواميسها الموحدة . والحضارة العربية قد أدركت تلك المرتبة : فكر أعلامها في اللغة العربية فاستنبطوا منظومتها الكلية وحددوا فروع دراستها بتصنيف علوم اللغة وتبويب لمحاوِر كل منها . فكان من ذلك جميعا تراثهم اللغوي في النحو والصرف والأصوات والبلاغة والعروض ... ولكنهم تطرقوا إلى التفكير في الكلام من حيث هو كلام، أي في الظاهرة اللغوية كونيا... إن التفكير العربي قد أفرز نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية ولعل ذلك ما كان إلا محصولا طبيعيا لعوامل تاريخية تنصب جميعا في ميزة الحضارة العربية التي اتسمت قبل كل شيء بالمقوم اللفظي"¹.

2- نظريات لغوية مبكرة

لقد أوجز الخطابي (ت 388 هـ) نظريته لشبكة العلاقات التي تحكم النص (أي القرآن) قائلا: " إنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر، منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ . ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن

¹ - د. عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية. ص 24

الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم¹.

يجري الدكتور عبد العزيز حمودة، صاحب "المرايا المقعرة"، قراءة ثانية لنص الخطابى ويرى أنه قدم نظرية لغوية عربية مبكرة، حيث تحدث عن الألفاظ باعتبارها علامات حوامل للمعنى، وعن "النظوم" التي تجمع بين وحدات النص، وهذه النظوم تحتاج إلى رباط ينظم هذه العلاقات. فالخطابى يشير هنا إلى العلاقة الأفقية.

أما حينما يكتب الخطابى "فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها"، فهو يشير إلى ما يعرفه المحدثون بالأفق الاستبدالى.

وهكذا، وحسب ما يراه صاحب "المرايا المقعرة"، يقدم - في بضعة أسطر - عقل عربى مبكر جوهر محوري التعاقب والاستبدال اللذين يفتتن بهما الحداثيون العرب.

ونعثر على نص عربى آخر، وهو للباقلانى يؤكد فيه أن قيمة اللفظة تحددها وظيفتها وأداؤها داخل النظام، فإن ذلك يعنى أن عملية الاستبدال التي يحل بها المتلقى أحد المتشابهات أو المترادفات محل اللفظة الموظفة في النص تؤدي إلى فساد المعنى : " فإن إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجدها الأخرى - لو وضعت موضعها - في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن الاستقرار"².

وهذا الكلام يمثل مفهوم الأفق الاستبدالى كما يقدمه المحدثون.

أما عبد القاهر الجرجانى فاهتم بالعلاقات التي تحكم النظم، وعكف على شرح نظريته وتطرق إلى العلاقات التي تحكم الوحدات المكونة للبنية اللغوية . فالمصطلح المتكرر في وصف العلاقة الأفقية، وهي محور النظم الحقيقى، هو "الجوار" أحيانا،

¹ - المرجع نفسه. ص 251
² - المرايا المقعرة. ص 352

و"الضم" أحيانا أخرى . وفي شأن المحور الرأسي فيمثم له مصطلح شائع بين البلاغيين العرب هو "الاختيار".

ومما قاله الجرجاني في معرض الحديث عن النظم وعلاقات الجوار والضم نسان: يقول الجرجاني في النص الأول: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض"¹. فالفعل لا بد من أن يكون له فاعل، والمبتدأ لا بد من أن يكون له خبر، وهكذا.

ويصرح الجرجاني في النص الثاني: " فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لم عنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر"².

ويخلص الدكتور عبد العزيز حمودة إلى القول :

" كل ما أردنا إثباته بهذه الوقفات ... أن كل م عطيات علم اللغة كما طوره سوسير لم تكن فتحا جديدا، وكان يجب ألا تكون كذلك بالنسبة للمتقف العربي لو أنه في حماسه للتحديث و انبهاره بمنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي .

وقد أثبتنا حتى الآن أن القول إن اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من التتابعية والاستبدالية أمر عرفه العقل العربي وقتله بحثا وجدلا لما يقرب من خمسة قرون على الأقل . وأنا كنا نستطيع أن نطور المفاهيم التراثية، مستخدمين مصطلحات عربية أصيلة : هل يختلف مصطلحا syntagmatique بمعنى تتابعي أو أفقي و paradigmatic بمعنى استبدالي أو رأسي عن مصطلحات عربية مثل علاقات الجوار أو الضم للأولى، والاختيار للثانية؟"³

¹ - المرجع نفسه. ص 255

² - المرجع نفسه و الصفحة نفسها

³ - المرايا المقعرة. ص 256

وفي النقد العربي القديم، نعثر على تعريف للغة ووظيفتها صاغه الجاحظ كالآتي:
"قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني قائمة في صدور العباد المتصورة
في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثثة عن فكرهم، مستورة
خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان
ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمور، وعلى
ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم
عنها واستعمالهم إياها ... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، كانت الإشارة أبين وأنور،
كان أنفع وأنجع"¹.

يعتبر الدكتور عبد العزيز حمودة "المعاني القائمة في صدور العباد وأذهانهم" تعريفا
مبكرا للعلاقة بين شطري العلامة، الدال والمدلول، من منظور حديث . فالمدلول هنا فكرة
أو مفهوم، بمعنى أن الدال لا يشير إلى الشيء الحسي، بل إلى فكرته أو مفهومه .
وقد قدم الجاحظ تعريفا لفعل "دل" قائلا: "معنى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه
وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا".

ثم إن الجاحظ يستعمل لفظة "الدلالة"، فلا غرابة إذن في الحديث عن الدال
والمدلول، فهي مصطلحات تقع في صلب النظرية اللغوية العربية وليست حدثية
أو مستوردة.

كما يمكن القول إن ذلك النص الموجز قد قدم فيه الجاحظ نظرية اتصال لغوية عرف
فيها الرسالة والمرسل والمستقبل والشفرة.

فالرسالة هي "المعاني القائمة في صدور العباد"، أما المرسل فيتمثل في "العباد"،
وهو الفرد الذي يرغب في الاتصال، أما المستقبل فهو الإنسان الآخر "الذي لا يعرف
ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه"؛ كما أن الشفرة هي اللغة التي بها تحيا المعاني
الخفية في صدر المرسل.

¹ - المرجع نفسه. ص 222

يقدم هذا النص رؤية شديدة المعاصرة : فالمفاهيم والأفكار في حالة مستورة خفية بعيدة محجوبة مكنونة في نفوس أصحابها وصدورهم وخواطرهم - المرسلين - "موجودة في معنى معدومة"، أي أنها في حالة اللامعنى، " وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبلوهم عنها واستعمالهم إياها". وهكذا تشير هذه السطور إلى اللغة باعتبارها لغة "إخبار" أو تفاهم بالدرجة الأولى.

3- تحليل لغوي تطبيقي

نتوقف¹ للحظات عند نموذج تحليل يتعامل فيه الناقد مع بيت الشعر من مدخل لغوي لنرى إن كان يرقى إلى مرتبة النقد التطبيقي . يحلل الجرجاني بيتا للبحثري في باب "القول في الحذف":

" وكم ذدت عني من تحامل حادث * وسورة أيام حزنن إلى العظم
الأصل لا محالة حزنن اللحم إلى العظم إلا أن في مجيئه به محذوفا وإسقاطه له
من النطق وتركه في الضمير مزية عجيبة وفائدة جليية، وذلك أن من حذف ا لشاعر أن
يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد،
ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : و سورة أيام حزنن اللحم إلى العظم، لجاز أن يقع في
وهم السامع إلى أن يجيء إلى قوله إلى العظم أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله
وأنه قطع ما يلي الجلد ولم بنته إلى ما يلي العظم، فلما كان ذلك كذلك ترك ذكر اللحم
وأسقطه من اللفظ ليبرىء السامع من هذا ويجعله بحيث يقع في أنف الفهم [أول الفهم]
ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم . فيكون
دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر
أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحس للتصوير"².

¹ - المرايا المتعرة. ص 374-376

² - المرجع نفسه. ص 375

بين الجرجاني في تحليل بيت من الشعر، الوظيفة الجمالية والدلالية التي أداها حذف كلمة واحدة في البيت، وهي المفعول به في "حززن اللحم". لم يتعرض الجرجاني بالمناقشة إلى نظم البيت أو حتى لمناقشة الصورة الشعرية. فاللفظ المحذوف هنا هو المسكوت عنه في لغة النقد الحدائي؛ والمسكوت عن "اللحم" يخلق "قجوة" يقوم المتلقي بملئها.

وهكذا يمكن اعتبار عبد القاهر الجرجاني سباقاً إلى مبدأ نقدي (الحذف) يرتكز عليه نقاد النصف الثاني من القرن العشرين.

علم النص

- 1- تعريف النص
- 2- النص في النقد الحديث
- 3- لسانيات النص
- 4- علم النص والبلاغة
- 5- الأبنية النصية
- 6- بلاغة السرد

1- تعريف النص

يتداخل مصطلح النص، في النقد الحديث، مع عدد من المصطلحات المجاورة مثل مصطلحي الخطاب discours والعمل أو الأثر الأدبي؛ ومن الناحية المعجمية يشتق مصطلح النص texte في اللغات الأجنبية من الاستخدام الاستعاري في اللاتينية للفعل textere الذي يعني يحوك أو ينسج، ويوحى بسلسلة من الجمل والملفوظات المنسوجة بنيويا ودلاليا.

ويتضح مما تورده المعاجم القديمة والحديثة، أن الدلالة الحديثة لمصطلح النص تلتقي مع ولادة المصطلح في اللاتينية التي تشير إلى معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع، وإن كانت الاستخدامات المعاصرة لمصطلح النص تعرف درجة كبيرة من التباين.

"فالنص يستخدم في اللسانيات للإشارة إلى أية مقطوعة، قولية أو كتابية، مهما كان طولها، والتي تشكل كلا موحدًا"¹.

واللسانيون كذلك يعرفون النص بأنه مجموعة من الأحداث الكلامية ذات معنى وغرض تواصلية، يبدأ وجودها من مرسل للحدث اللغوي وتنتهي بمتلق له، ومؤهلة لأن تكون خطابا، أي أن توجه إلى شخص بعينه. ومن ثم فهم يشترطون وحدة موضوع النص و وحدة مقصده.

والنص، في تصور كثير من المعاصرين، يتجاوز الكينونة اللغوية المحدودة مراعيًا الواقع الخارجي. " تطلعت كريستيفا إلى صياغة رؤية كلية للنص تكون نسقية ومتحررة، بنيوية ووظيفية ... محايدة وخارجية ... ولم تكن كريستيفا لتذكر بغير التوجه الباخثيني في الدراسة الأدبية.

¹ - SARFATI, Georges-Elia: Eléments d'analyse du discours. Paris, ed. Nathan, 1997. p 15-16

ومنظور شمولي كهذا لا بد أن ينطلق من نقد التصور اللساني الضيق للكتابة

من جهة، والتصور العلمي التقني للدراسة الأدبية من جهة أخرى¹.

يخضع النص لتوجه مزدوج : نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان

ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب .

" فهذان السجلان ذوا الاشتغال المستقل قابلان للانفصال في إطار ممارسات قاصرة وغير

ناضجة، حيث لا يمس تعديل النسق الدال التمثيل الإيديولوجي؛ وقد يكونان بالمقابل قابلين

للاتصال في النصوص التي تسم بميسمها الكتل التاريخية².

وترى "جوليا كريستيفا Julia KRISTIVA" أن النص هو أكثر من مجرد خطاب

أو قول. فهو موضوع لممارسات سيميولوجية يعتد بها باعتبارها ظاهرة عبر لغوية؛ أي

أنها مكونة بفضل اللغة، لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها . وهكذا يمكن القول إن

النص "جهاز عبر لغوي".

أما في العربية فقد جاء في اللسان لابن منظور في مادة (ن ص ص) : النص :

رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا : رفعه. وكل ما أظهر فقد نص و وضع على

المنصة، أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور.

يعتبر كثير من اللغويين ال عرب أن النص أصله منتهى الأشياء، ومبلغ أقصاها،

ومنه قيل : نصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج كل ما عنده،

وكذلك النص في السير، إنما هو أقصى ما تقدر عليه الدابة، وانتص الشيء، وانتصب إذا

استوى واستقام...

ويتوقف الدكتور محمد مفتاح³ أمام مجموعة من التعاريف المختلفة للنص أن النص

مدونة كلامية، وأنه حدث، أي أن كل نص هو حدث يقع في زمان ومكان معينين، وهو لا

يعيد نفسه إعادة مطلقة، مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي، وهو تواصل يهدف إلى

توصيل معلومات ومعارف ونقل تجارب إلى المتلقي، وهناك وظائف أخرى للنص

اللغوي، أهمها الوظيفة التفاعلية التي تضم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وتحافظ

¹ - جوليا كريستيفا: علم النص، ط 2. ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم. الم غرب، دار توبقال للنشر، 1997. ص 5

² - المرجع نفسه. ص 9

³ - د. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص. بيروت، الدار البيضاء، 1985. ص 120

عليها. ويرى الناقد أن النص مغلق بفعل انغلاق سمته الكتابية الأيقونية التي لها بداية ونهاية، وتوالدي لأن الحدث اللغوي ليس منبثقا من عدم، وإنما هو متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية، حيث تتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له.

وقد قدم¹ بعض علمائنا إسهاما علميا ناضجا في مجال التنظير والتطبيق النصي، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني خلال "نظرية النظم" التي فصلها في كتابه: "دلائل الإعجاز"؛ إذ جمع بين علوم كثيرة كالنحو وعلم الم عاني وعلم البيان والتفسير ودلالة الألفاظ والمعجمية والمنطق ... وألف بين أشاتها في تناغم عجيب واتخذ منها أدوات معرفية متضافرة على تحقيق هدف واحد هو : خدمة النص القرآني وبيان إعجازه . وقد كانت فكرة "الانسجام النصي coherence textuelle" واضحة في ذهن عبد القاهر وضوحا متميزا حتى إننا نجده يعبر عنها بقوله : "واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة ...". وهذا يدل على أن بنية النص في تصور عبد القاهر الجرجاني تصل إلى مرتبة "الصهر" الذي هو أعلى درجات "التشكيل".

ومنهم جمهور علماء أصول الفقه الذين بحثوا في حقلي دلالات الألفاظ ومعاني الأساليب وما يترتب عليها من قواعد وأحكام؛ وتعرضوا للثنائيات الدلالية التي وضعوها تحت عناوين : العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل ... وهذه الثنائيات تشمل الشروط الجوهرية والوظيفية والمعرفية للنص القرآني الكريم. ومنهم صنف آخر، هم المفسرون الذين قاموا بجهود كبيرة في تحليل النص القرآني كل على طريقته، فقد سلكوا إلى فهمه طرائق منهجية شتى أهمها طريقة السياق . كما أدرج علماؤنا القدامى - ضمن مفاهيم النص - مفهوم القصد وهو الغرض الذي يبتغيه المتكلم من الخطاب و "الفائدة" التي يرجو إبلاغها للمخاطب . وهذا نفسه ما يركز عليه المعاصرون حين يرفعون من شأن "القصدية intentionnalité" في كلام المتكلم،

¹ - د. أبو محمد مسعود صحراوي: المنهج السياقي و دوره في فهم النص و تحديد دلالات الألفاظ. مقال منشور في أنترنيت.

وخصوصا مثلما فعل الفيلسوفان المعاصران أوستين AUSTIN وتلميذه سيرل SEARLE، في "نظرية الأفعال الكلامية" التي هي أهم مفهوم من مفاهيم "التداولية" وقد استعارا هذا المفهوم من الفيلسوف إدموند هوسرل E.HUSSERL.

ومن جهته، يقول بول ريكور Paul RICOEUR : " لنطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة. إن هذا التثبيت أمر مؤسس للنص ذاته ومقوم له"¹. والنص مكان تبني فيه الأدبية ويظهر فيه العمل الأدبي، وهو المادة الوحيدة التي يمكن إدراكها عند التلقي . النص إذن هو الكيان الذي يفرض كنتيجة كونها المبدع انطلاقا من عمل فعال. وهو المجموع المنغلق والمتماسك للعمليات الكلامية التي صنع منها. وقد يتجسد النص في مادة - منطوقة أو مكتوبة - كبيرة مثل: الرواية، المسرحية، المجلد، أو في مادة صغيرة في شكل جمل أو جملة أو شبه جملة مثل: "للبيع"، أو في مادة أصغر كالكلمة المفردة مثل "مغلق، حريق" إذ لا اعتبار للحجم أو الكم، وإنما الاعتبار أن المادة قيلت أو كتبت على نية الاتصال. وعلى هذا تعامل علماء النص مع النص بوصفه حدثا اتصاليا أو واقعة اتصالية . والناس في استعمالهم اللغة - أو بالأحرى النصوص - يمارسون إجراءات في الإنتاج تسعى للوفاء بمقتضيات السياق، بغية النجاح في تحقيق المقاصد. وهم يمارسون - أيضا - إجراءات في التلقي، بغية فهم أو استيعاب ما يتلقونه.

2- النص في النقد الحديث

عرفت السنوات المبكرة من القرن العشرين اهتماما متزايدا بالدراسات اللغوية التي كللت بنجاح النموذج البنيوي اللغوي في اكتساب قيمة العلمية، في مواجهة انطباعية النقد الأدبي. وغدت البنيوية النقدية ا متدادا للبنيوية اللغوية، فأصبحت الدراسة اللغوية هي المدخل الأساس لدراسة النص الأدبي الإبداعي؛ حتى أصبح " التداخل بين الدراسة اللغوية والدراسة النقدية حقيقة من حقائق القرن العشرين الراسخة، بحيث وصلنا إلى مرحلة يصعب معها تحديد ما هو لغوي خالص أو ما هو نقدي خالص، ولهذا انتهى ذلك التداخل

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 237

إلى تطوير الدراسات الأسلوبية والسيميوطيقية أو السيميائية التي تعتبر جسرا يمتد فوق مناطق التداخل بين المجالين الحيويين¹.

" إن أية تجربة أدبية تتخذ من النص صفة لها أو عنوانا لا يمكن لها أن تفلت بسهولة من دائرة الأجناس الأدبية . فهي لا يمكنها أن تكون محايدة أو متموضعة خارج إطار هذه الدائرة. ويعود ذلك أساسا إلى أن كل جنس أدبي يخلق سياقه contexte الخاص، وهو سياق لغوي وثقافي وسوسيلوجي .

" والسياق هو كل ما يوجد في النص فيسبق أو / ويرافق الوحدة السياقية unité syntagmatique التي تكون الدلالة تابعة لها . قد يكون السياق بينا أو لغويا، أو ضمنيا، أو غير لغوي extra linguistique أو ظرفي situationnel. وقد يستغل السياق الضمني من أجل التأويل الدلالي².

كما أن كل نص أدبي يمتلك شفرته code الخاصة التي يمكن فك رموزها على ضوء سياق الجنس الأدبي . وكما بين الناقد عبد الله الغدامي، فإن الشفرة هي اللغة الخاصة بالسياق، أي أنها الأسلوب الخاص بالجنس الأدبي . تمتلك الشفرة خاصية إبداعية فريدة : فهي قابلة للتجديد والتغير والتحول، حتى و إن ظلت داخل سياقها. ويستطيع كل جيل أدبي أن يبدع شفرته المتميزة، بل إن المبدع نفسه - فردا - قادر على ابتكار شفرته التي تحمل خصائصه هو، جنبا إلى جنب مع خصائص شفرة السياق الخاصة بجنسه الأدبي الذي أبدع فيه³.

فالقارئ، إنما يحتكم خلال عملية القراءة إلى مخزونه المعرفي المسبق، ويستند، فيما يستند، إلى خصوصيات السياق والجنس الأدبي . فهو عندما يقرأ المعلمات يستحضر في ذهنه سياق الشعر العربي القديم و قيمه، وبشكل خاص سياق الشعر الجاهلي، لكي يكون قادرا على أن يفك شفرات هذه القصائد . ولو شاء هذا القارئ أن يقرأ قصيدة حديثة من

¹ - د. عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة. ص 217

² - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p66

³ - فاضل تامر: اللغة الثانية، ط 1. بيروت، المركز الثقافي العربي، 1994. ص 70

الشعر الحر، فلا يمكن له أن "يفك" شفرة هذه القصيدة الحديثة بالاحتكام إلى "سياق" القصيدة الجاهلية، بل لا بد له أن يحتكم إلى "سياق" الشعر الحر ذاته . وإلا فلن يكون بميسوره أن يتذوق هذا النص أو يفك مغاليق أسرارهِ الجمالية والبنوية والدالية.

أما جاكوبسون فيرى أن النص يختلف عن التعبير الشفوي، وعن الخطاب الذي هو جزء من التعبير الشفوي وبأنه ظاهرة أولى . أما الظاهرة الثانية فهي الكتابة . والنص جزء من الكتابة التي تشتق من الظاهرة الأولى .

" ويتداخل مفهوما النص والخطاب تداخلا كبيرا في الخطاب النقدي الحديث لدرجة يصعب فيها أحيانا التمييز بينهما، مما يدفع بمحرري "المعجم الموسوعي للسيميائية" إلى معالجة المفهومين في فقرة مشتركة . ويذهب بعض النقاد والباحثين إلى قصر مفهوم النص على المظهر الكتابي، فيما يقصر مفهوم الخطاب على المظهر الشفوي . وفي مجال السرديات يستخدم مصطلح النص، أحيانا، كمقابل لمصطلح الخطاب"¹.

لا نقول إن فعل ال كلام صحيح أو خاطيء، ولكننا نقول " إنه ناجح أو لا . يبين هذا التمييز طريقة انتماء الملفوظات إلى الواقع . إضافة إلى احترام القواعد النحوية البحتة، يوجد عدد من شروط النجاح المتصلة بفعل الكلام .

لا يمكن أي واحد أن يقول أي شيء وفي أي ظروف : هذه المجموعة من الشروط هي التي تمكن من الحكم على فعل الكلام إن كان وجيها أم لا، مشروعا أم لا . فمجرد توجيه أمر إلى شخص، مثلا، يقتضي أن يكون الالفاظ énonciateur أعلى مكانة، وأن يكون المتلقي قادرا ماديا على تنفيذ ما هو مطلوب منه .

ومن هنا نخلص إلى أن كل فعل كلام يستدعي ش بكة من الحقوق والواجبات . وامتدادا لأبحاث أوستين، لقد عكف سيرل J. SEARLE على تحليل الأفعال التحقيقية

¹ - المرجع نفسه. ص 75

illocutoires من خلال هذه الزاوية، مؤكدا أنها تتطلب عددا من الشروط وطرق الاستعمال"¹.

ينجر عن النشاط الكلامي اتفاقيات تنظم العلاقات بين الأفراد، فتمنح لكل واحد مكانة خاصة. " فاللافظ يفترض أن يشاركه المتلقي في مجموعة من الشروط القبلية . مما جعل بعض المؤلفين يتحدثون عن " العقد "، الضمني طبعا.

اللغة، على مستوى أفعال الكلام، وعلى مستوى أنواع الخطاب كذلك، تبدو وكأنها مؤسسة واسعة تضمن صلاحية ومعنى كل فعل من الأفعال التي تسمح بإجراء الخطاب. عرف سوسير " اللغة " على أنها " مؤسسة "، وكان يتصورها " ككنز " من العلامات تنقل من جيل إلى جيل، وتحصر النشاط اللغوي في " الكلام "؛ أما التداولية فتحفظ بفكرة أن اللغة مؤسسة، ولكن بشكل جديد، تماشيا مع التحول الكبير الذي وقع في مفهوم " النظام اللغوي ".

كان النظام، في اللسانيات البنوية، يتصل بمنظومات نقل الأخبار (التشفير / فك الشفرة...)، في حين تعتبر التداولية أن هذا المصطلح يرتبط بمعناه القانوني، بناء على أن النشاط الكلامي، يفترض أن تتحكم فيه أخلاقيات معقدة، تابعة لمسألة المشروعية. ومن هذا المنظور، لا يمكن الفصل بين الكلام وإظهار أن لنا الحق في الكلام كما نتكلم"².

غير أننا، عندما لا نهتم بملفوظات معزولة، بل بالنصوص، مثلما هو الحال في تحليل الخطاب، لا يمكننا الاقتصار على أفعال الكلام الأولية (مثل الوعد، التنبؤ...)، بل تواجه التداولية النصية مقطوعات من أفعال الكلام طويلة نسبيا تسمح لها بتأسيس، على مستوى أعلى، قيمة حقيقية شاملة، هي قيمة أفعال الكلام الأصلية . مما يرجعنا إلى إشكالية أجناس الخطاب . فإن علم المتلقي إلى أي جنس تنتمي مجموعة من الملفوظات، كان تأويله لها وجيها، لا ينتج عن مجموع أفعال الكلام الأولية.

¹ - MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 172

² - المرجع نفسه ص 173

كما أن المتلقي، وبمجرد ما يتعرف على الجنس الذي ينتسب إليه النص، يستطيع أن يسلك سلوكا مناسباً تجاهه"¹.

والنص بمعناه التقليدي هو تركيب لغوي يتجاوز الجملة " ويتسم بالحك والسبك والوحدة العضوية. يصدق هذا على الكلام والكتابة على حد سواء.

وقد استبدلت الدراسات الحديثة الكلمة بالعلامة، فأتسع مفهوم النص ليشمل كل مجموعة من العلامات تتصف بالترابط والسبك والقصدية والتعبير عن سياق معين"².

لم تعد الدراسات البلاغية وحدها تعنى بمتطلبات علم النص في عصرنا الحاضر، " وقد جددت معارف واستحدثت وسائل تلزم باستخدام مناهج حديثة في درس النص مستخلصة خصائصه ومقاييسه من قديم النصوص وحديثها على السواء، فلم يعد الأدب هو الشعر والنثر وحدهما، وإنما جد في الشعر المسرحية والقصة وفي النثر المسرح والقصة والرواية والمقالة واتسعت آفاق القول في ساحات الصحف وفي الإذاعة والمسرح والسينما والتلفزيون وفي رحاب المسجد والمحافل السياسية والعلمية والقضائية وتعددت الثقافات ومجال النشاط الإنساني، ولهذا كله لغة تخصه وأسلوب يعبر عنه. وصرنا نواجه نصوصاً تأخذ من نظم القرآن والحديث ومأثور الأدب القديم بدرجات متفاوتة قرباً منها أو بعداً عنها، ونصوصاً أخرى تتأثر بنظم الأساليب في اللغات الأجنبية وآدابها وثقافتها . ولغتنا العربية مرنة تتسع لجديد الأساليب ومستحدث المعارف"³.

ويقترن مصطلح النص في كتابات ما بعد البنيوية بمصطلح التناص أو تداخل النصوص *intertextualité* حيث يستعاد هنا المعنى الجذري للنسيج ضمن مفاهيم تبين تلاحم الكلمات بعضها مع البعض الآخر.

¹- MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 174

²- د. بهاء الدين محمد يزيد: تجديد البلاغة العربية. مقال منشور في أنترنيت.

³- د. مصطفى الصاوي الجويني: المعاني علم الأسلوب. ص 123

لقد ظهر مصطلح التناص على يد الباحثة "جوليا كريستيفا Julia KRISTEVA"، التي ترى أن التناص هو التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى، وهو نقل لتعبيرات سابقة أو مترامنة. والعمل التناصي هو اقتطاع وتحويل، وكأن النص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات.

إن طبيعة الكتابة تقتضي الاستناد إلى المخزون اللغوي الذي هو نتاج تراكم وتحصيل لعدد كبير من النصوص، ولذلك فإن النص أو الخطاب الذي يقدمه المبدع هو نتاج تفاعل نصوص لا حصر لها مخزونة في ذهن المبدع.

والتناص ليس سرقة، وإنما هو قراءة جديدة، أي كتابة ثانية ليس لها نفس المعنى الأول؛ ومن هنا كان التناص صورة تضمن للنص وضعا ليس الاستنتاج، وإنما الإنتاجية. بدأ اهتمام النقد العربي الحديث بمفهوم التناص نظرا إلى أهميته في تحليل الخطاب الأدبي، وباعتباره مفهوما يقول بتداخل النصوص وتناسلها فيما بينها . بمعنى أن النص المنجز ليس إلا تجميعا لنصوص سابقة، يعيد تشكيلها من منظوره ليقدّم نصه الجديد . وقد توصل أغلب النقاد العرب الذين وظفوا هذا المفهوم في تحليل النصوص إلى استخراج نصوص سابقة من النصوص المدروسة.

وتفطن بعض النقاد إلى ظاهرة تداخل النصوص وكيفيات تجلياتها في النقد العربي القديم، فبعض المفاهيم النقدية القديمة تقارب في دلالتها أنواع التناص وأشكاله، فأغلب القدماء يلحون على "النسيج على المنوال".

ومن أهم المصطلحات النقدية العربية القديمة التي قاربت دلالة التناص ومفهومه، كما وردت في الدراسات النقدية والبلاغية القديمة والمعاجم العربية القديمة والحديثة نذكر: المعارضة، المناقضة، التضمين، الاقتباس، تداول المعاني، السرقة.

3- لسانيات النص

تمنح الدراسات الفرنسية دوراً مميزاً لمجال الكلام . فلقد ظهر وتطور، في فرنسا، تيار يرمي إلى التفكير في اللغة، أكبر ممثليه هم بالي وبنفنيست وجاكوبسون وكوليولي¹.

ولسانيات النص *linguistique textuelle* حقل معرفي جديد تكوّن شيئاً فشيئاً في سبعينيات القرن العشرين . نشأ على أنقاض علوم سابقة له كلسانيات الجملة واللسانيات النسقية والأسلوبية، وهو قريب جداً من "تحليل الخطاب"، الذي يقوم على أساس التحليل البنيوي؛ في حين تميل "لسانيات النص" إلى التحليل التداولي .
إضافة إلى ذلك، فقد نشأ حقل خاص بتحليل النصوص *analyse de textes* يأخذ على عاتقه مهمة دراسة المكونات الداخلية اللغوية وغير اللغوية للنص، أما لسانيات النص فتسعى إلى تجاوز محدودية البحث اللساني التقليدي وخلق لسانيات خاصة بالنصوص الأدبية.

" قد نتساءل : هل يمكن أن يستفيد تحليل النصوص من اللسانيات ؟ وهل يمكن أن تستفيد اللسانيات من تحليل النصوص ؟

نجيب " بنعم " على السؤالين، لأن اللسانيات القادرة على خدمة تحليل النصوص، هي، وما هي إلا لسانيات تستغل تحليل النصوص .

في البدء، ومراعاة للتواضع الاصطلاحي، سأحدد معنى **الجملة** . إنها كيان لغوي مجرد، نظري خالص، وقد يكون مجموعة كلمات مركبة وفق القواعد النحوية، خارج وضعية الخطاب . فما ينتجه متكلم، و ما يسمعه مستمع ليس جملة، ولكنه ملفوظ خاص بجملة² . والجملة، هي " الآلة اللغوية التي تمثل موضوع الكلام، وهي تنظيم العلامات التي نحاول إظهارها من خلال تسلسل أصوات أو حروف .

¹ - MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 25

² - DUCROT, O et al : Les mots du discours. p 7

وهكذا يتعلق الأمر إذن بكيان مجرد، غير قابل للإدراك في ذاته، بل من خلال آثاره الملموسة فقط¹.

" والكلمة، التي تعتبر كيانا لغويا مجردا، لا تسهم في معنى الملفوظ إلا بطريقة غير مباشرة : فهي، في البداية، تمتزج بالكلمات الأخرى لتشكّل دلالة الجملة؛ والجملة هي التي تنتج معنى الملفوظ بالنظر إلى وضعية الخطاب.

ونتيجة للاهتمام الكبير بالنص، تطورت استراتيجيات نصية stratégies textuelles تعنى بفحص النص ذاته، والنظر إليه كبنية مكثفة بذاتها، ومعزولة عن سياقها الخارجي أو ارتباطها بالمؤلف أو القارئ أو المرجع الخارجي.

والتعامل مع النص²، مهما كان، ليس سوى محاولة جادة للتوصل إلى "مضمون" النص نفسه حسبما قصده - أو قريبا مما قصده - الكاتب؛ على اعتبار أن النص هو البيئة التي تلتقي فيها العناصر اللغوية، مع العناصر غير اللغوية، لتكوين ما يسمى بالرسالة، أو مضمون النص. وهذا معناه أن ثمة بيئة شاملة للنص يحيا فيها ويشتق منها.

" قد ينظر إلى النص من زاوية الأدبية وغير الأدبية. وكذلك من حيث علاقة النص بمؤلفه، وعلاقته بقارئه، ومن زاوية شكل النص : قرائي أم كتابي . ونجم عن هذا كله نظريات في "استقبال" النص، لا في "إرساله"؛ حيث يقوم القارئ، وينهض ليعطي النص حقه من الدلالة التي قصدها كاتب النص، قدر الطاقة . والقارئ هنا مطلوب منه أن يفسر النص وينتج إلى جواره نصا جديدا فيما يسمى بإنتاج الدلالة، أو النصوص الموازية³.

ويمكن كذلك النظر إلى النص قصد تصنيفه بين أنواع ثلاثة هي : النصوص الأدبية، والنصوص غير الأدبية، وكذا النصوص المتداخلة.

1- النصوص الأدبية : وهي النصوص التي تستخدم فيها "اللغة" كنظام "ثانوي"، في حين يكون النظام الأساسي، أو الإطار المرجعي للتواصل مع هذه النصوص هو لفهمها، هو ما

¹ - DUCROT, O : Dire et ne pas dire. p 279

² - د.حسن عبد الباري عصر " قضايا في تعليم اللغة العربية و تدريسها. الإسكندرية، الملقب العربي الحديث، 1999. ص 268

³ - مصطفى السعدني: المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية. الإسكندرية، منشأة المعارف، 1987. ص 19

يتصوره منشئ النص نفسه أو المبدع، وكذلك الجو الناجم عن النص ذاته، لا عن خارجه.

يدعو مولينييه إلى دراسة الخطاب الأدبي بالتركيز على وظيفته ال شعيرية، بناء على وجود محورين رئيسين في الممارسة الأسلوبية هما :

- محور الإطار التأويلي، وهو دراسة الوظيفة الشعيرية ، من خلال البعد الصوتي والمفرداتي والنحوي والدلالي.

- محور طبيعة العمل الأدبي، أي انتماء النص المدروس إلى نوع فني معين (قصيدة، قصة قصيرة، رواية، الخ ...)

على أن كل عنصر من العناصر المكونة للغة النص في أي إطار من هذين الإطارين مرهون بوجود العناصر الأخرى ولا يعمل إلا من خلال عملها.

" والخصائص الأساسية التي تكون الخطاب وتميزه عن الخطابات التواصلية

العادية يمكن اختصارها كآتي :

أ- غياب المرجع : المرجع هنا هو ما ترجع إليه الإشارة اللغوية، وهو يقع خارج اللغة وبالتالي خارج النص.

ب- الإغلاق : النص الأدبي مغلق . الخطاب الأدبي يكون هو نفسه مرجعه الخاص به؛

أي أن مرجعه هو بالذات وجود هذا الخطاب نفسه وما ينتجه من دلالات تبني عالمه .

ج- إيحائية النص الأدبي و هيمنة الصور البلاغية : وهذا يعني أن الخطاب الأدبي مكان

لبروز لغة الدلالات الإيحائية. النص الأدبي نظام من العلاقات بين مستويات الدلالة الذاتية

dénotation ومستويات الدلالة الإيحائية connotation¹.

يتخذ جورج مولينييه هذه الثنائية في دلالة المفردة قاعدة يت م على أساسها البحث

عن العناصر الدالة على الشبكات المعنوية التي تحدد هيكل البناء الفني.

¹ - جرج مولينييه: الأسلوبية. ص 27

ورغم أن الدلالة الذاتية هي الإطار الأساسي الذي يتحرك ضمنه النص، وعالمه، ومحيطه، غير أنها ليست العنصر الرئيس في تكوين أدبيته . الدلالة الإيحائية هي أساس النص الأدبي وهدف دراسة أسلوبه.

2- **النصوص غير الأدبية** : تستخدم اللغة هنا كنظام أولي مثلما هو الحال في الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ... إلخ.

وتفهم هذه النصوص من خلال العالم الفيزيقي الذي تصفه، وصدق هذه النصوص صدق واقعي، أي أنها قطعية الدلالة، بانطباق اللغة فيها على الواقع حولها.

3- **النصوص المتداخلة** : وهي النصوص التي تمازج بين النوعين السابقين، وفهمها معتمد على نوعي الفهم في كل من النصوص الأدبية، والنصوص غير الأدبية، بمعنى أن صدقها مزج بين الصدق الفني والصدق الواقعي.

لقد تطورت البحوث التي تتناول "النص" من منظورات متعددة أبرزها بحوث البنيوية والأسلوبية والألسنية، وكلها أفضت إلى إجراءات في تحليل النصوص، انطلقت من أساس واحد مفاده كيف نفهم النص، وكيف نحلله، وكيف نقرؤه من بنيته الظاهرة إلى بنيته العميقة ثم إلى البنية الظاهرة مرة أخرى.

4- **علم النص والبلاغة**

يتداخل هذان العلمان تداخلا يجعلنا نعد البلاغة الصورة الأولى القديمة لعلم النص . ذلك أن البلاغة - في التراث اليوناني - قد عنيت في درسها للخطابة بمراعاة الخطيب لمعارف جمهور المستمعين وميولهم، من أجل النجاح في وظيفة اتصالية جد مهمة، ألا وهي الإقناع.

ومن أجل تحقيق الوظيفة الإقناعية عنيت هذه البلاغة بمسائل تتصل بإنتاج النص وبنيته العامة. يرى فان دايك أن هذا التفاعل الإقناعي الاتصالي هو السبب الذي من أجله

قد أوليت بنية النص (الخطاب) عناية خاصة، كما روعيت مراحل العثور على الفكرة (التيمة) المناسبة inventio، واختيار موضوعات محددة وتنظيمها داخل بناء التيمة dispositio وبناء أسلوب المنطوق ذاته elocutio والطريقة التي يعرض من خلالها pronuntiatio والاستراتيجيات والأبنية الإدراكية في الذاكرة memoria مع الكلام المحفوظ.

وبعبارة أوضح، لقد كانت عمليات إنتاج الخطبة عند أرسطو خمسا هي، حسبما استخلصها بارت :

- 1-الإيجاد : إعداد الأفكار.
- 2-الترتيب : ترتيب الأفكار وتوزيعها على مدار الخطبة.
- 3-العبرة : الصياغة اللفظية البليغة (وجوه الزخرفة والتحسين).
- 4-الإيماء : استخدام الحركات والإشارات (مسرحة القول).
- 5-الذاكرة : الحفظ والاسترجاع.

كما عد أرسطو مكونات النص (الخطبة) أربعة ترتب على النحو الآتي :

- 1-الاستهلال
- 2-السرود أو العرض
- 3-الإثبات أو البرهنة
- 4-الخاتمة

لكل هذا، رأى فان دايك أنه يمكن أن نعد البلاغة السابقة التاريخية لعلم النص، وإن وقع اختزال بلاغة أرسطو (الخطابة) في مراحل زمنية تالية حتى انحصرت في العملية الثالثة (العبرة) بحيث أصبح مفهوم هذه البلاغة منصبا على وجوه الزخرفة.

وقد حدد لوتمان عام 1981 ثلاث دلالات لكلمة البلاغة على ضوء البحوث الجديدة

في الشعرية والسيميولوجيا على النحو التالي :

- دلالة لغوية : باعتبارها مجموعة من قواعد تركيب الخطاب على المستوى الذي يتجاوز الجملة، مثل بنية السرد في مستويات ما فوق الجملة الواحدة.

- دلالة شعرية لأنها علم يدرس أنماط المعاني البلاغية المنقولة، ويطلق عليها خاصة بلاغة الأشكال والصور.

- دلالة شعرية النص بناء على أنها تتناول جانبا من الشعرية يبحث في العلاقات الداخلية للنصوص و وظائفها الاجتماعية، باعتبارها تكوينات سيميولوجية. ومعنى هذا أن البلاغة المعاصرة عليها أن تتدرج في المفاهيم العلمية الحديثة، وتكتسب تقنياتها التحليلية، وتتخذ النصوص مجالاً لها عندئذ لا تلبث أن تدخل في نطاق علم النص.

وهذا ما يقصده مؤسس علم النص فان دايك عندما يقول إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص، إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة . أصبحت كلمة البلاغة ترتبط حالياً بأشكال أسلوبية خاصة، كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام و وسائل الإقناع. وإذا أخذت تثير الاهتمام مجدداً في الأوساط اللغوية والأدبية فإن علم النص هو الذي يقدم الإطار العام لتلك البحوث، مما يشتمل على المظاهر التقنية التي لا تزال تسمى بلاغية.

5- الأبنية النصية

" يعتمد تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له على الإدراك السليم لبنيته العليا، مما يعد شرطاً ضرورياً لتحليل علاقاته وضبط خواصه . وإذا كان النص يتكون عادة من كلمات وجمل، فإن أجزاءه الطبيعية ليست الكلمات والجمل، لأن الوقوف عند هذه الوحدات بمستواها اللغوي الصرف لن يسهم في الكشف عن الخواص النوعية البنيوية المميزة للنص"¹.

فعند تحليل النصوص، ينبغي توظيف معرفتنا الأدبية بخواص الأجناس التي تنتمي إليها هذه النصوص، فأتثناء قراءة رواية مثلاً تصبح المكونات التي نتوقعها خاضعة لمفهومنا عن الرواية، حيث نبحث عن خصوصية النص نظراً للجنس الأدبي أو النوعي المكتوب فيه.

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 253

فالتحليل النصي إذن يبدأ من "البنية الكبرى macro-structure" المتحققة بالفعل . وهي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام والتماسك.

وهذا التماسك اللازم للنص ذو طبيعة دلالية، ويتميز بخاصية "خطية" أي أنه يتصل بالعلاقات بين الوحدات التعبيرية المتجاورة داخل المتتالية النصية. في ح ينطلق عبارة "الأبنية الصغرى micro-structure" على أبنية المتتاليات والأجزاء للتمييز بينها وبين الأبنية النصية الكبرى.

أما كيفية تحديد البنية الكبرى للنص فإنه من الملاحظ أن القراء يختارون من النص عناصر مهمة، تتباين باختلاف معارفهم واهتماماتهم أو آرائهم. وعليه قد تتغير البنية الكبرى من شخص إلى آخر. لكن هذا لا يمنع وجود توافق كبير بين مستعملي اللغة على مستوى التفسير الإجمالي للنصوص.

والبنية الكبرى للرواية عندما نتناولها بأكملها هي التي تسمى عادة "دلالة الرواية".

أما مولينييه فيميز بين نوعين من الصور البيانية في النص الأدبي قائلاً : " تمتاز الصور ذات البنية الصغرى microstructurelle عن الصور ذات البنية الكبرى macrostructurelle بكونها : يمكن عزلها في عناصر محددة من الخطاب، تزول أو تتغير إذا غيرنا في العناصر الشكلية للخطاب، تدل على نفسها فوراً وتفرض نفسها عند تلقي المرسل، تفسر انطلاقاً من سياقها المباشر.

أما الصور ذات البنية الكبرى فإنها، على عكس ذلك، تعمل على مستوى النص أو الخطاب ولا يمكن عزلها أو تمييزها في مفردات معينة منه"¹. ويمثل مولينييه للصور الصغرى بالمجاز المرسل والاستعارة، وللصور الكبرى بالسخرية.

¹ - جرح مولينييه: الأسلوبية. ص 27

أما قواعد الوصول لهذه الأبنية الكبرى للنصوص فهي كما يشرحها فان دايك تتمثل في: الحذف، الاختيار، التعميم، التركيب أو البناء.

الحذف : هذه القاعدة مألوفة، لأنها تعني أن أية معلومة قليلة الأهمية وليست جوهرية يمكن أن تحذف.

الاختيار : يعني أيضا حذف بعض المعلومات وإبقاء البعض الآخر، مع مراعاة وضوح العلاقة بين المحذوف والمتروك.

التعميم : يقتضي أيضا حذف بعض البيانات الجوهرية . وفي التعميم، نضع التصور الكلي موضع الجزئيات التي نحذفها، وهو يشملها كلها. ففي كلمات مثل " عصفور "، " قط "، و " كلب " يمكن أن تحل محلها " حيوانات أليفة ".

التركيب أو البناء : وظيفة هذه القاعدة تشبه وظيفة القاعدة الثانية وهي الاختيار . وإن كانت تختلف عنها من ناحية علاقة العناصر ببعضها . فأى موقف يتطلب مجموعة من الشروط والمواصفات والنتائج التي يمكن أن تكون في جملتها مفهوما عاما كليا يمكن إعادة تكوينه في جملة واحدة، مثلما نجد في الأقوال التالية :

أ- ذهبت إلى محطة القطار ب- اشتريت تذكرة سفر ج- اقتربت من الرصيف
د- صعدت إلى القطار هـ- جلست في مقعدي و- تحرك القطار.

وهذه المجموعات بدورها يمكن تقسيمها إلى تفاصيل أدق، لكنها في جملتها متضمنة في قول واحد هو : ز- ركبت القطار. لأنه من المعلوم أن ركوب القطار يقتضي العناصر الممكنة السابقة. وإن لم تكن كلها "إجبارية" في تكوين هذا "الإطار" للسفر في القطار.

وإذا كانت البنية الكبرى للنص ذات طبيعة دلالية، وكانت متعلقة ومشروطة بمدى التماسك الكلي للنص، فإن الذي يحدد إطارها نتيجة لذلك هو المتلقي . لأن مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ على النص.

فتأويل النص من جانب القارئ لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها هذا النص، بل يقتضي أيضا إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي، داخل ما يسمى بكفاءة النص.

وعلماء النص يولون التماسك عناية قصوى، فيذكرون أنه يعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى. ويشرحون العوامل التي يعتمد عليها الترابط على المستوى السطحي للنص؛ مما يتمثل في مؤشرات لغوية، مثل علامات العطف والوصل والفصل والترقيم، وكذلك أسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وأبنية الحال والزمان وأسماء المكان، وغير ذلك من العناصر الرابطة التي يعنى علم اللغة بتحديددها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول.

6- بلاغة السرد

تنصب جهود تحليل الخطاب والإحاطة النصية به على السرديات . وتشمل ما تولد عنها من أشكال محدثة في الفنون السمعية والبصرية الجديدة. ويعتمد تطوير العلاقة بين البلاغة والسرديات على مراجعة الجوانب المختلفة لأنماط "العبرة" أو أجناس الخطاب من منظور نقدي حديث، وكذلك الجانب المتصل "بالترتيب Dispositio"، الذي يشمل أربعة أجزاء للقول هي: الاستهلال، والسرد أو عرض الموضوع، أو ما كان يسمى في النقد العربي القديم بالقصة، خاصة إذا كان الموضوع دعوى تقام أمام القاضي. ثم يأتي الجزء الثالث ويتضمن البراهين والحجج وجدل الخصوم، ومن بعده يكون الختام. وظلت هذه الأجزاء هي التي يعتد بها حتى القرن التاسع عشر. فإذا أمعنا النظر في الجزء الثاني وهو "السرد"، وجدنا أنه الجزء الأساسي في الخطاب الذي يعرض فيه المتكلم الأحداث القابلة للبرهنة أو المثيرة للجدل.

يرى جينيت G.GENETTE أن التحليل الذي يجريه الباحثون ينصب على القصة بدلالاتها الأولى؛ أي باعتبارها خطابا سرديا، أي نصا أدبيا، بالتركيز على علاقة هذا النص بالأحداث التي يرويها، وصلته كذلك بعملية القص.

" ويترتب على ذلك التمييز بين ثلاثة مظاهر للسرد؛ تخصيص مصطلح لكل منها على النحو الآتي:

- **الحكاية** Histoire : وتطلق على المضمون السردي، أي على المدلول.
 - **القصة** Récit : وتطلق على النص السردي، وهو الدال.
 - **القص** Narration : ويطلق على العملية المنتجة ذاتها. وبالتالي على مجموعة المواقف المتخيلة المنتجة للنص السردي.
- وبهذا فإن تحليل النص السردي يعني دراسة العلاقة بين القصة والحكاية، وبينها وبين عملية القص. ثم العلاقة بين الحكاية والقص.
- ومن ثم يدعو جينيت لتحديد مجالات البحث، بتعديل ما اقترحه تودوروف TODOROV من تقسيم دراسة القصة إلى ثلاثة مستويات هي :
- **الزمن** Temps : هو الذي يعبر به عن العلاقة بين زمن الحكاية وزمن الخطاب السردي.
 - **المظهر** Aspect : وهو الطريقة التي يتمثل بها القاص أحداث الحكاية.
 - **الصيغة** Mode : وهي نوع الخطاب الذي يستخدمه القاص¹.

إلا أن جينيت يعيد تنظيم هذه المستويات كآلاتي :

- **الزمن** : وهو يشير إلى العلاقة الزمنية بين القصة والحكاية المروية.
 - **الصيغ** : وهي تشير إلى الكيفيات والأشكال والدرجات التي يتم بها التمثيل السردي.
 - **الصوت** Voix : وهو يشير إلى الطريقة التي يتدخل بها كل من المرسِل والمتلقي في عملية السرد. وإذا كان مستوى الزمن والصيغ يتصلان بالعلاقة بين القصة والحكاية، فالصوت يشير إلى العلاقة بين القص والحكاية والقصة.
- وتحليل البنية الزمنية للنص السردي يقتضي مراعاة المتتالية الزمنية على مستويين :
- أحدهما زمن الشيء المحكي، و الثاني زمن القص ذاته، أي زمن المدلول وزمن الدال.

¹ - المرجع نفسه. ص 281

تدعو هذه الثنائية إلى التحقق من أن إحدى وظائف السرد هي تحويل الزمن إلى زمن آخر، علماً بأن العلاقة بين زمن الحكاية المروية وزمن القص خاصية جوهرية في كل أنماط السرد الجمالي، سواء كان أدبياً أو سينمائياً أو غير ذلك.

"أفضت البحوث الحالية في الأبنية السردية، والتي ابتداءً تقاليداً بروب Propp في كتابه عن "مورفولوجيا الحكاية الشعبية" وتابعتها الشكليون والبنويون إلى تصورات جديدة عن الأبنية السردية وتقنياتها التحليلية، بحيث برز الطابع الدلالي الإشاري لها، ولم تعد تقف عند "سطح النص" وتجري على "عينات" منه بدلاً من تناوله بأكمله.

وذلك على أساس أن "بنية السرد" مستقلة عن الوسائل اللغوية التي تقدمها. وعلى وجه التحديد فإن البنية السردية الكامنة تختلف عن سطح النص في مظاهر عديدة، ربما كان من أهمها التخالف القائم بين وحدات البنية السردية والوحدات النحوية، فالحدث المعين يمكن أن يعرض في عدة جمل، بينما يعرض غيره مما يماثله في الأهمية عبر عدة فقرات، وهذا يعني أن الجملة - وهي وحدة السطح اللغوي للنص - ليست وحدة البنية السردية"¹.

وقد تعتبر محاولة "جماعة مو Groupe M" من أهم المحاولات العلمية التي أفادت من هذه الأبحاث السيميولوجية واستثمرتها في النمذجة السردية، واجتهدت في إقامة هيكل عام متطور لبلاغة النص السردية.

أما خطوات تطبيق النظرية النقدية المعاصرة في نقد الرواية والسرد عامة في العربية، فإنها تقارب الخطوات التي ظهرت بها وق طعتها في الغرب، وهذا لا يعني أنها صورة طبق الأصل عنها، بل أعيد إنتاجها من جديد بأساليب مختلفة غلب على بعضها الابتسار في كثير من الأحيان. وحاول بعض الدارسين مراعاة خصوصيات السرد العربي، وكانت لهم اجتهادات موفقة في بعض المواطن، غير أن ملامح التأثير بالنقد الغربي بادية في أعمالهم.

¹ - المرابا المقعرة. ص 313

وأهم الرواد الغربيين الذين لهم أثر في النقد الأسلوبي والشعري العربي هم: باختين، ورولان بارت، وتودوروف، وجيرار جينيت، وغريماس، وبروب، وميشال ريفاتير، وجوليا كريستيفا وسواهم¹.

تتمثل غاية تحليل الخطاب السردي العربي في تحديد ا لمميزات اللسانية والأسلوبية، والسيميائية وذلك بدراسة العنوان إلى آخر فقرة في الخطاب، مروراً بدراسة نسيجه اللغوي والأسلوبي وتحديد البنى الزمانية والمكانية فيه، إلى جانب تحديد شخصياته و وظائفها وطبيعة حوارها ومستويات الكلام في حكيها. وهكذا أصبحت كيفية السرد و تنوع الأسلوب وتشكيله في التعبير موضوع المناهج النقدية المعاصرة الأسلوبية البنيوية والسيميائية وميدان تطبيقها.

¹ - د. نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج 2. ص 155

الفصل الثالث

تحليل الخطاب

- 1- مفهوم الخطاب
- 2- منهج تحليل الخطاب
- 3- التحليل التداولي للخطاب
- 4- تحليل الخطاب في النقد المعاصر
- 5- تحليل الخطاب في الدراسات العربية
- 6- بعض العلوم المتصلة بتحليل الخطاب
- 7- البلاغة الجديدة
- 8- بنية الشكل البلاغي
- 9- مستويات تصنيف الأشكال البلاغية

1- مفهوم الخطاب

تذهب مدرسة تحليل الخطاب الفرنسية إلى أن التلفظ يقتضي بالضرورة الاستعمال الخاص والفردي للغة في كل خطاب، كما يذهب إلى ذلك بنفينيست BENVENISTE، الذي يرى أنه ينبغي فهم الخطاب في بعده الواسع، باعتباره تلفظا يفترض متكلما ينوي التأثير بطريقة ما على المستمع¹، وعليه يميز ديكرو O.Ducrot بين عنصرين على مستوى الدلالة التأويلية للملفوظ هما : العنصر اللساني الخالص، والعنصر البلاغي . فإذا كان العنصر الأول هو المعنى الحرفي للملفوظات خارج كل سياق تلفظي محدد، فإن العنصر الثاني يؤول هذا الملفوظ بإدماجه في سياق تلفظي معين، وهذا ما يؤكد أن التلفظ لا يرقى إلى مستوى الخطاب إلا باحتوائه لسياقات تواصلية محددة كما يتبين من خلال الترسيمة التي يقترحها شارودو P.CHARAUDEAU :

$$\text{تلفظ} + \text{مقام تواصلية} = \text{خطاب}^2$$

قد يقترب الخطاب من الملفوظ . " والكيفية التي يتكون بها الملفوظ (= ما هو ملفوظ)، الضمنية نسبيا، هي التي تحدد موقفين نظريين ونمطين مختلفين للتحليل . فبالنسبة إلى لسانيات الجملة، الوحدة القاعدية للملفوظ هي الجملة؛ ويعتبر حينئذ الخطاب كنتيجة (أو عملية) لسلسلة الجمل concaténation . وعلى عكس ذلك، تتخذ لسانيات الخطاب من جهتها، الخطاب كوحدة قاعدية، على أساس أنه كل من الدلالات : وما الجمل إلا قطع segments من الخطاب - الملفوظ (الأمر الذي لا يستثني أن يكون للخطاب أحيانا، حجم الجملة)³.

والمقصود بكلمة " خطاب " في المفهوم اللساني " هو كل نص يأتي نتيجة لعمل إرسال لساني يقوم به مرسل ما، ويكون موجهة بطريقة حتمية إلى قارئ أو سامع (فعلي أو متخيل) يقوم بعمل التلقي والتفسير . لكن، لا بد لهذا الخطاب - في المنظور الأسلوبي

¹-KERBRAT-ORECCHIONI,C : L'énonciation. Paris, Armand Colin, 1999. p 34

²-CHARAUDEAU,P : Langage et discours. Paris, Hachette, 1983. P 39

³- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p 102

- من أن يكون محددًا، إما في حدود دنيا (مثل البيت الشعري الواحد مثلا)، أو ضمن حدود قصوى (مثل العمل الأدبي الواحد، أو أعمال أديب معين، أو الأعمال الأدبية الخاصة بفن أدبي معين)¹ .

يقسم هذا التعريف لمفهوم الخطاب الإنتاج الأدبي إلى شطرين : الإرسال (أو الترميز أو الإنتاج)، والتلقي (أو فك الرموز أو الفهم). وعلى هذا الأساس يقوم نوعان من الأسلوبية هما : أسلوبية الإنتاج وأسلوبية التلقي، لكل منهما أنواع معينة من استراتيجيات التحليل الخطابية.

ويذهب جورج مولينييه إلى أن الأسلوبية إنما هي أسلوبية التلقي.

" وفي مقابل الأداء énonciation الذي يعد فعلا لغويا، يعتبر الملفوظ الحالة التي تنتج عنه، بعيدا عن حجمه السياقي (جملة أو خطاب).

تبعا لهذا التعريف، كثيرا ما يحتوي الملفوظ على عناصر تشير إلى هيئة القول instance de l'énonciation، مثل الضمائر والصفات والظروف والأفعال ...².

والملفوظ هو " تحقيق جملة في شكل مقطوعة صوتية أو خطية معينة، تقع في نقطة

محددة من المكان والزمان . ومنه، لا يمكن أن نقول إن ملفوظا كرر عدة مرات، بل نتحدث عن عدة ملفوظات لجملة واحدة . وبالتالي، يمكن تعريف الملفوظ بأنه حدوث occurrence لجملة... والدلالة signification، هي القيمة الدلالية الممنوحة للجملة، بينما المعنى هو القيمة الدلالية المقروءة في الملفوظ.

أما فعل الكلام أو الأداء énonciation، فهو كون الملفوظ قد تشكل. أو بعبارة أخرى،

هو الحدث التاريخي الذي يمثل تحققه³.

1- جرج مولينييه: الأسلوبية. ص 20-21 ص

2- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p 123-124

3- DUCROT, O : Dire et ne pas dire. p 280

ومما لاشك فيه أن النص الأدبي نتاج لغوي فريد من نوعه . فهو يختلف عن الخطاب اليومي وعن سائر الخطابات (الدينية والتاريخية والصحافية وغيرها).

فالخطاب الأدبي يعمل على مستويين مختلفين :

أ- يعمل الخطاب الأدبي بشكل طبيعي وكأي خطاب آخر، أي بطريقة غير شعرية (غير فنية)، وذلك وفقا لمسار لساني عام يتلخص في المضمون (أو المحتوى). فعلى هذا المستوى العادي، يتلقى القارئ النص كخطاب يحمل معلومات ملموسة . لكن القارئ يعلم جيدا في الوقت نفسه أن هذا المستوى ليس أساس هذا الخطاب ولا روحه.

ب- ذلك لأن الخطاب الأدبي يعمل كذلك على مستوى سيميائي ثان، وهو يحتوي، في مجمله، على مضمون آخر يختلف عن المضمون اللغوي العادي (المرجعي). إنه مضمون يعود إلى عالم آخر هو أيضا مزدوج: من جهة، هناك عالم النص الأدبي ذاته الذي يكون مرجعية خاصة ، ومن جهة أخرى، ينتمي هذا العالم الخاص إلى حقل جماعي أكبر هو العالم الجمالي- الثقافي الذي يكون مشتركا بين أفراد المجتمع. فالنص الأدبي لا يحيل إلى شيء خارجي بقدر ما يتمحور حول مادته الداخلية.

" فسواء تعلق الأمر بدلالة الكلمات أو دلالة الجمل، يتعين على الباحث اللغوي أن يتخذ تحليل النصوص أداة ضرورية لعمله"¹.

" تدلنا الجملة على ما يجب فعله لاكتشاف المعنى فقط . ومن هنا يظهر بوضوح ما تؤتيه اللسانيات لتحليل النصوص؛ علما أن الوصف اللغوي للجملة يترتب عليه اختلاف معنى الملفوظات حسب وضعية الخطاب . وقد يصل الأمر إلى تعدد القراءات الممكنة لملفوظ معين"².

¹- DUCROT, O et al : Les mots du discours. p 9

²- المرجع نفسه. ص 17

بناء على أن تحليل النصوص لا يتناول إلا ما هو قابل للتحويل، " تحتل اللسانيات المكان المركزي من تحليل الخطاب، باعتبارها تتطلب تصور كل التحولات الممكنة للمعنى حسب الوضعية وعناصرها التي تم الإلمام بها"¹.
وقد يلعب علم الدلالة اللغوي " دور دليل القراءة، لو اعتبرت دلالات الجمل وكأنها توجيهات تسمح بفكر رموز الملفوظات باستغلال البيانات التي توفرها وضعية الخطاب"².

" لو تمثلنا الدلالة signification كمجموعة من التوجيهات عن الكيفية التي ينبغي أن نتكفل بها بالوضعية، لتأثر معنى الملفوظ كله بالبناء الدلالي للجملة.
ومهما يكن، يوجد عدد كبير من الجوانب الدلالية المرتبطة بالوضعية والتي تفرض الدلالة الممنوحة للجملة إدماجها في المعنى. مع العلم أن هذا لا يعني أن الدلالة تحدد معنى واحدا للملفوظ في وضعية معينة.
وسأسمي " فعل الكلام " énonciation الحدث، وهو الفعل الذي يمثله ظهور ملفوظ .
ظهور تصفه عموما الدلالة اللغوية وكأنه إنتاج جملة ... وأنا أمنح لهذا المفهوم وظيفة دلالية خالصة (بعيدا عن الآليات المعرفية أو النفسانية)"³.
فما يحمل دلالة في فعل القول acte d'énonciation ليس فقط الملفوظ، " ولكن كونه، في وقت محدد، موضوع فعل الكلام.
ومنه، فالمدلول لا يقتصر على معنى الملفوظ، بل يتعداه إلى مجموعة الشروط الاجتماعية و النفسية التي ينبغي أن يقترن استعماله بها"⁴.

¹ - DUCROT, O et al : Les mots du discours. p 18

² - المرجع نفسه. ص 32

³ - المرجع نفسه. ص 33

⁴ - DUCROT, O : Dire et ne pas dire, 2^e ed. corrigée et augmentée. p 17

- وهكذا، لقد استعمل " الخطاب " بمفاهيم مختلفة، نختصرها فيما يأتي¹ :
- 1- " الخطاب " معادل " الكلام " الذي قابله سوسير " باللغة "، أي أنه كل حدوث كلامي occurrence verbale.
 - 2- وهو وحدة أكبر من الجملة، ومعادلة للنص.
 - 3- من وجهة نظر أدائية énonciatif أو تداولية، يسمح استعمال " الخطاب " عوض " الملفوظ " بالتركيز على ال طابع الديناميكي للقول énonciation، وعلى العلاقة بين المساهمين في التبادل، وعلى تموقعها في السياق.
 - 4- يشير إلى الحديث، والتفاعل الشفوي الذي يعتبر نمطا أساسيا للقول.
 - 5- يسمح التقابل بين اللغة والخطاب بإبراز القيم التي تملكها الوحدة اللغوية، افتراضيا، وخارج السياق، والقيم التي تكتسبها من خلال استعمالها الفعلي.
 - 6- قد يستعمل الخطاب أحيانا للتعبير عن نظام تقديري لمجموعة من الملفوظات التي قيلت بناء على مركز اجتماعي أو موقف إيديولوجي؛ حينئذ، نتحدث عن " خطاب تقديمي " مثلا، أو " خطاب ثوري " ...
 - 7- منذ 1960، يلجأ أحيانا، في فرنسا، إلى التقابل بين الملفوظ والخطاب. فالملفوظ، هو توالي الجمل الصادرة بين " بياضين " دلاليين، أو توقيين للتواصل؛ أما الخطاب، فهو الملفوظ الذي يتناول من خلال زاوية النظام الخطابي الذي يتحكم فيه. وهكذا، فالنظرة التي تلقى على النص من زاوية هيكليته في " اللغة " تجعل منه ملفوظا، أما الدراسة اللغوية لظروف إنتاج هذا النص فتجعل منه " خطابا ".
- تختلف هذه القيمة الأخيرة عن القيم الأخرى لكونها تعرف الخطاب من خلال وجهة نظر الباحث المهتم بالإنتاجات اللغوية.

¹- MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 10

2- منهج تحليل الخطاب

" ينتمي تحليل الخطاب إلى علوم اللسان"¹، ويعود ظهوره في فرنسا، إلى منتصف سنوات 1960، وسط ظروف كانت فيها البنيوية اللغوية والماركسية والتحليل النفسي تسيطر على العلوم الإنسانية.

" ومنذ 1980، نشهد في العالم كله كثرة البحوث التي تدعي الانتماء إلى تحليل الخطاب"². تتعادل بلاغة الخطاب مع علم النص لتكوين مقاربة متجددة لأجناس الخطاب الإبداعي وشروطها التداولية.

" والمنطلق المنهجي الذي تأسست عليه بلاغة الخطاب، وما أسفرت عنه من تبلور علم النص هو التمييز الواضح بين محورين يعتبر الفصل المنهجي بينهما من أبرز إنجازات الفكر العلمي الحديث، خاصة في منظومة العلوم الإنسانية، وهما المحور التاريخي Diachronique الذي يعنى بتطور الظواهر وصيرورة أوضاعها في فترات زمنية متعاقبة، ويهتم بمشكلات النشأة والتحويل، وعوامل النمو والتدهور، والمحور الآني Synchronique الوصفي الذي يركز في تحليله للظواهر على جملة علاقاتها وأبنيتها المترابطة، وانتظامها في نسق ديناميكي، قبل أن يقوم بدمج المحورين وتحليل الظواهر وظيفيا. بيد أن هذا المحور الآني هو الذي يسمح لنا بتحليل الأبنية المدروسة مفترضا ولو بطريقة معملية ثباتها في لحظة محددة حتى يتمكن من الكشف عن مستوياتها ومعاملاتها الثابتة و المتغيرة، ويبرز السياقات التي تنتجها وطريقة تكيفها معها من منظور علمي صحيح"³.

تندرج كلمة خطاب Discours في بنية بلاغة النص الجديدة، بسبب تصور المادة التي تعالجها والسياق الذي تقع فيه، لأن الخطاب البلاغي يتجاوز الصبغة الجزئية التي غلبت عليه عندما كان يقف عند حدود الكلمة والحالة المفردة.

" الأدب، إذن، خطاب نصي كلي، وليس وحدات جزئية مشتتة كما تصوره الأقدمون.

¹- MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 14

² - المرجع نفسه. ص 9

³- BACRY,P : Les figures de style. Paris, Belin, 1992.p 49

وإذا كان التجديد المبدع في الخطاب الأدبي لا يتجلى في الوحدات الصغرى وإنما في الأبنية الكلية النصية، فإن هذا الخطاب البلاغي يندرج بدوره في منظومة معرفية تدعوه إلى أن يستثمر الخطابات العلمية المجاورة . فالتقدم الذي أحرزته علوم اللغة والنفس ونظريات الجمال والشعرية الألسنية والتقنيات الأسلوبية يصب في بؤرة الخطاب البلاغي الجديد، ويشكل مقولاته بطريقة توصف بأنها عبر تخصصية "inter-disciplinaire"¹.

" إن لرولان بارت Roland BARTHE الفضل الأكبر في وضع أنموذج منهجي حول كيفية تحليل المعنى مواصلة لأفكار دو سوسير، حيث يميز بارت بين نظامين للدلالة والمعنى :

فهناك أولا الدلالة التصريحية أو الرئيسة Dénotation التي ترتبط بالنظام الأول الذي اشتغل دو سوسير على ضوءه، وهو يصف العلاقة بين الدال والمدلول داخل العلامة أو الإشارة، من جهة وعلاقة العلامة بمرجعها الخارجي من جهة أخرى. وهناك الدلالة المصاحبة أو الإيحائية connotation التي ترتبط بالنظام الثاني وطريقة اشتغال العلامة في هذا النظام - الثاني - إذ يذهب بارت إلى القول إن العامل الحاسم في المعنى المصاحب هو الدال في النظام الأول، حيث يصبح دال النظام الأول هنا العلاقة في المعنى المصاحب.

ويربط بارت بين المعنى المصاحب هنا وتأثير مشاعر المرسل، أو مستخدم اللغة، خاصة عندما تمس العلامة مشاعر المرسل وقيم حضارته وتؤثر " المفسرة " بفاعلية ووظيفة " المؤول " بقدر التأثير بالموضوع أو العلامة.

ويقدم الباحث مثالا توضيحيا لهذين النظامين : فالمعنى الرئيس أو التصريحي شبيه بالإنتاج الآلي للموضوع على الفيلم الذي تلتقطه آلة التصوير، بينما المعنى المصاحب أو الإيحائي يشير إلى الدور الإنساني في العملية والذي يتعلق باختيار البؤرة وزاوية النظر والإطار وما إلى ذلك"².

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 8-9
² - أحمد الشايب: الأسلوب. ص 198

عندئذ تتجلى ضرورة دراسة النصوص بصورة مشتركة، وذلك بتحليل الخصائص

العامة التي تتصف بها النصوص والاستعمالات اللغوية فيها، حتى يصير بوسعنا أن نتفحص عن كثب النقاط التي يمكن أن تتباين فيها النصوص من حيث البنية والوظيفة . إن هذه المقاربة للنصوص ذات الطابع الأعم والمتعدد الميادين هي التي ينادي بها علم النص، لأنه أصبح يندرج في إطار الدراسات الأدبية إلى جانب علوم اللغة والأدب وإن كان ميدانه أعم منها.

3- التحليل التداولي للخطاب

تزايد الاهتمام بالتداولية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وهي ذات طبيعة عبر تخصصية، تغذيها جملة من العلوم كالفلسفة وعلم اللغة والأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع.

وقد كانت في بداية الأمر أحد الفروع الثلاثة المكونة للسميولوجيا وهي العلا مات أو الرموز ودلالاتها وعمليات توصيلها.

فكانت التداولية تعنى بهذا القسم الأخير، إلى جانب النحو الذي يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات، وعلم الدلالة الذي يحل صلة العلامات بالمدلولات والواقع. " ولهذا فإن التداولية اهتمت أولاً بوصف العلاقة بين العلامات وم ن يستخدمونها فحلت كلمة "نصوص" محل "علامات". بحيث أصبحت التداولية تعنى بتحليل العلاقة بين النص ومن يستخدمه . وبينما يعنى النحو بتوضيح الشروط المحددة والقواعد التي تضمن صوغ الأقوال صوغاً جيداً وتهتم الدلالة بالشروط التي تجعل هذه الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير، فإن التداولية هي العلم الذي يعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال ملائمة للموقف التواصلية الذي يتحدث فيه المتكلم"¹.

وإذا كانت الدلالة تستخدم مفهوم "الواقع" أي العالم الممكن، فإن التداولية تستخدم مفهوما يدل على الموقف التواصلية هو "السياق".

¹- ARMENGAUD, F : La pragmatique. p 8

فالتداولية إذن تعنى بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي أنها تعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلية المرتبطة به أو سياق النص . ويقترب مفهوم التداولية مما كان يشار إليه في البلاغة القديمة بعبارة "مقتضى الحال"، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية "كل مقام مقال".

"وإن كنا نعثر على سابقتها الواضحة في عبارات "شيشرون CICERON" الروماني الذي يقول في كتابه عن الخطابة :

"إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات. أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح أي شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له"¹.

ومن أجل تحديد علاقة البلاغة بالتداولية Pragmatique يعرف البعض البلاغة بأنها "فن القول بشكل عام"، أو "فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ"، مما يجعلها مجرد أداة نفعية ذرائعية.

ويقول الباحث الألماني "لوسبرج Lausberg" إن البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد. وبنفس الطريقة يرى "ليتش Leitch" أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما.

ولذلك فإن البلاغة والتداولية البراجماتية تتفقان في اعتمادهما على ال لغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو " نص في موقف"، مما يرتبط بالتعديلات التي يفرضها المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه وما تحدث تلك التعديلات في سلوكهما أيضا.

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 98

" يصعب الحديث عن التداولية وكأنها تداولية واحدة، لأن هذا المصطلح يشمل عدة تيارات مختلفة الأصل، تتقاسم عددا من الأفكار الكبرى.

فمن جهة، لم تغز التداولية العلوم الإنسانية إلا حديثا، ومن جهة أخرى تذكر فيها نظرات لغوية قديمة جدا. في اليونان، منذ بروز التفكير اللغوي ظهر اهتمام كبير بكل ما يتصل بفعالية الخطاب في وضعية حقيقية. والبلاغة، وهي دراسة القوة الإقناعية للخطاب كانت تنتمي إلى الميدان الذي تحدده اليوم التداولية.

وباختصار، يمكن أن نستنتج أن التفكير التداولي يحاول أن يتناول القطيعة بين المنطق والبلاغة، أو، من منظور لساني، القطيعة بين البناء النحوي واستعماله.

ليس اللغويون وحدهم المنشغلين بالتداولية. من عالم الاجتماع إلى الباحث في المنطق، تشمل الانشغالات التداولية مجموعة البحوث التي تتعلق بالمعنى والتواصل.

وبالنسبة للتداولية، جاء التحريك المصيري من **أفعال الكلام**. فمن خلالها، استطاع الفيلسوف البريطاني أوستين مناقشة الفكرة التي تقضي بأن معنى الملفوظ ما هو إلا وضع العالم الذي يمثله، بعيدا عن أدائه¹.

وينظر التداوليون إلى الخطاب كموضوع خارجي، يفترض وجود فاعل منتج له وعلاقة حوارية مع مخاطب أو مرسل إليه.

ومن الناحية الألسنية، فإن فكرة الفاعل ضرورية لمتابعة تحولات اللغة في الخطاب؛ فتصور الفاعل المنتج للخطاب تقترن به ملاحظة حضوره في هذا الخطاب ذاته.

فالخطاب هو المكان الذي يتكون فيه فاعله، ومن خلال هذا الخطاب فإن الفاعل يبني عالمه ويبني ذاته أيضا. والفاعل نعرفه فحسب من خلال خطابه، أي من خلال الكيفية التي يقدم بها نفسه، مع الحرص على التمييز بينه وبين الفاعل التجريبي أو المؤلف من الوجهة النظرية والمنهجية.

¹- MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 170

" فعلى التحليل النصي للقول أن يشمل كل ما يشير إليه النص من موقف الفاعل الداخلي تجاه قوله . وبهذا فإن النص يقدم دائما باعتباره "موسوما marquée" أو "غير موسوم" بطريقة شخصية؛ أي أنه يتصل بفاعل يتجلى فيه معبرا عن رأيه أو وجهة نظره، مشيرا إلى تجربة أو حدث متعلق به ذاته، وعندئذ يصبح موسوما، أو متصلا بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل . وعندئذ يكون غير موسوم . هذان الوضعان الأساسيان للخطاب بكل ما يدخلهما من تعديلات وتداخلات ي تجليان نصيا من خلال العوامل التالية :

- مؤشرات الشخص والمكان والزمان،
 - كيفيات القول التي تحدده، مثل موقف التأكد واليقين أو الشك والاحتمال،
 - مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنما بموقف القائل مما يقوله¹.
- لقد أخذ تيار تحليل الخطاب التداولي يفيد من المبادئ السيميولوجية، كما يفيد من ازدهار اتجاهين كبيرين في تحليل الخطاب منذ عقد الستينيات : أحدهما لغوي يبحث في علاقة النص على مستوى "ما فوق الجملة الواحدة" بتتبع مظاهر الإحالة النحوية وبنية الدلالة الكلية للخطاب؛ ويمارسها اللغويون الأمريكيون في الدرجة الأولى.
- ويتمثل الثاني في تحليلات المدرسة الفولكلورية البنيوية التي ورثت مبادئ "بروب Propp" في صرف الحكاية الشعبية وأخذت في إعادة صياغتها وتعديلها كما نرى عند جريماس Greimas وبريموند Bremond وغيرهما.

يبحث هذان الاتجاهان عن البنية الكلية الكامنة تحت النص ومظاهرها الخارجية، وإن كان الاتجاه الفولكلوري قد أولى عناية قليلة بالجانب اللغوي، فإن ذلك قد مكنه من العثور على وحدات غير لغوية هي المتعلقة "بالوظائف" التي استطاع عن طريقها أن يمسك بأبعاد النص.

وقد أفاد علم السرديات narratologie من كلا الاتجاهين، فلم يقتصر على مراعاة الملامح الأسلوبية واللغوية، بل أخذ يضبط تقنيات أجروميات السرد وأبنيته الوظيفية

¹ - المرجع نفسه. ص 99

المختلفة، دون الارتباط بلغة معينة، وإنما بحثاً عما يسمى بالنموذج العالمي للخطاب السردى.

ثم لم يلبث هذان الاتجاهان في تحليل الخطاب أن أسفرا في تطورهما خلال السبعينيات عن منظومة متسقة من الإجراءات المنهجية التي تفيد من المنظور التداولي في اللغة بقدر ما تستثمر إمكانات التحليل السيميولوجي للوحدات الوظيفية في النصوص تحت عنوان شامل هو تحليل الخطاب. كما استقطبت بحوث علم النص جملة الاهتمامات السابقة.

4- تحلي الخطاب في النقد المعاصر

يعرف الخطاب الأدبي بأنه : "خلق لغة من لغة"، أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة، فيبعث فيها لغة وليدة، وهي لغة الخطاب الأدبي. ويذهب جاكوبسون في تحديد مفهوم الخطاب الأدبي إلى أنه "نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام، و هو ما يفضي حتما إلى تحديد ماهية الأسلوب بكونه الوظيفة المركزية المنظمة". ولذلك كان النص حسب جاكوبسون خطاباً تتركب في ذاته ولذاته. نادى الشكلاونيون الروس بضرورة ميلاد علم جديد للأدب هو "الشعرية" وموضوع هذا العلم ليس الأدب كمفهوم عائم ولكن أدبية الأدب.

يقول رومان جاكوبسون: "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً"¹.

يحدد جاكوبسون الوظيفة الشعرية للكلام انطلاقاً من تحديد الأسلوب باعتباره معطى لسانياً يشكل بنية الخطاب وذلك بعده الخطاب حدثاً لسانياً . والحدث اللساني حسب جاكوبسون هو تركيب عمليتين متواصلتين في الزمن، ومتطابقتين في الوظيفة . وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة، ثم تركيبه لها تركيباً يقتضي قوانين النحو، وسبل التصرف في الاستعمال، فإذا بالأسلوب يتحدد بأنه توافق بين

¹ - د. نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج 2. ص 11

العملية. يقول تودوروف: "ليس العمل الأدبي هو ذاته موضوع الشعرية، إن ما تبحث عنه الشعرية هو خصائص هذا الكتاب الخاص هو الخطاب الأدبي". ويدعو تودوروف إلى استعمال مفهوم الخطاب الأدبي بدل الأدب أو العمل الأدبي، وذلك لاعتبارات عديدة؛ من بينها أن هناك علاقات بين الخطابين سواء كانت أدبية أو غير أدبية، وتحديد مفهوم الخطاب الأدبي يساعد على إبراز الخصائص التي تميزه من غيره"¹.

والخطاب الأدبي مفارق لمألوف القول، ومخالف للعادة، وبخروجه هذا يكتسب أدبيته ويحقق خصوصيته. فاختلاف الخطاب الأدبي عن صنوف الخطاب الأخرى يكون بما يركب فيه صاحبه من خصائص أسلوبية، تفعل في المتلقي فعلا يقرره الكاتب مسبقا ويحمله عليه، وبما تقتضيه الكتابة من وسائل تختلف عن مقتضيات المشافهة.

لكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، أهمها: الضمائر، تكرار كلمات بعينها أو مقاطع، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة، ظروف الزمان، ظروف المكان...

وجميع هذه الوسائل اللغوية وسواها تسهم في انساق الخطاب الأدبي وانسجامه. هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى مثل: الاستبدال، وهو تعويض يكون في المستوى النحوي أو المعجمي ويتم بين كلمات أو عبارات، كما يسهم الحذف والفصل والوصل وسوى ذلك في عملية تماسك الخطاب وهذه الظواهر اللغوية تتم وفق أنساق أسلوبية يتصرف فيها منشئ الخطاب حسب مقتضى الحال، وبحسب الغاية المتوخاة من الخطاب.

5- تحليل الخطاب في الدراسات العربية

" استفاد كثير من النقاد العرب من الاتجاه الأسلوبى والبنىوي والسيميائي في دراسة الرواية العربية أو القصة والمقامة والقصص الشعبي، غير أن استفادتهم لم تقتصر على النقل الحرفي للمقولات و "الأفهامات" وتطبيقها بصورة آلية على الخطاب الأدبي الشعري والسردى العربى؛ بل تصرفوا فيها بما يخدم طبيعة الخطاب الذي يحلونه، وبالتالي كان عدم وفائهم للمناهج كما هي في أصل وضعها خروجاً يطمح إلى الإضافة ورغبة تسعى

¹ - المرجع نفسه. ص 16

إلى التجاوز، ومهما يكن تظل النتائج التي توصل إليها هؤلاء النقاد في الحقل النقدي العربي تشكل النواة العلمية الرائدة في سعيها إلى دراسة الخطاب الأدبي دراسة علمية وموضوعية وفق إجراءات ومفاهيم دقيقة تتجاوز الدرس الانطباعي التقليدي¹. كما اهتم النقد العربي الحديث بحركة الشكلانيين الروس فنقلت أعمالهم إلى العربية، واستفاد النقد العربي من إنجازهم.

اهتم الدارسون العرب بتحديد مفهوم الخطاب الأدبي وتجليه، وتزخر المكتبة العربية بدراسات نقدية متنوعة بحسب الاتجاهات والمدارس النقدية المعروفة التي حاولت إدراك جوهر الخطاب الأدبي وتحديد وظيفته. فراوحت بين أبعاد الخطاب ووظائفه وبين البعد الجمالي والبعد الاجتماعي والبعد النفسي؛ إضافة إلى المقاربات الأسلوبية.

" ومفهوم الخطاب الأدبي كما يراه محمد مفتاح، هو:

مدونة كلامية، يعني أنه مؤلف من كلام وليس صورة فوتوغرافية أو رسماً أو عمارة... وإن كان الدارس يستعين برسم الكتابة وفضائها وهندستها في التحليل.

حدث : إن كل خطاب هو حدث يقع في زمان ومكان معينين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي.

تواصلية : يهدف إلى توصيل معلومات ومعارف ونقل تجارب إلى المتلقي.

تفاعلي : على أن الوظيفة التواصلية - في اللغة - ليست هي كل شيء، فهناك وظائف أخرى للخطاب اللغوي، أهمها الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع.

مغلق : ونقصد بالانغلاق سمته الكتابية الأيقونية التي لها بداية ونهاية .
ولكنه من الناحية المعنوية هو :

تداولي : إن الحدث اللغوي ليس منبثقا من عدم؛ وإنما هو متولد من أحداث تاريخية ونفسانية واجتماعية ولغوية... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له.

¹ - المرجع نفسه، ص 43

فالخطاب إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة¹.

انتشر مفهوم أدبية الأدب في الحركة النقدية العربية الحديثة، والأدبية لفظ وليد النقد الحديث يطلق على ما به يتحول الكلام من خطاب عادي إلى ممارسة فنية إبداعية، أي أن الأدبية هي مجموع الطاقات الإيحائية في الخطاب الأدبي، وذلك لأن الذي يميزه كثافة الإيحاء وتقلص التصريح، وهذا يخالف استعمال اللغة استعمالاً نفعياً في الكلام العادي و"الشعرية" في الخطاب الأدبي تتحدد بنسيج الروابط بين طاقة الإخبار وطاقة الإيحاء.

تبعاً لجاكوبسون الذي أكد أن موضوع علم الأدب ليس الأدب بل الأدبية؛ أي العوامل التي تجعل الأثر الأدبي أدبياً، أو الميزات التي يكون بها الأثر أثراً أدبياً، حصر كثير من النقاد العرب اهتمامهم في نطاق النص، وسكتوا عما يتصل به اتصالاً مباشراً أو غير مباشر من عوامل نفسية أو اجتماعية، قد يدل عليها النص، وحجتهم في ذلك أن الدراسات التي تتناول الأثر الأدبي من الوجهة النفسية أو الاجتماعية أو غيرها تخرج عن نطاق علم صناعة الأدب أو "الشعرية".

6- بعض العلوم المتصلة بتحليل الخطاب

يقع الإطار الحديث لبلاغة الخطاب في فلك علوم الاتصال التي تخضع بدورها لمنطق استدلال علمي، وتتبع إجراءاته المنهجية والتجريبية. والخصائص التي تنظم الخطاب الأدبي لا تنتمي كلها إلى مجال اللغة، بل يستعين تحليل الخطاب الأدبي بالقواعد العرفية وشروط تأويل الدلالة والإشارة السيميولوجية، والمفاهيم التي تستخدم في معرفة العالم. ولعل أهم الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بالخطاب هي الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللغوية، وتأتي كذلك علوم البلاغة والأسلوب والشعرية الألسنية، لأنها تنصب على دراسة خواص الخطاب الفنية والنوعية.

¹ - الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2. ص 75

وهكذا فإن نظرية اللغة الخاصة بالخطاب لا تهدف إلى مجرد البحث اللغوي فيه، وإنما تقوم بوضع الأسس لدراسته من منظور "عبر تخصصي"، بشكل يجعل من الممكن إدراج البحوث التحليلية التجريبية للخطاب النصي في البحث العام للغة وعلوم الاتصال.

ومن العلوم المواكبة لبلاغة الخطاب وعلم النص نذكر :

- علم النفس
- علم الجمال
- الشعرية
- علم النفس

يعود تقاطع علم النص مع علم النفس إلى شرح هذا الأخير لطبيعة العمليات اللغوية وآليات إنتاجها وتلقيها، كل ذلك يمثل تأسيساً علمياً لبحث المتغيرات التي أدت إلى نشوء البلاغة الجديدة وعلم النص.

"وقد أبدع فرويد S.Freud، مؤسس علم النفس، في مجال التفسير والتأويل، حيث يميز بين تقنيتين في التأويل، إحداهما رمزية والأخرى تعتمد على التداعي.

ومبدأ التداعي النفسي قد يشرح عمليات التحليل البلاغي، على أساس أن نظرية تغيير الدلالة قد عثرت على سند جديد لها في ملمح وصفي، يتمثل في أن نمح إلى كل معنى وإلى كل اسم "حقول تداعياته" التي تسمح بعملية الانزلاق والاستبدال، على مستوى الأسماء وعلى مستوى المعاني، وعلى كلا المستويين معا"¹.

فالميكانيزم النفسي هو الذي يهيمن على التغيرات الدلالية كما تتمثل في التداعي. يعتبر توسط هذا التداعي النفسي بين الدلالة والبلاغة إيجابياً إلى حد كبير، ومن فوائده امتداد جسر وثيق بين النشاط الفردي للكلام والخاصية الجماعية للغة، فحقول التداعي تنتمي إلى اللغة باعتبارها كنزاً لغوياً كما يقول سوسور، وفي الوقت نفسه تحدد فضاء يلعب فيه النشاط الفردي دوراً تعبيرياً.

¹ - بلاغة الخطاب و علم النص. ص 29 - 30

وهكذا يسهم علم النفس في إضاءة مشكلات البلاغة النصية الحديثة، بداية من التحليل الذي أقام تصوراته عن العقل الباطن وعلاقته الجدلية واللغوية بالوعي، وتقنية التداعي التي توظف للكشف عن ترابط الرموز وتوضيح قوانين إنتاجها، كما توظف نتائج علم النفس الفسيولوجي في مجال الذاكرة وأنواعها وطرق إنتاجها وتلقيها للنصوص اللغوية. ثم يأتي علم النفس المعرفة ليؤسس مفاهيم جديدة عن طرق اكتساب الكلمات والتصورات وتوظيفها في مختلف المستويات.

حينئذ، أضحي من الضروري على الباحثين في بلاغة الخطاب العمل بمنطلقات تختلف نوعياً وكمياً عما كان لدى الأجيال السالفة.

• علم الجمال

يعود مولد علم الجمال إلى التأملات الفلسفية في الظواهر الأدبية وعلاقتها بالفنون الأخرى. وكانت مقارنة الفنون والتساؤل عن القواسم الإبداعية والوظيفية المشتركة بينها هي الموضوع المفضل في القرن الثامن عشر. مما أدى إلى تحديد مكونات كل فن وأدواته، في ضوء فعاليته وغاياته التي يتفق أو يختلف فيها مع غيره من الفنون. ومنذ بداية الرومانتيكية احتلت اللغة باعتبارها مظهر الخلق الأدبي الذي تتجلى فيه خصوصية المبدع، مركز الصدارة في اهتمام النظريات الجمالية للأدب.

وقد قدم علم الجمال إنجازات مهمة في نظريات القراءة والتأويل، مما يقدم دعامة فلسفية للبحوث النصية المحددة للغة الأدب.

• الشعرية

"تشهد بحوث "الشعرية Poétique" نموا متزايدا في العقود الأخيرة، ترتب على طبيعة التحولات في نظرية اللغة من ناحية، مما يجعل بعض الباحثين يسم الشعرية الحديثة بأنها لغوية، وعلى تضافر الأفكار الجمالية المنبثقة من التجربة الخصبة للمذاهب الأدبية والمناهج البحثية الحديثة من جهة أخرى. وبهذا يبدو سياق الحديث عن الشعرية وعلم

الجمال موصولاً لا يكاد ينقطع . ومن ثم فإن إسهام الشعرية في تشكيل بلاغة الخطاب الأدبي يعد جوهرياً، كما أن مقولاتها تظل الرصيد الذي يدخره علم النص لشرح خصوصية النصوص الأدبية"¹.

ولقد قدم جاكوبسون أداة تحليلية للباحثين ، تقرب نظرية الوظيفة الشعرية من استراتيجيات الخطاب الخاصة بالأدب . فالوظيفة الشعرية عنده تتميز بالعلاقة بين محوري الاختيار والتركيب Syntagme-Paradigme.

فالبلاغة - في بعدها الأسلوبى المباشر - تتمثل في معرفة وتحديد الإجراءات اللغوية المميزة للأدب.

أما الشعرية فهي المعرفة المستفيضة للمبادئ العامة للشعر، بالمفهوم الواسع لكلمة شعر الذي يجعلها مرادفة للأدب أيضاً ؛ فكثير من الدراسات الشعرية اليوم تفحص طبيعة اللغة الأدبية وخصائصها، بناء على أنها ملتقى نظريات الخطاب المعاصر.

وتخلص جوليا كريستيفا Julia KRISTEVA إلى ما يأتي :

كلام / لغة شعرية = قاعدة / شذوذ

على اعتبار أن المدلول الشعري يحيل إلى " مدلولات خطابية مغايرة، بشكل يمكن معه قراءة خطابات عديدة داخل القول الشعري . هكذا يتم خلق فضاء نصي متعدد حول المدلول الشعري، تكون عناصره قابلة للتطبيق في النص الشعري الملموس . هذا الفضاء النصي سنسميه فضاء متداخلاً نصياً"².

ومن المصطلحات الشعرية الأساسية: "الانحراف" الذي يقابل مصطلحين قديمين في اللغة العربية وهما "العدول"، أو "الانزياح".

"ومن الطريف أن يلاحظ بعض النقاد الغربيين أيضاً تعدد الكلمات التي تشير إلى نفس هذا الإجراء ابتداءً من بول فاليري P.VALERY الذي كان يفضل كلمة "تجاوز" وبالي C.BALLY الذي استخدم كلمة "خطأ"، و آثر تيري THIRY كلمة أخرى هي "كسر" وجان

¹ - بلاغة الخطاب و علم النص. ص 53

² - جوليا كريستيفا: علم النص، ط 2. ص 78

كوهين J.COHEN يستخدم "انتهاك" وبارت يجعلها "فضيحة" وتودوروف يصل بها إلى "شذوذ" ¹.

يرتبط مفهوم الانزياح ارتباطاً وثيقاً بمصير علم الأسلوب الذي كثيراً ما اعتبره كمفهوم أساسي من مفاهيمه.

" ويبدو أن الانزياح ناتج، إلى حد بعيد، عن أفكار سوسير عن ال كلام (وهو عنده حصيلة الانزياحات الفردية التي ينتجها مستعملو اللغة).

كما يرتبط مفهوم الانزياح، من جهة أخرى، بمفهوم المعيار : ومنه، تعرف اللغة الأدبية كانزياح بالنسبة إلى اللغة العادية، " اليومية " ².

والمعيار la norme " كثيراً ما يرد في تعريف الأسل وب. فجان كوين J.COHEN وبعد أن حدد أن غرضه هو أن يقارن بين القصيدة والنثر، يضيف : " بما أن النثر هو اللغة العادية، يمكن حينئذ اتخاذها كمعيار واعتبار القصيدة انزياحاً بالنسبة إليها . هذا التعريف هو الذي كان برونو Ch. BRUNEAU، وتقليداً لفاليري VALERY، يخص به الأسلوب : يكون الانزياح بالنسبة إلى معيار، إذن فهو خطأ، ولكن، على حد قول برونو، خطأ مقصود.

وبالي BALLY ذاته كان يعرف الأسلوب على أنه انحراف للكلام الفردي، وسبتر L.SPIZER يعتبره انحرافاً فردياً بالنسبة إلى معيار ³.

¹ - المرجع نفسه. ص 53

² - GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p 113

³ - PEYTARD, Jean. GENOUVRIER, Emile: Linguistique et enseignement du français. p258

وقد أورد الأستاذ عبد السلام المسدي مجموعة من المصطلحات المختلفة مبيّنا أصلها الفرنسي وصاحبها في الشكل الآتي¹:

المصطلح	أصله الفرنسي	صاحبه
الانزياح	L'écart	فاليري
التجاوز	L'abus	فاليري
الانحراف	La déviation	سبيترز
الاختلال	La distorsion	ويليك و ورين
الإطاحة	La subversion	باتيار
المخالفة	L'infraction	تيري
الشناعة	Le scandale	بارث
الانتهاك	Le viol	كوهن
خرق السنن	La violation des normes	تودوروف
اللحن	L'incorrecte	تودوروف
العصيان	La transgression	أراجون
التحريف	L'altération	جماعة مو

إن الآثار الناجمة عن الأسلوب لا يمكن أن توجد ما لم تكن معارضة لقاعدة أو استعمال مألوف ، أي أن الذي ينتج هذا التأثير يكشف في الوقت نفسه عن حركة الانحراف والقاعدة معا . فالاستعارة لا تكون إلا بالإحالة إلى المعنى الحقيقي والمعنى المجازي معا. ومن هنا فالعلاقة بين القاعدة التي يقاس عليها الانحراف هي التي تحدد في الواقع العملية الأسلوبية وليس الانحراف في حد ذاته. وهذه القاعدة قد يطلق عليها مصطلح آخر هو "درجة الصفر البلاغية".

¹ - د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب، ط 4. ص 64

غير أن درجة الصفر افتراضية في اللغة، وليس لها وجود فعلي في غالب الأحيان .
أو لنقل إنه لا وجود لدرجة الصفر المطلقة، وإن كانت تتحقق بشكل م ا في بعض أنواع
الخطاب.

فالتحليل الأدبي لا يقتصِر على المستوى المعجمي الظاهر بل وينقل إلى المستوى
الدلالي، لأن درجة الصفر لا تتمثل في الكلام، بل هي خطاب يشتمل على وحداته الدلالية
الجوهرية.

وقد يكون مصطلح الصورة من أشد المصطلحات غموضا ولبسا واحتمالا لل كثير
من الدلالات والتأويل.

" فحالة الانزياح التي تحدث عنها النقاد البنيويون تمثل أفضل حالات التصوير الفني
في الإبداع. وهي، في تفسيرها القريب، تحويل المفردات من معناها القاموسي إلى فضاء
تحمل فيه معاني جديدة. ما يضع المتلقي أمام حالة جديدة من الأدهاش . أو قل هي صدمة
التحديث في الإفادة من طاقات اللغة . والتشبيه في أفضل حالاته تصوير . والاستعارة
صورة، و المقارنة بين شيئين في النص الأدبي وتحميلهما معنى واحدا يعد كذلك نوعا من
التصوير الفني. ولو أنك بحثت عن مصطلح الصورة الفنية في أفكار عشرة نقاد وعلماء
جمال، لحصلت على عشر صور تتقارب وتتباعد . ولكن عمق الدلالة في النص مما يقدم
للنص أبعد من مدلوله اللفظي صورة . والطرافة والجدة في استخدام التعبير والبعد عن
التعبير المألوف كذلك لون من ألوان التصوير الفني في النص"¹.

فبينما كانت الصورة في الشعر تعني اختيار مجموعة من الأل فإظ تؤدي فيما بينها
إلى نقل بعض الصفات من الواقع الخارجي، التي تماثل إحدى اللحظات الشعورية في
نفس الفنان... تطورت الصورة الشعرية، وأضحت تجسيدا لرؤية الفنان الشاملة للعلاقة
بينه وبين العالم من خلال جزئيات صغيرة ممتلئة بالفكر والحياة معا.

¹ - غالي شكري: شعرنا الحديث... إلى أين؟ ط 2. بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1978. ص 124

من هنا، لم يعد الزمن في تكوين الصورة الشعرية هو التتابع والتعاقب والتسلسل، بل هو التركيز والتكثيف وتفجير الترابط الموضوعي بين عناصر القصيدة لكي نحصل على الوحدة الذاتية العميقة التي تربط بين الشاعر وعالمه أوثق الارتباط.

7- البلاغة الجديدة

أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية عقد الخمسينيات من القرن العشرين حتى الآن، تمثلها ثلاثة تيارات تعتمد طرائق وأدوات منهجية مختلفة، وقد ظهرت على النحو الآتي :

* ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958 في عنوان أحد كتب بيريلمان PERELMAN، تحت اسم "مقال في البرهان : البلاغة الجديدة"¹. ويحاول المفكر في هذا الكتاب إعادة تأسيس البرهان أو " المحاجة الاستدلالية "، التي استعملت أصلاً كتقنية لدراسة المنطق التشريعي والقضائي، ثم امتدت إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر. وقد عرفت هذه المدرسة فيما بعد بمدرسة "بروكسل".

"أما مبادئها فإنها تركز وظيفة اللغة الت واصلية، والصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، على اعتبار أن الأشكال البلاغية أدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان"². إن هدف "نظرية البرهان argumentation" لدى بيريلمان هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزز هذا التأييد على تنوع كثافته.

" ويرى بيريلمان أن بحوثه البرهانية تتجاوز بآماد بعيدة بلاغة الأقدمين، وتغفل بعض الجوانب التي ظفرت باهتمامهم. فبالنسبة إليهم مثلاً كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو فن الكلام المقنع للجمهور. فهي تتصل إذن باستخدام لغة الحديث، وبالخطب التي تلقى في الساحات العامة، أمام حشود من الناس؛ وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات

¹- ROBRIEUX, Jean-Jacques: Eléments de rhétorique et d'argumentation. p 4

²- DUBOIS, Jean et autres: Rhétorique générale. p 11

المقدمة. ومع أن هذا هو نفسه هدف أية محاجة برهانية فليس هناك ما يحمل الباحث على أن يقصر دراسته على العرض الشفوي للبراهين، ولا أن يحصرها في الجماهير المحتشدة في الساحات"¹.

لا يعنى هذا الاتجاه إلا بالنص المكتوب، مما يجعله يهمل دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة.

والخاصية الأساسية لهذه البلاغة الجديدة أنها "منطقية". فنظرية البرهان تهدف إلى بحث سبيل التأثير عبر الخطاب بشكل فعال في الأشخاص.

" يمثل الحجاج أحد أهم عوا مل الانسجام الكلامي، إذ يفترض عملا معقدا نهائيا، وتسلسلا مهيكلا لحجج تربطها استراتيجية شاملة ترمي إلى حمل الجمهور على تبني الأطروحة التي يدافع عنها الالافظ.

والحجاج نوع من التفاعل الكلامي يهدف إلى تغيير حالة معتقدات شخص . وما يميز الحجاج أنه لا يؤثر مباشرة على الغير (كأن يوجه له أمرا مثلا)، وإنما قد يكون لتنظيم الخطاب ذاته أثر إقناعي : فالالافظ الذي يحاج يتوجه إذن إلى المتلقي بناء على أن هذا الأخير يتمتع بقبالية لنشاط عقلاني يأسره في شبكة من المقترحات لا يستطيع التخلص منها.

لقد جرت العادة أن نقابل الحجاج argumentation بالبرهنة démonstration. فالبرهنة تفترض مسلكا نبين فيه حقيقة اقتراح، عن طريق تسلسل ضروري، انطلاقا من مقدمات البرهان التي سبق بيانها. والبرهنة وثيقة الصلة ببناء لغات صورية. في حين أن الحجاج يمارس في اللغة الطبيعية، ويدمج مجموعة من الموارد ال تي يمكن استغلالها للدفاع عن أطروحة " قابلة الوجود " "².

¹- PERELMAN,Ch; OLBRECHT-TYTECA,L : La nouvelle rhétorique.Traité de l'argumentation, T 2.Paris,PUF,1958. p 2

²- MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 228

" نشهد اليوم تغييرا في العلاقة التي تربط المجتمع بإنتاجاته الكلامية . في القديم، كان الاهتمام بالخطاب مقتصرًا على بعض الأنماط من الملفوظات المعروفة (الأدبية، الدينية، الفلسفية...)، وفي المدرسة الفرنسية، كان الخطاب السياسي يحظى بالاهتمام الأكبر . وقد أصبح كل نشاط كلامي موضوع تحليل افتراضي . وبشكل تناسبي، تتحول المؤسسات (كالوزارات، والأحزاب، والشركات، والجمعيات ...) أكثر فأكثر وبكل سهولة نحو الإنتاجات الكلامية، لغايات مختلفة؛ فهي تريد تحليل ملفوظاتها أو ملفوظات الأماكن التي تتدخل فيها. ومنه، لم يصبح الخطاب فقط هو الذي يمثل بعدا قصريا للنشاط الاجتماعي، بل قد تتحول دراسة هذا الخطاب ذاتها، إلى مركبة أساسية من مركباته. وهكذا، غدا تحليل الخطاب مكثرا، مثله مثل موضوعه، الخطاب، الذي يتنوع إلى ما لا نهاية بالنظر إلى أوقات القول وأماكنه"¹.

ومن أهم مبادئ هذه البلاغة ربط الشكل بالمادة، ومقاومة الفصل بينهما؛ وعدم حصر البلاغة في فن عرض التفكير بطريقة شكلية محضة، وعدم دراسة الأبنية والأشكال الأسلوبية بمعزل عن الهدف الذي تؤديه في عمليات البرهان.

ويذهب بيريلمان إلى أن بعض الأشكال التعبيرية يمكن أن تنتج تأثيرا جماليا محددًا، يرتبط بالاتساق والهارمونية والإيقاع، حتى أنها قد تمارس فعالية برهانية لما تثيره من إعجاب أو بهجة أو إثارة.

ويرفضي بيريلمان وجود أدب بدون بلاغة، على اعتبار أنها فن التعبير، وليست مجرد إجراءات بلاغية. وهذا يعني أن الإسراف الكمي في درجة كثافة الأشكال البلاغية قد يؤدي إلى إهدار لفعاليتها الوظيفية، كما حدث في عصور البديع الزخرفي للبلاغة العربية، حيث أصبحت تلك الإجراءات هدفا في حد ذاتها.

يظهر مفهوم الشكل البلاغي figure rhétorique في التيار البرهاني عند "بيريلمان" إن "توفرت خاصيتان لا غنى عنهما : أن تكون له بنية يمكن فك نظامها بشكل مستقل عن المضمون، أي تكون له صيغة تتمثل في أحد المستويات النحوية أو الدلالية أو التداولية،

¹ - MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 251

وأن يتم استخدامه بحيث يبتعد عن الصيغة العادية للتعبير . ومن ثم يصبح لافتنا للانتباه . وإحدى هاتين الخاصيتين - على الأقل - لا بد أن تتوفر في معظم التعريفات التي قدمت على مر القرون للأشكال المجازية والبلاغية بعامه¹.

ينبغي إذن أن تكون البنية قابلة للعزل، وأن نعرف لماذا اعتبر استخدامها غير عادي. فالجملة التعجبية مثلا هي بنية، لكنها تصبح مجرد شكل بلاغي خارج استعمالها المعهود، أي خارج الدهشة الحقيقية.

ويعتبر بيريلمان أن الشكل البلاغي برهان كلما استطاع أن يحدث تغييرا، وكان استخدامه مناسبا للموقف. وعلى العكس من ذلك، إذا كان الخطاب لا يثير تأييد المتلقي سيدرك الشكل البلاغي حينئذ باعتباره مجرد زينة أو حيلة أسلوبية (قد تثير الإعجاب، وتعتبر دليلا على براعة المتكلم).

وعندئذ نرى أنه لا يمكننا أن نقدر مسبقا ما إذا كانت بنية محددة ستقوم بدور الشكل البلاغي البرهاني أو بمجرد دور الشكل الأسلوبي . وغاية ما هناك أن بوسعنا أن نكتشف عددا من الأبنية الصالحة لكي تتحول إلى أحد الشكلين ، بناء على سياقها، ومثل ذلك التلميح؛ إذ إن بنيته ترتبط بعلاقة مع شيء ليس هو الموضوع المباشر للخطاب، فإذا تم تلقي هذه الطريقة في التعبير على أنها غير عادية كنا حيال شكل بلاغي.

* أما التيار الثاني في البلاغة الجديدة، فقد نشأ في من تصف الستينيات من القرن الماضي، وامتد مشروعه خلال العقود التالية، ولم تكن له علاقة تذكر ببلاغة بيريلمان المنطقية.

وهذه البلاغة الجديدة يمثلها البلاغيون الجدد، معظمهم من فرنسا مثل جيرار جينيت وجان كوهين و تودوروف و "جماعة مو" (أو جماعة ليجا).

1-MAINGUENEAU, D : Initiation aux méthodes de l'analyse du discours. Problèmes et perspectives.p 163

يستمد هؤلاء زادهم المعرفي من النقد الجديد، والرواية الجديدة، والسينما الجديدة، وكلها تمثل ظواهر متقاربة في منبعها ومصبتها.

* و يأتي الاتجاه الثالث لتحليل الخطاب " بمنهج وظيفي مجاور للاتجاه البنيوي ومعتمد على السيميولوجيا من ناحية، والتداولية من ناحية أخرى . وقد تحول إليه في نهاية السبعينيات بعض أنصار التيار الثاني كما فعل تودوروف الذي اعترف بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة، وقد اتضح أن مفهوم بلاغة الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع الخطاب"¹.

وقد التقى هذا التيار ببحوث تحليل الخطاب من منظور وظيفي تداولي لغوي، كما أخذ يصب بشكل مكثف في اتجاهات علم النص.

8- بنية الشكل البلاغي

يهدم علم النص وبلاغة الخطاب إلى تجديد المصطلحات المتداولة في التحليل، تماشياً مع التغيرات المعرفية والإجرائية.

ومفهوم البنية يقدم ، في تحليل الخطاب، عوناً أساسياً لأنه يمكن من التلخيص من الارتباط بالوحدات الجزئية في القول . فلا يقيد البحث البلاغي بالكلمة أو الجملة، أو الجملتين أحياناً (كما يحدث مثلاً في الفصل و الوصل).

"ومن الطريف أننا قد نجد كلمة "البنية" مستخدمة في النقد القديم، لكن بالمفهوم المادي الحسي للعناصر التي يتكون منها العمل الأدبي وتدخل في بنائه.

فعندما نقرأ مثلاً لدى قدامة بن جعفر هذه العبارة : "إن بنية الشعر إنما هي في التسجيع والتقفية . فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليها كان أدخل له في باب الشعر، وأخرج له عن مذهب النثر"، فمادة الشعر [عنده] تنحصر في الجانب الإيقاعي الموسيقي

¹ - بلاغة الخطاب و علم النص. ص 74

المباشر المرتبط بالوزن والتقفيات الداخلية والخارجية، مما يؤكد تطابق مفهومي الشعر والنظم عنده"¹.

كما يكفل لنا مصطلح البنية الخروج عن اعتبار الأشكال البلاغية مجرد زخرف وزينة تشتمل لتحسين القول.

9- مستويات تصنيف الأشكال البلاغية

يرتبط تصنيف الأشكال البلاغية عند كل جماعة من البلاغيين الجدد بمنظورهم العلمي لطبيعة الظواهر النصية، ونوعية الإجراءات التي تتخذ لتحليلها . وهي تستهدف تأسيس تخطيط جديد لمستويات النص الأدبي وطرق تناوله من الوجهة البلاغية. وقد اجتهد البلاغيون البنيويون في ربط التوزيع البلاغي بالمستويات اللغوية، على أساس أن البلاغة تتمثل في مجموعة من العمليات التي تجري على اللغة، مما يجعلها تتعلق بالضرورة ببعض خواصها. وهم يرون أن جميع العمليات البلاغية تعتمد على سمة هامة في الخطاب، وهي كونه قابلاً للتفكيك إلى وحدات أصغر.

الوحدات	التعبير - الشكل	المضمون - المعنى
كلمات	تغييرات لفظية	تغييرات دلالية
جمل	تغييرات تركيبية	تغييرات منطقية

لوحة توزيع الأشكال البلاغية²

¹ - بلاغة الخطاب و علم النص. ص 124
² - د.صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 193

ويقوم البلاغيون البنيويون بتصنيف المجالات البلاغية العديدة، الناجمة عن هذه اللوحة التوزيعية العامة على الوجه التالي :

1- **مجال التغييرات اللفظية** : وتوجد فيه الأشكال التي تقوم على المظهر الصوتي أو الخطي للكلمات، أو للوحدات الأدنى منها، والتي تتركب من الكلمة . وهي مجموعة من المقاطع المكونة من حروف وحركات والمؤلفة بنظام مناسب يسمح بتكرارها صوتيا، إلى جانب كثير من أشكال البديع في البلاغة العربية التي ترتبط بالكلمة الواحدة في علاقتها مع نظيرتها، مثل أنواع الجناس والسجع والترصيع وغيرها .

2- **مجال التغييرات التركيبية** : وتوجد فيه الأشكال التي تقوم في بنية الجملة من ناحية انتظامها في نسق سياقي . وتدخل فيها من البلاغة العربية أبواب علم المعاني المتصلة بعمليات الإسناد والإثبات والنفي، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، وغيرها .

3- **مجال التغييرات الدلالية** : وتوجد فيه الأشكال التي تحل فيها وحدة دلالية محل أخرى أو تقابلها . مما يؤدي إلى تعديل مجموعات الدلالات القائمة في درجة الصفر . وهذا النوع من الأشكال البلاغية يقتضي أن نتعرف على الكلمة باعتبارها هذه المرة مجموعة من العناصر الدلالية النووية التي لا تسمح بالتكرار داخل الوحدة ذاتها . ويدخل في هذا المجال من أشكال البلاغة العربية أنواع المجاز القاصرة على الكلمة الواحدة مثل الاستعارة والمجاز المرسل؛ وكذلك التشبيه المفرد وأنواع التحسين المعنوي مثل المقابلة والمشاكلة وغيرهما .

4- **مجال التغييرات المنطقية** : وهو الذي تتكون فيه الأشكال التي تعدل القيمة المنطقية للجملة أو مجموعة الجمل . بما لا يجعلها بالتالي خاضعة لقواعد اللغة . ودرجة الصفر في هذه الأشكال تتوقف على فكرة النظام المنطقي في تقديم الأشياء أو ترتيب الأفكار .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تصنيف أنواع المجاز في اللغة الفرنسية يختلف عنه في اللغة العربية. " فلقد اختزلت هذه الأنواع - الآن - إلى حوالي ستة أنواع شائعة هي : المجاز المرسل synecdoque والكناية métonymie والتشبيه comparaison والاستعارة métaphore والتشخيص personnification والتمثيل allégorie؛ أما الرمز Symbole فإنه وإن كان مرتبطاً بالأنواع البلاغية إلا أنه يختلف عنها. وكل واحد من هذه المجازات [الصور] figures وسيلة لغوية يمكن عن طريقها أن نقول شيئاً ونعني به شيئاً آخر"¹. وتعرف الاستعارة بكونها " عبارة عن تشبيه يحمل مقارنة ضمنية ... لقد عرف أرسطو الاستعارة بأنها إيجاد نقاط التشابه في الأشياء التي تبدو غير متشابهة"².

وقد أطلق البعض على جميع أشكال المجاز كلمة "استعارة". مع أن كثيراً منها يدخل في دوائر المجاز المرسل والكناية وغيرها. " وربما كان هذا يعود إلى أن مصطلح الاستعارة هو الذي كان قد تبقى من مجموعة المصطلحات البلاغية الأخرى التي ابتلعها نهر الزمن حتى بداية القرن العشرين . وكان هذا الانحسار مؤذناً بانتهاء عصر البلاغة القديمة التي كرسست الاستعارة كصورة مركزية للبلاغة بأكملها"³.

ويندرج في هذا المستوى من أشكال البلاغة العربية الاستعارة والكناية والتورية، وكذلك التكرار وغيرها مما يتصل بتغييرات البناء المنطقي للعبارة والنص في جملته.

¹ - نورمان فريدمان: الصور الفنية. ترجمة جابر عصفور. مجلة الأديب العراقية. العدد 16. ص 180

² - المرجع نفسه. ص 197

³ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 181

الأسلوبية

1- تعريف الأسلوب

- 1- في حد الأسلوب
- 2- مفهوم الأسلوب في تراث العرب القدامى
- 3- صفات الأسلوب

2- مجال الأسلوبية

- 1- تعريف الأسلوبية
- 2- ميادين الدراسة الأسلوبية
- 3- أنواع الأسلوبية
- 4- الأسلوبية عند ميشال ريفاتير
- 3- علاقة الأسلوبية بعلم لسانية أخرى
 - 1- الأسلوبية و علم اللغة
 - 2- الأسلوبية و النقد الأدبي
 - 3- الأسلوبية و البلاغة
 - 4- الأسلوبية و لسانيات القول
 - 5- الأسلوبية و تحليل الخطاب
- 4- التجديد في الأسلوبية العربية
 - 1- الاتجاهات الأسلوبية في الوطن العربي
 - 2- تجربة عبد السلام المسدي

خاتمة الباب الثاني

1- تعريف الأسلوب

1 - في حد الأسلوب

"إن كلمة أسلوب صارت هذه الأيام حقا مشتركا بين البيئات المختلفة، يستعملها العلماء ليدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمي، ويستعملها الأدباء في الفن الأدبي قصصا أو جدلا أو تقريرا، وفي العنصر اللفظي سهلا أو معقدا، وفي إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة، وفي طريقة التخيل جميلة ملائمة أو مشوهة نابية . وكذلك الموسيقيون ... ومثلهم الرسامون ... وهكذا حتى أصبحت هذه الكلمة " أسلوب " تكاد ترادف كلمة الشخصية في المعنى.

إن كلمة " الأسلوب " من الكلمات الشائعة في عصرنا هذا عندما نتكلم عن الآثار الأدبية. وهي كلمة مطاطة، يمكن أن تشير إلى الألفاظ وطرقة ترتيبها، أو المعاني وطريقة سردها".¹

إنها تحمل نوعا من الدلالة على القيمة الأدبية (حكم بالاستحسان أو ضده). وتدل على نوع من التمييز فعندما نقول : " فلان عنده أسلوب "، فنحن لا نقصد إلى استحسان طريقته في الكتابة، بل نقصد قبل ذلك إلى أن هذه الطريقة متميزة عن غيرها من الطرق. وفي هذا المعنى تتردد عبارة " الأسلوب هو الرجل "، وقائلها بوفون Bouffon، مفكر فرنسي من رجال القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يكن يعني بها أكثر من أن لكل إنسان طريقته الخاصة في التعبير فالأسلوب يطلق على شكل العمل الأدبي. وبعد القرن الثامن عشر ظهرت معالم مفهومين للأسلوب لا يزالان يتجادبان تفكير النقاد إلى يومنا هذا هما المفهوم الشكلي والمفهوم الذاتي.²

* المفهوم الشكلي : إنه امتداد لعلم البلاغة القديم، وقد ناضل من أجله في القرن التاسع عشر بالي وغيره، ويذهب إلى أن الأسلوب هو طريقة التعبير اللغوي عن الأفكار ويتناول:

¹ -شكري محمد عياد : مدخل إلى علم الأسلوب، ط4. القاهرة، أصدقاء الكتاب، 1998.ص 11-13
² - GUIRAUD, Pierre: la stylistique. pp 45-67

أ - الإيقاع أو القيم الصوتية للفظ وتشمل :

- علاقة الصوت بمدلول اللفظ.

- اختلاف الإيقاع باختلاف التأثير المتوخى إحداثه في السامع.

- اختلاف الإيقاع باختلاف مزاج المتكلم وانفعاله.

ب - قواعد التركيب النحوية والصوتية، كروابط الجمل وعناصرها وأزمنة الفعل واشتقاق الأسماء...إلخ.

ج - المفردات والتعابير، بمعانيها الوضعية والمجازية والأشكال البيانية من استعارات وكنائيات وغيرها.

* المفهوم الذاتي : ويعتبر أن الأسلوب إنما هو طريقة التعبير الخاصة بأديب من

الأدباء وبعصر من العصور وبفن من الفنون. فهو يعنى بالأمور التالية:

أ - صلة التعبير بشخصية الكاتب آخذا بقول بوفون: " الأسلوب هو الرجل " .

ب - صلة التعبير بالموضوع.

ج - صلة التعبير بالبيئة الطبيعية والاجتماعية.

ويعتبر سببترز حامل لواء هذا المفهوم في العصر الحديث، وناشر دعوته.

ويحاول بيار جيرود أن يوفق بين المفهومين : الشكلي والذاتي، فيعطي للأسلوب

التعريف الآتي: " الأسلوب هو هيئة النص التي تحصل من اختيار الوسائل التعبيرية التي

تحددها طبيعة الكاتب وميوله " ¹.

وهذا التعريف يعني أن الأسلوب يتناول:

أ - عناصر التعبير اللغوي من مفردات وجمل.

ب - عناصر التعبير البيانية، وهي ترجع إلى الوضوح والقوة والجمال.

ج - العوامل المؤثرة في الأسلوب وتعود إلى عاملين هما شخصية الأديب والموضوع.

¹ - المرجع نفسه، ص 109

وطريقة نظم الكلام هي جوهر الأسلوب وبها يمتاز كل أديب عن سائر الأدباء لأنها هي المظهر الأصيل للنتاج الأدبي، بينما الكلمات والجمل والفكر مشاعة بين الجميع. والأسلوب الأدبي ينحل إلى عناصر ثلاثة : الأفكار والصور والعبارات . وكذلك يكون الاختيار الذي يتناول الأفكار والصور والعبارات عملاً أسلوبياً . وهو طريقة صوغ الذي يتصرف في تلك العناصر بما يراه أليق بموضوع الكلام.

أما عنصر العاطفة فيعد في الأدب الدافع المباشر إلى القول وروحه، وهذا العنصر هام إلى درجة أنها تحتاج غالباً، لأجل أدائه، إلى الخيال الذي هو لغة العاطفة ووسيلة تصويرها وبعثها في نفس القارئ، فالعاطفة في الأدب عنصر أسلوبى يحس دون أن يشرح.

" إن الأسلوب في النص الأدبي هو الكيفية التي يتشكل بها النص، وبه يحقق مشروعية وجوده، وهو ليس ظاهرة خارجة عن النص بل ظاهرة تدخل في تكوينه، فالأسلوب كينونة في ذات النص به يحقق وجوده، ولا يمكن أن يكون هناك نص دون أسلوب يتم به صوغه، ومن خلاله يحقق خصوصيته. فالأسلوب هو النص في ذاته"¹.

إن طبيعة النص الأدبي تفرض الأساليب التقريرية العارضية من تعدد الدلالات، لأن الأسلوب الشفاف الذي يمكن إدراك مغزاه دون أن يثير فينا الشعور بالجمال والمتعة، ننكر صفة الأدبية عنه لخلوه من الاستعمالات اللغوية المجازية، التي هي عماد الأدبية، فخصوصيات الخطاب الأدبي هي التصوير باللغة، وهذه الخاصية الجمالية تجعل الألفاظ تعدل في سياقاتها عما تدل عنه في أصل وضعها.

" ويحدد الأسلوب بكونه موقفاً يتخذه المستعمل للغة كتابة أو مشافهة مما تعرضه عليه اللغة من وسائل، ومن هنا كان الأسلوب رهينة القواعد النحوية الخاصة باللغة المقصودة، لأن النحو يحدد لنا ما لا نستطيع أن نقول من حيث إنه يضبط لنا قوانين الكلام، في حين تقفو الأسلوبية ما بوسعنا أن نتصرف فيه عند استعمال اللغة، ومعناه أن الأسلوبية علم ألسني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز

¹ - نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب. ج 1. ص 135

اللغة. ولذلك كان يرى بعض الدارسين أن الأسلوب ينطوي على تفضيل الإنسان بعض طاقات اللغة على بعضها الآخر، في لحظة محدودة من لحظات الاستعمال¹.

" يذهب علماء الأسلوب إلى أن عملية الخلق الأسلوبي إنما تستوي في الاختيار أولاً وفي التركيب ثانياً. فشان منشئ الكلام أن يختار من الرصيد اللغوي الواسع مظاهر من اللغة محدودة ثم هو يوزعها بصورة مخصوصة، فيكون بها خطاباً، وينطبق هذا على جميع أنواع الخطابات الأدبية وغيرها.

والأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار يقوم به المنشئ لسّمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السّمات على سمات أخرى بديلة، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به من غيره من المنشئين².
وباختصار، يعتبر " الأسلوب طريقة التفكير والتصوير والتعبير"³.

2 - مفهوم الأسلوب في تراث العرب القدامى

يقول ابن منظور (711هـ / 1311 م) في اللسان : " يقال للسطر من النخيل أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب، فالأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب، ويقال أنتم في أسلوب سوء، والجمع أساليب. ويقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه ".
هذه المعاني التي نقلناها عن ابن منظور قسماً : قسم حسي يمثل الوضع الأسبق للفظ، كسطر النخيل والطريق الممتد أو المسلوك، وقسم معنوي هو الخطوة الثانية في الوضع اللغوي حين تنتقل الكلمات من معانيها الحسية إلى هذه المعاني الأدبية، أو النفسية وذلك هو الفن من القول أو الوجه والمذهب في بعض الأحيان.

¹ - المرجع نفسه، ص 137

² - نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب. ج 1. ص 156

³ - المرجع نفسه، ص 170

هذه المعاني تنتهي عند فكرة : الأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا، تشبيها أو مجازا أو كناية ... فإذا صح هذا الاستنباط كان للأسلوب معنى أوسع إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع أو التأثير¹. والأسلوب في العربية مقترن الصلة بالقرآن الكريم، فهو يمثل الأسلوب الأمثل، النموذج الأعلى، فقد جاء إلى العرب في فترة كانت تفتخر أكثر ما تفتخر بلغتها وبيانها وفصاحتها، ويتبارون في ذلك، فوقفوا أمامه منبهرين حائرين عاجزين لا يقدر على مجاراته بل لا عهد لهم بمثله من قبل، ويفعل في قلوبهم فعل السحر، هذا باعتراف أعداء القرآن من أهل الفصاحة والبيان، فإذا كانت الحروف نفسها والألفاظ نفسها بل كثير منها مما تتداوله الألسن واللغة هي اللغة، فما الجديد في ذلك ؟

الجديد في النسيج والتركيب وطريقة النظم، أي " الأسلوب ".
ويلى القرآن الكريم أحاديث النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي بلغ الغاية من الفصاحة والبلاغة والبيان، والذي أوتي جوامع الكلم، فيقول " أنا أفصح العرب بيد أي من قریش " ويتجلى فهمه للأسلوبية، والعلاقة بين المتفن والمتلقي في قوله : " أومرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم ".

حاول ابن قتيبة (ت 276هـ) أن يعطي لكلمة الأسلوب مفهوما محددا رابطا بين تعدد الأساليب والافتتان فيها وطرق العرب في أداء المعنى . فهو يعتقد أن الذي يعرف فضل القرآن إنما هو من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغته دون جميع اللغات.

فطبيعة الأسلوب عنده تمتد لتشمل النص الأدبي وما يتخلله من خصائص بلاغية .

ويؤكد ابن الأثير (ت 637 هـ) هذا الاتجاه في الربط بين الأسلوب وشخصية الشاعر ومقدرته الفنية، من حيث استخدام هذه القدرة في عرض الفكرة في أسلوب متميز وطريقة متفردة.

¹ - أحمد الشايب : الأسلوب ص 41

أما الخطابي (ت 388 هـ) فيربط بين الأسلوب والغرض الذي يتضمنه النص الأدبي، من حيث كان تعدد الأساليب دالا على تعدد الأغراض .

أما في المجال النقدي، فإن عبد القاهر يعرفه بقوله إن الأسلوب ضرب من النظم والطريقة فيه . والجرجاني بهذا التعريف لا يبتعد عن مفهومه للنظم، باعتباره الأسلوب إمكانية خلق التنوعات اللغوية القائمة على الاختيار الواعي، التي تصنع نسقا وترتيباً من خلال الاحتمالات النحوية القائمة في بنية الجملة، لأن توالي الألفاظ في النطق لا يصنع نسقا أبدا وإنما يصنعه قصد المبدع إلى التأليفات بأسلوبها الذي يميزها، والذي يرتبط - غالبا - بالغرض العام من الكلام.

فالأسلوب يقترن بالطريقة التي تألف عليها الكلام.

ونجد الربط بين الأسلوب والنوع الأدبي عند الباقلاني (ت 403 هـ) مثلما نجده عند الفخر الرازي (ت 606 هـ) الذي " قدم إضافة جديدة لو وجدت من ينميها بعده لقدمت للدراسات النقدية القديمة دفعة رائعة في مجال دراسة الأسلوب، ونعني بذلك محاولة ربطه بين الأسلوب والمبدع، حيث اعتبر الأسلوب خاصية تمثل منشئها"¹.

يستوقفنا كذلك تعريف ابن خلدون (808 هـ / 1405 م) للأسلوب لشموليته، حيث يقول في مقدمته :

" ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل الصناعة - صناعة الشعر - وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي تفرغ فيه . ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب الذي هو وظيفة العروض .

¹ - د. محمد عبد المطلب: البلاغة و الأسلوبية. ص 17

فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزع ها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة... وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور"¹.

ومما قاله ابن خلدون، نستخلص² عدة قوانين قيمة في الدراسات الأدبية :
أولها : أن هناك فارقا بين الوجهين العلمي والفني في تكوين الأسلوب الأدبي . فعلم النحو والبلاغة والعروض تنفعنا على أنها نظريات ترشدنا في إصلاح الكلام ومطابقته لقوانين النظم والنثر .

وأما صياغة الأسلوب الجميل فهي فن يعتمد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ، وتتكون من الجمل والعبارات والصور البيانية.

ثانيها : أن الأسلوب في الأصل صورة ذهنية، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات الظاهرة التي اعتدنا أن نسميها أسلوبا لأنها دليله وناحيته الناطقة الفصيحة.

ثالثها : أن هذه الصورة الذهنية - التي هي الأصل الأول للأسلوب - ليست معاني جزئية، ولا جملا مستقلة، بل هي طريقة من طرق التعبير يسلكها المتكلم .

وعموما، إن الذي يعنينا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يعني طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه . ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم، فهو طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير .

¹ - المقدمة. ص 504
² - أحمد الشايب: الأسلوب. ص 43-44

أما الدكتور علي بو لمح¹ فإنه هو الآخر يسجل بعض الملاحظات على مفهوم ابن خلدون للأسلوب، نذكر منها:

- أن الأسلوب قالب تنصب فيه التراكيب اللغوية التي تعتبر مادة الأسلوب . وهو طريق صياغة الكلام وعملية هندسة القوالب التي يصب فيها الكلام.

- أن الأسلوب صورة ذهنية للتراكيب يخرجها الخيال كالقالب أو المنوال : وبهذا يؤكد ابن خلدون الصلة الوثيقة بين التفكير والتعبير؛ أي أن الأسلوب يعكس شخصية صاحب النص، وبذلك يكون ابن خلدون قد سبق بوفون في قوله: الأسلوب هو الرجل.

- الأسلوب يتنوع بتنوع الموضوعات : للشعر أسلوب يختلف عن أسلوب النثر، وأسلوب الفخر غير أسلوب الغزل...إلخ.

- قوام الأسلوب انتقاء التراكيب الصحيحة ثم رصها في القالب الذهني : شبه ابن خلدون عمل الشاعر بعمل البناء. فالشاعر يجد مادته وهي الألفاظ اللغوية والتراكيب في المعاجم وعلى الألسنة وفي الكتب، كما يجد البناء أحجاره في الطبيعة، ومهمة الشاعر، بل سر فنه إنما يكمن في اختيار الألفاظ والتراكيب الملائمة للفكر المعبر عنها، ووضعها في تعابير جديدة تحمل طابع صاحبها ، تماما كما هو شأن البناء في اختياره لحجارته وفي كيفية رصها في بناء صرح فني جميل.

إن ما ورد في نص ابن خلدون يوجز معظم المبادئ التي تقوم عليها دراسة

الأسلوب عند الغربيين حديثا:

" فالتوكيد على التفريق بين اللغة والأسلوب باعتبار أن الأسلوب هو طريقة الصياغة اللغوية وليست اللغة ذاتها، أولا، والإشارة إلى الصلة بين الكاتب والأسلوب ثانيا، واختلاف الأساليب حسب الموضوعات ثالثا، والذهاب إلى أن الفن انتقاء واختيار رابعا، كلها مبادئ يبني عليها الغربيون اليوم أبحاثهم في الأسلوب والنقد . مما يسمح لنا أن نذهب إلى أن ابن خلدون سبق الغربيين إلى الفهم الحديث للأسلوب".²

¹ - د. علي بو لمح: في الأسلوب الأدبي. بيروت، دار مكتبة الهلال، د.ت.ص 11-13
² - المرجع نفسه.ص 12

وهكذا لقد ظهرت كلمة الأسلوب في تراثنا القديم على نحو ربطت فيه بين مدلول اللفظة وطرق العرب في أداء المعنى، أو بينه وبين النوع الأدبي وطرق صياغته ، كما أنها ربطت -أيضا- بينه وبين الغرض الذي يتضمنه النص الأدبي، وقد يتساوى مفهوم الكلمة مع مفهوم النظم الذي يمثل الخواص التعبيرية في الكلام؛ لكن ذلك كله لم يقدم نظرية مكتملة يمكن اعتبارها بحثا أسلوبيا عربيا في المجال التنظيري أو التطبيقي .
ومن المصادر الأساسية لعلم الأسلوب " والتي قد يغفل عنها دارسو البلاغة كتب شرح النصوص سواء شروح الشعر في مختلف عصوره وتفسير القرآن وشروح الحديث ... ففيها نظرات أسلوبية لها قيمتها"¹.

3 صفات الأسلوب

للأسلوب صفات كثيرة يمكن التركيز على ثلاثة منها قياسا على الغايات التي يقصد إليها المنشئون² :

• الوضوح clarté لقصد الإفهام:

على البليغ أن يكون واضحا مفهوما يرمي إلى إفادة قرائه . والمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب، فيجب على الكاتب أن يكون فاهما ما يريد أدائه فهما دقيقا . ثم يحرص على أدائه كما هو، لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء . وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره.

• القوة force لقصد التأثير :

إذا كان الوضوح ألزم صفات الأسلوب - لأنه يحقق الغاية الأساسية، وهي الإفهام- فالفنون الأدبية التي يغلب فيها الوضوح هي النصوص القائمة على المعاني العقلية لقصد الثقافة كالقانون والفلسفة والجغرافيا.

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: المعاني علم الأسلوب. ص 144

² DULIERE, André : Les secrets de la langue française. P 78-98.

ولكننا أحيانا لا نقتصر فيما نكتب على نشر الحقائق وإنما نعنى كذلك أو أكثر من ذلك - بإيقاظ العقول الخاملة وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس الناس، وبذلك نهب للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية، لتثون ممتعة مؤثرة، فهي الحياة.

• الجمال beauté للإمتاع (أو السرور):

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية . ليس من جمال الأسلوب في شيء هذه المحسنات البديعية والصور الخيالية التي يصطنعها الكتاب عمداً، والحق أن دخول الأساليب الأدبية يكون حين تدعوها طبيعة المعاني لتقويتها وإيضاحها، أو حين يلجأ إليها الخيال ليصور بها عاطفة.

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأديب وذوقه، يكون بخلو الأسلوب من التنافر والخشونة التي تؤذي الحس و الذوق.

2- مجال الأسلوبية

1 تعريف الأسلوبية

" الأسلوبية علم وصفي تحليلي وهي تهدف إلى دراسة مكونات الخطاب الأدبي وتحليلها، كما أنها قابلة لاستثمار المعارف المتصلة بدراسة اللغة، ولغة الخطاب الأدبي على الخصوص، ذلك لأنها مناهج متعددة الاختصاصات multidisciplinaire ومتداخلة الاختصاصات interdisciplinaire"¹.

يرى أغلب مؤرخي الأسلوبية " أن شارل بالي Charles BALLY أصل عام 1902 علم الأسلوب وأسس قواعده، حيث يدرس علم الأسلوب العناصر التعبيرية للغة المنظمة، ومن وجهة نظر محتواها التعبيري و التأثيري"².

وبعد جاء ماروزو Jules MAROUSEAU وكراسو M.CRESSOT ونادى كل منهما بشرعية الأسلوبية وعدها علما له مقوماته وأدواته الإجرائية وموضوعه.

¹ - د. نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2. ص 7

² SUMPFF, J : Introduction à la stylistique du français. Paris, librairie Larousse, 1971. P 28.

ودعم هذا الرأي جاكبسون R.JAKOBSON وريفاتير M.RIFFATERRE وباختين BAKHTINE ... وسواهم من الباحثين.

وقد اكتمل البحث الأسلوبي على يد هؤلاء الرواد وعلى يد المدارس اللغوية التي شاركت فيه، من أمثال الشكليين الروس والمدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية. لقد تأثرت المدرسة الفرنسية في اتجاهها العام بما قدمه سبيتزر (ت 1960)، إذ ركز جهده على العلاقة القائمة بين العناصر الأسلوبية والعالم النفسي للكاتب. ولذا فقد اتجه إلى إثبات الخصائص الأسلوبية التي تميز كل كاتب، والتي لها طبيعة تكرارية من تظمة في عمله، والتي لها ارتباط بمراكز عاطفية في نفسه.

ولقد تبنى منطق البحث اللغوي الحديث فكرة أن الاختيار يهدف إلى الانسجام في علاقات التواصل بين الباث والمتلقي، لذلك يتم على مستوى اللفظ أولاً ثم ينتقل إلى نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال ومن هن اكان الأسلوب في عرف الدارسين يقصد به العبارة اللفظية المنسقة لأداء المعاني. ولقد كان " ليوسبيتزر " يرى أن الأسلوب هو الممارسة العملية المنهجية لأدوات اللغة.

وكان ماروزو، في الأربعينيات من القرن العشرين، قد نادى بحق الأسلوبية في الوجود ضمن الدراسات الحديثة، وتتميز جهوده بمحاولة إعادة اللغة الأدبية إلى مجال البحث الأسلوبي، وبالتركيز على نواح محددة من الأسلوب (كالحقيقة والمجاز). كما اهتم بنوع خاص بقواعد تنظيم الكلمات، والإيقاع والحركة في الجملة ... وعلى العموم، لقد انصبت دراسة ماروزو على اللغة أكثر من اهتمها بالكلام.

وقد كانت الشكلية الروسية من أهم روافد الدرس اللغوي والأسلوبي، ففي عام 1915 تكونت حلقة موسكو اللغوية كحركة تهدف إلى القضاء على المناهج القديمة في الدراسات اللغوية والنقدية، ومحاولة التحرر من إفسار الدلالة الوضعية لترتبط بالسياق الكلي للعمل الأدبي، مع إعطاء الجانب اللغوي والموسيقي أهمية خاصة. وكان مدار بحث الشكليين يتجه إلى فنية الشكل الأدبي.

" ويمكن القول بأن حركة الشكلين دارت في مجملها على الجوهر الداخلي للعمل الأدبي، ورفض نهائي لأي مسلمات مسبقة، أو محاولة للتأويل والتنظير . فالحقيقة الأدبية كانت شاغلهم بصرف النظر عن أي اعتبار يبتعد عن النص ذاته"¹.

عرف كثير من الباحثين في العصر الحديث مفهوم الأسلوبية، وحاولوا من خلال ذلك تأصيلها في الدراسات النقدية الحديثة التي تتوزع بين النظرية والتطبيق، وكان ذلك من أهم الإنجازات التي احتفى بها هذا الميدان المعرفي. ومن التعاريف التي حاولت تأكيد علاقة الأسلوبية بالبعد اللساني تعريف " بيار جيرو GUIRAUD Pierre" الذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب، طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته الإبلاغية، والعلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوى صياغته.

تتناول الأسلوبية ظاهرة الاستعمال الفردي المتميز للغة، وكما تركز على وظيفة الإبلاغ والإفهام فإنها تركز أكثر على وظيفة التأثير في المتلقي. إن الفرد ينزع في الاستعمال اللغوي إلى وظيفة التأثير لأنها الجانب الذي يميز كلامه عن سواه، ومن هنا كان نزوعه إلى ما هو خاص ليدل عليه، ويدل على شخصيته، وفي اللغة ما هو خاص وما هو عام، وهو ما يدرسه علم الأصوات وعلم التركيب وعلم الدلالة، أما المتميز والفردي وما هو شخصي فقد تكفل به علم الأسلوب.

تعنى الأسلوبية بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنوية لانتظام جهاز اللغة، وتسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية.

يرى رومان جاكسون أن الأسلوبية بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً.

¹ - د. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي. ط2. القاهرة، الأنجلو المصرية، 1960. ص 445

" فالأسلوبية تعنى بدراسة الخصائص اللغوية التي تنتقل الكلام من مجرد وسيلة إيلاغ عادي إلى أداء تأثير فني . وفي نفس السياق، يرى تشومسكي أن النقطة الأساسية التي تمركزت حولها الدراسات الأسلوبية هي المظهر الإبداعي للغة، ح تى على مستوى الاستعمال العادي، وبأن الذات المتكلمة تملك ضربا من النحو الذي يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة"¹.

إن الأسلوبية كفرع من اللسانيات العامة تتمثل في جرد الإمكانيات والطاقات التعبيرية للغة بالمفهوم السوسيري.

وهي الوجه الجمالي للألسنية، إنها تبحث في الخصائص التعبيرية والشعرية التي يوظفها الخطاب الأدبي، وترتدي طابعا علميا، تقريريا في وصفها للوقائع وتصنيفها بشكل موضوعي ومنهجي.

إن المنهج الأسلوبي لا يمكن أن يكون إاقبليا بمعنى أنه لا بد من وضوح أدواته الإجرائية وتحديد مفاهيمه تحديدا علميا دقيقا ، وذلك يكون قبل الشروع في تحليل الخطاب الأدبي. والتحليل الأسلوبي يهدف إلى وصف مكونات النص اللغوية والجمالية، وذلك بتحديد الوحدات اللغوية المشكلة لأدبيته، ولا يمكن أن يدرس أي باحث الخصائص الأسلوبية في نص من النصوص الأدبية دون معرفة مسبقة بالمنهج الذي يتناول من خلاله الظواهر الأسلوبية بالدرس والتحليل.

والأسلوبية هي منهج نقدي لساني تقوم على دراسة النص الأدبي دراسة لغوية، لاستخلاص أهم العناصر المكونة لأدبية الأدب إذ تجعل منطلقها الأساس النص الأدبي أي أن الأسلوبية تنطلق من النص لتصب في النص أو كما يقال : قراءة النص بالنص ذاته. "إن الخطاب الأدبي نظام لغوي خارج عن المؤلف، وهذا النظام اللغوي مقصود في إنشائه؛ بمعنى أنه شكل بدافع إرادي، وهو خاضع لمبدأ الاختيار، أي اختيار الكلمات المناسبة للمقام، وتركيبها في نسق لغوي فني لتؤدي وظائفها الفنية والجمالية، إن اختيار الألفاظ وتركيبها في سياق أدبي يجعلها تتعدى الدلالة الأولى أو الدلالة الذاتية إلى الدلالة

¹ - زكريا إبراهيم: مشكلة البنية. القاهرة، مكتبة مصر، دت. ص 72

الحافة، فإذا كانت اللسانيات قد أقرت أن لكل دال مدلولاً، فإن الأدب يخرق هذا القانون فيجعل للدال إمكانية تعدد مدلولاته، وهو ما عبر عنه الأسلوبيون بالانزياح . فتصبح به اللغة لا مجرد وسيلة بل غاية في ذاتها.¹

وممن صاغوا نظرية الانزياح جان كوهن في كتابه " بنية اللغة الشعرية " . لقد حاول في هذا البحث أن يبرهن على أن الصور البلاغية كلها إنما تعمل بخرقها الدائم لسنن اللغة. فإذا كانت اللغة في المنظور الوظيفي وسيلة للتواصل من أقرب الطرق وبأقل جهد، فإن الشعر يسعى إلى عرقلة هذه الوظيفة بطرق متعددة . يلح جان كوهن على الوظيفة التواصلية حتى لا يفقد الشعر انتماءه إلى اللغة، الأمر الذي عبر عنه جاكوبسون بالهيمنة، فالخطاب الشعري خطاب لغوي تواصلية تهيمن فيه الوظيفة الشعرية دون أن تغيب الوظيفة التواصلية.

والأسلوبية " تدع ما يحيط بالنص، وتلج إلى داخل مكوناته، وعناصره الجوهرية، وذلك للوصول إلى فهم أعمق لحقيقة النص من خلال دراسة اللغة عبر الانزياحات اللغوية والبلاغية. فالأسلوبية كيفية القول أو الطريقة التي استخدمت فيها اللغة، ومدى الأثر الذي تركته في المتلقي.

وقد ترى بعض الاتجاهات أن الأسلوبية جاءت بديلاً عن علم البلاغة القديم . إلا أن البعض الآخر منها يرى أن تكون ميداناً مستقلاً ويكون لها تصوراتها المستقلة عن البلاغة وعن سائر الميادين المجاورة لها.

ومن الاتجاهات من يرى أن بين البلاغة والأسلوبية علاقة وثيقة، ثم يأتي آخرون ليقرروا علاقتها الوثيقة مع النقد الأدبي وليس مع البلاغة . وينهض آخرون ليعارضوا ذلك ويقولوا إن الأسلوبية بعيدة عن النقد الأدبي.

فالأسلوبية إذن هي دراسة التراكيب اللغوية الخاصة بالأدبية والتي تكون محققة في خطاب محدد. وهذا يعني أن مولينيه يضع للأسلوبية هدفاً واحداً هو : " البحث في النص

¹ - المرجع نفسه ص 179

عن العناصر الموجودة فيه والتي تجعل منه نصا أدبيا، وذلك في سبيل تحديد خصوصية هذه العناصر وطبيعة عملها"¹.

ويتناول علم الأسلوب أنواع الأقوال إذا أخذنا باصطلاح " سوسير "، فهو بذلك يتحرك على مستوى يقع بين اللغة كنظام عام ومجرد، وبين الأقوال كوقائع جزئية خاضعة لشتى العوامل المحيطة بالاستعمال اللغوي، فهو لا يرتبط فقط بالعلوم اللغوية الخالصة كالأصوات ونظم الجملة ودلالات الألفاظ فحسب بل يتناول العلامات المشتركة بين المرسل والمستقبل (السيميوطيقا) حيث تتدرج تحتها الأعراف اللغوية والأعمال الفنية وسائر النظم الرمزية، و (البراجماتيا) حيث تتناول الفعل اللغوي ذاته باعتباره نوعا من السلوك البشري المشترك بين المرسل والمستقبل . وتتميز (البراجماتيا) عن العلوم اللغوية الخالصة بأنها تتناول اللغة من زاوية الحدث وتبحث عن قوانين الحركة التي تحكم هذا الحدث لا عن النظام اللغوي في حد ذاته، فهي كالسيميوطيقا تشمل الأقوال من أبسط صورها ككلمة يقصد بها تأثير معين في تعبير جار أو جملة تقال في حديث عادي إلى عمل أدبي كامل.

وكل من السيميوطيقا والبراجماتيقا يتشابك مع علم الاجتماع وعلم النفس، ويدفعان علم الأسلوب إلى توسيع مجاله من تحليل الأساليب اللغوية أو الأدبية إلى تفسير النصوص، وعلم الأسلوب يدرس اللغة الأدبية كما يدرس ظاهرة الانحراف أو الانزياح، أي مخالفة الطريقة العادية أو المتوقعة في التعبير.

إن أغلب الدراسات الأسلوبية العربية تحاول التركيز على تفرد الأسلوبية بدراسة الكلام كنشاط فردي في استعمال اللغة، لأن التمايز بين قدرات الأفراد يبدو من خلال استعمال كل منهم للكلام في التعبير عن حاجاته وأفكاره، ويظهر هذا التمايز بشكل جلي في النصوص الأدبية التي يمكن من خلالها تحديد السمات الأسلوبية، ال تي تخصها دون سواها، وتميزها عن غيرها، ولذلك كان الأسلوب خاصية فردية وعليه تقوم الدراسات الأسلوبية على تنوع مناهجها واتجاهاتها.

¹ - جرج مولينييه: الأسلوبية. ص 25

لا يزال الجدل قائماً بين الباحثين والنقاد العرب، في تحديد ماهية الأسلوبية، التي يعدها بعض الباحثين متجذرة الوجود في العربية، ويعدها بعضهم وافدة من الغرب، وهي محدثة النشوء، ويراهها بعض الباحثين علماً، ويظنها بعضهم منهجاً لدراسة الظاهرة الأدبية، ومنهم من يعتبرها حقلاً معرفياً عادياً.

" الدرس الأسلوبي في العربية ليس جديداً، تجلت ملامحه في الدراسات القرآنية والدراسات البلاغية والنقدية والشروح الشعرية، غير أن هذه التجربة لم تتمكن من تأسيس الأسلوبية علماً مستقلاً، وأتيح للأسلوبية في العصر الحديث أن تؤسس كيانه وتتنجز أدواتها الإجرائية وتحدد مناهجها في التعامل مع الظواهر الأدبية، وذلك من خلال استفادتها من منجزات العلوم اللسانية الحديثة، ولقد مكنت الأسلوبية - في العصر الحديث - الباحثين من دراسة الخصائص الأسلوبية في الخطاب الأدبي دراسة لا تطمئن إلى التفسيرات العشوائية.

أما مجال دراسة الأسلوبية فهو الخطاب الأدبي، وهي دراسة موضوعية تعتمد على إجراءات محددة"¹.

وقد كان عبد السلام المسدي سباقاً إلى نقل مصطلح الأسلوبية وترويجه بين الباحثين، ويترجم المسدي مصطلح Stylistique بالأسلوبية و " بعلم الأسلوب " أحياناً. أما سعد مصلوح فيؤثر ترجمة " الأسلوبيات " بدلاً من المصطلحين الشائعين الأسلوبية وعلم الأسلوب على غرار اللسانيات والصوتيات. ويستعمل صلاح فضل علم الأسلوب ويراه جزءاً من علم اللغة، في حين يراه البعض الآخر " بلاغة جديدة".

وفي رأي شكري عياد، يمثل هذا العلم جسراً بين الأدب وعلم اللغة، أي بين اللغة الطبيعية المأخوذة من أفواه الناس، وبين اللغة الفنية . ثم إن موضوع البحث في علم الأسلوب، هو أنواع الأقوال ولا سيما النوع الفني أو الأنواع الفنية.

¹ - د. نور الدين السدي: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1. الجزائر، دار هومة، 1997. ص 7

لكننا لا نعدم وجود الأبحاث والدراسات والمؤلفات والأعلام والاتجاهات في الأسلوبية العربية، إذ حري بنا أن تكون لنا شخصيتنا النقدية والبلاغية؛ فتراثنا يزخر بمبادئ نظريات فنون الأدب واتجاهاته ونقده وبلاغته ، والتي تصلح أن تكون تنظيرا للأسلوبية العربية.

وأدرك عبد القاهر الجرجاني تعدد الأساليب في العربية في دلائل الإعجاز، فترك للمبدع الحرية في اختيار الأسلوب الذي يناسب موضوعه، فالأسلوب يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة. فالنظم يقتضي الدقة في الاختيار الأسلوبية الذي يوازن بين عناصر العمل الفني في ضوء المعنى الذي يريد المبدع التعبير عنه.

إن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في جوهرها صورة مبكرة لما قدمه المنهج الجمالي لاحقا بتحدثه عن شبكة العلاقات بين العلامات على المحور الأفقي، وهو ما أسماه من قبل بعلاقات المجاورة، وعن شبكة العلاقات التي تربط بين العلامات على المستوى الاستبدالي، وهو علاقات الاختيار، و مدار الجمال يظهر في الكلام بالنظم على طريقة مخصوصة تقوم على اختيار المبدع لكلامه وإجادة سبكه و حوكه (فتظهر مزية الإبدال الذي تختص به الكلمات، أو التقديم والتأخير الذي يختص به الموقع أو الحركات التي يختص بها الإعراب).

فالنظم انسجام وتلاحم في صورة جميلة تناسب الذوق في غاية إبداعها، ويتم النظم بأن تأخذ الكلمة مكانها المناسب مع السياق في إحكام تتداعى له الظلال النفسية، مما يحدث تناسبا بين مفردات الجملة يفضي إلى تسلسل المعنى، وتوظيف القيم التعبيرية المناسبة في تناسق دلالي يبني على تتابع الألفاظ، ويؤلف هذا الانسجام تجاوبا عميقا تبعا لمضمون العبارة، فيضع اللفظ الموضع الذي يجب أن يكون فيه، ويأتي المعنى متدرجا وفق الحالة النفسية.

وإذا كانت اللغة مجموعة من العلاقات تقوم على صحة التركيب وقوة العلائق ومثانة الربط، فإن منهج الجرجاني هو المنهج المعاصر اليوم في العالم الغربي، وما أصله

الجرجاني للنقاد اللغويين يكاد يظهر في كتاب " معنى المعنى " ل " ريتشاردز "، كما يقرر ذلك محمد مندور.

فالجمل في نظرية النظم عند الجرجاني يكون في تعالق الألفاظ والجمل وملاءمتها للمعاني. ولا فضل للفظ وحده من حيث هو لفظ إلا في السياق أو في التركيب اللغوي وصياغته، ومن ثم في النص كلا متكاملًا.

وقبل الجرجاني كان الجاحظ يرى في الصياغة مقوماً حقيقياً في الأدب، لتكون في صحة الطبع وجودة السبك، لأن الشعر في رأيه صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير.

وتعد ظاهرة الاختيار من مكونات النظم عند الجاحظ لما تقدمه من تناسب دلالي بين اللفظ والموقف المناسب . فكل كلمة تحمل دلالة تتناسب المقام الذي تقال فيه تحقيقاً لمبدأ الاختيار الذي يضع الكلمة في مكانها اللائق بها، وهذا يدخل في سياق مراعاة حال المنظوم بعضه ببعض.

وابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة يوضح أهمية الاختيار عند تعريفه للبلاغة بأنها " اختيار الكلام وتصحيح الأقسام ". ولحازم القرطاجني في منهاج البلغاء آراء قد تعد أساساً لنظرية التلقي في الأدب والنقد والبلاغة وفنون القول عامة؛ فثمة رسالة ومرسل ومرسل إليه. والرسالة إنما تكون في سياق، وهذا السياق إن أحسن سبكه وصياغته بما يلائم نفسية المتلقي كان له الأثر والتأثير المرجوان من قيمة الأدب الخاصة أو فنون القول عامة. وفي قمة هرم هذه الفنون القرآن الكريم المعجز ثم الحديث الشريف ثم كلام البلغاء والفصحاء.

وتختلف أساليب في الصياغة الأدبية، إذ تندرج ضمنها الفنون البلاغية المتنوعة، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز . والمعروف أن المجاز يحدث انزياحاً أو انحرافاً عن المعنى الحقيقي للفظ أو الجملة أو التركيب . وكان المبرد في كامله يقول عن العرب " التشبيه أكثر كلامهم "، والعسكري في الصناعتين كان يقول " الاستعارة أبلغ من الحقيقة "، والسكاكي في مفتاح العلوم يذكر مثل هذا، فكلما كان الكلام خافياً في الدلالة

كان أبلغ، فالمجاز أبلغ من الحقيقة، والاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، والكناية أوقع من الإفصاح بالذكر.

فماذا تختلف أقوال هؤلاء المتقدمين عن قول رولان بارت - مثلا - في الأسلوب بأنه " ليس أبداً أي شيء سوى الاستعارة ". مع ملاحظة أن الاستعارة عنده قد تضم فنونا بلاغية عديدة.

تتفق فلسفة بارت النقدية في الأسلوبية مع تراثن ا، وهكذا تلتقي الآراء والفلسفات والتعريفات والخبرات وتتوارد الخواطر.

والدراسات النفسية التي قام بها علماءنا المتقدمون كثيرة، فكلام ابن قتيبة مشهور ومشهود له بالصحة والثبات في علاقة الأدب بالمجتمع والدراسات النفسية عندما علل النسيب في مقدمات القصائد.

فدراسة فنون القول والقيمة الجمالية والفنية والخلقية والنفسية لهذه الفنون، وملاحظة الانزياح أو الانحراف في النصوص، وفن الاختيار، والتأثر والتأثير، وحدود التلقي، ودراسة الأساليب الأدبية والنحوية والنقدية والبلاغية قد تصلح عناوين تكون مداخل نظرية للأسلوبية العربية بشكل تنظم فيه العلاقات بينها وتطبق على النص القرآني والحديثي والشعري والنثري.

إن دراسات محمد بركات أبو علي دليل واضح على إمكانية التنظير والتطبيق للأسلوبية العربية، ولهذه العناوين التي أعطاها موضعها اللائق بها في تراثنا البلاغي والنقدي مع توافر الخبرة في قراءة القرآن وعلومه المتنوعة، وقراءة الحديث وعلومه.

فتهدف مادة الأسلوبية العربية إلى الوقوف على الأسس المشتركة بين مناهج البحث في أسلوبية النص، وتعالج النظريات التطبيقية لقراءة النصوص انطلاقاً من البحث البلاغي والنقدي العربيين، ولفت الانتباه إلى الأهمية الجمالية واللغوية والصوتية والصرفية وتراكيب الجمل ودلالاتها وما فيها من روابط.

إن آراء أبو علي لها أهميتها؛ إذ يدعو إلى إعادة النظر في التراث البلاغي، والإفادة من النافع، والانتفاع بالجيد من طرائق الدرس الحديثة ومناهج الدرس اللساني والصوتي واللغوي والنقدي، وإبراز وظيفة البلاغة في إظهار جماليات فن القول العربي .

فالبلاغة بتعريفها " مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال " تعني نقل الكلام المعبر عما في نفس المتفنن إلى المتلقي قصد التأثير.

كما يدعو محمد بركات أبو علي إلى التقليل من تفرع المصطلحات البلاغية، والإفادة من شواهد الأدب الحديث بفنونه المتنوعة بشرط السلامة اللغوية والصحة النحوية وعفة المضمون.

2 - ميادين الدراسة الأسلوبية

علم الأسلوب وثيق الارتباط بعلم اللغة العام¹. وعلم اللغة العام يبحث في اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية تحكمها قوانين مشتركة بين لغات الأمم على اختلافها. لعل أهم هذه القوانين، هو أن أي لغة من اللغات تشتمل على عدة أشكال أو مستويات للتعبير (لغة العلم ليست لغة الأدب ولا الحديث اليومي؛ وتحت كل نوع من هذه الأنواع أقسام: لغة العلوم الرياضية ليست لغة العلوم الطبية، ولغة الشعر غير لغة النثر...)

على أن علم الأسلوب لا يمكن أن يعتمد على هذه القوانين الكلية فقط، فلكل لغة نظامها الخاص الذي نسميه نحو هذه اللغة، ومجمعها الخاص الذي نسميه متنها. ومن ثم فعلم الأسلوب مرتبط أيضا بمتن اللغة ونحوها. ويرتبط علم الأسلوب بالأدب، لما تتميز به اللغة الأدبية بالذات من تأثير وجداني واضح. ودراسة الأعمال الأدبية هي ما يشتغل به النقد الأدبي.

فالدراسات الأسلوبية تشغل مساحة واسعة، تمتد من : القوانين اللغوية العامة التي قد تشمل عدة لغات، إلى القوانين اللغوية الخاصة بلغة بالذات، إلى التحليل الأدبي لعمل معين أو جملة أعمال من جنس واحد. ولكن هذه المساحة الواسعة يحددها اختصاص علم الأسلوب بالتأثيرات الوجدانية (الإضافية) للظواهر اللغوية التي تخرج عن النمط العادي.

¹ - شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب ص 41 و ما بعدها

إن الوحدة الأسلوبية الأساسية هي المفردة.

ونظرا إلى أن الإشارة اللغوية تتكون من الدال والمدلول، من الشكل الصوتي والمفهوم؛ ففي ما يتعلق بالصوت، تهتم الأسلوبية بالتكرار المعبر لبعض النغمات، والسمات الصوتية، والنبرات المميزة، والتراكيب الإيقاعية، إلى ما هنالك . أما بالنسبة للمدلول، فإنها تميز بين النواة الدلالية والقيم الإيحائية . ولا تكون كل هذه المظاهر هدف الأسلوبية وحقلها إلا من خلال عملها ضمن السياق النصي.

تهتم الدراسات الأسلوبية في مجال اللغة الأدبية بميدانين هما:

1- الدراسة الأسلوبية للقوانين اللغوية العامة (ويمكننا أن نسمي هذه الدراسات علم الأسلوب المقارن): ثمة ظاهرة تميز الشعر عن النثر في جميع لغات العالم. وهي أن لغة الشعر موقعة، أي أن فيها نوعا من الموسيقى.

وعلم اللغة العام ينظر إلى العلاقات المجازية التي تقوم عليها الصور على أنها إحدى الطرق الرئيسية للنمو اللغوي، فنحن نصف لونا ما بأنه " وردي " وشكلا ما بأنه " كروي " ... وهذه الكلمات أخذت من صور محسوسة، واستعملت لصور محسوسة أخرى أو لمعان مجردة. وتستعمل اللغة المجازية حتى في لغة العلم، فهناك " الديدان الشريطية "، بل هناك " الذرة " وهي في الأصل النملة الصغيرة.

وتدرس البلاغة التعبير بالصور في أبواب التشبيه والاستعارة والكناية، وهي أبواب مشتركة بين بلاغات الأمم المختلفة . ولكن الملاحظ أن علوم البلاغة القديمة - عند اليونان والعرب - تنظر إلى الصورة نظرة منطقية، فالتشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، والاستعارة هي نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر لمشابهة بينهما، والكناية هي الدلالة على الشيء بلازم من لوازمه . فالمشاركة والنقل واللزم مفاهيم منطقية لا تساعد كثيرا على فهم حقيقة ما يجري في الصورة الأدبية . ولذلك فإن نقاد الأدب يفضلون استخدام الاصطلاح العام - " الصورة " - للدلالة على تلك الخاصة التي تميز اللغة الأدبية إلى جانب الخاصة الموسيقية، ويلاحظون أن الصورة

الأدبية تؤدي وظيفتين : تقريب المعنوي من المحسوس، والجمع بين معنيين متباعدين . ولكنهم - على عكس البلاغيين في مصطلحاتهم - يتوسعون في معنى الصورة توسعا شديدا، ويختلفون - تبعا لذلك - في استخدامها لتحليل الأعمال الأدبية. ولذلك وجد علماء الأسلوب مجال البحث واسعا حول هذا المصطلح.

وضع الناقد الإنجليزي " رتشاردز " (الذي يعد من رواد علم الأسلوب) نظرية مؤداها أن الصورة الأدبية على اختلاف أشكالها أشبه بمركب كيميائي يفقد فيه الطرفان صفتها الأصلية ويستحيلان معا إلى شيء جديد. ومنه، فالصورة نوع من النشاط التركيبي للذهن، يختلف عن النشاط التحليلي الذي يعتمد عليه التفكير العلمي. وفكرة " الصورة الأدبية " ارتبطت بفكرة " الحقل الدلالية " التي يتحدث عنها علماء الدلالة أو " السيمانطيقا " من العلوم اللغوية، ومؤداها أن هناك ارتباطات معنوية تلتقي عندها مجموعات من الكلمات : مجموعة تدل على الزمن ومجموعة تدل على اللون وثالثة على الطعام ... وطبيعي أن الكلمة الواحدة يمكن أن تنتمي إلى أكثر من حقل دلالي واحد.

فالحقل الدلالي يدخل في تكوين العالم الخاص للقطعة الأدبية، وقد يكون كله أو بعضه تصويريا، ولكن الصورة هنا لا تعمل بمفردها ولا تكاد تتميز - في بعض الأحيان - عن سائر مفردات القطعة. وبناء على ذلك فكل وصف شعري هو نوع من التصوير (يصور معنى الرهبة من الرعد ... البهجة بوصف روضة معطار زاهية ...).

2- الدراسات الأسلوبية التي تتناول لغة بعينها: والعالم اللغوي الفرنسي "جيرو" Guiraud لا يميز هذا النوع عن سابقه، ويطلق عليهما معا اسم علم الأسلوب الوصفي . ولعل سبب ذلك أن هذا العلم الوصفي¹ نشأ في فرنسا، فلم يشعر القائمون عليه بحاجة إلى دراسة نماذج للإيقاع أو الصورة الأدبية أو غيرهما، مما يعد صفات عالمية للتعبير الأدبي، في غير اللغة الفرنسية.

1-GUIRAUD,Pierre : La stylistique.pp. 45-67

أما تركيب الجملة، فقد كان عبد القاهر، واضع علم المعاني، يسمي هذا العلم " معاني النحو " لأنه يقوم على معرفة الفروق المعنوية الدقيقة بين التراكيب النحوية، واهتمام النحوي منصب على الإعراب، أما صاحب علم المعاني فإنه يبحث في الفروق الدقيقة بين معاني هذه التراكيب (زيد قام، زيد قائم، قام زيد ...) ليعرف القائل متى يستخدم واحدا منها دون الأخرى.

ومعروف أن علم المعاني يكون الركن الأكبر والأهم من علم البلاغة.

تكفل علم الصرف بجانب واحد من البنية الصوتية للغة العربية وهو أوزان الكلمات، ولكن علم الأسلوب، يدرس العوامل الوجدانية التي تدعو القائل إلى اختيار صيغة صرفية دون أخرى.

أما في شأن بناء الجملة العربية فقد تناوله البلاغيون بكثير من التفصيل (الذكر والحذف، التقديم والتأخير ...). وبقيت مع ذلك موضوحات مهمة تستحق الدراسة : موضوع طول الجملة أو قصرها مثلا . فمن الكتاب من يميلون إلى النوع الأول، ومنهم من يميلون إلى النوع الثاني، ومنهم من يراوحن بين النوعين ويرون أن ذلك يخلص الأسلوب من الرتابة.

والجمل الطويلة ليست نمطا واحدا، فمنها النمط المتسلسل، الذي يقدم فيه ركن الجملة، أو موضوع الحديث (المسند إليه باصطلاح البلاغيين) ثم يأتي الإخبار عنه مسلسلا متصلا بعضه ببعض.

ومن هنا النمط المتصاعد، الذي يقدم جزءا من أجزاء الجملة (ولا سيما المتعلقة كالظرف) ويستتقي أساسها إلى النهاية . وكثيرا ما يكون هذا الأسلوب ا لمتصاعد وسيلة لشحذ انتباه القارئ وإثارة تساؤله.

ولعل المدرسة الفرنسية هي أهم مدارس علم الأسلوب التي استوفت هذا الجانب من الدراسة، أي دراسة الخصائص الأسلوبية للغة القومية، حيث تبدأ بدراسة الكلمة، من الناحيتين الصوتية والمعنوية وتنتهي بدراسة أنواع الجمل¹ وإيقاع العبارة.

¹ SUMPF, J : Introduction à la stylistique du français. P 64-68.

ويعد علماء الأسلوب الفرنسيون هذه الدراسة الهدف النهائي لعلم الأسلوب، ويرون أن الدراسات الجزئية، ليست إلا طرقاً للوصول إلى هذا الهدف النهائي. قد تتناول الدراسات الأسلوبية تحليل لغة كاتب أو شاعر معين، ومنها ما يتناول لغة مدرسة أدبية واحدة، أو عصراً أدبياً واحداً، أو فناً أدبياً واحداً. والغالب ألا يدرس الباحث أسلوب الكاتب أو الشاعر من جميع نواحيه أو في جميع أعماله، بل يتناول كتاباً واحداً من كتبه، أو ظاهرة واحدة في أسلوبه وقد تبدو هذه الظاهرة جزئية جداً كاستعمال أداة التعريف أو استعمال بعض الظروف، ولكن الدارس يجد لها قيمة تعبيرية يمكن أن تلقي الضوء على العمل كله. ولذلك فإن كثيراً من هذه الأبحاث تكون على شكل مقالات. وإن كنا لا نعدم دراسات كاملة عن لغة بعض الكتاب أو الشعراء أو العصور أو الفنون الأدبية.

ويتميز هذا النوع من الدراسات الأسلوبية عن سابقه بأنه يركز على تحليل " الوظيفة " التي تقوم بها الظاهرة الأسلوبية بالنسبة إلى الكتاب أو الكاتب أو العصر.

ومن الأسلوبيين العرب الذين زاوجوا بين مباحث البلاغة ومباحث الأسلوب، أحمد الشايب وأمين الخولي، وغنيمي هلال.

3- أنواع الأسلوبية

ومن جهة أخرى، تنقسم الأسلوبية إلى أنواع تبعاً للمدارس النقدية منها الأسلوبية التعبيرية والأسلوبية الأدبية والأسلوبية الاجتماعية النفسية والأسلوبية البنائية وغيرها من الأسلوبيات النظرية.

• الأسلوبية التعبيرية

اعتبر شارل بالي¹ أن الطابع الوجداني هو العلاقة الفارقة في أية عملية تواصل بين مرسل وملتق، ومن هنا يؤكد على علامات الترجي والأمر والنهي، التي تتحكم في المفردات والتراكيب، وتعكس مواقف حياتية واجتماعية وفكرية، ثم تقسيمه الواقع اللغوي إلى نوعين : ما هو حامل لذاته، وما هو مشحون بالعواطف والانفعالات، أو الكثافة الوجدانية.

يعد شارل بالي (1865 - 1947) من الرواد المؤسسين للأسلوبية، وهي تعني عنده البحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة، وتدرس الأسلوبية عند بالي هذه العناصر من خلال محتواها التعبيري والتأثيري.

تحاول الأسلوبية أن تجيب عن السؤال التالي: كيف يكتب الكاتب؟

يقول جورج موانان : " إن البلاغة القديمة كانت وما تزال تجيب فعلا عن هذا السؤال بيد أن هذا السؤال عند الألسنيين المحدثين يكتسي معنى مختلفا، لأن منطلقهم هو القارئ لا الكاتب كما كان، ويتمثل ذلك في اعتبار الأثر الفني سواء كان قصة أو قصيدة أو مسرحية والانطلاق من ذلك الأثر، وقد أنجز، ولا يكون البحث عن سبب كتابة الكاتب إياه، ولا حتى في الحقيقة كيف كتبه، لأن هذا السؤال تقليدي، وإنما يكون البحث في المقام الأول وظيفيا. كيف يؤثر في القراء؟"²

لقد أجزم جورج موانان أن الأسلوبية وصفية والواقع أن الأسلوبية في درسها للنصوص الإبداعية لا تكتفي بالوصف، وإنما تحلل الظواهر اللغوية المشكلة لبنية النص. كان شارل بالي يعد علم الأسلوب واحدا من علوم اللغة كعلم الأصوات وعلم التراكيب، وعلم الصيغ.

¹ SUMPFF, J : Introduction à la stylistique du français. P 28.

² -فور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب. ج.1. ص 61

لقد بين بالي أن اللغة علاقة تأثير وتأثر، فللبعد العاطفي حضور عند التفكير في نظام اللغة، ومن هنا كان بالي يلح على ضرورة العلاقة بين الضوابط الاجتماعية والنوازع النفسية في نظام اللغة، فالأسلوبية ليست بلاغة وليست نقدا وإنما مهمتها البحث في علاقة التفكير بالتعبير، وإبراز الجهد الذي يبذله المتكلم ليوفق بين رغبته في القول وما يستطيع قوله. ولعل هذا الفهم هو ما جعل بالي يعرض عن دراسة اللغة الأدبية .

" غير أن فهم البعد العلمي للأسلوبية، والرغبة في دراسة الخطابات الأدبية وفقها عند كثير من الباحثين الأسلوبيين الذين جاءوا بعد بالي جعل من الأسلوبية تحقق مطمحها، وتختص بدراسة الخطاب الأدبي تنظيرا وتطبيقا، لأن الخطاب الأدبي إنجاز لغوي بني وفق أسلوب مخصوص، ولا مجال لتحديد خصائص هذا الأسلوب إلا باعتماد الأسلوبية في تحليله " ¹.

• الأسلوبية النفسية

تعنى الأسلوبية النفسية بمضمون الرسالة ونسيجها اللغوي مع مراعاتها لمكونات الحدث الأدبي، الذي هو نتيجة لإنجاز الإنسان والكلام والفن، وهذا الاتجاه الأسلوبي تجاوز - في أغلب الأحيان - البحث في أوجه التراكيب ووظيفتها في نظام اللغة إلى العلل والأسباب المتعلقة بالخطاب الأدبي، ويعود سبب ذلك إلى اعتقاد أصحاب هذا الاتجاه بذاتية الأسلوب وفرديته، ولذلك فهو يدرس العلاقة بين وسائل التعبير والفرد؛ دون إغفال علاقة هذه الوسائل التعبيرية بالجماعة التي تستعمل اللغة المنتج فيها الخطاب الأدبي المدروس.

ويعد ليو سبيتزر Léo SPITZER (1887-1960) أهم مؤسس للأسلوبية النفسية . ومن أهم القضايا المحورية في منهج ليو سبيتزر أنه علق أهمية كبيرة على الكاتب أو الفاعل المتكلم الذي يتناول اللغة بطريقة خاصة، وكانت الأسلوبية النفسية وسيلته في التعامل مع النص الأدبي. وبالأسلوبية النفسية يمكن رسم الملامح النفسية للشخص الكاتب. ودراسة الأسلوب في النص الأدبي عند سبيتزر تأخذ بالمبدأ الذي يقر الخطاب الأدبي بنية

¹ - المرجع نفسه، ص. 66

مغلقة تخضع لترابط منطقي ذي خصائص، وعلى دارس الأسلوب في هذه الحال أن يعتمد إلى اكتشاف البنية الثقافية والجمالية للنص، انطلاقاً من تحديد مختلف الحقول الدلالية التي تميز الخطاب الأدبي . وقد استعان سببترز بعلم الدلالة التاريخي في تحديد مجموعة من الكلمات المفاتيح في مقاطع شعرية تناولها بالدرس والتحليل، وكان يعتبر هذا الإجراء مساعداً على شرح الخطاب الأدبي وتحليله.

" وتبلورت الأسلوبية النفسية مع ليو سببترز الذي رفض المعادلات التقليدية بين اللغة و الأدب و وضع نفسه داخل التعبير الأدبي متكئاً على الحدث لتقصي أصالة الشكل اللغوي، ومن أبرز مبادئه اللغوية تقريره أن :

-معالجة النص تكشف عن شخصية مؤلفه،

-الأسلوب انعطاف شخصي عن الاستعمال المألوف للغة،

-فكر الكاتب لحة في تماسك النص،

-التعاطف مع النص ضروري للدخول إلى عالمه الحميم " ¹.

إن أسلوبية الفرد تعتبر تياراً حاسماً في تأسيس أسلوبية أدبية تتخذ من النص الراقى موضوعاً، وتنفذ من بنيته اللغوية، وملامحه الأسلوبية إلى باطن صاحبه ومجامع روحه، وهي لهذا تعتبر منعرجاً حاداً بالقياس إلى مرحلة البدايات مع علم الأسلوب عند شارل بالي.

يرجع اتجاه الأسلوبية الفردية إلى " فردنان دو سوسير " (1877 - 1913) رائد اللسانيات الحديثة الذي ميز بين اللغة والكلام، فاللغة نظام من القواعد موجود في عقل كل فرد واللغة ظاهرة اجتماعية . أما الكلام فهو جزء من اللغة، وهو عمل فردي متعدد الأشكال متغير يختلف من شخص إلى آخر، لذا يمكن القول إن لكل فرد أسلوبه الخاص المتميز عن أساليب الآخرين في كلامه وتعامله مع اللغة مفردات وجملاً وصوراً، وهذا ما يقوله صاحب هذا الاتجاه ليو سببترز.

ويرى صلاح فضل - الذي قام بتحليل مفصل لمنهج سببترز - أن منهج سببترز يمثل أهم اتجاهات التحليل الأسلوبي الذي يعتمد التذوق الشخصي، لكنه يحرص على أن يعكس

¹ - المرجع نفسه ص. 77

المثيرات التي تصل من النص إلى القارئ، ويحاول أن يحدد نظام التحليل على هذا الأساس، ويتم تطبيقه على مراحل متعددة. فالقارئ مضطر لأن يطالع النص ويتأمله حتى يلفت انتباهه شيء في لغته، هذا الشيء يعد خاصية يتم التوصل إليها بالحدس إذ يهديننا إلى أهميتها الأسلوبية في النص، ثم يتم اختبارها مرة أخرى بشكل منتظم من خلال قراءة جديدة تدعمها شواهد أسلوبية أخرى.

• الأسلوبية البنيوية

تعنى الأسلوبية البنيوية في تحليل النص¹ الأدبي بعلاقات التكامل والتناقض بين الوحدات اللغوية المكونة للنص وبالدلالات والإيحاءات، التي تنمو بشكل متناغم، والأسلوبية البنيوية تتضمن بعداً ألسنيا قائماً على علمي المعاني والصرف وعلم التراكيب، ولكن دون الالتزام الصارم بالقواعد، ولذلك تراها تدرس ابتكار المعاني النابع من مناخ العبارات المتضمنة للمفردات.

الأسلوبية هي العلم الذي يتخذ من الأسلوب موضوعاً له ولتحديد هذه الخاصية في الدراسة الأسلوبية لا بد من الإشارة إلى مراحل القراءة الأسلوبية :

- **مرحلة الوصف** ويسمىها " ريفاتير"¹ مرحلة اكتشاف الظواهر وتعيينها، وتسرح للقارئ بإدراك وجوه الاختلاف بين بنية النص والبنية النموذج القائمة في حسه " اللغوي " مقام المرجع، فيدرك التجاوزات والمجازات وصنوف الصياغة.

وفي " نظرية النص " تكشف هذه المرحلة عن معنى النص من حيث إنه جملة مكونات، وليس في طاقتها أن تكشف مدلوله من حيث اعتباره وحدة الدلالة ومنطلقها.

- **مرحلة التأويل والتعبير** وتأتي تابعة حتماً للمرحلة الأولى وعندها يتمكن القارئ من الغوص في النص والانسحاق في أعطافه وفكه على نحو تترابط فيه الأمور، وتتداعى ويفعل بعضها في بعض.

¹ SUMPFF, J : Introduction à la stylistique du français. P 33.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعرية البنيوية، وهي شعرية النص أساساً، " قد شكلت من تجاور ثلاث شعريات - ومفهوم الأسلوبيات أقرب إلى تأدية المعنى المراد- وهي:

- الشعرية اللسانية ويمثلها جاكوبسون ومن سار على هديه من اللسانيين التوليديين المهتمين بالشعر.

- الشعرية اللسانية البلاغية وأنضج الجهود في هذا المجال ما بذله جان لوهين.

- الشعرية السيميائية - البلاغية : وهي شعرية تسعى إلى إدماج القضية البلاغية في نظام سيميائي عام¹.

وتعد الأسلوبية البنيوية مداً مباشراً من اللسانيات، ويقف سوسير على صدارة هذا التوجه النقدي، وذلك منذ أخذ بتعريف اللغة على أنها نظام من الإشارات، وهذه الإشارات هي أصوات تصدر من الإنسان، ولا تكون بذات قيمة إلا إذا كان صدورها للتعبير عن فكرة أو لتوصيلها . الأمر الذي جعل سوسير يركز على البحث في طبيعة الإشارة من حيث طبيعة هويتها ومن حيث وظيفتها، وقام جدله في ذلك على أن الإشارة ذات طبيعة اعتباطية، وأنها تعتمد على التواضع العرفي، ولهذا فإن معرفة الإشارة لا تتم من خلال خصائصها الأساسية، وإنما يتم ذلك من خلال تمايزها باختلافها عن سواها من الإشارات. كما يقر بأن اللغة هي المخزون الذهني الذي تمتلكه الجماعة، والكلام أو الخطاب هو ما يختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبئ به عن فكرته.

وبالإضافة إلى هذا أشار سوسير وغيره من الدارسين اللسانيين إلى دراسة اللغة وفق محورين أساسيين وهما الآني Synchronique والتعاقبي أو التاريخي Diachronique، ويقصد بالآني دراسة الظاهرة اللغوية كنظام في عصر محدد، وفي مرحلة محددة، ويقصد بالتعاقبي دراسة الظاهرة اللغوية حسب امتدادها في الزمان وتعاقبها في هذا الامتداد الزمني وما يطرأ عليها من تغيرات بالحذف أو الإضافة وسوى ذلك . كما قسم الكلمة إلى " دال و مدلول " وهما من المفاهيم التي قامت عليها نظريات اللسانيات العامة.

" والمنهج الأسلوبي البنيوي يع تمد النص كبنية لغوية ولا يلغي كل ما هو خارج النص بل ينطلق في درسها من البنى اللغوية السطحية والعميقة ليكتشف الوظائف الدلالية

¹ - نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب. ج.1. ص 83-84

وأبعادها الجمالية في النص، ولا مجال في الأسلوبية البنيوية للفصل بين الدال والمدلول، كما أنها تتخذ من النص مرجعا وحيدا لها، لأن النص هو المعني بالدرس أولا وأخيرا¹. لقد استفادت الدراسات الأسلوبية العربية من المنهج البنيوي في دراسة الظاهرة الأسلوبية الأدبية.

ولقد تعرضت أغلب الدراسات النقدية العربية الحديثة في مجال الأسلوبية إلى إسهام " ميشال ريفاتير " في تأسيس المنهج الأسلوبي البنيوي. وخصه الدارسون العرب بعناية فائقة أوضحوا من خلالها فعالية منهجه في تحليل الخطاب الأدبي . وحددوا إجراءات المنهج الأسلوبي البنيوي ومصطلحاته وأبعاده الأفهومية، ومنها : الانزياح والسياق، والتضاد، والقيمة الأسلوبية، والجمل الجاهزة، والقارئ العمدة . تجد الأسلوبية البنيوية في مجال اللسانيات ضالتها، فهي من منجزات اللسانيات التطبيقية في دراسة الأدب، وتطورت الأسلوبية البنيوية بتطور البنيوية ودخولها إلى العديد من العلوم الإنسانية.

والأسلوبية حسب ريفاتير لا تتولد من شمول ولا تقبل تعميما بل إن الشمول والتعميم يطمسان معالمها ولا يتركان منها أثرا . فالمحلل الأسلوبي ينطلق في البحث من النص الذي هو صرح مكتمل البناء ولا يهدف إلى تعميم ما يتوصل إليه من نتائج، فهو يسخر جهوده كلها لتتبع سمة الفردية في النص الأدبي، وهذه السمة الفردية هي التي تسمى أسلوبا وينتهي ريفاتير إلى أن " الأسلوب هو النص نفسه " .

• الأسلوبية الإحصائية

إن الإحصاء الرياضي في التحليل الأسلوبي هو محاولة موضوعية مادية في وصف الأسلوب.

وحيثما يتم تحديد الأسلوب بأنه تردد الوحدات اللغوية التي يمكن إدراكها شكليا في النص، فهذا يعني أنه يمكن إحصاء هذه الوحدات اللغوية وإخضاعها للعمليات الرياضية.

¹ - المرجع نفسه، ص. 90

إن النسبة بين عدد ورود الكلمة في نص ما والمجموع الكلي يمكن تمثيلها عددياً، وهذا يسهل مقارنتها بالنصوص الأخرى.

تحصى كلمات النص وتصنف حسب نوع الكلمة، ويوضع متوسط هذه الكلمات على شكل نجمة، وبناء على ذلك تنتج أشكال ونماذج متنوعة يمكن مقارنتها بعضها مع البعض الآخر، كما يمكن تصنيف مؤلفي النصوص طبقاً لها.

أما أنواع الكلمات فهي : الأسماء، الضمائر، الصفات، الأفعال، الظروف، حروف الجر، الحروف الرابطة (كحروف العطف)، الأدوات الرابطة (كأدوات الشرط). ولا تفصح الأشكال نفسها عن أي تفسير أسلوبية، ولكن بعض الدراسات التحليلية الأسلوبية، التي تعتمد على المنهج الإحصائي الرياضي، تناولت ظواهر نحوية لها أهمية خاصة (نسبة الأفعال إلى الصفات من حيث العدد، معدلات الأفعال بالنسبة لعدد كلمات الجملة... الخ).

" إن التحليل الإحصائي للأسلوب يهدف إلى تمييز السمات اللغوية فيه وذلك بإظهار معدلات تكرارها ونسب هذا التكرار، ولهذه الطريقة في التحليل أهمية خاصة في تشخيص الاستخدام اللغوي عند المبدع".¹

لقد أصبحت الطرق الإحصائية في الدراسات الأسلوبية تستعمل الحاسوب الذي يزود الدارس بمعلومات إحصائية لها صلة بموضوع النص المدروس، وبناء على ما يتوصل إليه الباحث المتتبع لطريقة الإحصاء من ملاحظات فيما يتعلق باستعمال أساليب معينة، وبحسب الإكثار منها أو التقليل من تكرارها، يبني استنتاجاته ويقدم ملاحظاته. " أما مدى نجاعة هذه الطريقة في التعامل مع النصوص الأدبية، و مدى قدرتها في دراسة الظاهرة الفنية في النص الأدبي فإننا نجيب " نعم " بتحفظ".²

¹ -نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب.ج.1. ص. 105
² - المرجع نفسه.ص.107

4- الأسلوبية عند ميشال ريفاتير

يعتبر ميشال ريفاتير من أبرز الباحثين في الدراسات الأسلوبية الحديثة وبخاصة الأسلوبية البنيوية.¹

يرى ريفاتير أن الأسلوب إبداع من المنشئ وإرجاع من المتلقي . فالمبدع يسعى للفت انتباه المخاطب والوسيلة هي شفرات تستوجب كشفاً من القارئ . فالأدب شكل راق من أشكال الإيصال . وهو بذلك خالف جاكسون الذي يهتم بالمرسل والمرسل إليه وينصب اهتمامه بالدرجة الأولى على القارئ دون أن ينسى الوظيفة الشعرية .

ويعتبر ريفاتير من المجددين في التنظير الأسلوبي بمقالاته التي نشرها في بداية الستينات ثم جمعت واستكملت في أوائل السبعينات من القرن الماضي في كتابه " مقالات في الأسلوبية البنيوية Essais de stylistique structurale " .

وتظهر من كتابات ريفاتير أن الأسلوبية ما هي " سوى هذا التأثير المفاجيء الذي يحدثه اللامتوقع في عنصر السلسلة الكلامية بالنسبة إلى عنصر سابق . ويستشهد ريفاتير بصورة وردت في بيت شعري لكورناي : " هذه عتمة مضيئة تسقط نجوماً " ، فيقول إن هذه العبارة هي مفارقة غير متوقعة² .

ويقدم ريفاتير في كتابه أسلوبية البنيوية تعريفاً للأسلوب، مفاده أن الأسلوب الأدبي هو كل شكل مكتوب فردي ذي قصد أدبي، أي أسلوب مؤلف ما أو بالأحرى أسلوب عمل أدبي محدد يمكن أن نطلق عليه الشعر أو النص .

ويرى كذلك أن الأسلوب هو البروز الذي تفرضه بعض لحظات تعاقب الكلمات في الجمل على انتباه القارئ بشكل لا يهكّن حذفه دون تشويه النص ولا يمكن فك شفرته دون أن يتضح أنه دال ومميز؛ ما يجعلنا نفسر ذلك بالتعرف فيه على شكل أدبي أو شخصية المؤلف أو ما عدا ذلك . وباختصار فإن اللغة تعبر والأسلوب يبرز .

¹ - طارق البكري: الأسلوبية عند ميشال ريفاتير. مقال منشور في أنترنيت.

² SUMPF, J : Introduction à la stylistique du français. P 33.

ومن العناصر التي عمل على تعميقها وبحثها ما يأتي :

* **الأدبية وفرادة النص** : يعتبر ريفاتير أن النص فريد دائما في جنسه، وهذه الفرادة هي التعريف الأكثر بساطة. والخصوصية في التجربة الأدبية تكمن في كونها تغريبا وتمرينا استلابيا وقلبا لأفكارنا ولمدركاتنا ولتعبيراتنا المعتادة.

* **الفرادة والأسلوب** : يقول ريفاتير إن النص يع مل كما يعمل برنامج الحاسوب، وذلك لكي يجعلنا نقوم بتنفيذ تجربة الفرادة ... الفرادة التي نعطيها اسم الأسلوب، والتي تم خلطها ردحا طويلا مع الفرد المفترض المسمى الكاتب.

* **النص والأسلوب** : يعلن ريفاتير أن الأسلوب في الواقع هو النص، لأن الأسلوب يخرج من كونه بصمة من بصمات الشخص ليصبح شيئا من أشياء النص، أو بمعنى أدق ليصبح هو النص نفسه . ولأن مفهوم النص عنده يرتبط بأدبيته والأدبية ترتبط بالفرادة والفرادة أسلوب والأسلوب هو النص، وبما أن الأدبية لا تقوم إلا ضمن هذا الأخير فإن خلو أي نص من الأدبية يرفع عنه صفة النص.

وهذا يعني أنه لا وجود لنص إلا في أسلوبه ولا وجود لأسلوب إلا في فرادته . وهكذا ترتبط الفرادة والأدبية بالنص كما يرتبط النص بالأسلوب.

* **موقفه من القارئ** : يرى ريفاتير أن القارئ يجلي الأسلوب بفعل الأثر الذي يتركه، فالأسلوب يستأثر بانتباه القارئ واهتمامه عبر ما يفضيه في سلسلة الكلام، والقارئ يستجيب بدوره للأسلوب فيضيف إليه من نفسه عن طريق رد الفعل الذي يحدثه فيه، وهذا يشير إلى خلاصة مفادها أننا نقول ما نقول، أي نعبر في استعمالنا للكلام، ولكن الأسلوب هو الذي يجعل لما نقول ميزة ويعطيه فرادته.

يقول ريفاتير : إن اللغة تعبر والأسلوب يجعل لهذا التعبير قيمة.

والبحت الموضوعي يقتضي ألا ينطلق المحلل من النص مباشرة، وإنما ينطلق من الأحكام التي يبديها القارئ حوله . فالظاهرة الأدبية ليست هي النص فقط ولكنها القارئ أيضا، بالإضافة إلى مجموع ردود فعله إزاء النص.

من هنا نستطيع أن نستنتج أن ريفاتير يولي الأهمية الكبرى لأمر خارج حدود النص نفسه، فهو لا ينسب الفضل للمؤلف ولا للسياق الأسلوبي أو التعبير النسقي في الكلام ولكنه يميل صراحة إلى الاعتراف بدور القارئ باعتباره المنتج الأول للنص حيث تتحدد قيمة النص عبره وحده . ويؤكد ريفاتير على دور القارئ وعلى مكانته الأولى في النص مهما كان هذا النص، باعتبار أنه رسالة موجهة إليه، ولولاه لما كان هنالك رسالة . والرسالة نفسها لا تتفتح على مغاليقها إلا من خلال قارئ يفك رموزها .

وقد أعرض ريفاتير عن شرح الكلمة معزولة لأن ذلك يؤدي إلى إنكار الحدث الأسلوبي . ما يجعلنا نقول إن ريفاتير يشاطر رأي عبد القاهر الجرجاني الذي يؤكد أن الكلمة المفردة وحدها ليست هي الأسلوب بل الأسلوب هو طريقة نظم الكلم .

* **الانحراف:** الانحراف عند ريفاتير حيلة مقصودة لجذب انتباه القارئ . ومفهوم الانزياح والانحراف عند ريفاتير انزياح عن النمط التعبيري المتواضع عليه، وهو خرق للقواعد حيناً ولجوء إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر .

* **التشبع:** التشبع مصطلح يستخدم بالكيمياء عادة، ويعني أن المادة المنحلة في السائل - كالسكر في الماء - قد بلغت كميتها حداً لم يعد لكمية السائل معه القدرة على الامتصاص .

أما ريفاتير فقد استعمل هذا المصطلح مجازاً للدلالة على أن الخاصية الأسلوبية هي بمثابة المادة المنحلة، والنص بمثابة السائل، فإذا تكررت السمة الأسلوبية باطراد تشبع النص فلم يعد يطبق إبرازها كعلامة مميزة . ومثال ذلك أن ينبني نص على ظاهرة السجع فإذا تراوحت مواطنها ظلت محتفظة بطاقتها التأثيرية، وإن اطردت اختفى تأثيرها بل لعل

عدول صاحب النص عن ظاهرة السجع يصبح هو نفسه خاصية أسلوبية، في بعض الحالات.

ويمكن تلخيص هذه الفكرة بأن الاستخدام المتكرر لظاهرة أسلوبية معينة لدى كاتب ما أو عدة كتاب يجعل الظاهرة أمرا عاديا ولا يعود لها أي مزية أسلوبية، وهذا الأمر يستدعي من الكاتب أن يبتكر دائما ولا يعتز بظاهرة معينة ويواظب على استخدامها، فمع استخدامها المتكرر تفقد بريقها ولا تعود لها قيمة لدى القارئ.

* **القارئ العمدة Architecteur**: الأثر الأسلوبي يتعلق بالقارئ، لذا فإن النص نفسه سيتعدد دائما بتعدد القراء له، لذلك أراد ريفاتير تعيين الانحراف بمعونة عدد من القراء المدربين على هذا النوع من القراءة، وبمجموع القراءات يصل إلى ما يسميه بالقارئ العمدة. غير أن بعض الباحثين يرون أن عيب هذا الاقتراح أنه مجرد العملية التذوقية من محتواها الشخصي باسم الموضوعية.

* **التواصل** : يركز ريفاتير على فكرة التواصل التي تحمل طابع شخصية المتكلم في سعيه إلى لفت نظر المخاطب، ولهذا اعتنى عناية كبيرة بالمنشئ الذي يشفر (Encode) تجربته الذاتية، وبالمخاطب الذي يفك الشيفرة (décode).
" عندما تستعمل كلمة نظام code بالمعنى اللغوي، يظهر فك الشفرة وكأنه عملية ترمي إلى التعرف على النظام من خلال الرسالة (اللغة من خلال الكلام)، وإبراز البنية المقدره لمستويي اللغة، بالنظر إلى الرسالة المعبر عنها على مستوى العلامات. وفي هذه الحالة مثلا، يطابق عدد عمليات فك الشفرة عدد العناصر الدلالية sèmes التي يتكون منها مدلول العلامة.

غير أن هذا التمثل، وإن كان قابل التطبيق على لسانيات الجملة، فهو لا يناسب تماما لسانيات الخطاب التي يعوض فيها لفظ فك الشفرة بلفظ التأويل¹.

¹- GREIMAS, A. J ; COURTES, J : Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p 84

ويرى ريفاتير أن الرسالة لا يمكن أن توجد بذاتها، وإنما هناك علاقة يجب أن تنشأ بين الرسالة والمخاطب، فالعلاقة التي تقوم بينهما عنصر مهم من عناصر الأسس التي أقام عليها ريفاتير أسلوبه، وهي رؤية تتجاوز كون الأسلوبية في رسالة ما، وإنما يكون للقارئ دور في تمييز هذه العناصر، ولذلك يقوم القارئ في أسلوبية ريفاتير بدور مهم جدا وهو دور يقوم على الوعي والإدراك لما تمثله العناصر الأسلوبية من وظائف داخل النص الأدبي.

ويمثل المرسل والمتلقي طرفي الإخبار عند ريفاتير، فإذا كان الباحث في عملية الإبلاغ العادي يرمي إلى أن يصل بالمتقبل إلى مجرد تفكيك الرسالة اللغوية لإدراكها، فإن غايته في عملية الإبلاغ الأدبي تتمثل في توجيه المتقبل توجهها يقوده إلى تفكيك الرسالة اللغوية على وجه معين مخصوص، فيعمد الباحث عندئذ إلى شحن تعبيره بخصائص أسلوبية تضمن له هذا الضرب من الرقابة المستمرة على المتقبل في تفكيكه للمضمون اللغوي.

وهذه الأفكار تفصل بين نوعين من التواصل البشري : التواصل العادي المجرد من الأسلوب الأدبي البليغ، وهو التواصل القائم على الحاجات والتبادل والخدمات، والجانب الأدبي وهو غير ذلك تماما، إذ يركز على الرقابة المستمرة التي تفرض على المستقبل في عملية التمحيص والتفكيك وإعادة التشكيل. ولكن ذلك يبدو مستحيلا من الناحية العملية، لأن الباحث لا يستطيع أن يكون مهيا ليستوعب قدرة المتقبل على تفكيك النص إذ يستحيل عليه مراقبة كل المستقبلين وخصوصا مع مرور الزمن واستمرارية النص بعد سنين من زوال صاحبه.

* **عنصر المفاجأة** : وهناك عنصر مهم جدا أشار إليه ريفاتير، وهو عنصر المفاجأة من خلال المثير والمنبه الأسلوبية، واعتبر أن القوة الأسلوبية تنتج من إدخال عنصر غير متوقع إلى نموذج، فالسياق الأسلوبية يتكون من نموذج لغوي يكسره بغتة عنصر لا يتنبأ به.

ويرتبط مفهوم الأسلوب عنده بعنصر المفاجأة التي تصدم المستقبل، فكما كانت السمة الأسلوبية متضمنة للمفاجأة فإنها تحدث خلخلة وهزة في إدراك القارئ و وعيه. ومما لا شك فيه أن عنصر المفاجأة عند ريفاتير هو بنفسه تجسيد للانحراف، فقد عرف الأسلوب على أنه انحراف عن المعيار، كما وصف الانحراف بالانزياح، وهو انحراف الأسلوب عن الا استخدام العادي للغة، مما يجعل اللغة تستخدم استخداما غير مألوف.

والكتابة الفنية تتطلب من الكاتب أن يفاجئ قارئه من حين لآخر بعبارة تثير انتباهه حتى لا تفتر حماسه بمتابعة القراءة أو يفوته معنى يحرص الكاتب على إبلاغه إياه.

3-علاقة الأسلوبية بعلوم لسانية أخرى

"تطورت اللسانيات بدخولها ميادين معرفية متعددة أفادتها وأفادت منها، وبذلك تكون اللسانيات تجاوزت حدود الجملة إلى دراسة الخطاب ولاست العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والحاسوب والمنطق والرياضيات وسوى ذلك، وتطورت الأسلوبية وصارت علما له خصو صياته، ولكنها مع ذلك لم تقو على مغادرة دائرة اللسانيات فظلت فرعا من فروعها شأنها في ذلك شأن علم الدلالة وعلم الإشارة السيميولوجيا " وعلم الأصوات".¹

إن علاقة الأسلوبية بسواها من الحقول المعرفية لم تحسم حسما كليا، ولذلك فهي تتقاطع مع غيرها من الحقول المعرفية التي تتناول الخطاب الأدبي بالتحليل . وعلى العموم، تتصل الأسلوبية بعلوم أخرى كثيرة، نذكر منها، على سبيل التمثيل لا الحصر :

1- الأسلوبية وعلم اللغة

تطورت فكرة الأسلوب التي لخصها ابن خلدون (ت 808 هـ) بقوله إنه: "...عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه ال تراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه ". ويحرص ابن

¹ - نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب. ج 1. ص 53

خلدون على تأكيد أن المراد بالمنوال أو القالب هنا شيء غير النحو، بل غير البلاغة والبيان.

" إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال"¹

وهذا التصور لعملية الخلق اللغوي لا يكاد يختلف عن النظرية التي يقول بها تشومسكي الآن، وهي أن ثمة " أبنية عميقة " في ذهن كل مستعمل للغة يستطيع بمراعاتها أن " يخلق " عددا لا يحصى من الجمل التي لم يسبق له سماعها.

أما فرديناند دي سوسير (1857 - 1913 م) فدعا إلى دراسة اللغة كبناء متكامل في فترة زمنية محددة، قبل دراسة التطورات الجزئية التي تطرأ على نطق حرف من الحروف مثلا فتؤدي إلى التغيير في بعض القواعد أو بعض المفردات.

ومن ثم عولمت اللغة على أنها نظام اجتماعي حي ومتكامل، يستخلص من أفواه الناس لا من الكتب فحسب.

نشأت فكرتان بالغتا الأهمية بالنسبة إلى علم الأسلوب وهما وثيقتا الارتباط، ولكن يحسن التمييز بينهما :

الفكرة الأولى التي أدت إلى نشوء علم الأسلوب، هي التمييز بين " اللغة " و" القول "، أو " الكلام ".

وكان سوسير هو أول من ميز بينهما تمييزا علميا دقيقا ورفعهما إلى مرتبة اصطلاحين لغويين. " فاللغة " هي نظام متعارف عليه من الرموز التي يتفاهم بها الناس . أما الكلام فهو صورة اللغة المتحققة في الواقع في استعمال فرد معين، في حالة معينة، وهذا الاستعمال يطابق النظام العام (اللغة) في صفاته الأساسية، ولكنه يختلف في تفصيلاته من فرد إلى فرد، ومن حالة إلى حالة، فلكل فرد من المتكلمين باللغة طريقته

¹ - ابن خلدون: المقدمة. ص 563

الخاصة في نطق الحروف، وإن كانت هذه الطريقة لا تخرج عن دائرة النطق " الصحيح "، وإذا خرجت عن هذه الدائرة كان غرضه لئلا يفهمه الناس، ومن ثم يعد نطقه خاطئاً. ولكل فرد معجمه اللغوي المتميز، فقد يميل إلى استعمال بعض الكلمات دون بعضها الآخر، وهناك كلمات لا يستعملها على الإطلاق، وإن كان يفهم معانيها، وكلمات لا يستعملها ولا يفهم معانيها، لأنها خارجة عن دائرة تعامله أو وعيه . ولكل فرد طريقته الخاصة في بناء الجمل والربط بينها، فهو يستعمل بعض الصيغ دون بعضها الآخر، أو يستعمل أدوات معينة دون أخرى.

مفاد هذه الفكرة أنها تعنى بالسمات المميزة التي تتخذها اللغة في الاستعمال، وهذه السمات هي التي تكون ما سماه أهل الأدب بالأسلوب وهي ترجع اختلاف هذه السمات إلى استعمال الأفراد للغة، وبذلك يمكن أن تؤدي إلى قيام " علم أسلوب ". الفكرة الثانية هي أن الاختلافات اللغوية ترجع غالباً إلى اختلاف المواقف.

فباللغة - باعتبارها نظاماً اجتماعياً تأخذ أشكالاً متعددة فكل فئة من الناس طريقته الخاصة في استعمال اللغة . هناك كلمات تشيع بين النساء ولا تشيع بين الرجال، بل إن الاختلافات بين الجنسين تتعدى المعجم اللغوي إلى نطق بعض الحروف من ناحية، وإلى طريقة بناء الجمل من ناحية أخرى.

وفئات العمر تختلف أيضاً في استعمال اللغة . فالشباب يستعملونها بطريقة تختلف عن طريقة الشيوخ، والأطفال يستعملونها بطريقة تختلف عن هؤلاء وهؤلاء . ثم هناك استعمالات ترتبط بالمهن والتخصصات (الأطباء، القضاة...) ولغة التقارير الاقتصادية تختلف عن لغة الشعر، وهما يختلفان عن لغة العلوم الطبيعية، وقس على ذلك.

وهناك الاختلافات اللغوية بين البيئات الاجتماعية المختلفة (كالبوادي، والريف، والحوضر)؛ فضلاً عن الاختلافات بين إقليم وإقليم، أو بين مدينة وأخرى، فقد توجد في داخل المدينة الواحدة اختلافات ذات شأن بين الأحياء المختلفة والبيئات الاجتماعية المتباينة من حيث استعمال اللغة.

ثم الاختلاف الناشئ عن اختلاف المناسبات الاجتماعية ، فالحديث بين صديقين يجري بلغة تختلف عن الحديث بين رئيس ومرؤوس، وكلاه ما يختلف عن خطبة تلقى في احتفال، بل إن الخطب تختلف فيما بينها باختلاف المناسبات.

هذه الاختلافات كلها وغيرها - مما يصعب الإحاطة به - تشترك في تكوين الموقف الذي يحاول القائل أن يراعيه فيما يختاره من طرق التعبير.

إن القائل يعتمد غالبا على فطنته، وسليقته اللغوية، وخبرته الاجتماعية بما ينبغي أن يقال وما لا ينبغي أن يقال في المواقف المختلفة (بل وكيف يقال أو الطريقة التي لا يجب أن يقال بها).

ولكن علماء الأسلوب يحاولون أن يحددوا الخصائص المميزة لكل نوع من أنواع الاستعمالات اللغوية، ويربطوا بين هذه الخصائص ص أو السمات اللغوية ودلالاتها التي تتجاوز المعنى المجرد. " وإذا كان علم اللغة منصبا على دراسة ما يقال، فإن الأسلوبية انصبحت على كيفية ما يقال، بحيث تتحول الحقائق اللغوية إلى قيم جمالية في الأداء الإبداعي دون وقوع في شرك الفصل بين الشكل والمضمون".¹

وهن تفترق السبل بين دراسي الأدب وبين اللغويين الخالص. فاللغويون يقررون أن القسم الأكبر من " الدلالات " ذو طابع وجداني؛ أي أن القول - بجانب أدائه المعنى - ينقل إلى متلقيه اتجاهها شعوريا معينا : اتجاهها نحو الرزانة أو الخفة، نحو القبول أو الرفض ... ولكن فريقا منهم - مع اعترافهم بأن الأدب هو أغنى أشكال اللغة بهذه الدلالات الوجدانية - يفضلون أن يبعده عن مجال علم الأسلوب، بحجة أن الشاعر أو الكاتب يستخدم هذه الدلالات الوجدانية استخداما مقصودا لإحداث تأثير جمالي، أي أن التأثير الجمالي الذي يتوخاه الشاعر أو الكاتب يضاف إلى الدلالة الوجدانية ويخرجها عن طبيعتها التعبيرية الخالصة.

¹ - د. محمد عبد المطلب: البلاغة و الأسلوبية. مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1994. ص 6

لذلك يرى شارل بالي Charles BALLY (1865 - 1947 م) مؤسس علم الأسلوب الفرنسي (والمدرسة الفرنسية في علم الأسلوب هي التي وضعت القواعد النظرية الأولى لهذا العلم) أن علم الأسلوب يجب ألا يبحث في كيفية استخدام الأدباء لهذه التأثيرات الوجدانية، فلا يسأل عن مدى مناسبتها للموقف الوجداني الذي يصوره الشاعر، أو للشخصية التي يقدمها الروائي أو الكاتب المسرحي. فمثل هذه الأسئلة خارجة عن عمل الدارس الأسلوبي، وينبغي أن تظل من اختصاص الناقد.

الدارس الأسلوبي إذن - في رأي بالي - دارس لغوي محض، يدرس " الخامات " اللغوية من حيث دلالاتها الإضافية مهما تكن طبيعة النص الذي يدرسه، إن كان مأخوذاً من الأدب أو العلم أو الإدارة ... والمسألة عنده مسألة منهج : فالعالم اللغوي يبحث عن قوانين لغوية تحكم عملية " الاختيار " التي يقوم بها أي شخص يستعمل اللغة، ولا يبحث عن القوانين الجمالية التي تخص الأدب دون غيره من الأغراض التي تستخدم فيها اللغة.

ولا تزال هذه النظرة سائدة في أوساط اللغويين ، وإن كان كرسو Marcel CRESSOT - وهو أحد تلاميذ بالي - لا يقبل هذه التفرقة الحاسمة بين التعبيرية والتلقائية من ناحية، والجمالية والقصد من ناحية أخرى، منبهاً إلى أن التأثير الجمالي كثيراً ما يراعى في الاستعمالات " العادية " للغة، ما دام الغرض من هذه الاستعمالات دائماً هو استمالة السامع إلى ما يقوله المتكلم؛ وأن " القصد " ينبغي أن يكون سبباً لتفضيل النصوص الأدبية على غيرها، وليس العكس؛ من حيث إن الاختيار - وهو موضوع علم الأسلوب - يكون مع القصد أظهر . ولكن الاختلاف بين كرسو وأستاذه لا يعدو درجة الاعتماد على النصوص الأدبية. نجد كرسو وآخرين يكادون يقتصرون عليها لسببين : أنها ميسورة، وأنها غنية. ولكن كرسو نفسه يفرق - كما فرق أستاذه - بين " الأسلوب " و " علم الأسلوب ". فهو يقول : " إن في الأسلوب شيئاً يتجاوز واقعة التعبير، والحياة الباطنية

للعمل، منذ ولادته رؤيا غامضة ولكنها متميزة عن كل ما عداها، لا تزال تتشكل شيئاً فشيئاً، مكتسبة الوضوح والقالب، لتصبح الشيء الذي هو موضوع الكتابة¹.

ويدلي النقاد الأسلوبيون بوجهة نظرهم، فهم يرون أن كل هذا الذي ذكره كرسو عن الرؤيا، لا سبيل لنا إلى معرفته إلا من خلال النص المكتوب، وكل معلومة يأتي بها الناقد من خارج هذا النص لتوضيحه - سواء أكانت مستمدة من وقائع عامة معاصرة أم من أحداث خاصة أمت بالكاتب - لا تؤدي إلى اكتشاف الرؤيا إذا لم تكن هذه الرؤيا في النص نفسه.

2- الأسلوبية والنقد الأدبي

يسجل علماء الأسلوب الخصائص التعبيرية لكل نوع من الاستعمالات اللغوية، مفصلين السمات المميزة للنص من حيث نطق الحروف، وصيغ المفردات وأنواعها، وأشكال الجمل وطرق الربط بينها. وربما استخدموا منهج "تحليل المحتوى" المعروف عند علماء الاجتماع فصنفوا أنواع الدلالات في مجموعة من النصوص - دلالات المفردات، أو الصيغ، أو التراكيب - ليجيبوا عن أسئلة معينة تتعلق بالوظائف العملية الظاهرة التي تؤديها هذه النصوص وبذلك يوضحون أسس "الاختيار" في مجال معين من المجالات التي تستخدم فيها اللغة. وفي كل هذه الأنواع من التحليل اللغوي يقف المحلل دائماً عند ظاهر اللغة.

أما الناقد الأدبي² الذي يستخدم التحليل اللغوي فإنه يتعامل مع نص لا يمكنه الوقوف عند ظاهره. والنتائج التي توصل إليها العالم اللغوي بالتصنيف والإحصاء يستعملها الناقد الأدبي وينتج منها دلالات فنية.

"لقد كانت الأحكام النقدية قبل تأسيس النقد في مناهج أحكاماً ذوقية معيارية تقوم على الانطباعات الذاتية ومع هيكله النقد نفسه في الاتجاهات المنهجية الحديثة، ومحاولته

1-CRESSOT,Marcel : Le style et ses techniques.Paris, PUF,s.d. pp. 11-12

2 - شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب.ص 29-34

أخذ الطابع العلمي والموضوعي بالاستفادة من الحقول المعرفية الحديثة كعلم الاجتماع والتحليل النفسي واللسانيات وسوى ذلك، اكتسب النقد الأدبي صفة الموضوعية غير أنه ظل يفتقد إلى طابع الشمولية في دراسة الظاهرة الأدبية لذلك كانت البدائل، وكان التفكير في الأسلوبية بديلا علميا ومنهجيا في تحليل الخطاب الأدبي، لأن الأسلوبية تسعى إلى وصف الظاهرة اللغوية المشكلة للخطاب الأدبي وتحليلها والبحث في دلالاتها وأبعادها الجمالية والفنية دون الخروج على سياق النص".¹

وعمل الناقد الأسلوبي هو تبيين الارتباط بين التعبير والشعور، فيجب أن يكون قادرا على الاستجابة للقطعة الأدبية التي يدرسها. ولقد كان كرسو على حق في تقريره أن دراسة العمل الأدبي لا يمكن أن تقتصر على دراسة عبارته اللغوية؛ فهناك عناصر في الأدب تتجاوز الدلالات اللغوية المباشرة وغير المباشرة مثل الشخصية الروائية، وزاوية الرؤية في العمل الروائي، وعلاقة الزمن الروائي بالزمن الخارجي، وطبيعة الموضوع، وطبيعة "الأنا" في القصيدة الغنائية ...). في الأعمال الأدبية، العلاقة بين المرسل والمستقبل (المبدع والمتلقي) تختلف من فن إلى فن (الرواية أو المسرحية أو الشعر الغنائي ...) ولنوع العلاقة النفسية في كل حالة أثره في اللغة المستعملة. وهذه نقطة من نقاط الالتقاء الرئيسة بين الدراسة الأسلوبية والدراسة النقدية.

وهناك علاقات تربط العمل الأدبي بموقف إنساني له جذوره في الشخصية أو في المجتمع. وهذه لها مسائل لا يمكن بحثها بالمنهج الأسلوبي فقط، فعلم الأسلوب والنقد الأدبي يتعاونان ويتكاملان.

إن النقد الحديث قد استحال إلى نقد للأسلوب، وصار فرعا من فروع الأسلوبية، ومهمته أن يمد هذا العلم بتعريفات جديدة ومعايير جديدة؛ لأن الأسلوبية هي التي تعطي العمل الأدبي تفرده.

¹ - المرجع نفسه، ص53

" فالأسلوبية أصبحت بمثابة منهج علمي في دراسة الأسلوب الأدبي . فهي التي تحدده، وتضبط الطرق العملية لتحليله، وعليه فإن أي نظرية نقدية في الأدب تقتضي بالضرورة الاحتكام إلى مقياس الأسلوب كمظهر للقدر الإبداعية في النتاج الأدبي، من حيث كان الأثر المجسم له، والموضح لمميزاته وخصائصه"¹.
وإذا كان علم الأسلوب أقرب إلى الموضوعية من النقد الأدبي، فإن النقد الأدبي في طريقه إلى أن يصبح بدوره علما.

وإذا استطعنا القول بأن الإبداع يتمثل في الأسلوب، فإن النقد يتمثل في المعرفة، عن طريق فحص هذا الأسلوب، وتبين ما فيه من خصائص، بتحليل مستوياته عن طريق دراسة المكونات الجزئية، من حيث هي مادة وعناصر مكونة للأسلوب، وطريقة لبنائه.

3- الأسلوبية والبلاغة

" إذا كانت البلاغة تنتهي في وصفها وتحليلها عند حدود الجملة، ما عدا مبحث الفصل والوصل ومبحث الالتفات، فإن الأسلوبية تتجاوز ذلك إلى وصف الخطاب وتحليل مكوناته. ولذلك نجد الأسلوبية تستعين بالبلاغة وتتجاوزها، ويتجلى هذا التجاوز في مواطن كثيرة أهمها ما يتفرع عن نظرية الانزياح وظاهرة التناص وسوى ذلك"².

ومن الأسلوبيين العرب الذين زاجوا بين مباحث البلاغة ومباحث الأسلوب، أحمد الشايب وأمين الخولي، وغنيمي هلال.

تظهر ملامح الأسلوبية في تراثنا، بداية من التعريف المتداول للبلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . " فمقتضى الحال يدل على تعدد وتنوع في الأساليب المستخدمة بين ا لمفنن والمتلقي، بمراعاة وضع المتلقي الثقافي والاجتماعي وحالته الصحية والنفسية وغير ذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار المناسبة التي يقال فيها، أي

¹ - عبد السلام المسدي: الأسلوبية و الأسلوب. ص 105

² - د. نور الدين السدي: الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج 2. الجزائر، دار هوم، د. ت . ص 10

مراعاة أدق الجزئيات حتى قالت العرب " لكل مقام مقال ". إذن، فالأسلوبية والبلاغة يجدان في اللغة طرقاً متعددة للتعبير، والقائل أو الكاتب يختار منها ما يراه مناسباً ومؤدياً لغرضه.

ومما يكاد يتصل بالأسلوبية الحديثة في تراثنا البلاغي نظرية النظم، التي فصل الحديث فيها الإمام عبد القاهر الجرجاني، وذلك من خلال دراسته للنحو دراسة جديدة، لا تقوم على الإعراب كما يفعل الآخرون، بل نظر إليه نظرة جديدة من حيث التقديم والتأخير، التعريف والتكثير، وغير ذلك من تغيير في التركيب يتبعه طريقة جديدة في التعبير، أي أسلوب جديد " فالجملة الواحدة تنتقل من ضرب إلى ضرب "، من إنشاء إلى خبر أو العكس ومن استفهام إلى تعجب وغير ذلك.

وإذا كانت البلاغة عند القدماء " مطابقة الكلام لمقتضى الحال ". فكذلك عرفوا علم المعاني بأنه " العلم الذي تعرف به أحوال اللفظ العربي التي يكون بها مطابقاً لمقتضى الحال ".

وعبارة " مقتضى الحال " لا تختلف كثيراً عن كلمة " الموقف ". وكذلك لا نجد اختلافاً أساسياً بين نظرة علم الأسلوب إلى الموقف ونظرة علم البلاغة إلى مقتضى الحال¹. إن القائل يراعي هذا الموقف بأبعاده المختلفة حتى يستطيع أن يوصل المعنى إلى سامعه أو قارئه بطريقة مقنعة ومؤثرة.

والهدف النهائي لعلم الأسلوب هو أن يقدم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب وما يختص به لكل منها من دلالات وهذا نفسه ما يصفه علم البلاغة.

فعلم البلاغة يتناول طرقاً معينة في استعمال المفردات، كالاستعارة والمجاز المرسل والكنائية، ويبحث قيمة كل طريق من هذه الطرق، ويتناول أنواعاً معينة من الجمل الخبرية والجمل الاستفهامية، وطرقاً معينة في تركيب الجملة، كحذف بعض أجزائها أو تقديم بعض أجزائها على بعض، ويبحث قيمة ذلك كله.

¹ - شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، ص 35 وما بعدها

وتقوم العلاقة بين علمي الأسلوب والبلاغة الجديدة على أساس أن الأسلوب دراسة للإبداع الفردي وتصنيف للظواهر الناجمة عنه، وتتبع للملامح المنبثقة منه، قصد رصد أشكال التعبير وقوانينه العامة المستخلصة من البحوث التجريبية. حينئذ يمكن الدخول في دائرة البلاغة العامة التي تستقطب بدورها خلاصة النتائج الأسلوبية بناء على الاتساق والانتظام المعرفي، وتؤسس نظرياتها باحثة عن آليات تماسكها وطرق قيامها بوظائفها وعن الأبنية العميقة التي تكمن تحتها.

" ومعنى هذا أن الطابع المميز للبلاغة - بالقياس إلى الأسلوبية - هو درجة التجريد والتنظيم التقني، لكنه تجريد يبني على التجريب والخبرة بالوقائع، باعتباره نوعاً جديداً من التعميم العلمي"¹.

فالبلاغة الحديثة التي تدخل في حركة التحليل العلمي للخطاب تتخذ مساراً مخالفاً للأسلوبية التي تستهدف التعرف على ما هو خاص. وهذا الملمح وحده يكفي للحيلولة دون أي تمازج بينهما.

يعثر دارس علم الأسلوب في هذا العصر على حصيلة وافرة من الملاحظات حول الألفاظ والتراكيب، ودلالاتها التي تتجاوز الدلالات المعجمية والنحوية. ولكن ثمة فروقا مهمة ينبغي لدارس علم الأسلوب أن ينتبه إليها :

الفرق الأول والأهم يرجع إلى أن علم البلاغة علم لغوي قديم وعلم الأسلوب علم لغوي حديث. واختلاف المنهج بين العلوم اللغوية القديمة والحديثة يعني أن العلوم اللغوية القديمة تنظر إلى اللغة على أنها شيء ثابت، في حين أن العلوم اللغوية الحديثة تسجل ما يطرأ عليها من تغير وتطور.

تتناول البلاغة التقديم والتأخير والسجع وغيرها من الأساليب منفصلة عن الزمن والبيئة. في حين أن علم الأسلوب، كسائر العلوم اللغوية الحديثة، يدرس الظواهر اللغوية - وبالذات الجانب الذي يخصه منها - بطريقتين : طريقة أفقية، تصور علاقة هذه

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 178

الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد، وطريقة رأسية تمثل تطور كل ظاهرة من هذه الظواهر على مر العصور.

ويترتب على هذا الفرق الأساسي فرق ثان على قدر كبير من الأهمية . فما دامت القوانين التي تصل إليها علم البلاغة قوا نين مطلقة، لا يلحقها التغيير من عصر إلى عصر، أو بين بيئة وبيئة، أو شخص وشخص، فمن الضروري أن تراعى دائما، كما تراعى قوانين النحو . حقا أن القوانين البلاغية تقوم على الاختيار بين عدة تراكيب نحوية صحيحة، ولكن هذا الاختيار نفسه محكوم بقوانين تجعل العدول عن الترتيب المناسب طبقا لهذه القوانين خطأ بلاغيا . ولذلك قال البلاغيون عن علم المعاني إنه علم يحترز به عن الخطأ في أداء المعنى المراد، كما قالوا عن علم البيان إنه علم يحترز به عن التعقيد المعنوي، والتعقيد المعنوي عندهم يقابل التعقيد اللفظي، الذي هو خطأ في ترتيب الألفاظ.

أما علم الأسلوب فيسجل الظواهر ويعترف بما يصيبها من تغيير، ويحرص فقط على بيان دلالاتها في نظر قائلها ومستمعها أو قارئها، وهو لا يتحدث عن الصحة أو الخطأ.

" وبالرغم من اعتبار المراوغة الأسلوبية في الأصل حيلة ترمي، من خلال ما يشبه الفعل السببي، إلى إحداث عقيدة معينة عند المستمع، غير أنها تريد على الدوام أن تؤسس نفسها؛ فتنشئ، حينئذ، ما يشبه نظاما ثانيا، يتوازى مع اللغة الموصوفة في كتب النحو والقواميس، على أن يمثل هذا النظام الثاني، على الأقل، جزءا هاما مما نسميه " البلاغة " وقد يمثله كله.

والدلالة لإيحائية *rhétorique connotative* هي التي تسمح بالوصف الجيد للانزلاق الذي أدى من الأسلوبية إلى هذا النوع من النظام المتمثل في البلاغة¹.

¹- DUCROT, O : Dire et ne pas dire, 2° ed. corrigée et augmentée. p 16

فعلم البلاغة علم معياري، في حين أن علم الأسلوب علم وصفي . وهذا لا يعني أن علم الأسلوب يدخل في دائرة تلك العلوم البحتة، التي لا صلة لها بالذوق، ودليل ذلك طبيعة المادة التي يدرسها . فمادة علم الأسلوب هي التأثيرات الوجدانية للظواهر اللغوية التي نكتشفها من خلال وجدان الدارس نفسه . عندما نقرأ نصا ما قراءة أسلوبية، نحاول أن نميز الاختيارات والانجرافات فيه، لأنها هي المفاتيح التي تمكننا من الولوج إلى العالم الشعوري الكامن وراء القطعة الأدبية.

وثمة فرق ثالث بين علم البلاغة وعلم الأسلوب، وهذا الفرق يرجع إلى نظرة كل منهما إلى " الموقف " . فمثلا يقرر علم البلاغة أن الكلام يطابق - أو ينبغي أن يطابق - مقتضى الحال، كذلك يقرر علم الأسلوب أن نمط " القول " يتأثر بالموقف . ومع أننا نستطيع أن نجمع اصطلاحيا " مقتضى الحال " و " الموقف " كليهما " في ظروف القول " فإنه تبقى هناك بعض الفروق في دلالة كل منهما .

فالبلاغيون أنشئوا علمهم في ظل سيادة المنطق على التفكير العلمي ولخدمة الخطابة أكثر من خدمة الفن الشعري . ولذلك فإن أهم عنصر في ظروف القول عندهم هو الحالة العقلية للمخاطب، وإن كانت المادة الأدبية قد فرضت عليهم في كثير من الأحيان الاهتمام بالحالة الوجدانية للمخاطب والمتكلم جميعا .

أما علم الأسلوب فقد نشأ في هذا العصر الذي دخل فيه علم النفس إلى شتى مجالات الحياة، وقد عنى علماء النفس المحدثون بالجانب الوجداني من الإنسان أكثر مما عنى بالجانب العقلي، فإلى جانب العوامل الخارجية الكثيرة، والتي يرجع بعضها إلى القائل وبعضها إلى المتلقي، ويكون بعضها الآخر مشتركا بينهما، كالمنشأ، والجنس، والسن والبيئة والمركز الاجتماعي، هناك العوامل الفردية التي ترجع إلى القائل وحده، وهي عوامل يرجع معظمها إلى الشخصية أو المزاج، كالحدة أو الهدوء، والتواضع والغرور، وما بين هذه الأطراف وغيرها ... من درجات متفاوتة أو متقاربة . هذا كله إلى جانب عامل وجداني مهم آخر وهو موقف القائل من مخاطبه في لحظة القول بالذات .

لقد كان لنشاط الباحثين الغربيين في مجال " الأسلوبية " أثره الواضح في البحث الأسلوبي العربي، وتشكل محاولات أمين الخولي وأحمد الشايب في أواسط القرن الماضي الأساس الريادي في تأصيل علم الأسلوب في العربية انطلاقاً من تجديد البحث في البلاغة العربية في ضوء مفهوم الأسلوب، وكتاب " فن القول " لأمين الخولي على الرغم من نزوعه إلى الجديد يقف من البلاغة التقليدية موقفاً موضوعياً، فهو لا يقول بالغائها أو تعطيلها بل يدعو إلى تجديدها والإضافة عليها.

إن أمين الخولي كان يطمح إلى تأسيس منهج أسلوبي منطلقاً من رؤية لغوية بلاغية في دراسة الظاهرة الأدبية أو كما سمي عمله " فن القول "، وقد كان أمين الخولي يرمي إلى تسهيل دراسة الخطاب الأدبي عن طريق تجديد مناهج الدراسات الأدبية وعلوم العربية، وتقريب الدرس البلاغي من الدرس الأسلوبي الحديث، ولعل الإضافة الأساسية التي جاء بها أمين الخولي هي محاولة تطوير الدرس البلاغي ليتجاوز حدود الجملة واللفظ إلى الخطاب الأدبي كله أو القطعة الأدبية على حد قوله.

يرى نور الدين السد فروقا بين الأسلوبية والبلاغة تتمثل في الشكل الآتي¹ :

علم البلاغة	الأسلوبية
1- علم معياري.	1- علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية.
2- يرسم الأحكام التقييمية.	2- لا تطلق الأحكام التقييمية.
3- يرمي إلى تعليم مادته وموضوعه.	3- لا تسعى إلى غاية تعليمية.
4- يحكم بمقتضى أنماط مسبقة.	4- تحدد بقيود منهج العلوم الوضعية.
5- يقوم على تصنيفات جاهزة.	5- تسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.
6- يرمي إلى خلق الإبداع بوصايا تقييمية.	6- لا تقدم وصايا لكيفية الإبداع الأدبي.
7- يفصل الشكل عن المضمون.	7- لا تفصل بين الشكل والمضمون.
8- يعد الانزياحات وسواها من الظواهر عوامل مستقلة تعمل لحسابها الخاص.	8- تعد الانزياحات عوامل غير مستقلة وتعمل في علاقة جدلية لحساب الخطاب كله.
9- يهتم بفصاحة الألفاظ وانسجام الأصوات في تركيب اللفظ ويقول بهجر الألفاظ غير الفصيحة والمركبة من أصوات متقاربة في المخارج والصفات.	9- تدرس الألفاظ والتراكيب الفصيحة وغير الفصيحة في الخطاب وتحللها وتحدد وظائفها ولا تقول بهجر أي عنصر من عناصر الخطاب.
10- يطلق الأحكام القيمية على أجزاء من الخطاب.	10- لا تطلق أحكاما قيمية على أجزاء من الخطاب أو على الخطاب كله.
11- يشير إلى العناصر البلاغية المكونة للخطاب، دون البحث فيما	11- تشير إلى مكونات الخطاب جميعها وتبحث فيما يفضي إليه بناؤها وتناسقها

¹ - د. نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب . ج 1. ص 27-28

وانسجامها شكلا ومضمونا.	تفصي إليه من بناء وتناسق في شكل الخطاب ودلالته.
12- تحدد الفروق الأسلوبية بين الأجناس الأدبية.	12- لا يحدد الفروق بين الأجناس الأدبية وهي هنا تتفق مع الأسلوبية التعبيرية لشارل بالي.
13- تهتم بتحليل أساليب الخطاب الأدبي دون سواه.	13- يهتم بتحديد إجراءاتها في الخطابات بكل أنواعها.
14- تبحث في قوانين الخطاب الأدبي ومكوناته البنيوية والوظيفية.	14- لا يبحث في قوانين الخطاب الأدبي فقط.
15- تحدد السمات المهيمنة على الخطاب وتهتم بالسمات الأدبية.	15- لا يحدد السمات المهيمنة على الخطاب الأدبي.
16- مقاييس الأسلوبية شمولية في تحليل الدوال والمدلولات ولذلك تفرق بين ما هو أدبي وما هو غير أدبي، وتبحث في كيفية تشكيل الخطاب.	16- يعتمد مقاييس شكلية و لذلك لا يدرس الخطاب الأدبي في شموله، ولا تفرقه من سواه من الخطابات الأخرى.
17- تدرس الخطاب دراسة شمولية من حيث الظاهر أو الباطن.	17- يدرس الخطاب الأدبي دراسة جزئية.

وإذا كانت الأسلوبية ترتبط باللسانيات من حيث النشأة، فهي تسعى لتأخذ خصوصيتها وتحقق استقلالها، ومع ذلك لا يمكن إغفال ما لللسانيات والنقد الأدبي من فضل على الأسلوبية، فقد أخصباها وأرسيا قواعدها.

ومن جهة أخرى تتجلى سيطرة المنطق على علم البلاغة في تبويب هذا العلم فإنه لم يكد يخرج عن موضوعين اثنين : دلالة اللفظ المجرد ويدخل فيه المجاز والاستعارة والكنائية؛ ودلالة الجملة ويدخل فيه الخبر والإنشاء والحذف والذكر والتقديم والتأخير والقصر. ولم تتحرر البلاغة من هذا التبويب المنطقي إلا حين أضافت موضوع الربط

بين الجمل (الفصل والوصل) وموضوع الإيجاز والإطناب . ولكنها تركت ظواهر لغوية مهمة يعنى بها علم الأسلوب . فقبل دراسة الدلالة المعنوية للكلمة يدرس علم الأسلوب تأثيرها الصوتي الذي يرجع إلى طولها و وزنها وطبيعة حروفها . ثم هناك ظاهرة الإيقاع التي تسيطر على القطعة كلها، بل تطبعها بطابع خاص .

ويترتب على الفروق الثلاثة السابقة بين علم الأسلوب وعلم البلاغة فرق رابع وأخير: وهو اتساع آفاق علم الأسلوب اتساعا كبيرا بالقياس إلى علم البلاغة. فعلم الأسلوب يدرس الظواهر اللغوية جميعها، من أدنى مستوياتها - الصوت المجرد - إلى أعلاها وهو المعنى، ثم هو يدرس من الناحية الصوتية الجملة والفقرة والكلمة المفردة، ومن الناحية المعنوية يدرس المعنى الكلي أو الغرض الذي تدل عليه القطعة، كما يدرس دلالات الكلمات والجمل. ثم إن علم الأسلوب لا يكتفي بدراسة الظواهر اللغوية في عصر واحد، ولا يمزج بين العصور كما تفعل البلاغة، بل يمكن أن يتتبع تطور الظاهرة على مر العصور. ولا يكتفي بدراسة الدلالات الوجدانية العامة الزائدة على الدلالات المباشرة لمختلف التراكيب اللغوية، بل يدرس أيضا الصفات الخاصة التي تميز هذه الدلالات الوجدانية في أسلوب مدرسة أدبية معينة أو فن أدبي معين، أو في أسلوب كاتب بالذات، أو عمل أدبي واحد بعينه.

4- الأسلوبية ولسانيات القول Linguistique de l'énonciation

تدين الأسلوبية كثيرا لللسانيات القول . ومن الكتب التي أسهمت في فرنسا في تعميق هذا الاتجاه في البحث وفي انتشاره، كتابا كاترين كيربرات- أوريكيوني C. KERBRAT- ORECCHIONI وهما بعنوان " القول " L'énonciation و " الضمني " " L'implicite ". إن لسانيات القول تدرس الذاتية في اللغة : أي العلامات، والظروف، والتأثيرات والرهانات. وهي لا تهتم إذن بالخطاب المنتج (المقولة) بل تهتم بعملية إنتاجه (القول).

وتسمح لسانيات القول بالإحاطة بالنص بوصفه إبداعا: بذلك، يكون علينا أن نحيط
بآثار الفرد المنتج للخطاب، في أشكاله النحوية، وفي نظام الرمز فيه، وفي تراتب التوابع
السردية، وفي اندماج الشخصيات ونسب تدخلاتها . وينبغي كذلك أن تؤخذ بعين الاعتبار
- من هذا المنظور - جملة من التغيرات التي تسببها في الأ نماط المصادر وترتيب
الكلمات، ولحن الجملة، وأن يعتد باستخدام بعض القيم في المفردات، وبالقيم البراغمية
الخاصة بعدد من الصور، وباستعمال بعض الاستراتيجيات المحاجية argumentatives .
والتداولية Pragmatique أحدثت فروع العلوم اللغوية، وهي التي " تعنى بتحليل
عمليات الكلام والكتابة، و وصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات
التواصل، مما يجعلها ذات صبغة تنفيذية عملية"¹.

ليست لسانيات الخطاب مادة ذات موضوع محدد تحديدا جيدا، ولكنها " مجموعة من
البحوث التي تتناول اللغة بالتركيز خاصة على نشاط المتحدثي ن، والديناميكية الأدائية،
والعلاقة مع السياق الاجتماعي، الخ.

ومنه، يتجاوز " الخطاب " المقصود في هذا المستوى المواد الأخرى (كعلم
الاجتماع، وعلم النفس والتاريخ ...) أو التيارات الأخرى التي تتخذ موضوعا لها . على
أن كل واحد منها يحدد شبكته المفاهيمية الخاصة به، ويؤسس تعاريف مصطلحاته
كالخطاب، والنص، والمدونة، والملفوظ، الخ"².

5- الأسلوبية وتحليل الخطاب Analyse du discours

يعتبر تحليل الخطاب أحد التيارات اللسانية الكبرى التي تستقي منها الأسلوبية الحديثة
حيويتها.

تقتضي الممارسة اللغوية أن نعزل المكونات الإخبارية وأن نضعها جانبا، وأن نقيس
العناصر الأيديولوجية والمحورية وكذلك الثقافية، التي يرجع الخطاب إليها في عمله، وأن

¹ - REBOUL, ANNE; MOESCHELER, Jacques: Pragmatique du discours. Paris, Armand Colin, 1998. p 31

² - MAINGUENEAU, D : L'analyse du discours. p 11

نشير إلى توجهها بالنسبة إلى هذه العناصر وإلى الرهان الذي تمثله هذه العناصر في الخطاب.

كما ينبغي أن نبحت في الوسائل البلاغية التي تتكون منها محاجته، وأن ندرس العلامات التي تتحدد فيها خصائصه القولية.

إن الربط بين طرائق تحليل الخطاب وموضوع الأسلوبية واضح في الأعمال الأدبية، حيث تظهر فائدة هذه التحليلات في الأفكار المحاجية للشخصيات (في المسرح والرواية)، وفي التوسعات التأملية والنظرية عموماً وذات المواضيع المختلفة التي نجدها عند عدد كبير من كتاب النثر، وحتى في الشعر الغنائي؛ ومن جهة أخرى، إذا اعتبرنا مجموع الأدب خطاباً، بالمعنى اللساني للكلمة، لسلمنا بأن قسماً كبيراً من هذا الخطاب، إذا أدرك في كليته، ينقسم إلى خطاب سردي وخطاب وصفي. ولقد درس الخطاب السردى كثيراً، بسبب الدور المثالي والمؤسس الذي قام به علم السرد البنيوي "عند بروب" وعند أتباعه.

ومن العلوم المتصلة بالأسلوبية كذلك:

* **السيمولوجيا Sémiologie**: لقد زاد الدراسات الأسلوبية ثراء وخصباً ظهور علم الإشارات أو السيميولوجيا في القرن التاسع عشر على يد بيرس PEIRCE الذي أخذ يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقتها في جميع الأشياء والموضوعات الطبيعية والإنسانية.

وأصبحت السيميولوجيا من العلوم الجديدة التي أسهمت في تأكيد الصلة بين الأدب والنقد، بل إنها هي التي ساعدت في ظهور الاتجاهات التحليلية في النقد الأدبي.

* **علم السيمياء Sémiotique**: لا يمكن إدراك علم السيمياء بعزل عن مجموع المقاربات البنيوية. فإذا كان هذا العلم قد تطور تاريخياً في كنف سيمياء السرد الروائي، فإن الأمر يتعلق هنا بعلم يتفرع في معظمه عن علم الدلالة وعن نظرية المعنى.

وعلم سيمياء النص هو -جوهريا- عبارة عن تحليل بنيات المعنى في النصوص الأدبية، مع اعتبار الحثيات التي تتعلق بالأثر غير اللغوي للممارسات اللغوية، أي البرهان البراغماتي.

كما يتصل علم سيمياء النص بالتساؤلات الأساسية لعلم الجمال والتمثيلية الأيديولوجية الثقافية.

* علم المفردات **Lexicologie**: "إن العلم الذي يبدو الصلة معه الأكثر طبيعية، أو الأكثر ضرورة، هو علم المفردات . لا يتعلق الأمر أساسا بتاريخ تشكل الكلمات، مع أنه من الممكن أن يكون ضروريا، في بعض أنواع النصوص، أن تقيم نوعية الكلمات من منظور الشكل (الكلمات البسيطة، أو المشتقة، أو نوع الاشتقاق، الفئة المفرداتية ...)، وكذلك يحتمل أن تقيم من منظور قدم التعبير، أو استحداث المعنى، أو تطابق المفردات تطابقا تاما أو غير تام مع هذا الوسط أو ذاك . وعلى الرغم من ذلك، تظل هذه المسائل الأخيرة على درجة كبيرة من الأهمية"¹.

وعموما، الجانب الدلالي هو الجانب الذي يهتم الأسلوبية . إن علم المفردات، من حيث هو علم يهتم بوحدة التسمية التي هي الكلمة، يقوم ببحوث في مسار المرجع والتسمية، وبالتالي في مسار المعنى.

ثم إن مفهوم الحقل الدلالي يشير إلى تحليل التركيبية ال دلالية لكلمة من الكلمات بالنسبة إلى كل الميادين الاجتماعية التي يمكن أن تتحرك داخلها . و "الحقول التصورية champs notionnels" تحدها ما يسمى عادة بالمفردات المرتبطة - في نص من النصوص - بهذه الكتلة الاجتماعية أو تلك " الحقل التصوري للعواطف، للحياة البحرية، للزمن... أما علم المفردات الكمي، فإنه يقوم على إحصاء المفردات . يستند إلى طرائق ذات طبيعة لسانية ورياضية، هدفه عزل الوحدات، ودراسة هويتها، وعودة ظهورها، وتواترها، والأبعاد النسبية لهذه التواترات وفقا للسياقات.

¹ - جورج مولينييه: الأسلوبية. ص 111

4- التجديد في الأسلوبية العربية :

1- الاتجاهات الأسلوبية في الوطن العربي

إن تحليل الخطاب الأدبي مع اختلاف مدارس واتجاهاته، وعلى تنوع روافده العلمية والفلسفية والمعرفية يرمي إلى الاتسام بطابع العلمية وما تتميز به من ضبط إجرائي ومنهجي.

يرى شكري محمد عياد¹ أن الكلام عن الأسلوب قديم، أما " علم الأسلوب " فحديث جدا و إن كان ذا نسب عريق عندنا، لأن أصوله ترجع إلى علوم البلاغة. فظهرت رغبة الكاتب أن ينشئ - في ثقافتنا العربية - علما جديدا مستمدا من تراثنا اللغوي والأدبي، ومستجيبا لواقع التطور في هذا التراث الحي، ومستفيدا من دراسات أهل الغرب بالقدر الذي يمكن من رؤية التطور المعاصر رؤية تاريخية، وقراءة التاريخ قراءة عصرية.

وقد برزت في العصر الحاضر دعوات متعددة إلى التجديد في الدرس البلاغي وذلك لغايات أبرزها : تيسير دراسة المواد الأدبية من أجل تحقيق المطلوب بجهد و وقت أقل، مع مسايرة العصر من حيث استعمال اللغات وطرائق التوصيل الجديدة، بحيث تتحقق الفائدة والتأثير بما يتفق وحاجات الدارس المتجددة، تصل البلاغة بالحياة، فنتحقق الغاية الأولى من البلاغة ومطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال.

من هنا تعددت الدراسات البلاغية في العصر الحاضر، وبرزت بوجه جديد وليست ثوبا عصريا يعبر عن قضاياها بمصطلحات معاصرة جديدة لينماز بها عن علوم الأقدمين . فظهرت الأسلوبية العربية في بداية القرن العشرين تمثل منهجا نقديا، يهتم بدراسة الأسلوب، ويعنى بإمكانات اللغة التعبيرية، فهو علم يتناول النصوص بالتحليل والدراسة اللغوية بقصد الكشف عن أسلوب صاحبها أولا، وطرق تفكيره ونفسيته وعواطفه ثانيا.

¹ - شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، ط4. ص 5

وهي إذ تهتم باللغة والأسلوب والكاتب، تربط ذلك كله بالموقف الذي انطلق منه الكاتب أو المتفنن حيث يبدع بتعابير لغوية خاصة . وفي ذلك يبرز الربط واضحا بين البلاغة العربية القديمة والأسلوبية العربية الحديثة.

ومن الدعوات التي قامت في العصر الحديث تدعو إلى التجديد، كتاب الدكتور " محمد بركات أبو علي " بعنوان " كيف نقرأ تراثنا البلاغي " فإن العنوان نفسه ينبئ بموقف من القديم ويهيئ لأسلوب جديد في دراسته وإعادة قراءته . فقد وقف من القديم وقفة إجلال وتقدير على أن يبقى أساسا للبلاغة الحديثة. فهو يدعو في كتابه هذا إلى إعادة دراسة البلاغة القديمة باتباع طرائق الدرس الحديثة . ويقدم دعوته تلك على قاعدة قومية منها إقرار لوظيفتي البلاغة : الدينية، والتي تسعى لإبراز نواحي الإعجاز في النص القرآني. إذ يؤكد في أكثر من موطن في كتابه أن البلاغة قد نشأت من أجل خدمة النص الرباني، وإبراز نواحي إعجازه في نظمه وبيانه؛ والوظيفة الدنيوية التي تقف عند فنون القول العربي بشكليه الشعري والنثري لتبرز جوانب الجمال والحسن فيه.

وهو يرى أن علم الأسلوبية الحديث ما هو إلا صورة جديدة للدرس البلاغي القديم، ولكن بحلة عصرية انبثقت من ظروف بيئية واجتماعية وثقافية ونفسية مختلفة . فجاءت بقوالب علمية واصطلاحية حديثة تتناسب ومعطيات العصر الحاضر، فإذا كانت البلاغة العربية تهتم بالتركيب وشبكة المعاني داخل النص، فإن الأسلوبية الحديثة تعنى بها كذلك.

وإذا كانت البلاغة تنظر إلى قدرة الكاتب على التوصيل والتأثير فإن الأسلوبية تهتم بذلك أيضا، وإذا كانت البلاغة تهتم بقيمة الكلمة أو العبارة أو التركيب في الكشف عن الأسرار النفسية والاجتماعية والسلوكية، فكذلك الأسلوبية . كل ذلك ربط بين المتلقي والمتفنن من خلال اللغة التي يعبر بها، وشبكة العلاقات بين الألفاظ والتركيب . ومن هنا اختلف الأسلوب بين كاتب وآخر، لأن الظروف التي تحيط بكل كاتب تختلف من كاتب لآخر، وبالتالي ينفرد بلغته عن سواه. فنجد كلا منهم يستخدم المفردات والتركيب اللغوية والصور استخداما خاصا يميزه عن غيره، وقد يخرج بها عما هو معتاد ومألوف،

ليوصف بالإبداع والتفرد، ومن ثم التأثير وإصابة القلوب . وهذا ما يسمى في الأسلوبية بالانزياح. وهو الذي يميز الكلام الفني عن غيره.

وقد حاول الدكتور أبو علي في كتابه المذكور أن يؤكد على الصلة الوثيقة بين البلاغة العربية وعلوم اللغة الأخرى، ويدلل على ذلك أن البلاغة لا بد لها من فهم التركيب اللغوي والنحوي والصرفي للشاهد البلاغي، ومعرفة المسائل الصوتية واللسانية، ثم فهم سياسة التوصيل والتأثير، وبالتالي فهي قادرة على التحدي والاستفادة من مناهج الدرس الحديث اللساني والصوتي واللغوي والنقدي والأسلوبي.

وقد قيل إن القدماء قد قصرُوا البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أداؤها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة أو الجملة المتصلة في معنى واحد، ولم يجاوزوا ذلك . وأما المعاني الأدبية والأغراض الفنية، التي تظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته فلم ينظروا فيها . فكيف يلتقي ذلك الحكم بمفهوم البلاغة " مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال بتأثير " ؟

لقد أشار الدكتور أبو علي في كتابه إلى قضية التوصيل والتأثير كوظيفة أساسية من وظائف البلاغة، وهذا مرتبط بطبقات الكلام ومستوياته، فأعلاه طبقة القرآن الكريم في أعلى مراتب الإعجاز، ودونه كلام البلغاء من الناس . فالقرآن الكريم، حين يخاطب الناس ينتقي الأساليب المؤثرة بحسب مستويات المتلقين ثقافيا واجتماعيا ونفسيا وحضاريا ومذهبيا، ومن هنا يكون التأثير الذي يصيب القلب ولا يخطئه.

وماذا عن قول الجاحظ في تعريفه للبيان العربي مؤكدا أن البيان يحتاج إلى تمييز سياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى علم الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن ... لقد أدرك هذا العالم أن الأسلوب الجميل المؤثر يقوم على أصول تجمع بين حسن الاختيار للألفاظ والدلالات، وصوغها في صور وتراكيب محكمة من أجل التوصيل الجيد، والتأثير القوي، من خلال جمل متناسقة متناغمة.

أما أبرز رواد الأسلوبية الأدبية عربيا فهم : الدكتور محمد الهادي الطرابلسي والدكتور محمد عبد المطلب والدكتور صلاح فضل والدكتور شكري عياد ومحمد العمري والدكتور عبد السلام المسدي، ولعل أهم الكتب التي تناولت الأسلوبية نظريا، كتاب: " الأسلوبية والأسلوب " لعبد السلام المسدي (الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا) وكتاب: " علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته " لمؤلفه صلاح فضل.

إن ظاهرة الانزياح في الخطاب النقدي العربي الحديث تستقطب اهتمام كثير من الباحثين، وقد درست ظاهرة الانزياح تنظيرا وتطبيقا، ولم يهمل النقاد العرب الإشارة إلى الباحثين الأسلوبيين والشعريين الغربيين الذين قالوا بالانزياح، كما أنهم لم ينقلوا آراء الدارسين الغربيين دون إضافة أو تأصيل للانزياح في النقد الأسلوبية العربي.

ويرى محمد العمري أن نظرية الانزياح باعتبارها إجراء لغويا تجد بعدا مهما في التراث البلاغي العربي في الحديث عن المجاز والعدول والتوسع، وليست نظرية الانزياح في صياغتها اللسانية المتقدمة إلا محاولة لتفسير ما عبر عنه من ذ القديم بالغرابة والعجب كما هو في كلام الجاحظ.

وقد ركز صلاح فضل في كتابه على أهم المدارس الأسلوبية في الغرب وعلى أهم الإجراءات الواجب توفرها في أثناء دراسة النص الأدبي دراسة أسلوبية إلا أن ما يؤخذه بعض الدارسين على هذا الكتاب غموض منهجه وصعوبة فهم مصطلحاته نتيجة غموض المناهج التي أخذ عنها.

والدراسة التي جمعت الاتجاهات النظرية والنصوص التطبيقية تتمثل في كتاب " خصائص الأسلوب في الشوقيات " لمؤلفه محمد الهادي الطرابلسي (عام 1981) الذي تناول فيه أشعار الشاعر الكبير أحمد شوقي تحليلا وتطبيقا . فبدأ بالإيقاع الذي تولده نصوصه الشعرية من قواف وجناس وطباق وتقطيع ثم تناول فن المقابلة وخصائصها كالمقابلة السياقية والتركييبية واللغوية وخلص إلى أن فن المقابلة في شعره من أهم

المقومات الشعرية التي تغني نصوصه وقصائده على الصعيدين اللفظي والدلالي معا؛ كما تناول دلالة الكلمات كالرمز والصورة الشعرية والتشبيه والتشخيص والتجريد واستنتج أن الصور الشعرية عند شوقي متنوعة منها البسيطة ومنها المركزة ومنها العنقودية ومنها الشبكية. وهكذا جاءت دراسته شاملة وافية لهذا الجانب الأسلوبي التطبيقي وهو ما يزال إلى الآن رائد الدراسات الأسلوبية على الصعيد العربي.

أما الجهود الأسلوبية التي قام بها كل من شكري عياد ومحمد حماسة عبد اللطيف وسعد مصلوح فقد أفضى بعضها إلى التوظيف والخلط بين المنهج الأسلوبي والمنهج البلاغي مثل ما فعل محمد عبد المطلب في كتابه : " المذهب البديعي في شعر الحداثة "، واعتمد بعضهم على المنهج الإحصائي مثل الدكتور سعد مصلوح الذي أخذ يرصد تردد المفردات والأسماء والصفات عند بعض الشعراء، فأبعد الجوانب النفسية والجمالية والدلالية التي تتعلق ببنية النص الداخلية فبقيت هذه الدراسات - في نظر بعض الدارسين - جافة بعيدة عن الجو الشعوري والنفسي للنص الأدبي، وبعضها الآخر تناول النص الأدبي من وجهة نظر نحوية بحثه مثل الدكتور شكري عياد، حيث أخذ يرصد العلاقات والروابط النحوية، وعمل على تجزئة النص، وفرعه وفككه تبعا لعلاقاته وروابطه النحوية في كتابيه : " دائرة الإبداع " و " اللغة والإبداع ". فعلى الرغم من أهمية هاتين الدراستين إلا أنه غلب عليهما الجانب النحوي على الجانب الأسلوبي والبلاغي معا.

أما الدراسة الأسلوبية في سورية فقد جاءت سطحية بالمقارنة مع الدراسات الأسلوبية في مصر والمغرب العربي باستثناء دراسات الدكتور كمال أ بو ديب الذي يعد بحق رائد الدراسات الأسلوبية في سورية وخاصة في كتابه : جدلية الخفاء والتجلي الذي يعد تحفه أسلوبية لما يمتاز به من جدة واجتهاد، إذ انطلق فيه من بنية النص الداخلية وبالتحديد من ثنائياته الضدية التي تؤدي إلى التوتر والانزياح في بنية نصوصه الشعرية.

: وتجدر الإشارة كذلك إلى دراسة الدكتور عبد الكريم حسن في كتابه " الموضوعية البنيوية " الذي سار فيه على منهج فاينريش بتقسيم النص تبعاً لعلاقاته النحوية؛ مما أدى إلى نفور بعض الدارسين من هذه الدراسة وانصرافهم عنها.

2- تجربة عبد السلام المسدي¹

ما هذه الدراسة إلا عينة تعبر عن جهد باحث...

يشغل التحليل الأسلوبي للنص الأدبي موقعا مهما في الاستقصاء النقدي الحديث . لذلك يحرص الناقد العربي الحديث، منذ نهاية السبعينات، على أخذ التحليل الأسلوبي للنص مأخذ الجد في ممارسته النقدية الشاملة، فكان أن ظهرت بعض الاتجاهات الأسلوبية الحديثة في قراءات عدد من النقاد العرب المحدثين، ومنها اتجاهات اشتبكت داخل لغة نقدية وسميولوجية أشمل، واتجاهات قلصت حدود الفاعلية الأسلوبية إلى لون من التحليل الأسلوبي الذي يعتمد كلياً على آليات التحليل اللساني والبلاغي فحسب؛ أي أن هناك بعض النقاد الذين أحالوا التحليل الأسلوبي إلى ملحق باللسانيات وقصروا الفاعلية الأسلوبية على الفعالية اللسانية، بينما سعى عدد أكبر إلى إدماج التحليل الأسلوبي، الذي يعتمد بدوره إلى حد كبير على مستويات التحليل اللساني بالتحليل النقدي الشامل، أي اعتبار التحليل الأسلوبي مجرد وجه واحد من أوجه المنظور النقدي، الذي يمتلك شمولاً وتكاملاً.

والدكتور عبد السلام المسدي هو واحد من النقاد واللسانيين العرب الذين عنوا في وقت مبكر بمشكلات درس الأسلوبي أولاً والتحليل الأسلوبي والنقدي ثانياً . فقد سبق له ودرس الوجه التاريخي لللسانيات العربية، كما توقف أمام مختلف مستويات البحث اللساني الحديث و تطوره، وأصدر عام 1977 كتابه " الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل أسلوبي في نقد الأدب " الذي يتميز بفهمه الحديث للأسلوبية . وقد حاول المسدي في كتابه هذا أن يبسط مشروعاً طموحاً لوضع التحليل الأسلوبي في موقع متقدم في الفعالية النقدية العربية.

¹ -فاضل تامر: اللغة الثانية.ص. 92 وما بعدها

لقد تناول عبد السلام المسدي تطور مصطلح الأسلوبية عند النقاد والأسلوبيين في الغرب أمثال تشومسكي وسوسير ورولان بارت وجاكسون وقد قسم كتابه إلى ستة فصول، ختمه بكشف كامل لأهم المصطلحات الأسلوبية في الغرب مثل : الانزياح والانحراف والمجاورة والتناظر والتضاد والتوازي والتماسك والتكثيف والازدواج وغيرها من المصطلحات.

لم يحاول المسدي التقليل من الفعالية النقدية لحساب تضخيم دور الفعالية الأسلوبية، بل فعل العكس تماما محاولا أن يعطي للأسلوبية ح جمها الحقيقي ونفى أن تؤول الأسلوبية إلى نظرية نقدية شاملة لكل أبعاد الظاهرة الأدبية . ففي النقد إذن بعض ما في الأسلوبية وزيادة، وفي الأسلوبية نفي النقد إلا بعضه.

عرض لمناهج أسلوبية، وصنفها ضمن ثلاثة اتجاهات : مصادرة المخاطب (بالكسر) ومصادرة المخاطب (بفتح) ومصادرة الخطاب، وقدم تصورا لا يخلو من الانتقائية والتوفيقية دعا فيه إلى الأخذ بكل هذه الاتجاهات وعدم إهمال أي منها لأنها تؤدي إلى دراسة شمولية للظاهرة الإبداعية . فالنظرية النقدية الأدبية - على حد تعبير المسدي - تجسم تقاطع ظواهر ثلاث : حضور الإنسان مؤلفا كان أو مستهلكا أو ناقدا، وحضور الكلام، فحضور الفن.

غير أن الناقد لم يلتزم بمنهجية أسلوبية واحدة دائما، كان ينطلق وفقا لما يمليه عليه النص الذي يحلله، فتارة يتقيد بالتحليل اللساني الصرف، وتارة أخرى يفيد من مستويات التحليل البلاغي التقليدي، وفي بعض الأحيان يلجأ إلى بعض مستويات الأسلوبية الإحصائية مقيما إحصائيات وجداول وقياسات رياضية صارمة.

وقد ينساق إلى نوع من التحليل النفسي للكشف عن طبيعة تشكل الملفوظ الشعري، وهو في كل ذلك لا يقتصر دائما على التحليل النصي الداخلي، بل يدعم فحصه ببعض مستويات التحليل الخارجي، فلا يهمل ما يقدمه المرجع التاريخي والثقافي والإيديولوجي من دعم للتحليل الأسلوبي والنقدي . ومن هنا يمكن القول إننا نجد في دراسات المسدي النظرية وفي تطبيقاته وتحليلاته الأسلوبية والنقدية جوانب تمثل أكثر المناهج الأسلوبية

المعروفة، فهناك مظاهر واضحة لأسلوبية بالي التعبيرية، وملامح واضحة لمنهجية جاكوبسون الوظيفية، وعناصر مهمة من أسلوبية ريفاتير العاطفية، بل نجد صدى صريحا لمقولة بوفون ذائعة الصيت " الأسلوب هو الرجل ذاته " التي حاولت الاتجاهات الأسلوبية الحديثة أن تتجاوزها.

وإذا فحصنا مسيرة الناقد الأسلوبية لوجدناها تمر بمرحلتين أساسيتين :
الأولى، وهي التي قدم فيها دراسته عن الشابي والمتنبي، وكان ينصب فيها تركيز التحليل الأسلوبية من وجهة النظر الوظيفية على استكناه طبيعة الفاعلية التعبيرية من طرف المرسل (أي المؤلف) أساسا. ويمكن تصنيف هذا اللون من التحليل الأسلوبية في " الأسلوبية العاطفية " حيث التركيز على دور الذات الفاعلة في عملية خلق الرسالة الشعرية.

أما المرحلة الثانية فتمثلها تجربة الناقد في تحليل قصيدة أحمد شوقي، وهي أقرب ما تكون إلى استلهاهم " الرسالة " الشعرية ذاتها (وهو في هذا يقف إلى جانب جاكوبسون) في تركيزه على استخلاص مقومات أدبية أو شعرية الرسالة الشعرية. إلا أن المسدي من جهة ثانية لا يقتصر فقط على استكناه تشكلات الصوغ الشعري على مستوى " الكلام " - في فرادته - وإنما يتعداه إلى استقراء ما هو جوهرى على مستوى " اللغة " في شمولها ومعيارياتها.

إذن، تجربة الناقد عبد السلام المسدي هي تجربة خصبة ومتطورة، وتتبعها بإمكانية الانفتاح مستقبلا على آفاق متجددة في مجال معاينة النص الأدبي أسلوبيا ونقديا.

أما أهم مشكلات الدراسة الأسلوبية في سورية والوطن العربي فالباحث عصام شريتح¹ يلخصها فيما يأتي :

المشكلة الأولى: هي تنوع المدارس الأسلوبية ومناهجها والخط فيما بينها جميعا دون تحقيق دقيق لهذه الدراسات وتبني المنهج والإخلاص له.

¹ - عصام شريتح: الأسلوبية و روادها عربيا. رؤية في إشكالية دراستنا الأسلوبية. مقال نشر في أنترنيت يوم الثلاثاء 08 / 11 / 2005

المشكلة الثانية: هي أن أغلب دراساتنا الأسلوبية تتبنى المنهج الإحصائي الذي يؤدي إلى عمليات حسابية غالبا ما تكون بعيدة عن شعرية النص وفضائه النصي، فتفقد هذه الدراسات قيمتها لأنها تفتت النص دون أن تستخلص قيمته الفنية أو وظيفته الجمالية.

المشكلة الثالثة: هي افتقار هذه الدراسات إلى التطبيق الأسلوبي المنهجي الدقيق، وقلما نجد دراسة أسلوبية توفق بين الجانب النظري والجانب التطبيقي.

المشكلة الرابعة: هي تركيز نقادنا على ظواهر أسلوبية معدة مسبقا عند الشعراء، مثل : التناسخ والتضاد والتوازي والازدواج والأسطورة وغيرها من الظواهر الأسلوبية الأخرى، حتى ولو لم تكن هذه الظواهر متوفرة فعلا عند هؤلاء الشعراء، مما يؤدي إلى غربة هذه الدراسات وعدم مصداقيتها بالنسبة للمتلقي / القارئ والناقد.

ويخلص الباحث إلى أن مثل هذه المشكلات لن نتغلب عليها إلا بإخلاصنا لمناهجنا

وسعيينا الدؤوب إلى توظيف التراث بما يتواءم و واقع حياتنا وموروثنا الثقافي و واقع الحضارة وثورتها العلمية، حتى نرتقي نقديا وأسلوبيا على الصعيد العربي وربما العالمي على المدى الطويل.

خاتمة الباب الثاني

أطلعنا النظرة الشاملة لعلوم اللسان الحديثة على مدى ثراء هذا الميدان ببحوثه القديمة (المتصلة بالبلاغة واللغة والفلسفة والمنطق ...)، والجديدة (المتفصلة حول اللسانيات)، وصعوبة فحص كل هذه الفروع والإحاطة بتفاصيلها. والمهم هو إدراك مدى خدمة هذه العلوم للبلاغة، ومحاولة إحيائها على أسس قوية تمكنها من احتلال المكانة المرموقة التي فقدتها مع الأيام بسبب إهمال الدارسين لها وتقاعسهم.

فأعمال الجاحظ والجرجاني وبييرلمان وجاكوبسون وغيرهم تدعو ك لها إلى تثمين البلاغة وإبراز دورها في الكلام - إرسالا واستقبالا - وإن اختلفت في درجة عنايتها بعناصر القول مثل: وسائل الإقناع، النص أو الخطاب ذاته، ظروف القول... وإذا كانت علوم اللسان الحديثة مدينة للبلاغة بنموها وتقدمها فهي اليوم تسهم إسهاما أساسيا في بعثها من جديد وإحراقها منزلتها . فتناول النص الأدبي اليوم لا يمكن أن يتم بعيدا عن الإجراءات المنهجية التي سنتها علوم اللسان والبلاغة معا . وهذا موضوع نفضله في الباب الثالث .

الباب الثالث

نحو تحديث تدريس البلاغة العربية

الفصل الأول : أسس تعليمية البلاغة

- 1- مفاهيم تعليمية أولية
- 2- علاقة تدريس البلاغة بفروع اللغة الأخرى
- 3- أهداف تدريس البلاغة

الفصل الثاني: مظاهر الممارسة البلاغية

- 1- موقع تدريس البلاغة في الوقت الحاضر
- 2- المؤلفات البلاغية في العصر الحديث
- 3- الدرس البلاغي بين الواقع و الآفاق

الفصل الثالث: سبل تحديث البلاغة العربية

- 1- مقترحات عربية للتجديد البلاغي
- 2- مقترحات البحث

الخاتمة

تمهيد الباب الثالث

تعرضنا في البابين السابقين إلى طبيعة البلاغة العربية وتطورها عبر التاريخ، واتصالها الحديث بعلوم اللسان الغربية، ومحاولة نهوضها؛ إذ كان هذا جانبا من موضوع بحثنا. أما الجانب الثاني مما يشغلنا، فيتصل بتعليمية البلاغة العربية ومحاولات تحديثها ضمانا لتدريس ناجع وفعال في محيط ثقافي ومعرفي متجدد. لقد استثمرت، في الغرب، النظريات والبحوث والدراسات اللسانية في إجراء الدرس البلاغي الذي صار جانبا من الجوانب التي تتكفل بها دراسة النص. كما أسهم علم التعليمية في تطوير طرائق وسبل التعليم المناسبة لخصوصيات فروع المادة، دون أن يغفل طابعها الشمولي وطبيعتها.

حينئذ، سنهتم في هذه المرحلة من عملنا بواقع الممارسة البلاغية التي تتأرجح بين التقليد والتحديث. وعليه، أطلقنا عنوان " نحو تحديث تدريس البلاغة العربية " على هذا الباب.

ففي الفصل الأول، سنركز على " أسس تعليمية البلاغة"، بناء على أهمية هذا العلم في تطوير طرائق التدريس في المواد المختلفة، ومنها البلاغة، ومراعاتها لمقتضيات الممارسة البيداغوجية من جهة، وطبيعة كل فرع من فروع المادة الواحدة، من جهة أخرى.

ونحاول في الفصل الثاني أن نحلل بعض مظاهر الممارسة البلاغية ونبين " موقع تدريس البلاغة في الوقت الحاضر"، في المحيط الاجتماعي والتعليمي، في الوطن العربي وفي فرنسا. وسنقدم بعض " المؤلفات البلاغية في العصر الحديث"، وهي مجموعة من الكتب، منها ما هو موجه للتعليم ومنها ما يرمي إلى دراسة وتحليل بعض الظواهر

البلاغية وتنظيرها؛ وهو موجه، بالدرجة الأولى، إلى من يريد أن يتفقه في البلاغة أكثر من توجهه إلى تلاميذ المؤسسات التعليمية.

وتكريسا لما سبق ، سنرصد بعض ممارسات تدريس البلاغة في الجزائر وفي الوطن العربي، من خلال مميزات الطرائق التعليمية المعتمدة وخصائص الكتب المدرسية؛ وكذلك من خلال الممارسة الصفية التي تدعو إليها التوجيهات التربوية والبرامج الدراسية، ما تعلق منها بالطرائق التقليدية وما بدأ بعض الباحثين ينادون إليه بغية " أجرأة " الدرس البلاغي. وبغية تحديد موقع هذه الممارسات الميدانية الفعلية من الأسس المعيارية، نتحول في العنصرين الأخيرين من الفصل الثاني (متطلبات الدرس البلاغي، وتقييم الجانب البلاغي) إلى ما ينبغي أن يكون في القسم : ابتداء من مراحل الدرس إلى تقييم مكتسبات المتعلمين.

أما الفصل الأخير، فسندمج فيه أهم المقترحات التي جادت بها قريحة باحثين عرب، سعيا منهم إلى إخراج البلاغة من القوقعة التي عاشت فيها قرونا طويلة، والنهوض بالبلاغة العربية.

ونتوج عملنا بإضافة بعض المقترحات التي نراها أساسية ووجيهة في سبيل إرساء تعليمية خاصة بالبلاغة، ولنكفل لبلاغتنا المكانة التي تستحقها في التعليم.

الفصل الأول

أسس تعليمية البلاغة

- 1- مفاهيم تعليمية أولية
- 2- علاقة تدريس البلاغة بفروع اللغة الأخرى
- 3- أهداف تدريس البلاغة

1- مفاهيم تعليمية أولية

ينظر الباحثون اليوم إلى "التعليمية" باعتبارها علما . وشأنها شأن كل العلوم، تختص بمصطلحات تحدد نشاطها . لذلك، وتحريا للدقة العلمية واحتراما للمسعى المنهجي المطلوب، سنتناول، في هذا الفصل، بعض المصطلحات التي تستعمل في مجال التعليمية، وسنعمل على تعريف إجرائي لبعضها، ب النظر إلى تداولها وأهميتها في الممارسة التربوية؛ ومنها:

- البيداغوجيا والتعليمية
- التعلم والتعليم
- ما وراء المعرفة Métacognition
- الكفاءة والوضعية المشكلة
- أهداف الدرس وهيكلته
- المقاربة والطريقة
- الإدماج

• البيداغوجيا والتعليمية

خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، اهتمت اللسانيات بطريقة علمية وتقنية لتعليم اللغات وتعلمها، متخذة في ذلك تسمية " اللسانيات التطبيقية" . ثم، وبشكل تدريجي، استرجعت البيداغوجيا الميدان الذي كانت تسميه بالمنهجية أو بيداغوجيا اللغات، تحت غطاء التعليمية.

ومنه قد نتحدث اليوم عن "علم التعليمية" Didactologie (غاليسون R.GALISSON 1988)، خاصة بعد أن استقلت تعليمية اللغات عن المواد الأخرى . ومنذ 1970، تحولت النظرة إلى مصطلحي " التعليمية" و "اللسانيات التطبيقية"، اللذين كانا يعتبران مترادفين. يحاول الباحثون اليوم تقليص الفارق الموجود بين العلوم الإنسانية (اللسانيات، والأدب، والسيما...) ومحتويات التعليم وكيفيةه . وعليه، ننقل من المواد التطبيقية إلى

مواد تتدخل لجعل المعارف قابلة للتعليم، رغم أن هذه المعارف أعدت بعيدا عنها ولأغراض أخرى.

" يقصد بالبيداغوجيا، في الوسط المدرسي، كل ما يتعلق بفن تسيير القسم، أو كل ما كان يعتبر سابقا تنظيما للعمل . ولا تنأى ممارسة هذا "الفن" إلا بالتفكير في موارده وغاياته"¹.

أما التعليمية، و هي ترجمة للكلمة اليونانية Didaktikos، فهي تعني ما هو خاص بالعلم. وهي، في حقيقة الأمر، تعليميات، لأنها تخص فنا أو كيفية تعليم مفاهيم مادة معينة، وتعالج الصعوبات التي تتصل بميدانها . وهكذا، تكون التعليمية خاصة دائما بمادة، أو بميدان معين من هذه المادة، أو بمفهوم منها . ولذلك ينفي كثير من الباحثين وجود تعليمية "عامة". فلا يمكننا أن نتصور ماذا تكون تعليمية اللغة العربية، بينما نتصور بوضوح تعليمية النحو، وتعليمية العروض، وتعليمية البلاغة ... والتمييز بين تعليميات فروع المادة الواحدة لا يعني غياب عناصر مشتركة بينها.

تستند التعليمية إلى عدة ميادين معرفية للاضطلاع بمهمته المتمثلة أساسا في الإعداد للتعليم والتعلم وتهيئة أحسن ما يؤدي إليهما . وقد تستفيد من تقاطعها مع علم الاتصال، واللسانيات، والفلسفة، وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية وغيرها . كما يمكن المواد الأخرى أن تستغل النتائج التي تتوصل إليها التعليمية، بناء على أنها تعين الميادين الأخرى في سعيها لتحديد العلاقات بين تعليم المعارف والتعلم، وذلك من خلال تخطيط الأهداف والمصادقة عليها وعلى الوسائل الكفيلة ببلوغها. والتعليمية " تأمل موضوعه المعارف وكيفية نقلها جزئيا أو كليا، من أجل تمكين المتعلمين منها"².

وهي " تسعى إلى تسيير التعليم و التعلم، من خلال طرائق التعليم وممارساته"³. وهي مادة تربوية تطبيقية تقوم بتخطيط الوضعية البيداغوجية، ومراقبتها وتعديلها؛

¹- CORNU, L ; VERGNIUOX, A : La didactique en questions. P 10

²- BIARD, Jaqueline ; DENIS, Frédérique : Didactique du texte littéraire. Paris, Nathan, 1993. p 14

³- LEGENDRE,R: Dictionnaire actuel de l'éducation, 2e ed. Montréal, Guérin, 1993. p 357

وتسهل على وضع المبادئ النظرية الضرورية للحل الفعلي لمشاكل المحتوى والطرائق وتنظيم العمل. لذلك تعمل على التجريب وتقييم وضمان رجوع الصدى المستمر لمجموعة منظمة من الأهداف والاستراتيجيات البيداغوجية التي تسمح لمجموعات فرعية من التلاميذ ببلوغ أغراض المنظومة التربوية.

ويعتبر بروسو G. BROUSSEAU (1983) أن التعليمية " دراسة علمية تعمل على تنظيم وضعيات التعلم التي يعيشها ال طالب من أجل بلوغ هدف معرفي، أو وجداني أو حركي"¹.

وإذا كانت البيداغوجية " تستعمل المعطيات التي توفرها التعليمية قصد إحداث أحسن التعلمات عند كل التلاميذ عن طريق تطبيق أحسن وضعيات بيداغوجية ممكنة"². ففي المقابل، تراعي التعليمية المعطيات الناتجة عن الممارسة البيداغوجية من أجل تصور تخطيط يستجيب للحاجات التربوية المختلفة.

ومن منظور تعليمي (ديداكتيكي)، يتناول التقييم تخطيط الوضعية البيداغوجية حتى تحدد صلاحيتها وتحسن عند الضرورة. أما من منظور تربوي (بيداغوجي)، فمردودية التلاميذ هي التي تقيم قصد التعرف على درجة نجاح تعلماتهم سواء كان ذلك بهدف التقييم التحصيلي أو التقييم التكويني.

وإذا سلمنا بالفكرة المنتشرة التي تقضي بأن البيداغوجيا تبحث عن الأمر الصحيح، فإن التعليميات تبحث عن صحة القول والفعل أمام التلاميذ بالنظر إلى محتويات التعليم. تحدد البيداغوجيا الطرائق والمساعي التي تسمح بتوجيه المتعلم في تعلماته المختلفة؛ لذلك قد نتحدث عن "البيداغوجيا الفارقة" (التي تراعي الفروق بين التلاميذ) أو "البيداغوجيا بالأهداف" (التي تؤسس التعليم على الأهداف) على سبيل المثال.

¹ - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

² - LEGENDRE,R: Dictionnaire actuel de l'éducation. P 358

والبيداغوجي العصرية تعتمد على ثلاثة مبادئ أساسية هي¹ :

1-الدافعية، لأن النشاط الشخصي للمتعلم لا يمكن أن يحدثه الضغط، بل ينبغي إثارته بالاهتمام.

2-تكييف المحتويات والطرائق مع اهتمامات المتعلمين، وحاجاتهم وقدراتهم.

3-التدرج، ويكون من المعلوم إلى المجهول، من السهل إلى الصعب، من البسيط إلى المعقد، ومن الملموس إلى المجرد، ومن الخاص إلى العام.

يقدر الدارسون حق التقدير المشكلات النظرية التي يطرحها كل واحد من هذه المفاهيم، والمشكلات العملية التي تسببها محاولة تفصلها أثناء الإعداد الفعلي لدرس في اللغة.

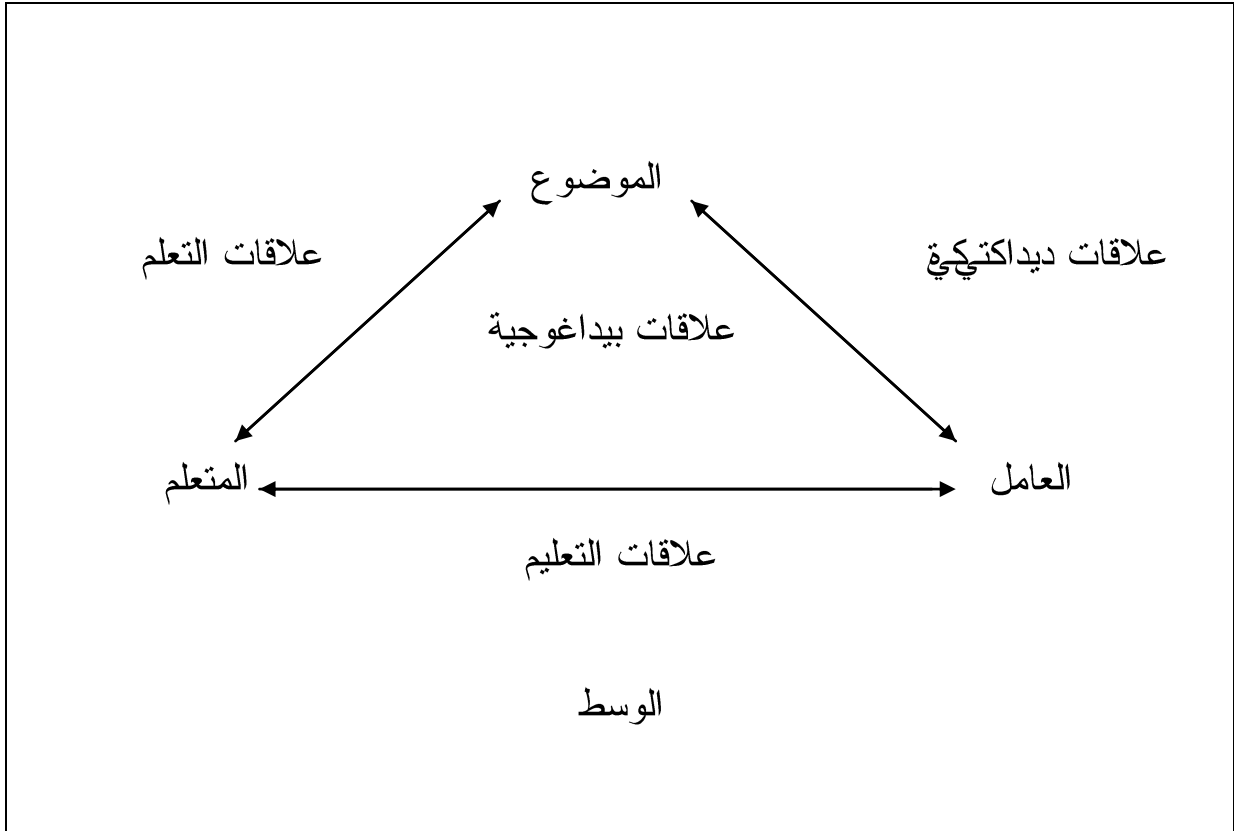
لذلك يقال إن سلطة التعليم تابعة لكفاءة الأستاذ؛ فانشغاله بالفعالية *efficacité* وصحة معارفه يؤديان به إلى المزيد من الحرص على كيفية شرحه وتفسيره وتعليمه للمحتوى، الذي ينبغي أن يصبح معرفة يكتسبها كل تلميذ.

حينئذ، لا يكون الانشغال التعليمي للأستاذ مركزا على تسيير القسم بقدر م^ا يكون مركزا على تصور درس أو إعداد تمرين، ومراعاة تدرجهما الخاص. وبعد ذلك فقط، يهتم الأستاذ بتسيير القسم.

وهكذا يقع موضوع التعليمية في "المثلث التعليمي *triangle didactique*" الذي يركز على العلاقات القائمة بين الأستاذ والمتعلم والمعرفة، إذ يهدف هذا التمثل أساسا إلى معارضة التصورات الخطية التي تتجسد في علاقة: أستاذ - تلميذ.

¹ - Puren, Christian : Histoire des méthodologies des langues. P 134

و تمثيلا لهذه العلاقة الثلاثية، يقترح لو جندر LEGENDRE (1983) النموذج الآتي¹:



وإضافة إلى حرص الأستاذ على صحة المفاهيم التي يقدمها للتلاميذ، يسعى إلى أن يفهمه كل تلميذ، وأن يبلغ "المعرفة" بطريقة صحيحة ووفية ومناسبة. " والمقصود بالصحة هو الدقة في التعبير؛ إذ ينبغي تعليم المصطلحات الدقيقة وشرحها، وتقديم معادل لها في عبارات أو جمل، أو من خلال صور أحيانا. وتكون التمارين صحيحة إذا عرض الأستاذ بعض الطرق المؤدية إلى حلها، أو قدم تفسيراً مؤقتاً لمعطياتها حتى تكون قابلة لفهم المتعلم الذي لا يتحكم فيها بعد؛ ولا يتم ذلك إلا بمراعاة المفاهيم المعرفية وبالرجوع إليها دائماً².

وبناء على ما سبق، تعتبر التعليمية علماً تطبيقياً أو قابلاً للتطبيق. كما تعتبر المكان الذي تتمفصل فيه المعرفة المقدمة للمتعلم، والمحتويات، والطرائق، والتقنيات.

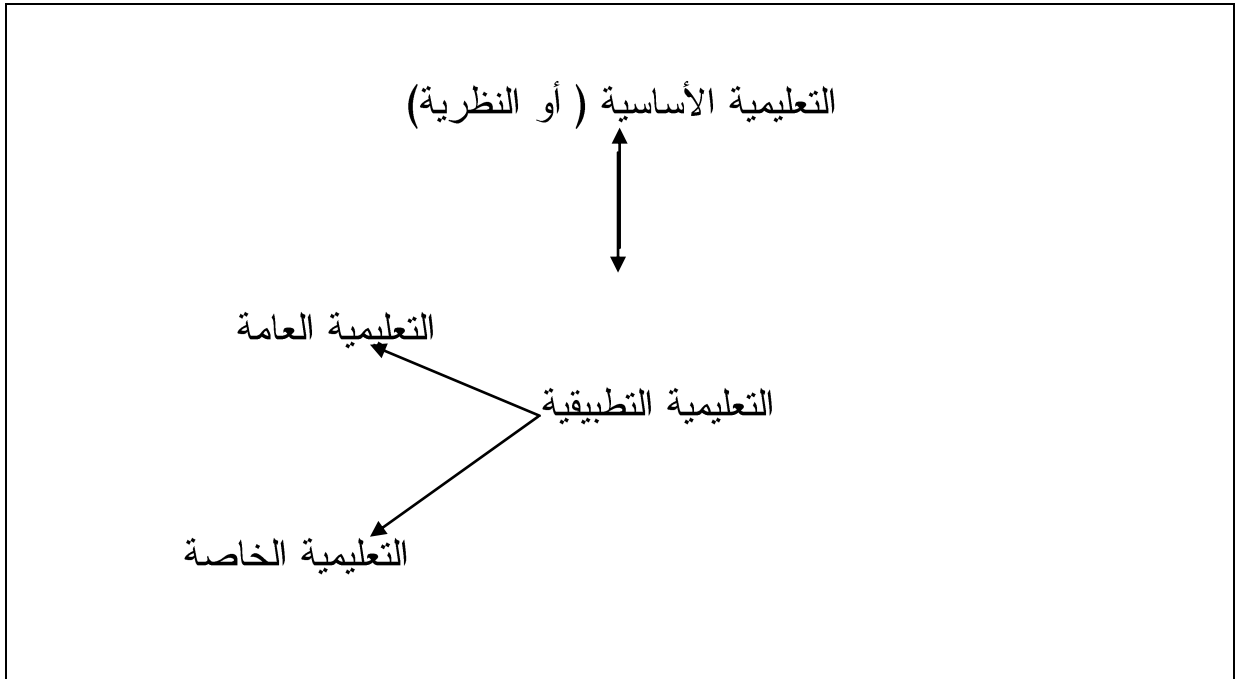
¹ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 1168

² - المرجع نفسه. ص 15

تشارك اليوم كل التعليميات (في اللغات والعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية) في نقطة انطلاق كل تعلم، وهي تمثلات المتعلم والتصورات الموجودة في ذهنه، ومنظومة معرفته. فالباحث التربوي يركز على ما يسمح بالتعلم، ويستعمل الفروق أو المستويات التي قد تظهر بين التلاميذ، ليحلل طبيعة التمثلات الخاطئة ويرفع الحواجز التي تشوش التعلم أو تمنعه.

وينبغي الإشارة إلى أن التعليمية تستند إلى عدة ميادين معرفية للاضطلاع بمهمتها الأساسية، ألا وهي الإعداد للتعليم والتعلم. فقد تستفيد من تقاطعها مع علم الاتصال، واللسانيات، والفلسفة، وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية وغيرها. كما يمكن المواد الأخرى أن تستغل النتائج التي تحصل عليها التعليمية، في شأن العلاقات بين تعليم معارفها وتعلمها، من خلال تخطيط الأهداف والمصادقة عليها، وعلى الوسائل المساعدة على بلوغ هذه الأهداف.

أما تصنيف التعليمية، فيظهر في الشكل الآتي¹:



¹-Dictionnaire actuel de l'éducation. p 359

يظهر أن **التعليمية الأساسية**، هي وجه من التعليمية تتضمن مجموع المعطيات النظرية والمبادئ العامة المتصلة بتخطيط الوضعيات البيداغوجية وهي لا تراعي بالضرورة التطبيقات العملية الخاصة.

والتعليمية التطبيقية، هي فرع من التعليمية يحتوي على مجموع المعارف الوظيفية، يقصد به التخطيط العملي لمجموعة من الوضعيات البيداغوجية الواقعية؛ عملاً بمبدأ أساس يقضي بتفاعل التعليمية الأساسية والتعليمية التطبيقية وتكاملهما. أما **التعليمية العامة**، فمبادئها وإجراءاتها قابلة ل تطبيق على كل المحتويات وكل المهارات المدرسية وكل مستويات التعليم. تهتم التعليمية العامة بتسيير العمل الصفي (الدروس النظرية، الأعمال التطبيقية الفردية أو الجماعية، استعمال الكتب المدرسية...).

تمكن التعليمية العامة الأستاذ من طرح المشكلات المتصلة ب التعليم طرحاً جيداً، وتسمح له بمواجهتها. وهذه المشكلات قد تقع على مستويات أربعة هي¹ :

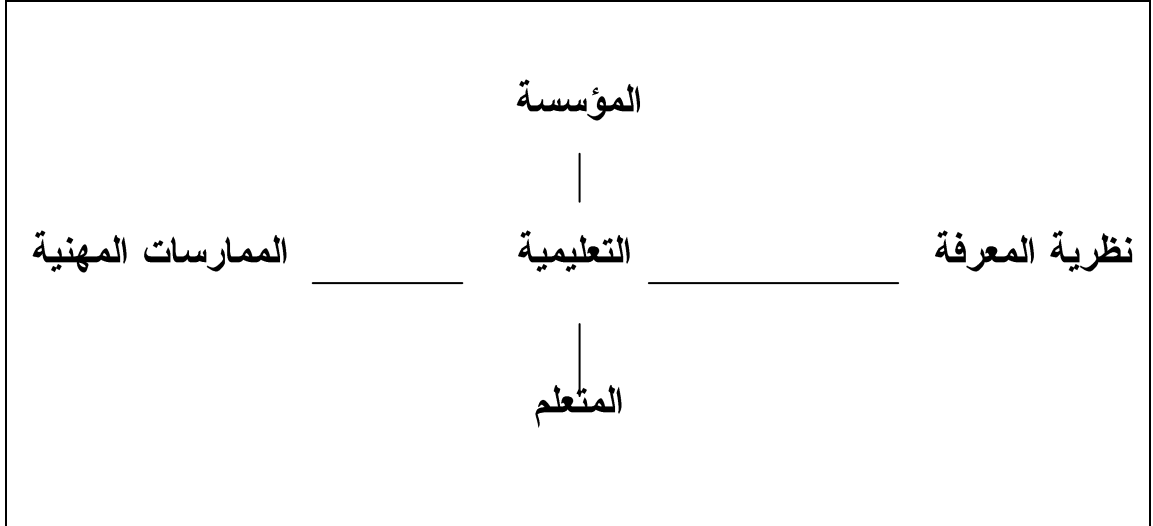
- 1 - **المستوى المؤسسي**، الذي يرتبط بغايات المنظومة التربوية، وتنظيم مسارات التعليم، والتوجيهات، والبرامج، والامتحانات، والكتب المدرسية ...
- 2 - **المستوى المهني**، أو مستوى ممارسات الأست اذ المتعلقة بتنظيم الوقت، وتحديد الأهداف، وتمفصل المحتويات، وإعداد التقييم.
- 3 - **المستوى النفسي**، الذي يتكفل بالمتعلم من ناحية معارفه الاجتماعية والثقافية، وبنموه المعرفي (المعتقدات، المعارف، التمثلات، استراتيجيات التعلم...).
- 4 - **مستوى المعارف**، أو المستوى الخاص بنظ رية المعرفة، الذي يحرص على بناء محتويات التعليم، وهيكله المادة مثلما ينبغي أن تقدم للمتعلمين، والتفكير في الأسس العلمية والنظرية لهذه المعارف، والمشكلات التي ي طرحها استعمال مصطلحات خاصة، وتحسيس المتعلم بتاريخ تعليم المادة ، وبرهاناته ونقاط القطيعة والاستمرار فيه.

¹ - BIARD, Jaqueline ; DENIS, Frédérique : Didactique du texte littéraire. pp 10-17

ومرد التركيز على هيكله المعارف هو أنها عامل ضروري للاحتفاظ بها؛ يقول برونر 1977 BRUNER : " المعارف التي نكتسبها دون هيكله مناسبة تمكننا من الربط فيما بينها، هي معارف مقدر عليها بالنسيان"¹.

ويضيف أوزربال وروبينسون (AUSUBEL ET ROBINSON) (1969): " إذا حاول المتعلم أن يحتفظ بفكرة فربطها بما سبقت معرفته، يمنحها بهذه الطريقة معنى، فيحدث تعلم ذو دلالة. لكن، وعلى عكس ذلك، إذا حاول أن يحتفظ بالفكرة فقط، دون ربطها بمعرفة موجودة، فستحدث، في هذه الحالة، عن تعلم ميكانيكي"².

وتلخيصا لما سبق، نرسم الشكل الآتي :



إن الاهتمام بهذا الإطار العام للتعليمية لا يعني إهمال التعليمات الخاصة التي تطورت في نهاية القرن العشرين بناء على انشغالات الأساتذة و ضيقهم وتطلعاتهم. تضم التعليمية الخاصة :

- * تعليمية الكتابة، وهي الفرع من تعليمية اللغات الذي يهتم بتعليم اللغة وتعلمها، سواء كانت لغة الأم أو لغة ثانية، من منظور الإنتاج الكتابي.
- * تعليمية التعبير الشفوي، وهي تخص بالدراسة الفهم والإنتاج الشفوي.

¹- GOUPIL, Georgette ; LUSIGNAN, Guy : Apprentissage et enseignement en milieu scolaire. p 54

²- المرجع نفسه. ص 58

* **تعليمية القراءة**، وتهتم التعليمية الخاصة بتخطيط التعليم والتعلم في مادة معينة، لإكساب مهارات خاصة، باستعمال وسائل محددة في اتجاه تلاميذ معينين (تهتم بتعليم مادة في قسم، أو طور دراسي أو مستوى تعليمي)؛ مثلا: تعليمية اللغة العربية في المرحلة الابتدائية.

والتعليمات الخاصة، وهي تنتمي في إطار شامل للتعليمية العامة، تراعي مبادئها ونتائجها. غير أن التعليمية الخاصة، تهتم بتخطيط أدق للوضعية البيداغوجية بمراعاة شديدة لمميزات المتعلمين وخصوصيات المادة (هيكلية المادة ومنطقها، ترتيب المفاهيم، المنهجية)، وكذلك مواصفات الوسائل المقترحة (نماذج التعليم وتقنياته). إلى جانب الأنواع السابقة يوجد **تعليمية اللغات**، التي تهتم بتخطيط تعليم اللغات الأم واللغات الثانية.

تحرص التعليمية الخاصة على التمييز بين المادة discipline وفرع المادة matière. فالمادة هي " مجموعة خاصة من ال معارف ذات مميزات خاصة على مستوى التعليم، والصياغة، والآليات، والطرائق والمواد الفرعية"¹. أما فرع المادة أو المادة الفرعية فهي " جزء من مادة يحددها برنامج دراسي، وهي موضوع تعليم مدرسي"².

فاللغة العربية مادة، أما البلاغة فهي فرع من فروعها، مثلها م ثل النحو والصرف والتعبير والإملاء والقراءة...مما يجعل التعليمية الخاصة تعالج تدريس البلاغة على حدة، وكذلك النحو، والصرف...مركزة على طبيعة كل فرع من هذه الفروع وخصوصياته ومع ذلك تراعي الروابط التي تجمعها في " كل" منسجم وهو اللغة العربية.

¹ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p378

² - المرجع نفسه. ص 819

• التعلم والتعليم

تركز المقاربات الجديدة على **التعلم** أكثر من تركيزها على التعليم رغم أنهما يمثلان وجهين لعملية واحدة؛ ويعود سبب ذلك إلى أن التربية الحديثة تنظر إلى المتعلم على أساس أنه محور العملية التعليمية - التعلمية.

والتعلم هو اكتساب معارف ومهارات جديدة، وتغيير معارف أ و مهارات قد سبق اكتسابها. و " هو الفعل الذي يقوم به الفرد عندما يدرك شيئاً و يتفاعل معه و يدمجه . وهو كذلك اكتساب معارف وتنمية مهارات، ومواقف وقيم تضاف إلى البناء المعرفي للشخص . وهو أيضا المسار الذي يسمح بتقديم حصيلة معارف الشخص ومهاراته ومواقفه وقيمه"¹.
وللتي يتم التعلم، ينبغي أن تتوفر شروط ثلاثة هي² :

1 - أن يقع تغير في السلوك أو في المهارات،

2 - أن يكون هذا التغير نتيجة لممارسة أو تجربة،

3- و أن يدوم هذا التغير نسبيا.

أما **التعليم** " فهو نشاط يرمي إلى نقل معارف نظرية وتطبيقية، وإنماء أو إكساب قدرات ومهارات، وكذلك تنمية مواقف"³؛ وهو عملية يراد بها إحداث تغيير في السلوك . وقد يكون هذا التغيير المطلوب تغييرا في الحركة، أو العقيدة أو العاطفة أو المعلومات⁴:
1- **ناحية المعرفة والثقافة**: إذا تعهدنا تلميذا بالتعليم فإننا نحاول تغيير معلوماته، بتزويده بألوان جديدة من المعرفة والثقافة لكي يضيفها إلى رصيده.

2- **ناحية العاطفة والوجدان**: إذ نحاول إثارة عواطفه وبعث أحاسيسه ورياضة ذوقه من خلال الدراسة الأدبية.

3- **ناحية العمل**: حيث نسعى إلى زيادة حظه من القدرات والمهارات العلمية، مثلما يحدث في التعبير .

ولتكريس هذه النواحي في سلوك المتعلم، " قد تتخذ النصوص الأدبية محورا

للدراستات اللغوية"¹.

¹ - المرجع نفسه. ص 67

² - GOUPIL, Georgette ; LUSIGNAN, Guy : Apprentissage et enseignement en milieu scolaire. p 7

³ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 507

⁴ - الموجه الفني. ص 36

• معرفة المعرفة أو ما وراء المعرفة Métacognition

تحت التربية الحديثة المتعلم على اتخاذ استراتيجيات ذهنية يحل بها تعلمه، يستمدّها من حقل " معرفة المعرفة"، على اعتبار أن ما وراء ال معرفة هي " معرفتنا الخاصة لمساراتنا المعرفية، ونتائجها وكل ما يتصل بها"². وهي كذلك: " مسار ذهني قد يكون موضوعه نشاطا معرفيا أو مجموعة من النشاطات المعرفية التي أنجزها الفرد أو هو بصدد إنجازها"³.

فما وراء المعرفة، وهي معرفة المعرفة أو معرفة المسار المؤدي إليها، أصبحت حقلًا للبحث بفضل أعمال فلافل J. H. FLAVELL (في حدود 1970)، فضلا عن انتمائها إلى العلوم المعرفية.

فالمسار ما وراء المعرفي هو مسعى يمكن المتعلم من تحليل نشاطه المعرفي وتقييمه بغية العثور على الاستراتيجيات المناسبة والفعالة؛ مما يسمح له باكتساب استقلالية في تعلمه واحتلال مكانة العنصر الفعال فيه.

• الكفاءة و الوضعية المشكّلة

تعتبر التربية الحديثة المتعلم محورا للعملية التعليمية / التعليمية، وتحفزه على بناء معلوماته معتمدا على نفسه، وجعله شريكا فعالا في تعلمه، وتوجيهه نحو الفهم والتحليل والاستنباط بدلا من تكليفه بالحفظ والاسترجاع.

ولتجسيد هذه المبادئ، يقترح علم النفس المعرفي والمدرسة البنائية - مما يقترحان- أسلوبا في التعلم يعتمد على حل المشكلات.

وقد شاع هذا الأسلوب في المؤسسات التربوية والجامعات الغربية ابتداء من سبعينيات القرن الماضي، لكونه: " قاعدة بيداغوجية تراهن على المشاركة النشطة للمتعلمين في سيرورة تعلمهم الذي يبدأ بمشكلة لم يتلقوا بشأنها أي تكوين مسبق... إن الهدف من استخدام هذا الأسلوب هو بلوغ النوعية الجيدة في اكتساب المعلومات وحفظها وإنماء

¹ - المرجع نفسه. ص 37

² - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 834

³ - المرجع نفسه. ص 835

قدرات من مستويات عالية كالتحليل والتركيب والتقييم وتحويل المعلومات . بالإضافة إلى اكتساب كفاءات الاتصال والعمل الفوجي والقدرات العلائقية والإدماجية¹.

ومما تدعو إليه التربية الحديثة، تبني المقاربة بالكفاءات التي تجعل المتعلم قادرا على الفعل والممارسة أثناء وبعد تدرسه، على أن لا تكتفي المدرسة بالتكوين النظري بل تسعى إلى الربط بين المحيط الاجتماعي والممارسة العملية.

يعتبر لو بوترف Le BOTERF بأن قدرة المتعلم على الفعل تعني " معرفته لكيفية دمج وتجنيد ونقل مجموعة من الموارد (المعلومات، المعارف، المؤهلات، التفكير ..)، في سياق معين لمواجهة مشاكل مختلفة تعترضه أو لتحقيق مهمة ما"².

تتكون الكفاءة من مجموعة منظمة من القدرات التي تمارس على المحتويات في صنف معين من الوضعيات لحل المشكلات التي تطرحها هذه الوضعيات . ومنه، تتكون الكفاءة من: المحتوى، والقدرة والوضعية. وتعرف الكفاءة على أنها كذلك " مجموعة من المعارف ومن المعارف الفعلية Savoir- faire التي تسمح بالقيام، بكيفية مناسبة، بعمل أو مجموعة من الأعمال"³.

والتدريب على الكفاءة يتم بالضرورة داخل وضعية اندماجية دالة، مثل الإجابة عن رسالة صديق؛ إذ تمكن الوضعية الاندماجية المتعلم من إظهار قدرته على تجنيد مكتسبات مختلفة بشكل عملي، وهدفها في ذلك إعطاء معنى للتعلّيمات . والهدف إذن هو حمل التلاميذ على تجنيد معارفهم داخل وضعية دالة، عوض أن يقتصر في تعليمهم على عدد كبير من المعارف المجزأة.

وغاية التعلم هي أن يتمكن المتعلم من استخدام المعرفة المدرسية في وضعيات يكون التعليم فيها غائبا؛ على أن تعد الوضعية المشكّلة بكيفية تجعل التلاميذ غير قادرين

¹ - محمد الطاهر وعلي: الوضعية-مشكلة في المقاربة بالكفاءات. طبعة 2007. ص 6

² - ROGIERS, Xavier: Une pédagogie de l'intégration. Belgique, De Boeck Université, 1996. p 66

³ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 223

على الجواب عن السؤال المطروح بمجرد تكرار المعارف أو تطبيقها، بل تستوجب صوغ فرضيات جديدة.

والوضعية "هي مفهوم متداول يستعمل غ البال لتعيين المحيط الذي ينجز فيه نشاط أو يقع فيه حدث. علما أن الوضعية تتصل بهدف التعلم الذي " يحدد التغيرات الدائمة التي ينبغي أن تحدث لدى المتعلم، أثناء وضعية بيداغوجية أو بعدها"¹.
والوضعية البيداغوجية هي " وضعية سياقية يقع فيها سيرورة التعليم والتعلم"².

كما يقصد بالوضعية المشكّلة " مجموع مسبق من المعلومات ينبغي تفصلها من أجل نشاط محدد"³. حينئذ، يمكن استعمال وضعية مشكّلة لجعل المتعلم في قلب عملية التعلم؛ باعتبارها " شرارة الانطلاق في سيرورة البحث وطرح التساؤلات... ونشاطا يتضمن معطيات أولية وهدفا ختاميا، وصعوبات"⁴.

وهكذا يتعلم التلميذ كيف يجند معارف وقدرات في وضعية تقترح عليه؛ بناء على أن الكفاءة لا تتحقق إلا إذا توافرت القدرة على إدماج مجموعة من التعلمات السابقة.

فالوضعية تمثل إذن نموذجا لتنظيم التعليم الذي يمكن وصفه بما يأتي :

1- **الدافعية**، وتتمثل في الفضول الذي يثيره السؤال، " ومن أجل خلق دافعية المتعلم وإحداث موقف إيجابي لديه، ينبغي التأكد من أن ما يقبل على تعلمه إنما سيرجع عليه بالفائدة"⁵، إذ سيستخدمه في حياته ويستغله في شتى نشاطاته.

2- وجود المتعلم في وضعية بناء معارفه.

3- **هيكلية العمل المطلوب**، قصد استعمال العمليات الذهنية التي يقتضيها غرض التعلم.

4 - **تقييم المكتسبات الشخصية للمتعلم**.

¹ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 911

² - المرجع نفسه. ص 1167

³ - نفس المرجع. ص 126

⁴ - محمد الطاهر وعلي: الوضعية- مشكلة في المقاربة بالكفاءات. الجزائر، طبعة 2007. ص 16

⁵ - BESSE, H ; GALISSON, R : Polémique en didactique. p 75

ويرى الباحثون التربويون أن الوضعية المشكّلة " تعكس بيداغوجيا التعجب، التي تجعل الفرد مضطرا إلى استعمال ذكائه . وهي بيداغوجيا نشطة، يكون الشرح فيها تابعا لظهور مشكلة، والمشكلة ناتجة عن متابعة مشروع"¹.

وتقتضي هيكله العمل أن يواجه المتعلم حاجزا . ولذلك، يلجأ، لإنجاز مشروعه، إلى مساعدات عدة يقوم باختبارها. كما ينبغي أن توضع في متناوله مجموعة من الموارد تيسر عليه تصور الحلول الممكنة، وجمع المعارف المبعثرة، ووضع فرضيات جديدة، وبناء معارف جديدة أو نقل معارف قديمة نحو موضوعات جديدة.

والمدرس، عند اقتراحه وضعية تعليمية، لا يكتفي بمجرد تحديد محتوى المادة وتلقينها، بل يتأكد من المكتسبات القبلية للتلاميذ وينطلق من تمثلاتهم ويعمل على التنوع في التعلم، وتقييم مكتسباته المتعلمين، ومساعدتهم على نقلها وتحويلها ... دون أن يغفل بعض الجوانب الوجدانية التي يتميزون بها.

• الإدماج

تتبنى المساعي التعليمية اليوم المقاربة الإدماجية لمواد التعليم أو لفروع المادة الواحدة، لأنها كفيلة بإشعار المتعلم بوحدة الموضوع المدروس (أي اللغة)، وتكامل جوانبه رغم تشعبه. والإدماج هو "مزج عنصر جديد مع مجموعة، على أن يندرج في هذا الكل بشكل ملائم؛ والإدماج يتصل بتنظيم المواد المدرسية وربطها ببعضها البعض بغرض إلغاء الحواجز التي تفصل بينها في التعليم التقليدي . وهو كذلك الجمع بين موضوعات دراسية مختلفة من ميدان واحد أو عدة ميادين في إطار تخطيط التعليم / التعلم الواحد؛ كأن ندمج عدة فروع من المادة الواحدة أو عدة مواد"².

وبناء على هذا المبدأ يستحسن إدماج البلاغة مع مواد فرعية أخرى كالنحو والصرف والإنتاج الكتابي وتحليل النصوص وغيرها.

¹ - CORNU, L ; VERGNIoux, A : La didactique en questions. p 54

² - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 732

• أهداف الدرس وهيئته

تزاول التربويون الأهداف الأساسية التي يبني عليها ا لدرس، وخلصوا إلى أنها متنوعة وقد ترمي إلى ¹ :

- تقديم معلومات للمتعلمين وإكسابهم معارف جديدة،
 - تقديم طريقة عمل جديدة وتمكين المتعلم من تطبيقها، أو تحسيسه بأشكال تفكير جديدة،
 - طلب تطبيق ما تم استيعابه في ظروف معينة في وضعيات أخرى،
 - مساعدة المتعلم على التقدم، بدفعه إلى اكتشاف تطبيقات ممكنة، أو إلى الموازنة مع مواد أخرى،
 - إجراء حصيلة الدروس السابقة والاستعانة بمعارف أخرى تنتمي إلى مواد غير المادة المدروسة،
 - تلخيص المفاهيم الأساسية المقدمة أثناء الدروس السابقة، واس تغلالها في المراجعة والتدريب، قصد تعزيز المعارف وتحسين آليات التعلم اللازمة.
- وهكذا ينبغي أن يرتبط الدرس بالماضي ويحضر المستقبل، باعتباره حلقة من السلسلة التي تشكل الفعل التربوي؛ أي أنه يجب أن يكون متصلا مع نشاطات تربوية أخرى، كالقراءة وتحليل الوثائق، والملاحظة، والنشاطات الموسيقية أو الفنية ...
- وشرح الأهداف مفيد إذ إنه يمنح وضوحا أكثر لعرض الدرس ويسمح للمتعلمين بإدراك موقعهم في عملية التعليم / التعلم ويشجعهم على المشاركة، كما توفر الهيكلية الجيدة للدرس تحديد أهمية كل هدف من الأهداف المسطرة . وبفضل توضيح الأهداف، يتم انتقاء الطرق اللازمة والكيفيات المناسبة للتقييم، ومراقبة نجاعة مكتسبات التلاميذ بشكل موضوعي.
- على أن تخضع هيكلية الدرس لمدته ونمطه، والمستوى المعني، والوضعية المقترحة، والمتقنين المستهدفين.

¹ - MIALARET,Gaston : Pédagogie générale, 1ère ed. Paris, PUF, 1991. p 458

وعلى العموم، يستهل الدرس بتمهيد ضمان الربط الضروري مع الدروس السابقة، أو بتقديم موضوع جديد مع الإشارة إلى كونه امتداداً أو لا للموضوعات المعالجة في الدروس السابقة؛ علماً بأن وظيفة هذا التمهيد هي نفسية وتربوية ترمي إلى تحضير المتلقين، وتسمح للأستاذ بالتأكد من استعداد المتعلمين لاستقبال الرسالة التي يقبل على تبليغها.

" يقسم الدرس إلى أجزاء يتم الفصل بينها بإجراء تمارين يتحقق الأستاذ عن طريقها من فهم التلاميذ وقدرتهم على التطبيق؛ وبتغيير النشاط، يبعد الرتبة ويخفف من تعب المتعلمين"¹.

وبفضل هيكله الدرس، نحصل على و نبوة معينة يسمها التراوح بين أوقات تركيز شديد وتفكير قوي، وأوقات ارتخاء نسبي ينخفض مستواها النفسي والتربوي، تتلوها تطبيقات تضمن التكرار، والمراجعة، والاكتشاف...

لا ينبغي أن يضع الأستاذ كل عناصر الدرس في مستوى واحد إذا كان يحرص على إبراز الأفكار الأساسية بالوضوح المطلوب؛ ففي كل درس مبني بناء جيداً يوجد أوقات شدة متبوعة بأوقات أقل ضغط.

ويختتم الدرس جيد البناء بملخص للأفكار الأساسية، ثم تطبيقات تستدعي توظيف مجمل المفاهيم التي عرضت؛ خلافاً للتمارين التطبيقية التي تجري أثناء الدرس والتي تقتصر على مسائل جزئية فور معالجتها.

وإنه لمن المفيد أن تعمل التمارين التطبيقية على التحضير للدروس اللاحقة أو تحاول إظهار العلاقة مع ميادين أخرى من البرنامج أو من مجالات المعرفة المختلفة.

• المقاربة والطريقة

تعتبر المقاربة، بالمعنى العام " كيفية عامة لإدراك مسألة ودراستها، أو معالجة موضوع، أو حل مشكلة أو بلوغ غاية؛ أما بالمفهوم التعليمي، فهي القاعدة النظرية التي

¹ - المرجع نفسه. ص 459

تتكون من مجموع المبادئ الضرورية لإعداد برنامج دراسي، واختيار استراتيجيات التعليم أو التقييم وأشكال رجع الصدى¹.

أما الطريقة فهي عند بريان ودورفال BRIEN et DORVAL " مجموعة من أحداث التعليم قد تسهل اكتساب القدرة².

وبالنسبة لميريو MEIRIEU " يتفق على أن الطريقة البيداغوجية تحدد كيفية تسيير معطيات ثلاثة تختلف من حيث طبيعتها، ولكنها موجودة دائما بمجرد ما يقع تعلم منظم، وهي: المكون، والمتعلم، والمعرفة³.

ويرى ميالاري G. Mialaret أن الطريقة " تحدد مراحل التعلم، ومجموعة من الإجراءات⁴.

كما يؤكد هنري باس H. BESSE أنها " مجموعة من المقترحات والكيفيات الاستدلالية raisonné، وذات الطابع اللغوي والنفسي والاجتماعي والتربوي، تسمح بتنظيم تعليم لغة طبيعية وتعلمها⁵.

ومهما يكن من أمر، فلا وجود لطريقة مثالية أو نموذجية، والأهم أن تكون الطريقة مناسبة، مرنة، قابلة للتكيف مع الأوضاع التربوية، مثل :

- الغرض من التعليم، أو ما يستهدفه.
- طبيعة المادة، ما هو نظري منها وما هو تطبيقي.
- طبيعة الموضوع، من الموضوعات ما يحتمل اشتراك التلاميذ في مناقشتها، ومنها ما يستوجب العرض والإلقاء.
- مراحل التعليم، إذ ينبغي أن تعالج فروع اللغة العربية بطرائق مختلفة، تبعا لاختلاف مراحل التعليم.
- سعة أفق المدرس، من حيث اطلاعه على التجارب التربوية وانتفاعه بها.

¹- Dictionnaire actuel de l'éducation. p 305

²- GOUPIL, Georgette ; LUSIGNAN, Guy : Apprentissage et enseignement en milieu scolaire.p 222

³- المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

⁴- MIALARET, Gaston : Pédagogie générale. P 225

⁵- BESSE, Henri : Méthodes et pratiques des manuels de langue. P 14

" فالطريقة الناجحة هي التي تؤدي إلى الغاية المقصودة، في أقل وقت، وبأيسر جهد يبذله المعلم والمتعلم، وهي التي تثير اهتمام التلاميذ وتناسب ميولهم، وتحفزهم على العمل، والنشاط، والمشاركة الفعالة في الدرس؛ وهي التي تشجع على التفكير الحر والحكم المستقل كما يطلب في دروس التعبير والتذوق الأدبي"¹.

والطرائق التعليمية يستعملها من يعلم قصد تيسير نقل المعارف والكفاءات واستخدام الوسائل الموضوعية تحت تصرف المتعلمين، من أجل تحسين اكتساب هذه المعارف وهذه الكفاءات.

ومن أنجح الطرائق التي تستعمل في تدريس الأدب، الطريقة النشطة *méthode active*، التي تركز على مبدأ أساسي وهو ضرورة الانتقال من الملموس إلى المجرد، ومن البسيط إلى المعقد، ومن الخاص إلى العام، ومن المثال إلى القاعدة، ومن الحدث إلى الفكرة .

"وتعتمد الطريقة النشطة على عرض موضوعات التعليم وكأنها مسائل للحل، بتوفيرها للمتعلم كل المعلومات والوسائل الضرورية لهذا الغرض . وفي إطار هذه الطريقة، يتمثل دور المدرس أساساً، في مساعدة التلميذ الذي يكتشف الحلول بنفسه، عوض أن يقدم له الأجوبة بشكل مسبق . وتحت هذه الطريقة المتعلم على المساهمة الذهنية والبدنية في تعلماته عن طريق الدراسة والممارسة والبحث، وعدم الاقتصار على استقبال المعارف فقط"².

كما توصي هذه الطريقة بفسح المجال أمام المتعلم ليلخص الدرس بنفسه، عوض أن يقدمه له الأستاذ جاهزاً، " لأن المهم ليس النتيجة النهائية بقدر ما هو السيرورة *Processus* التي تؤدي إليها، والنشاط الذهني الذي جند لبلوغها؛ وقدر الذكاء الذي يبذله المتعلم في سبيل الفهم أثنى مما يحتفظ به في ذاكرته"³.

وليس الهدف، في تعليم اللغة إكساب التلاميذ معنى كلمة فقط، بل وكذلك القدرة على توظيفها. وليس المهم أن يفهموا قاعدة نحوية فقط، ولكن الأهم كذلك أن يتدربوا على

¹ - الموجه الفني. ص 34

² - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 843

³ - PUREN,C : Histoire des méthodologies de l'enseignement des langues. p 136

استخدامها بشكل آلي وصحيح؛ وليس المقصود إدراك معنى جملة فقط ولكن المقصود كذلك هو القدرة على بناء جمل مماثلة لها.

" وفي الأدب، لا يستهدف ملء فكر المتعلمين بتفاصيل عن السير الذاتية للأدباء، ومعارف مجردة وأحكام جاهزة، ولكن الهدف هو إكسابهم قليلا من روح هؤلاء الأدباء "1.

وإلى جانب الطريقة النشطة، تتخذ المقاربة الشاملة approche globale مرتكزا أساسيا في تدريس النص الأدبي.

وفي هذا الصدد، اقترح أ. جودار A.GODART في سنة 1903 تصورا لدراسة النص الأدبي، بين من خلاله أنه ليس من أنصار الشرح الإفرادي المسبق، وذلك لسببين : لأننا عندما نعزل الكلمات عن محيطها ننزع عنها الحياة وفي الوقت نفسه نفقد أسرع وسيلة للتأويل، أي الشرح عن طريق السياق؛ ثم إن هذا الشرح يتناقض مع المقاربة الشاملة. وبالنسبة إلى هذا الباحث، تنظم كل دراسة نص بناء على مراحل أساسية هي²:

* **المرحلة الأولى** : ترمي إلى التحضير المبدئي للنص، وتقتضي ما يأتي :

1- شرح الكلمات الصعبة. وقد مر بنا لماذا لا ينصح به " جودار " .

2- قراءة الأستاذ للنص، وينبغي أن تكون نموذجية من حيث الأداء والتعبير حتى تسهم في فهم المتعلمين.

3- قراءة التلاميذ : ينصح " جودار " بإلغائها قبل شرح النص، لأن القراءة المعبرة لا يمكن أن تتم إلا بناء على إدراك معاني النص، بعد شرحه والتعليق عليه ومناقشته.

* **المرحلة الثانية** : وتتمثل في تفسير النص من خلال :

1- التركيب synthèse، وهو عبارة عن فهم شامل للنص ينتهي بملخص . بعد قراءة المتعلم للنص عدة مرات، يمكنه أن يدرك - ولو بشكل غير دقيق - المعنى العام

¹ - المرجع نفسه. ص 136
² - المرجع نفسه. ص 173-174

للنص وتحديد خطوطه العريضة . وهكذا يمثل هذا المعنى ا لإجمالي المقصد الأول للدراسة، لذلك يسأل المتعلم عما فهم عموما وعن الموضوع المعالج، من خلال أسئلة بسيطة. هذا العمل الأولي توضيحي، وهو جد مهم لأنه يخلق لدى المبتدئ عادة فهم دلالة مقطع كامل، عن طريق الاستشراق perspective؛ وهكذا يتدرب المتعلم على اكتشاف معنى النص ودلالة الجملة في الوقت نفسه والكيفية نفسها، إذ يدعم الاستعداد الأول (الفهم الإجمالي للنص) الاستعداد الثاني (فهم الجملة). وبعد ذلك، نشجع المتعلم على التعبير عن هذه الفكرة الإجمالية في ملخص مختصر قدر الإمكان. وهذا الفهم الشامل هو فهم إجمالي وفهم ع ميق في أن واحد، الأمر الذي لا يعتبره " جودار " تناقضا، لأن كلمات النص، في ذهن المتعلم، يمكنها أن تخفي المعنى، مثلها مثل " الشجرة التي تخفي الغابة ".

2- مناقشة النص من خلال شرح التفاصيل، وتحليل الجوانب المختلفة من النص، كالجانب البلاغي.

3- قراءة المتعلمين قراءة معبرة تدل على الفهم.

* **المرحلة الثالثة:** وهي التي تسعى إلى الحفاظ على النص conservation عن طريق:

1- استيعاب معاني النص : يطالب المتعلم بقراءة النص المشروح عدة مرات حتى يثبتته في ذاكرته.

2- المراقبة: تجري في بداية الحصة التي تتلو حصة شرح النص؛ والمطلوب أثناءها استرجاع النص بالجواب عن أسئلة الأستاذ.

تجدر الإشارة إلى أن هذا التصور عن مراحل درس الأدب الذي اقترحه " جودار " قد طبق في كثير من كتب التعليم في المرحلة الثانوية في فرنسا.

وقد يعود تبني هذه الطريقة إلى كونها تستجيب إلى التوجيهات الرسمية لسنة 1908 التي توصي بضرورة " أن يكتشف المتعلم ويشعر بنفسه مباشرة بجمال النصوص . فمن خلال اتصاله المباشر بما ألفه الأديب، يواجه شخصيته ويتعرف عليه"¹.
أضحت الطريقة النشطة أو المنهجية النشطة *methodologie active* معروفة في البلاد الغربية وبدأت تنتشر في الوطن العربي كذلك، " وقد تحمل تسميات أخرى، مثل المنهجية المزدوجة *methodologie mixte* وهي تقع بين الطريقة المباشرة *methode directe* والطريقة التقليدية *methode traditionnelle* أو الطريقة التركيبية *de synthèse* أو التوفيقية *de conciliation*"².

وفي تعليم اللغة، يعتمد على نظريتين هما : نظرية الوحدة ونظرية الفروع.
*** نظرية الوحدة :**

وهي تتعامل مع اللغة على أنها وحدة مترابطة متماسكة، وليست فروعاً مفرقة مختلفة.

فالنص، وفق هذه النظرية، يتخذ محورا تدور حوله دراسة كل الجوانب اللغوية (الأدبية، والنحوية، والصرفية، والبلاغية ...)

"وتعتمد نظرية الوحدة في تعليم اللغة على أسس نفسية وأسس تربوية وأسس لغوية"³.

فمن الأسس النفسية :

- أن فيها تجديداً لنشاط التلاميذ، و دفعا للملل، وتنوع العمل.
- وفيها الرجوع إلى الموضوع الواحد لعلاج من مختلف النواحي، وفي هذا التكرار تثبيت للفهم.
- أنها تقضي بالفهم الكلي للموضوع أولاً، قبل الانتقال إلى فهم الأجزاء، تماشياً مع طبيعة الذهن في إدراك الأشياء.

¹ - PUREN, C : Histoire des methodologies de l'enseignement des langues. p 181

² - المرجع نفسه. ص 213

³ - الموجه الفني. ص 50-51

ومن الأسس التربوية :

- أنها تمكن من الربط الوثيق بين ألوان الدراسات اللغوية.
- وتضمن نموا لغويا متعادلا لدى المتعلمين، لا يطغى فيه لون على آخر، لأن هذه الألوان جميعها تعالج في ظروف واحدة.

وأما الأسس اللغوية :

فتمثل في كونها مسابرة للاستعمال اللغوي، لأننا حين نستعمل اللغة في التعبير الشفوي أو الكتابي نوظف ثقافتنا اللغوية باعتبارها وحدة مترابطة. فلا نستشير القاموس أولاً، ليمدنا بالمفردات التي نحتاج إليها، ثم نتفقد القواعد، لنعرف كيف نركب الجمل، و نضبط الكلمات ... بل يتم تعبيرنا بصورة موحدة فيها تكامل وارتباط.

* نظرية الفروع :

تقسم اللغة، وفق هذه النظرية، إلى فروع . لكل فرع منهجه وكتبه وحصصه (مثل المطالعة، والقواعد، والأدب، والبلاغة ...)؛ وفي الامتحانات توزع الدرجات على هذه الفروع.

ومن فوائد اتباع نظرية الفروع أنها تتيح للمدرس أن يؤثر لونا معيناً من ألوان الدراسات اللغوية بمزيد من العناية في وقت واحد . كما يستطيع المدرس أن يحيط بالمسائل التي ينبغي دراستها، خلافاً لنظرية الوحدة التي قد تهمل بعض الموضوعات ولا تمنحها حظها من الدقة والتفصيل.

" غير أن هذه النظرية يعاب عليها :

- تمزيق اللغة يفسد جوهرها ويخرجها عن طبيعتها . فهذا التمزيق يعد تفتيتاً للخبرة اللغوية التي يكسبها التلاميذ، ولعل هذا من أسباب عجزهم عن استعمال اللغة في المواقف الحيوية استعمالاً سليماً من جميع الوجوه، فهم لا يتحرون الضبط الصحيح ... إلا في حصة القواعد، ولا يتأنقون في اختيار العبارات إلا في حصة الأدب ...

- قلة فرص التدريب على التعبير، وضيق مجاله، مع أن التعبير هو ثمرة الدراسات اللغوية جميعا¹.

2- علاقة تدريس البلاغة بفروع اللغة الأخرى

يكاد يجمع الباحثون اليوم على تدريس البلاغة متصلة بمواد أخرى تثريها وتتفاعل معها، كالنحو والصرف والنقد والتعبير وغيرها. شأنها شأن تدريس اللغة التي يتعين عليها استهداف بعدين هما: ممارسة اللغة ودراسة النصوص الأدبية؛ وهي تستمد معارفها من حقول نظرية وثقا فية مختلفة، مثل لسانيات اللغة ولسانيات القول، نحو الجملة ونحو النص، البلاغة القديمة والبلاغة العصرية، الأشكال الشعرية والأجناس الأدبية، العروض...

تقوم الطريقة التقليدية لتعليم اللغة العربية على الفصل بين فروع المادة، حيث يدرس كل فرع منها بمعزل عن الآخر. أما التعليمية الحديثة فتقدم اللغة العربية ككل متكامل الجوانب، و وحدة متماسكة ومنسجمة، يدرس كل جانب منها غير بعيد عن الآخر، بل ينبغي أن تكون دراسته وثيقة الصلة بغيره.

وهذا شأن البلاغة التي تتصل ب :

- الأدب: وهو أقرب الفروع إليها، لأنهما يشتركان في الغاية (وهي تكوين الذوق الأدبي والحس الجمالي وصقل الفكر) والوسيلة (أي اعتمادهما على النص الأدبي).
فالأدب محور الدراسات البلاغية والنقدية، بل قد يعتمد في تدريس معظم الفروع.
- القراءة: تجسد القراءة المعاني التي وظفت لإجلائها الأساليب البلاغية، وتمنحه ا وجودا ماديا.

كما تمنح نصوص المطالعة فرصة لتلمس بعض الألوان البلاغية أو تحليلها

أو التدريب عليها.

¹ - المرجع نفسه. ص 52

- **التعبير:** قد يوفر درس البلاغة مجالاً لمعالجة وتصحيح كثير من المآخذ والعيوب التي تشوب كتابات المتعلمين. " وقد يدفع إلى التمرين على الإيجاز بكتابة برقيات أو تلخيص نص معين، أو التمرين على الإطناب والإطالة في الكلام بكتابة مقالة، والكتابة بأسلوب أدبي تارة وأسلوب علمي تارة أخرى، وبإعادة كتابة جزء من مقامة بأسلوب مرسل محرر من السجع وغيره من المحسنات"¹.

أو العمل على إعادة ترتيب أقسام نص معين، أو تغيير ما يجب تغييره في حالة تغيير المتلقي، أو المقام...

فالإنتاج الكتابي غاية عملية لدرس البلاغة، فقد يكون وظيفياً يتمثل في كتابة نفعية تدخل في إطار التواصل الاجتماعي اليومي، وقد يكون إنشائياً إبداعياً يعبر فيه المتعلم عن انشغالات وجدانية أو فكرية.

- **البحوث النفسية:** لقد أدرك القدماء العلاقة بين البلاغة والأحوال النفسية وقد عنوا بالإشارة إليها، والكشف عنها في وقاتهم البلاغية، حيال النصوص الأدبية الخصبة الجيدة، ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني.

وقد روعي في تحديد بعض الأغراض الأدبية حال السامع ونفسية المخاطب، و من ذلك إلقاء الخبر مجرداً من التوكيد، أو مؤكداً بأداة واحدة، أو بأكثر من أداة تبعاً لمعرفة المتلقي للمعلومة أو خلو ذهنه منها.

وترى البلاغة الحديثة أن إلقاء الخبر مؤكداً، لا يتبع حال المخاطب دائماً، بل قد يتبع حال المتكلم نفسه أحياناً.

وتعنى البلاغة الحديثة كذلك بالموسيقى في الأدب وأثرها في النفس، بتصوير الجو النفسي للأديب. كما تحرص على وسائل الإقناع، وطرق الاستمالة.

وهكذا، فالطريقة السديدة في تدريس اللغة هي التي تعالج فروعها أو أكثرها كوحدة متماسكة، وفي فترة واحدة، ضماناً لإحكام الربط بين ألوان النشاط اللغوي جميعها.

¹ - الموجه الفني. ص 317

• مكانة دراسة الأدب في حياة المتعلم

يرى كثير من الناس أن للعلم وحده الكلمة الأولى في حياة الإنسان، لأننا الآن في عصر العلوم، عصر الذرة والصاروخ والتكنولوجيات الحديثة . ولكن هذا الرأي مجحف في حق الدراسة الأدبية التي يحتم علينا الإنصاف أن نقر بقيمتها التربوية والتعليمية، وأثارها في تكوين الأجيال، وتنشئة الشعوب . فالدراسات الأدبية تحتل المكانة الأولى في إعداد النفس، وتكوين الشخصية، وتوجيه السلوك، وهي التي تعمل على تهذيب الوجدان وصقل الذوق.

" ودرس الأدب هو الفترة التي تخفف فيها أذهان الطلاب من أثقال الدراسة العقلية، وتتحرر فيها عقولهم من صرامة التعاريف والقوانين، والضوابط ... والتقسيم العقلية، ونحو ذلك من مقومات الدراسة العلمية التي تستبد بالذهن، وتثقل الفكر.

وهو الفترة التي نتخلص فيها من معالجة المادة الميتة الجامدة، ونخلص فيها إلى النوازع البشرية، والطباع الإنسانية، مصورة في هذا الإنتاج الأدبي الرفيع الذي نعرضه على الطلاب، فيرون فيه حياتهم، ويحسون وجودهم، ويتلمسون بين جنباته أنواع المتعة والرضا، وتفيض عليهم منه ينابيع الحق والخير والجمال"¹.

وتمثل حصة دراسة الأدب فرصة للتعبير عن الرأي بكل حرية والاطلاق في التفكير.

وفضلا عن هذه المزايا التي توفرها دراسة الأدب للمتعلم، تدين تربية الأجيال للأدب بما ترسخه فيها من مبادئ ومثل سامية وقيم فاضلة وألوان السلوك وأساليب التفكير.

¹ - الموجه الفني. ص 252

• العلاقة بين البلاغة والأدب والنقد

تؤكد دراسة البلاغة على العلاقة التي تربطها بالأدب والنقد إذ " تطلق لفظة الأدب في المجال الدراسي على الأحكام الأدبية التي يستتبطها مؤرخوه من خلال دراستهم لشاعر أو كاتب أو عصر أدبي، في ضوء القيم التي تضعها أسس البلاغة ومعايير النقد"¹. والنقد يحكم على الأديب من ناحية قوته أو ضعفه، جودته أو رداءته، وفق المقاييس السائدة في عصره، ويوازن بين هذه المقاييس وبين التطورات التي تعرفها . كما يحلل الكتابة ويفسرها وقيّمها، ويمنحها مكانها في عالم الفكر والأدب؛ محاولاً الجواب عن سؤال رئيس : إلى أي مدى نجح الفنان في نقل الصورة الموجودة في ذهنه إلى الآخرين ؟

أما النصوص الأدبية، فهي وعاء التراث الأدبي الجديد، قديمه وحديثه، وهي المادة التي يمكن بفضلها تنمية المهارات اللغوية، والفكرية والتعبيرية والتذوقية . فهي قطع تختار من التراث الأدبي، يتوافر لديها نصيب من الجمال الفني، وتعرض فكرة متكاملة الجوانب، أو عدة أفكار مترابطة وم نسجمة، تتخذ سندا لتنمية التذوق الأدبي لدى التلاميذ، وبناء الأحكام الأدبية.

والبلاغة - فضلا عن كونها تحدد الأسس الجمالية لتذوق الأدب الجيد وإبداعه - هي العلم الذي يصوغ القوانين العامة التي تتحكم في الاتصال اللغوي، ليأتي على نمط خاص؛ " أي أنها تعمل على توضيح الطرق التي يمكن بها تنظيم الكلام، بحيث يتيح لأفكار الأديب أن تنتقل إلى القارئ أو السامع على أكمل وجه ممكن وهي بهذا تقدم مجموعة القواعد التي يجب أن تراعى في النتاج الأدبي"². والدارس للاتصال الكلامي يسعى من أجل التحقق من تطبيق هذه القوانين الجمالية، أما الأديب فعمله هو الاتصال واستخدام هذه القوانين في ذلك الاتصال.

¹ - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. طبعة مزيّدة و منقحة. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1996. ص 177
² - المرجع نفسه. ص 179

" إن الغرض من البلاغة هو إدراك ما في النص الأدبي من جمال وطفرة، وإدراك مدى قدرة الأديب على صياغة أفكاره ... بعبارات جميلة موحية"¹.
وما علوم البلاغة إلا خوامم للأدب، والغرض من دراستها الكشف ع ما في النص من معان وأفكار سامية، وتذوق ما فيه من جمال وخيال.

" لقد وضع الأقدمون البلاغة وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها... فالعلوم التي عرفت باسم علوم البديع والمعاني والبيان صحيحة لا عيب فيها، وكل ما يؤخذ عليها فإنما يؤخ ذ على " إساءة استعمالها"... وسوء استعمالها أن تصبح قيودا ونماذج للمحاكاة الآلية بغير فهم لها ولا تعرف في مدلولها وأن تكون الحلية هي المقصودة دون ما تحليه ... فالبلاغة العربية إذن دراستها ضرورية لأنها تسهم في تربية التذوق الأدبي إذا ما استعملت مرتبطة بالأدب ن فسه، ولم تأخذ شكل القوالب والقواعد"².

ترد كلمة "الذوق" أو "التذوق" في معرض الحديث عن دراسة الأدب، ويقصد بها في عرف الأدباء والنقاد " تلك الملكة الموهوبة التي يستطيع بها تقدير الأدب الإنشائي، والمفاضلة بين شواهد ونصوصه، أو تلك الحاسة الفنية، التي يهتدى به ا في تقويم العمل الأدبي وعرض عيوبه أو مزاياه . فملكة التذوق لا تحصل بمعرفة طائفة من القواعد والقوانين التي استنبطها أهل البيان، ولكنها تكتسب بممارسة الكلام الجيد، والتفطن لخواصه ومزاياه، مع توافر الاستعداد واستجابة الطبع"³.

ومن هنا يعرف الحكم الجمالي على أنه " القدرة على إدراك الصفة الجمالية الكامنة في أية علاقة بين العناصر داخل أي تنظيم"⁴. والقدرة على الحكم تنمو مع السن والخبرة.

¹ - علي أحمد مذكور: تدريس فنون اللغة العربية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1997. ص 216

² - محمد صلاح الدين مجاور: تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. ص 486

³ - الموجه الفني . ص 273

⁴ - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. ص 194

ومع حرص تدريس الأدب على تكوين الذوق الفني في نفوس المتعلمين، حتى يتجلى ذلك في تعبيرهم ويحملهم على المطالعة، وتقويم لسانهم ، وحسن الإلقاء والكتابة والنقد؛ يختلف الدارسون في تعريفهم للتذوق الأدبي، فهو:

- إحساس القارئ أو السامع بما أحسه الشاعر أو الكاتب،
- نوع من السلوك ينشأ من فهم المعاني العميقة في النص الأدبي والإحساس بجمال أسلوبه، والقدرة على الحكم عليه بالجودة أو الرداءة،
- انفعال يدفع الفرد إلى الإقبال على القراءة أو الاستمتاع في شغف وتعاطف، وإلى تقمص شخصيات الأثر الأدبي،
- سلوك يعبر به القارئ أو السامع عن فهمه للفكرة التي يرمي إليها النص الأدبي، وللخطة التي رسمها للتعبير عن هذه الفكرة، ومشاركته في الحياة التي تجري فيه، وتأثره بالصور البيانية التي يحتويها، وإحساسه بالواقع الموسيقي لألفاظه وتراكيبه، ونقطة إلى عباراته المبتكرة، وقدرته على التمييز بين جيده ورتيئه.

وهكذا، تدعو هذه التعريفات في جوهرها إلى الاهتمام بثلاثة جوانب :
الجانب المعرفي، والجانب الوجداني، والجانب النفس حركي. وهي جوانب تعليمية يسعى الأستاذ إلى تحقيقها من خلال الفنون الأدبية (النثرية منها والشعرية) التي تنمي، على اختلاف أشكالها، التذوق الأدبي؛ على أن يراعي في ذلك قدرات المتعلمين ومستواهم التعليمي وحاجاتهم.

• بين البلاغة والنحو

علم المعاني والنحو علمان متكاملان، ومما يوضح هذه العلاقة أن المعنى النحوي الذي يتحدد بالقرائن في سياق معين لا تلازمه اعتبارات أخرى خارجة عن إرادة المتكلم. فالتكلم هو الذي يعمد إلى من قام بالفعل مثلاً، فيضعه في الموضع الذي

وضعته العرب فيه، ويسند إليه القرائن المناسبة، أمنا للبس الذي قد يقع في ذهن المتلقي.

وأما حين يراعي المتكلم " مقتضى الحال " ويأتي مقاله مناسباً للمقام، فيكون قد احتكم إلى علم المعاني . فالبلاغي، بناء على الفهم النحوي، يصل بتحليله إلى مستوى أدخل في الذوق حين يتساءل : لم قدم المفعول أو الفاعل، أو لم أخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد النفي أو التقرير أو غير ذلك.

" والصلة بين علمي النحو والمعاني لا تحتاج إلى إقامة الدليل لأنها صلة طبيعية . والشركة بين العلمين هي خدمة المعنى وتأديته . فالنظام النحوي ينظم الأبواب النحوية ومعانيها داخل الجملة الواحدة. وقد يتعدى الجملة إلى الجمل فيما بينها، فيدرس الجملة الشرطية وهي جملتان : شرط وجواب . أو الجملة الاستفهامية التي قد تكون أيضاً جملتين، استفهاماً وجواباً . كما يدرس أيضاً عطف الجمل بعضها على بعض والجمل الموصولة، وغير ذلك مما يعد دراسة للجمل، لا للمفردات.

وأما علم المعاني فإن أكثر ما يكون الاهتمام فيه بالجمل وما يتصل بها كالإنشاء والقصر وغيرهما لكنه أيضاً يهتم بالمفردات، فيدرس أحوال الإسناد، وأحوال متعلقات الفعل"¹.

• منزلة التعبير بين فروع اللغة

" التعبير ليس فرعاً لغوياً معزولاً عن باقي فروع اللغة، بل هو متشابك ومتداخل في مهاراته اللغوية مع فروع اللغة الأخرى إلى حد كبير"².

ونمو المتعلم وتقدمه في هذه الفروع اللغوية (النحو والصرف، والدراسة الأدبية، والبلاغة ...) ينعكس على نموه وتقدمه في بعض مهارات التعبير الكتابي . ومن هنا، تتجلى ضرورة تخطيط البرنامج اللغوي في أية مرحلة تعليمية كوحدة متكاملة، وبالنظر إلى التعبير كأنه حصيلة نهائية للدراسة اللغوية؛ بل إن التعبير " يمتاز بين

¹ - قطبي الطاهر: بحوث في اللغة، الاستفهام بين النحو والبلاغة. الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1992. ص 5
² - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق. ص 241

فروع اللغة بأنه غاية، وغيره وسائل مساعدة معينة عليه . فالقراءة تزود القارئ بالمادة اللغوية، وألوان المعرفة والثقافة، والنصوص كذلك منبع للثروة الأدبية، تساعد على إجادة الأداء وجمال التعبير، والقواعد وسيلة لصون اللسان والقلم عن الخطأ في التعبير ... وهكذا¹.

والتعبير اللغوي، إما أن يكون الغرض منه اتصال الناس بعضهم ببعض، لتنظيم حياتهم، وقضاء حاجاتهم، ويسمى هذا النوع " التعبير الوظيفي " مثل التعليمات والإرشادات والإعلانات والتقارير ...

وإما أن يكون الغرض منه التعبير عن الأفكار والخواطر ونقلها إلى الآخرين بطريقة مثيرة مشوقة، ويطلق على هذا النوع " التعبير الإبداعي أو الإنشائي " مثل كتابة المقالات، وتأليف القصص، ونظم الشعر ...

" وهذان النوعان من التعبير ضروريان لكل إنسان في المجت مع الحديث، فالأول يحقق له حاجته من المطالب المادية والاجتماعية. والثاني يمكنه من أن يؤثر في الحياة العامة بأفكاره وشخصيته"².

وتأسيسا على ما سبق، يمكن أن نخلص إلى أن التعبير يستمد مكانته المتميزة من كونه أهم الغايات المنشودة من دراسة اللغات، ولأنه وسيلة اتصال الأفراد وتقوية الروابط الفكرية والاجتماعية بينهم . فالعجز في التعبير يترتب عليه إخفاق الفرد، وتأخر نموه الاجتماعي والفكري.

ومما ينتظر من دراسة التعبير أن ينمي القدرة على دقة التعبير (التي تقاس بها كفاءة شريحة من الأشخاص في المجتمع بشكل خاص، كالمعلمين والمحامين والمذيعين والصحافيين). فالتعبير الأدبي عمل معقد مركب، ينطوي على عدة عمليات عقلية يقوم بها الذهن، يمكن اختصارها في عمليتي التحليل والتركيب.

" والمراد بعملية التحليل أن يعود الإنسان إلى رصيده اللغوي، وإلى ثروته من المفردات فيستعرضها، ويبحث فيها عن الألفاظ التي تسعفه في هذا المقام، والتي تمكنه

¹ - عبد العليم إبراهيم: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية. ص 145
² - المرجع نفسه. ص 152

من التعبير عن المعاني التي أشرقت في ذهنه... أي أنه يبحث عن الثوب الحسي الذي يكسو به هذه المعاني... وفي الوقت الذي يتهياً له فيه حاجته من هذه الألفاظ ويقوم بعملية التركيب، فيؤلف من هذه المفردات... جملة، أو عبارة، أو أي بناء تعبيرية متكامل؛ وهاتان العمليتان متداخلتان وضروريتان لتصوير الفكرة¹.

• مكانة النص في تدريس اللغة

يقوم تدريس مجمل فروع اللغة على سند ضروري، ألا وهو النص. والنص نمط لفعل تواصلية يعتمد على اللغة وأهم ما تعنى به الدراسة وفق منظور اللسانيات النصية هو التكفل بالسياق وتفاعل عناصر النص، بناء على أن الصفة التي يجب أن يتجلى بها النص هي الشمولية أو الترابط. وقد تعمل الجملة، في سياقات معينة، كأنها نص؛ وقد تجتمع عدة جمل لتكوين نص.

وإذا كان الانسجام *Cohérence* شرطاً أساسياً في النص، فهذا يعني أن العناصر اللسانية تكون مركباته، إذا ما استحدثت بينها علاقات دلالية وتركيبية وتداولية؛ لأن الانسجام ينشأ داخل النص، فيكون انسجاماً دلالياً وتركيبياً وخارجياً، فيكون انسجاماً تداولياً.

وبالإضافة إلى الانسجام، يحكم ظهور النصية *textualité* عامل أوسع وهو التحديد *délimitation*؛ والمقصود بالتحديد ما يدل على البداية والنهاية. فالنصوص لا تبدأ ولا تنتهي دون علامة تشير إلى ذلك.

وهذه الإشارات *signaux* قد تكون دلالية - تركيبية أو تداولية أي موضوعية *situationnelle*.

وبما أن بداية النص ونهايته يعتبران من مركبات التنظيم النصي الشامل، فإنهما من هنا يستمدان شكلهما الخاص.

¹ - المرجع نفسه. ص 174

- قاعدة التكرار: ينبغي أن يتضمن النص، في نموه الخطي، عناصر تتكرر في عدة جمل؛

- قاعدة التقدم: ينبغي أن يرافق نمو النص، نمو دلالي متجدد باستمرار؛

- قاعدة عدم التناقض: ينبغي ألا يقع تناقض بين عناصر النص الدلالية، ضمنية كانت أو معلنة؛

- قاعدة العلاقة: ينبغي أن تكون الأحداث التي يدل عليها النص متصلة.

وعلى العموم، لا يمكننا أن نحقق نجاح تدريس البلاغة إلا إذا راعينا بعض

المبادئ الأساسية، مثل :

1- اعتبار فروع اللغة أجزاء "لكل" واحد هو "اللغة"، وعدم تناولها كأقسام قائمة

بذاتها، منفصلة عن غيرها؛ فاللغة وحدة متألّفة العناصر، متكاملة الأجزاء.

2- أن ينظر المدرس إلى هذا التقسيم على أنه عملي إجرائي، يلجأ إليه تيسيرا

للعملية التعليمية وتركيزا للعناية بجانب معين عند الضرورة.

3- أن يسعى المدرس إلى إبراز الصلة بين فروع اللغة وترابطها بإدماجها عند

الإمكان، دون تكلف أو تعسف.

4- تعريف البلاغة وحدودها ومجالها وخصوصيتها في بداية السنة، وتقديم

الموضوعات المقررة في البرنامج والأهداف المرجوة من تعلمها والكفاءات

المنتظرة من هذه الدراسة؛ فبهذه الطريقة نحرك دافعية المتعلم لأنه يصبح فاهما

لفائدة تعلمه والمنفعة التي سيجنيها منه.

¹-REBOUL, Anne ; MOESCHLER, Jaques : Pragmatique du discours. Pp 15-17

3- أهداف تدريس البلاغة

تبحث دراسات كثيرة في تعليمية المواد المختلفة، وتعمل على الكشف عن مطابقة الطرائق والإجراءات التعليمية مع خصوصيات كل مادة؛ وأهم ما تسعى إليه البلاغة الحديثة، تنمية ملكة التواصل لدى المتعلم - كتابة ومشاهدة، استقبالا وإنتاجا - وتمكينه من الأدوات البلاغية، وإكسابه حسن التصرف اللغوي في المواقف المختلفة عند إنتاجه الخطاب المناسب.

غير أننا، عمليا، ما زلنا نفتقد إلى تعليمية تطبيقية حديثة - ما عدا بعض المحاولات هنا وهناك - سواء في التعليم الثانوي أو في التعليم الجامعي. وما زالت كتب تعليم البلاغة والبرامج الدراسية تجتر الأهداف نفسها (وهي من حيث صوغها ودلالاتها غايات بعيدة المنال، لا يمكن تحقيقها إلا في نهاية مراحل التعليم كله، وفي أحسن الظروف).

لقد تنبه الأقدمون إلى الهدف البلاغي، وحددوه بإدراك ما هو جيد أو رديء من الكلام، والافتقار على صنع الجيد من الكلام.

ومع وضوح هذا الهدف الذي يتلون بلون الدرس شعرا أو نثرا، فإنه يرتبط بالنص الأدبي ارتباطا وثيقا.

لذلك ، تدرج اليوم أهداف تدريس البلاغة مع أهداف تدريس الأدب في المرحلة المتوسطة والثانوية، إذ تتجسد في اقتدار المتعلم على :

" - إدراك ما في الأدب من صور ومعان وأخيلة تمثل صورة من صور الطبيعة الجميلة، أو عاطفة من العواطف البشرية، أو تعرض ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو السياسية أو الطبيعية.

- التمتع بما في الأدب من جمال الفكرة، وجمال العرض، وجمال الأسلوب، وموسيقى اللغة، والإيقاع، والسجع، والقافية ...

- بعث السرور النفسي والراحة والاطمئنان في نفس القارئ ...

- التأثر بما في الأدب من أفكار وأساليب جميلة تظهر في التعبير الشفوي أو الكتابي للقارئ أو المستمع ...
- زيادة الذخيرة اللغوية التي تساعد على زيادة فهم المقروء والقدرة على استعمالها.
- السمو بالذوق الجمالي الأدبي ...¹

ونعثر، في المؤلفات التعليمية والبرامج المدرسية، على أهداف أخرى، منها:

- " - تمثل القارئ للحركة النفسية في العمل الأدبي.
- إدراك الوحدة العضوية في العمل الأدبي.
- إدراك الترابط بين أجزاء القالب الأدبي.
- التعبير عن فكرة الأديب وأحاسيسه.
- فهم درجة التواءم بين التجربة والصيغة.
- تعرف الصور البلاغية ومدى توفيقها.
- الإحساس بقيمة الكلمة التعبيرية في العمل الأدبي.
- إدراك الرمز وتفسير مدلولاته.
- القدرة على نقد أجزاء العمل الفني.
- الموازنة بين عمليين أدبيين من نوع واحد.
- تحديد المحسنات البديعية وعلاقتها بالمعنى...²

ومن الدارسين الذين لا يعزلون أهداف تدريس البلاغة عن دراسة النصوص الأدبية والنقد، محمد صلاح الدين مجاور الذي يرى أن أهداف تدريس البلاغة والنقد الأدبي هي:

" - الإلمام ببعض الأسس العامة التي يمكن بمقتضاها معرفة المستوى الفني للإنتاج الأدبي.

- تربية الإحساس بقيمة اللفظ وأهميته في تأديته للمعنى المناسب.

¹ - علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية. ص 202
² - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. ص 196

- ترقية الأحاسيس والوجدان بالوقوف على ما في الأساليب من روائع الكلم.
 - الإحساس بقيمة التعبير الأدبي وأثره في النفس.
 - الاستمتاع بما في الكلام من جمال لأن البلاغة هي الينابيع التي يعرف منها جمال الكلام.
 - إقدار المتعلم على التفريق بين أديب وأديب، وتعبير وتعبير . وهذا أمر يعتمد على الفنية أكثر مما يعتمد على القاعدة العلمية.
 - حمل المتعلم على أن ينظر إلى النص الأدبي نظرة شاملة متكاملة، فلا يقف عند اللفظ أو الجملة بل يتجاوز هذا إلى القصيدة ككل وإلى الصورة والقصة والمقالة كما ينظر الإنسان إلى إنتاج الرسام في بادئ الأمر؛ فهو يحاول أن يجلي الصورة في شكلها الكلي ثم بعد ذلك يدخل في التفاصيل ... فلا يقف الإنسان منها عند اللون أو الشكل ولكنه يأسره منظر الصورة في تكاملها، كذلك البلاغة لا يقصد منها إعطاء أحكام جزئية على النص، وإن كان هذا الأمر ضرورياً، ولكن الهدف أن يحس الإنسان بالتكامل في النص الأدبي والانفعال به.
 - تمكين التلميذ من أن يرقى ذوقه الأدبي وأن يكتسب المتعة والسرور بما يقرأ¹.
- فالبلاغة، وهي عنصر أساسي في الدراسات الأدبية، تختص بأهداف، منها:
- " - تذوق الأدب وفهمه فهما دقيقاً، لا يقف عند تصور المعنى العام للنص الأدبي، بل يتجاوزه إلى معرفة الخصائص والمزايا الفنية للنص.
 - تبين نواحي الجمال الفني في الأدب، وكشف أسرار هذا الجمال، ومصدر تأثيره في النفس.
 - فهم ما يدل عليه النص من ضروب المهارة الفنية للأديب، وما يصوره من نفسيته ولون عاطفته.

¹ - محمد صلاح مجاور: تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. ص 483

- إنضاج الذوق الأدبي في الطلاب، وتمكينهم من تحصيل المتعة والإعجاب والسرور بما يقرعون من الآثار الرائعة، وتمكينهم - كذلك - من إنشاء الكلام الجيد، محاكاة لهذه الأنماط البلاغية التي يستجيدونها.
- إقدارهم على إجادة المفاضلة بين الأدباء، وعلى تقويم إنتاجهم الأدبي تقويماً فنياً سديداً¹.

- أما صاحباً " نحو بلاغة جديدة " فيريان أن أهداف تدريس البلاغة :
 - تقوم الملكات، وترشد الذوق، وتهدي الموهبة الأدبية في نفس الأديب إلى الكمال.
 - تعلق ما نشعر به من أريحية وهزة وإعجاب، عندما نقرأ أسلوباً بليغاً، أو كلاماً فصيحاً.
- تبين لنا سر إعجاز القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة.
- تساعد الأديب أو رجل الإعلام على أن ينتج أدباً رائعاً : من شعر بليغ، أو رسائل جميلة، أو قصص أنيقة، أو مقالات خصبة، إلى غير ذلك من شتى ألوان الأدب وفنونه.
- وتحول بين الإنسان وبين الخطأ في الأسلوب أو الخيال أو المعنى أو الغرض، أو الفكرة.
- وبدراسة العلوم البلاغية يستطيع الأديب أن يكون ناقداً متذوقاً، وكاتباً موهوباً . إلى ما سوى ذلك من المزايا التي تنشأ عن دراسة علوم البلاغة².

وبما أن التعبير كذلك مادة دراسية تؤهل المتعلم لاستعمال الأدوات اللغوية والبلاغية وتوظيف تقنيات البرهنة والحجاج والاستدلال وغيرها؛ فهو، بشقيه الشفوي والكتابي، وسيلة للاتصال بين الأفراد بقطع النظر عن بعدي الزمان والمكان، يجسد القدرة التي اكتسبها المتعلم في المواد الأخرى، ومنها البلاغة.

¹ - الموجه الفني. ص 304
² - د. محمد عبد المنعم خفاجي ؛ د. عبد العزيز شرف: نحو بلاغة جديدة. ص 33

- لذلك يركز تعليم التعبير بصفة خاصة على اقتدار المتعلم على :
- " - أن ينتقي الألفاظ المناسبة للمعاني والتراكيب والتعبيرات.
 - أن يعبر تعبيراً صحيحاً عن أحاسيسه ومشاعره وأفكاره في أسلوب واضح ح، راق ومؤثر، يكشف عن قدرته على التخيل والإبداع"¹.

- كما يرمي التعبير كذلك إلى تمكين المتعلم من :
- " - التعبير عما في نفسه، وعما يشاهد، بلغة سليمة صحيحة.
 - معالجة الفكرة بنوع من التفصيل والاستيفاء والإحاطة.
 - توليد المعاني الجزئية المتصلة بفكرة أساسية.
 - التفكير المنطقي، وترتيب الأفكار وربط بعضها ببعض.
 - مواجهة المواقف التي تتطلب فصاحة اللسان والارتجال"².

ويحرص بعض التربويين على أهداف التعبير بنوعيه : الوظيفي والإبداعي، ومن بين ما يؤكدون عليه:

- " 1- تنمية قدرة المتعلم على التعبير الوظيفي :
- كتابة الرسائل والتقارير وغيرها.
 - القيام بجميع ألوان النشاط اللغوي التي يتطلبها منه المجتمع كتابة بطاقات، لافتات، تعليمات ... وما إلى ذلك من الأنشطة الاجتماعية الضرورية للحياة الإنسانية.
 - تنمية حساسية التلميذ للمواقف الاجتماعية التي تتطلب كتابة رسالة أو بطاقة تهنئة أو قص حكاية، أو كتابة مذكرة ...

¹- د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق . ص 241
²- الموجه الفني. ص 5

2- تنمية قدرة التلميذ على التعبير الإبداعي:

- تنمية قدرته على التعبير عن أفكاره وأحاسيسه وانفعالاته ... و وصف مظاهر الطبيعة وأحوال الناس، وكتابة الشعر والقصة، وكل ما هو فكر جميل بأسلوب جميل.
- استغلال المواد الأخرى في التعبير، لأنها تعين التلميذ على الكتابة الإبداعية.

تتسم مجموعة من هذه الأهداف بالسمة الاتصالية الاجتماعية الواقعية، في حين تركز مجموعة أخرى على القدرة على التخيل والإبداع للأفكار بأسلوب جميل؛ ولكنها، عموماً لا تحرص على البعد الفكري والحجائي للبلاغة. وإن تم إجماع كثير من الدارسين على أن " هذه الأهداف لا تتحقق في مدارسنا " ¹، وأن مادة البلاغة لا يمكن تدريسها بمعزل عن المواد الأخرى (خاصة الأدب والنقد والتعبير)، و انتشار أهدافها بين أهداف المواد الفرعية الأخرى خير دليل على ذلك. تعلن المناهج الدراسية أن غاية تعليم البلاغة تكمن في أن تجعل المتعلم قادراً على تذوق الأساليب.

غير أن واقع التعليم يكشف لنا أن مادة البلاغة "حنطت" بعد أن خلعت منها الروح، واختزلت في عبارات جافة بعيدة عن كل دلالة بالنسبة للمتعلم.

ومما سبق نخلص إلى أن أهداف تدريس اللغة وثيقة الصلة بأهداف البلاغة، إذ إن أهم ما يسعى إليه اليوم تدريس اللغة أن يتحكم المتعلم في استعمالها وتوظيفها في كل مجالات حياته: العلمية والإبداعية على حد سواء.

وتدريس النصوص يرمي إلى جعل المتعلم قادراً على " قراءة" نص أدبي، واكتشاف مراميه ومضامينه، وفهم فحوى الخطاب مكتوباً كان أو شفويًا.

وعلاقة البلاغة باللغة مبنية على التلازم والتفاعل، حيث تعتبر الأولى الوجه العملي الفني للثانية؛ إذ توفر البلاغة الوسائل والتقنيات التعبيرية التي تكفل للغة الدلالة والدقة والقوة والإيحاء.

¹ - علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية. ص 267-269

وهكذا تمثل الدراسة البلاغية جزءا من التحليل الأدبي، وامتدادا له وهي تكشف عن السبل التي يوظفها المؤلف للتعبير عن أفكاره (الأساليب، الصور، الأدوات اللغوية، هيكله البناء...). كما تزود " المتعلم بمجموعة من المعارف والمفاهيم والطرائق التي تسمح له بقراءة نص أدبي بكيفية مستقلة، إذ لا يقتصر على مجرد معرفة عنوان الأثر واسم مؤلفه"¹.

والمنتظر من المتعلم أن يستذكر ذهنيا مجموعة المراجع المكونة لسياقه المرجعي حتى يتمكن من معالجة نص يجهل عنه - مبدئيا - كل شيء. وهكذا، يبني معرفته باستخلاصها من ممارسة فعلية؛ ويكون منها أدوات يواجه بها وضعية جديدة.

وقد أضحى اليوم من الضروري أن نحدد أهدافا لتدريس البلاغة كفيلة بالإجابة عن تساؤلات كثيرة منها: ماذا نقرأ اليوم؟ كيف نقرأ أدبنا اليوم؟ كيف يكتب الأدباء اليوم؟ ما هي القيود والمعايير التي تحكم هذه الكتابة؟...

¹ - BIARD, J ; DENIS, F : Didactique du texte littéraire. P 24

الفصل الثاني

مظاهر الممارسة البلاغية

1- موقع تدريس البلاغة في الوقت الحاضر

2- المؤلفات البلاغية في العصر الحديث

3- الدرس البلاغي بين الواقع والآفاق

1- موقع تدريس البلاغة في الوقت الحاضر

• علاقة الأدب بالمجتمع

إن كان الأدب المرآة التي تعكس مستوى تقدم المجتمع أو تأخره، فاللغة أداة اجتماعية تتحرك بحركات المجتمع وتنهض بنهوضه . وتغير المجتمع، وهو نتيجة لعوامل اجتماعية وعلمية وتكنولوجية وغيرها، يحدث بدوره تغييرا واضحا في الأدب . وتعلق العرب بالشعر كأداة تعبير عن الأفكار والأحاسيس خلفه اتخاذ الكتابة النثرية وسيلة للتعبير والتواصل. والأنواع الشعرية كذلك خلفتها أنواع أخرى وأجناس أدبية أخرى. " ونظرا لما أصاب المجتمع من تغير في قيمه ومثله، أصبحت بعض ضروب الشعر لا تتلاءم وحياة هذا المجتمع؛ ف شعر الهجاء قد يعارضه القانون إذا عبر عن القذف والذم، وشعر المدح يتهم بأنه سيكولوجية النفاق في أكثر مجالاته، وشعر الفخر فيه اتجاه إلى الطبقيّة والنرجسية ... وهكذا نجد ألوانا من الشعر لا تلائم عصرنا الحديث. أما الأدب الذي يخاطب العاطفة الإنسانية كالرثاء أو الأدب الذي يتحدث عن الطبيعة كالوصف، فهذا له صفة الدوام"¹.

وعرف النثر كذلك أنواعا جديدة كالقصة والأقصوصة والمقالة، وغيرها من الكتابات الصحافية والعلمية.

ومنه بات من الضروري أن نحدد أهداف تدريسنا للأدب بالجواب عن بعض الأسئلة مثل : ماذا نقرأ اليوم ؟ كيف يكتب الأدباء اليوم ؟ وما هي القيود والمعايير التي تحكم هذه الكتابة ؟ ... فخلق الذوق الأدبي لدى المتعلم مرهون بانتقائنا لألوان من الأدب ذات دلالة اجتماعية من حيث قيمها ومثلها واتجاهاتها.

والمعايير البلاغية قسمان :

- المعايير التي لا دخل لها في الذوق على اختلاف العصور والبيئات، كأن نعلم التلميذ أن "هل" تستعمل للسؤال عن النسبة بين المسند والمسند إليه، أو أن القصر في التعبير قد يستعمل للحصر أو التوكيد...

¹ - محمد صلاح الدين مجاور: تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1998. ص 480

- المعايير التي تلائم عصرنا دون غيره، كالمبالغة في المحسنات وتوظيف بعض الاستعارات والتشبيهات أو استعمال كنايات قديمة لا دلالة لها في عصرنا الحاضر مثل : "كثير الرماد، طويل النجاد..."

" تتصف وظيفة اللغة اليوم بأنها اجتماعية تواصلية، تغذي دورة الاتصال وترمي إلى تبليغ المرسل إليه ما أراد أن يعبر عنه المرسل، وتحقق هكذا الملاءمة.

فقد تغيرت كل المعالم، وحتى وجه القمر في جماله والذي كان حديث الأدياء أصبح اليوم بلا جمال، ولا يلهم الشعراء"¹.

• تعليم اللغات

اللغة وسيلة اتصال الفرد بغيره، وهي كذلك أداة تفكير. ومن أهم ما يفيد الفرد من اللغة تغذية الجانب العاطفي عن طريق التذوق الجمالي للأثار الأدبية، وتجارب الجنس البشري وثمار القرائح والعقول.

واللغة - أيضا - عامل هام من عوامل حفظ التراث الثقافي والحضاري، ونقله من جيل إلى جيل، والمشاركة في تنمية هذا التراث للأجيال المستقبلية.

تنظر التربية التقليدية إلى اللغة على أنها مادة دراسية، تعلم لذاتها، ولا تكثر بالنواحي الوظيفية فيها . فيراعى، في وضع البرامج الدراسية، زيادة الثروة اللغوية والمبالغة في الاهتمام بالمصطلحات الجافة؛ ويطلب من التلاميذ حفظ ألفاظ غريبة قد لا يستعملونها في كتاباتهم ولا تعرض لهم في مطالعاتهم، واستظهار أساليب لغوية غريبة عن لغة الحياة. ومن شأن ذلك أن ينفر التلاميذ من درس اللغة الذي يكون موقف التلميذ فيه سلبيا، وموقف المدرس يتمثل في التلقين و الإلقاء.

والغاية التي كان يرمي إليها درس اللغة تقتصر على الإلمام بمفردات كثيرة، وحفظ المصطلحات، حتى صار ذلك مقياسا للتفاضل بين الدارسين.

أما التربية الحديثة فتتظر إلى اللغة على أنها " وسيلة تفيد الفرد في فهم النواحي الثقافية، وعلى أنها أداة اجتماعية، تمكن الفرد من الاتصال بغيره، والتفاهم معه، وأساس

¹ - المرجع نفسه. ص 481

هذه النظرة أمران : أنها وسيلة اجتماعية للتفاهم بين الأفراد، وأنها يجب أن تدرس على أساس أهميتها الوظيفية في الحياة؛ وذلك ليدرك المتعلم أنه يتعلم شيئاً يحتاج إليه في حياته¹.

• اتساع مجال البلاغة

نتج عن التقدم الإنساني حاجة إلى لغة اتصالية جديدة، وبلاغة جديدة تعتبر استجابة شرطية لما أفادته اللغة الفنية من طاقات جديدة، وروافد متنوعة كالمسرح والتلفزيون والسينما والإذاعة.

ومن هنا أصبحت البلاغة هي الوسيلة، في عصر بعثت فيه وسائل الإعلام الجديدة الفلسفة البلاغية القديمة حيث إن الإعلام يستهدف المخاطبين أو المتلقين بالدرجة الأولى. " يعرض ماكلوهان Mc LUHAN أربع مراحل تعكس في تصوره التطور الإنساني، وهي : المرحلة الشفوية، ما قبل القلم، أي المرحلة القبلية، ثم مرحلة الكتابة الخطية، ثم عصر الطباعة، فعصر وسائل الإعلام الإلكترونية . و طبيعة وسائل الإعلام المستخدمة في كل مرحلة تساعد على تشكيل المجتمع أكثر مما يساعد مضمون تلك الوسائل على هذا التشكيل².

أصبحت البلاغة ترتبط بالأجناس الإعلامية، بناء على أن لكل جنس إعلامي أسلوبه وخصائصه؛ فطبيعة الجنس الإعلامي هي التي تحدد اللغة والأسلوب والبلاغة . فلغة الجنس الصحافي لها خصائص تتميز بها عن لغة الجنس الإذاعي المسموع مثلا ... ومع ذلك، تشترك وسائل الإعلام في أن الاتصال بال جماهير يتم من جانب واحد . " فلا تتاح للقارئ أو المستمع أو المشاهد طريقة لكي يوجه الأسئلة، أو يعقب أو يستوضح ما عرض عليه . وإذا كان الاتصال الشخصي يمتاز بتعديل الرسائل المتبادلة على ضوء رجوع الصدى feed back من المستقبل إلى المرسل، فإن وسائل الإعلام تفقد هذه الميزة³.

¹ - عبد العليم إبراهيم: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ط 5، القاهرة، دار المعارف، 1981. ص 46
² - د. محمد عبد المنعم خفاجي و د. عبد العزيز شرف: نحو بلاغة جديدة. القاهرة، دار غريب للطباعة، د. ت. ص 24
³ - المرجع نفسه. ص 66

إن البلاغة الجديدة نشأت بسبب الارتباط الوثيق بين المستوى اللغوي وتكنولوجيا وسائل الإعلام. فالكيفية التي يتم بها التحرير اللغوي في كل جنس على حدة تؤثر وتتأثر بمضمون تلك الوسائل.

وبناء على العلاقة القوية بين الإعلام واللغة والحضارة، اشتدت الحاجة إلى لغة إعلامية ذات بلاغة جديدة لتقوم بحاجات الوسائل الجماهيرية في الاتصال بأعداد الناس الغفيرة.

وترتبط هذه اللغة في بلاغتها الجديدة بوظائف هذه الوسائل من إعلام وتنقيف وإقناع وترويح ومشاركة قلبية وذهنية.

" ومن الطبيعي أن تختلف اللغة في سياقها الجماهيري الجديد عن لغة الاتصال المباشر، اختلاف البلاغة الجديدة عن البلاغة القديمة التي تتطلب بنية وخصائص تختلف عن ذي قبل"¹.

وتتطلب هذه البلاغة الجديدة معرفة الهدف من الاتصال، وكيفية استعمال اللغة في بناء الرسالة لتحقيق المشاركة والفهم؛ كما يتوقف نجاح البلاغة في عملية الاتصال على اختيار المحتوى المناسب للرسالة، والقناة المناسبة لنقلها، لأن قيمة أية رسالة تتوقف على مدى فعالية هذه الرسالة وتأثيرها.

ففي البلاغة الجديدة تصبح طبيعة " الرسالة " التي يهدف " المرسل " إلى توصيلها إلى " المستقبل " هي محور الدراسة البلاغية. لذلك تعنى هذه الدراسة بطبيعة الرسالة من حيث الأغراض والوظائف والاستعمالات المختلفة للغة، على اعتبار وظائف البلاغة (الوظيفة الإعلامية، والوظيفة التعبيرية، والوظيفة الإقناعية).

وهكذا يعتبر البعض أن الرسالة الإعلامية ليست مضمونا فحسب، بل هي كذلك فن يقتضي انتقاء الكلام المناسب للموضوع وللسياق وللوسيلة الإعلامية، فضلا عن حالة المستقبل.

تسهم البحوث التي تحظى بها البلاغة اليوم في جعل لها تبدو: " لا كعلم مستقبلي فحسب، بل كأخر ثمرة من نتائج البنيوية والنقد السيميولوجي والنصي الجديد"¹.

¹ - المرجع نفسه. ص 81

تبعث البلاغة الغربية من جديد بعد أن دفنت - وتحاول البلاغة العربية أن تقتفي آثارها- وتظهر للناس تارة في شكل علم جديد، علم الأسلوب، الذي يسعى أصحابه منذ العقد الأول من القرن الماضي إلى جعله البديل الحي للبلاغة الميتة، لما يتوفر عليه - أو ينبغي أن يتوفر عليه في نظرهم - من شروط علمية موضوعية لا مكان للذاتية فيها. وهو ما حاوله الفرنسي شارل بالي (1865 - 1947) وأمثاله كريفاتير وجاكوبسون ... ويحاوله اليوم غريهاس وأتباعه.

وتارة في شكل بلاغة حديثة تهدف إلى إخراج البلاغة القديمة في وجه جديد بالإبقاء على مفاهيمها وحدودها لكن بالارتقاء بها إلى مستوى العلم الصحيح الذي يتجاوز التعريفات الجزئية وخاصة التقسيمات والاصطلاحات الغربية التي تزخر بها البلاغة القديمة وهو ما سعى إلى تحقيقه جماعة من النقاد أمثال كوهين وبارت وجينيت وتودوروف (TODOROV, G.GENETTE , R.BARTHES, J.COHEN) وغيرهم.

" وقد أدى تطور النقد البلاغي إلى ظهور اتجاه ثالث يتمثل في البحث عن بلاغة عامة تخرج البلاغة القديمة من الحدود الضيقة التي تنفرد بها كل لغة إلى آفاق واسعة تشترك فيها كل اللغات في محاولة قصوى لاكتشاف العوامل الثابتة التي تتحكم في إنتاج الكلام البليغ مهما كانت اللغة التي يقال فيها وهذا ما عكف عليه في السنوات الأخيرة ج. دوبوا J.DUBOIS و جماعة من الباحثين"².

فالبلاغة العامة لا تنظر إلى خصوصيات الشعوب واللغات بل تنظر إلى ما يشترك فيه أجيال الناس ويجري به العرف في جميع اللغات، فقولك " رأيت أسدا " يريد وصف رجل بالشجاعة على سبيل المثال.

والجرجاني، الذي بلغ البحث البلاغي على يديه ذروة نضجه واكتماله، " كان يردد: " البلاغة قضية العقل ...؛" يردده وه و يعرف ما ينتظره من ردود فعل تندد برأيه وتستنكره، ومثل هذه الردود لا تزال قائمة حتى الآن، ولا ترى تفسير الظاهرة البلاغية

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص180
² - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. ص 2

والشعرية على وجه العموم إلا ما يرجع إلى العوامل الذاتية " الذوقية" التي لا تخضع إلى المقاييس العلمية الثابتة"¹.

وهذا صلب الموضوع في قضية النظم، حيث يبين آثار المعاني المرتبة في النفس على الوجه الذي اقتضاه العقل. " فالجرجاني يؤسس بلاغته على قضية العقل انطلاقاً من مبادئ علم النفس اللساني ... و لا يريد [بالبلاغة] ما هو من عرف هذه اللغة أو تلك وإنما ما يضاف إلى العقلاء جملة ... و هذا واضح في أن مشروع الجرجاني يهدف إلى تمهيد الأسس لوضع بلاغة عامة كالتى تسعى إليها بعض الدراسات الحديثة مثل ما فعل دوبا J.DUBOIS وزملاؤه"².

وهكذا اضطلع الجرجاني في عصره، قبل اللسانيين الغربيين، بتعميم القوانين البلاغية إلى لغات أخرى . ولقد أعلن عن مشروعه في كتاب "الأسرار" بقوله : " واعلم أنني ذكرت لك في تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر القريب المتناول الكائن من قبيل المتعارف في كل لسان، وما نجد اعترافاً به وموافقة عليه من كل إنسان لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس و وضع قواعد للقياس كان الأولى أن يعتمد إلى ما هو أظهر وأ جلى من الأمثلة لتكون الحجة بها عامة لا يصرف وجهها بحال، والشهادة تامة لا تجد من السامعين غير قبول واقتبال حتى إذا تمهدت القواعد وأحكمت العرى والمقاعد أخذ حينئذ في تتبع ما اخترعه القرائح وعمد إلى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتيح . بعد ذلك يمكن التفكير في وضع شبه قوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين . فهذه البلاغة تنطلق من النحو لكن لا تراعي ما هو خاص بلغة من اللغات كالإعراب بالحركات والممتنع من الصرف في العربية ... وإنما مما هو مشترك بين جميع اللغات"³.

وهكذا، وإن كانت فكرة البلاغة الع امة قديمة في الحضارة العربية، غير أنها سمحت في عصرنا الحديث بتأسيس بحوث لسانية غربية وتوسيع المفهوم البلاغي .

¹ - المرجع نفسه. ص 349

² - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. ص 350

³ - المرجع نفسه. ص 351

• تطور تدريس البلاغة الفرنسية

مرت البلاغة الفرنسية بفترة عسيرة عرفت فيها العزلة والازدراء والتهميش والإقصاء، حيث ألغيت من البرامج التعليمية في بداي القرن التاسع عشر .
ثم استرجعت مكانتها بين المواد بفضل الدراسات اللسانية الحديثة التي تكفلت بها وأدرجتها ضمن الرصيد اللغوي الذي تنهل منه مادتها الأساسية، وأصبحت منطلقا لعلوم كثيرة مثل علم الدلالة، وتحليل الخطاب، والتداولية، والأسلوبية، ولسانيات القول ...
وعرفت البلاغة الغربية امتدادات في كل هذه العلوم التي استفادت منها من جهة، وطورتها من جهة أخرى.
ولم يكن هذا ممكنا لو لم تحظ البلاغة القديمة بالثراء والعمق، والدراسات الحديثة بالدقة و التوسع.

وفي القرن التاسع عشر، كانت البلاغة الفرنسية تدرس بناء على أن " غاية البلاغة الصريحة هي تعليم تقنيات الإقناع"¹.
ففي السنة الأولى من التعليم الثانوي، يهيء التلاميذ إلى دراسة البلاغة بتعريفهم على الصور وتدريبهم على تحرير نصوص سردية . وقد ألف فونتانيي FONTANIER كتابين لدراسة الصور البلاغة، موجهين للقسمين الأول والثاني من التعليم الثانوي.
وتأسيسا على أن البلاغة القديمة كانت تشغل بالجانب الوصفي والجانب المعياري للأدب، امتدت دراسة الأدب إلى تعلم فن الكتابة . فالنصوص الأدبية القديمة لم تكن موضوعا للدراسة فقط، بل نماذج للتقليد كذلك، بغية " تنمية الأسلوب، بالرجوع إلى البلاغة الكلاسيكية، وخاصة نظرية الصور والإجراءات الشعرية، مع التوكيد على التعبير
"élocution"².

يدرب المتعلم على فن السرد من خلال "حجة" يقترحها الأستاذ أو الكتاب المدرسي، على اعتبار أنها ذريعة تزود المتعلم بمادة السرد، ثم يطلب منه إثراء هذه الحجة باللجوء

¹- DUBOIS, Jean et autres : Rhétorique générale. p 11

²- GENETTE, Gérard : Figures II . Paris, ed. du Seuil, 1969. p 25

إلى مجموعة من الصور (صور الكلمات، والأسلوب، والفكر). وبهذه الطريقة يتدرب
دارس البلاغة على الكتابة.

- وتجدر الإشارة إلى أن البلاغة الفرنسية تعتمد أنواعا من الصور هي¹ :
- صور الكلمات figures de mots، التي تتكون إما بإجراء تغيير على الكلمة - بحذف حروف من بدايتها أو نهايتها - ، أو بتحويل معنى الكلمة عن معناها الأصلي، مثلما يقع في التشبيه والاستعارة والسخرية ...
 - صور البناء figures de construction، التي تتشكل عن طريق إحداث تغيير في :
 - * ترتيب الكلمات،
 - * وتيرة الجملة (التردد، القوسان، التوقف)،
 - * طول الجمل (اختصارها أو تطويلها)،
 - * القوانين النحوية،
 - * نبرة الجملة (التعجب، الاستفهام، النداء ...).
 - الصور الخطابية figures oratoires.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، عرفت الدراسة البلاغية تنظيما جديدا . فاتجهت
مادة الأدب - التي كانت تعتمد على البلاغة التقليدية- إلى تاريخ الأدب. " وغاب الخطاب
لفائدة تمارين جديدة كالإنشاء وخاصة شرح النصوص؛ وأصبحت هذه المادة مكان تجاور
البلاغة وتاريخ الأدب.

وابتداء من 1902، تحل البلاغة من جديد مكانة لائقة في التوجيهات الرسمية، بعد
أن كان الكثير يعتبرها ميتة².

وفي نفس السنة، " يخصص التعليم الثانوي شعبة لدراسة البلاغة"³.

¹ - DULIERE, André : Les secrets de la langue française. Montréal, Guérin Littérature, 1988. pp 139-261

²- VECK, Bernard et coll. : Un concept pour l'analyse didactique des objets d'enseignement en français : La transposition. In *Revue française de pédagogie*. N° 89. Oct.- Nov.- Dec., 1989. p 47

³ - GENETTE, Gérard : Figures II. p 24

أما اليوم، فالبلاغة، بطريقة رسمية، غائبة من التعليم، بعد أن عرف وضعها

تحولات على مستويات ثلاثة هي :

1- **الوضع الأيديولوجي** : بعد أن كانت البلاغة القديمة صريحة، أصبحت ضمنية . فحتى مصطلح البلاغة غاب من الحديث الرسمي، واتخذ في الاستعمال دلالة سلبية، وكأنه مرادف للثرثرة الخاوية أو منظومة متصلبة من القواعد المتغطرة *pédantesques* تتصل بنظرية الخطاب.

ومن الملاحظ أنه لا يوجد اليوم كتاب مدرسي مخصص لتعليم البلاغة.

2- **الوضع السيميائي** : و يتمثل هذا التحول في الفصل التام بين ما هو وصفي وما هو معياري، أي بين الخطاب عن الأدب والتعلم . فقبل الدخول إلى المرحلة الثانوية، في الشعب الأدبية، يفترض أن يكون فن الكتابة مكتسبا من حيث آلياته الأساسية، ولا يتخذ كموضوع رئيس في تعليم الأدب. ويستمر التلاميذ في دراسة الأدباء القدامى (مثل لافونتين *La Fontaine* و *La Bruyère*)، ولا يطالبون بتقليدهم بكتابة حكايات خرافية أو وصف أشخاص (إنجاز بورترية)، ولكن يطلب منهم كتابة مقالات تدرس الحكايات الخرافية أو البورترية.

وهكذا، كانت الدراسة الوصفية تتناول تاريخ الأدب، وهي متحررة من التطبيق؛ ويتم تعلم تقنيات الكتابة - أي ما ترسب من الوظيفة المعيارية للبلاغة - من خلال تمارين ليست إنشائية بل هي تعاليق.

فلم يصبح الأدب نموذجا بل أصبح موضوعا؛ وتغير مستوى الخطاب المدرسي الذي لم يصبح خطابا أدبيا، ولكنه خطاب عن الأدب.

3- والنتيجة المباشرة لهذا التحول هي أن البلاغة لم تصبح بلاغة الأدب بل أصبحت بلاغة ما وراء الأدب *méta littérature*.

فهي خطاب نظري عن كيفية إجراء خطاب مدرسي عن الخطاب الأدبي . والخطاب المدرسي، عمليا، هو المقالة.

" وفي المقالة الجيدة، لا شيء قابل للتحريك، أو التعويض، أو العزل، ليس لأن "المحتوى" يتغير في كل مرة، ولكن لأن المقالة لا يمكن أن تضم محتوى غير موسوم بشكل ما، بترتيب ما"¹.

وهذه البلاغة (بلاغة الترتيب Dispositio) تعتبر أن الأفكار ذاتها تشكل خطابات مختلفة، باختلاف الترتيب. وهذا ما يعتقده باسكال PASCAL، وهو أول ناقد للبلاغة القديمة ومؤسس البلاغة العصرية : " لا تقولوا لي أنني لم أقل شيئاً جديداً : ترتيب المادة أمر جديد".

والمقالة [النقدية]، لأنها ليست عملاً إبداعياً، لا تتطلب، أو قد ترفض السمة التقليدية للأدب، أي الأسلوب الجميل.

وبهذا التحول الثلاثي : الأيديولوجي، والسيميائي والبلاغ ي يمكن أن ندرك بأن الوضع المدرسي للكتابة تغير عما كان معروفاً عليه قبل قرن من الزمن؛ إذ كانت البلاغة القديمة تتكفل، في آن واحد، بوظيفة نقدية تتمثل في دراسة الأدب، ووظيفة شعرية تتمثل في إنتاج الأدب بدورها من خلال اقتراح نماذج. ومن هنا كان تلاقي هذه الوظائف هو الذي يحدد الوضعية البلاغية.

وإذا عرفنا أن هذا التلاقي قد اختفى من تعليم الأدب، يمكن حينئذ أن نعتبر أن البلاغة اختفت معه، لأنه كان يمثل خصوصيتها . وقد خلفها علم تاريخ الأدب الذي أصبح يحتكر الدراسة الوصفية للأدب وتقنية الكتابة المتمثلة في المقال . " وهكذا عوضت الثقافة البلاغية التي كانت ترمي إلى تمكين التلاميذ من إنتاج خطابات، بثقافة التعليق على النص (الشرح والمقال)"².

يميز بعض الدارسين الغربيين بين الخطاب البلاغي والخطاب غير البلاغي . فيرون أن الخطاب البلاغي غايته تبليغ الرسالة، أما الخطاب غير البلاغي فهو الذي يقتصر على الإعلام، كالخطاب العلمي الذي يوصف بأنه عقلي بحت، بعيد عن

¹ - المرجع نفسه. ص 39

² - BIARD, Jaqueline ; DENIS, Frédérique : Didactique du texte littéraire. p 15

المعتقدات، يسعى إلى الإقناع لا إلى الاستمالة، يتناول وقائع مؤكدة، مثل النصوص القانونية.

أما البلاغة فتعتمد على ما هو قابل الوقوع.

ومما حتم على الغرب العودة إلى تقاليد بلاغية قديمة، اعتقادهم أن النقاش السياسي والخطاب الإعلامي والإشهار، كلها ظواهر هامة تعتمد على كفاءات عرفها الخطباء وتحكموا فيها منذ قرون.

لذلك تبادر بعض الجامعات الغربية اليوم إلى تدريس هذه الكفاءات تحت عنوان "تقنيات التعبير والتواصل"، و "التواصل الإشهاري"، أو "السمعي البصري" وغيرها. ورغم ما تختص به كل مادة من هذه المواد إلا أن قاسما مشتركا يجمع بينها وهو : فن التواصل أو التبليغ.

وكان أفلاطون (428 - 347)، وهو يحدد الشروط الفلسفية للفن الخطابي، يرى أن البلاغة بلاغتان:

- البلاغة التي كان السفسطائيون يمدحونها لأنها تؤدي إلى الحكم، وتستميل أي شخص بأي شيء عن طريق المراوغة، بعيدا عن الصدق الفكري.
 - والبلاغة التي تعني تكوين الفكر. وهي بلاغة فلسفية تعتمد على الطريقة الجدلية، هدفها البحث عن الحقيقة. وهي الوحيدة التي تستحق هذه التسمية - في رأيه - لأنها لاكتفي باستغلال قوة اللغة وأساليبها، بل تسمو إلى مخاطبة عقل الإنسان.
- أما الأولى فما هي إلا ديمagogية حقيرة.

سار أرسطو (384 - 322) على خطى أستاذه أفلاطون، وأشاد بالبلاغة باعتبارها مفيدة و وسيلة للحجاج الذي يستعمل العقل قصد الإقناع وتبليغ الأفكار . احتفظت هذه الأفكار بصلاحياتها وقد ارتكز بعث البلاغة الفرنسية عليها وانطلق من أقسام البلاغة حسبما أرساها اليونانيون . إذ كانت البلاغة القديمة، وهي بلاغة الخطيب والكاتب، تميز

في دراسة النصوص وإنتاجها بين "الإبداع" (أو البحث عن الأفكار)، و "الترتيب" (أو التأليف والتصميم)، و "التعبير" (بأسلوب معين).

ويحتفظ هذا التمييز بأهميته إلى اليوم، فالبلاغة العصرية تجدد هذه الدراسة . وهي تتعلق في آن واحد بالكتاب والقارئ؛ وتجري تحليلا شاملا للوسائل التي تسمح بتسلسل الجمل؛ وتتساءل خاصة عن ظروف إنتاج نص شفوي أو كتابي، واستقباله، مراعاة الفاعلين و وضعيات القول وأنماط النصوص المختلفة . وتوفر، هكذا، دعائم لدراسة النصوص الأدبية.

ولا تزال الأقسام القديمة للبلاغة (الإبداع والترتيب)، ترد تحت اسم "البحث عن الأفكار" و "إعداد الخطة" وتشكل سندا للإنشاء.

تحاول هذه البلاغة أن توفر إطارا منسجما للمعارف والممارسات المدرسية للكتابة والقراءة، لأنها تحتفظ بما كان يميز البلاغة القديمة، وتستفيد من نتائج البحوث الحديثة الواردة تحت عنوان "البلاغة العصرية".

وتقضي المقارنة بين البلاغة القديمة والبلاغة العصرية إلى ما يأتي¹ :

البلاغة القديمة	البلاغة العصرية
إنتاج الخطاب:	دراسة الخطاب بإدماج إضافات عدة :
- الإبداع	- اللسانيات ونحو النص (تسلسل الجمل).
- الترتيب	- تاريخ الأدب المتجدد renouvelée (شروط الإنتاج والاستقبال).
- التعبير	- لسانيات القول (وضعيات الخطاب، هيكله القول وسماته marques).
	- نمطية النصوص.
	- التداولية (القارئ والقراءات).

¹ - المرجع نفسه. ص 18

لم تسترجع البلاغة مكانتها في التعليم، في حدود السبعينيات من القرن العشرين، إلا على اعتبار أنها تمثل بعدا أساسيا في كل فعل تواصل، وليس كحلية للخطاب : " وتعود صور الخطاب، بعد أن نقحتها البنائية (وهي وليدة لسانيات ما بعد سوسير)، لتستعمل كأدوات التحليل عند مختص النصوص الأدبية (في مجال الأسلوبية والشعرية ...)، وبصفة أوسع في المنظومات الدالة (في مجال علم الدلالة والسيميائية)¹. وأصبحت أقسام البلاغة القديمة (الإبداع، والترتيب، والتعبير) تقدم وتشرح، بالنظر إلى بلاغة عصرية معتمدة على لسانيات الخطاب (القول) والتداولية. فالهدف من النصوص غير الأدبية هو تمكين المتعلم من فحص حركات الفكر (الترتيب) والحجج (الإبداع) وتسلسلها المنطقي. أما النصوص الأدبية فتسمح بملاحظة قوة اللغة والبحث عن المعاني (سلطة التعبير).

لما تسمح القراءة المنهجية بإجراء ملاحظة منظومات الأشكال البلاغية في النص . وهي عديدة، منها : الصور، والاستعارة والكناية، والوسائل الأسلوبية، وتحليل تنظيم هذه الأشكال، وإدارك ديناميكيتها داخل النص؛ وتركز التوجيهات التربوية كذلك على التعبير للتزود بأدوات التحليل.

ويكشف التدريب على القراءة المنهجية عن وظيفة أخرى تتمثل في مساءلة منظمة بحثا عن الأفكار، تأتي على شكلية التي كان يستعين بها الخطيب الشيشروني cicéronien من أجل تنظيم مرافعته :

- ماذا ؟ ما هو الموضوع ؟

- من يرى ؟

- من يتحدث ؟

- إلى من ؟

- أين ؟

¹ - VECK, Bernard et coll. : Un concept pour l'analyse didactique des objets d'enseignement en français : La transposition. In Revue française de pédagogie. N° 89. Oct.- Nov.- Dec., 1989. p 48

- متى ؟

- كيف ؟

تتخذ هذه الأسئلة لإجراء عملية "الإبداع" inventio ، وهي موجهة هنا لتوفير سبل تساعد على تحليل النص وليس لإنتاج خطاب.

يشجع البرنامج التعليمي على تدريب التلاميذ على الصور البلاغية حتى يسهل عليهم استعمالها بطريقة عادية، وبهدف التعرف على صور تنتج كل واحدة منها معاني محددة.

ومما يشترط في القائمة المقترحة، مراعاة مستويات الدلالة signification (الدال والمدلول؛ الشكل والمضمون)، والمستوى اللساني (الصوتي، الصرفي، النحوي، الدلالي)، بناء على أن الصورة البلاغية تخدم هذه المستويات، وحتى لا يقتصر التحليل على التعرف على "حلية" معزولة، لا أثر لها على النص.

وهكذا تركز التوجيهات الرسمية على "رجوع" البلاغة، ولكن بلاغة تغير شكلها .
فالتعبير élocutio يزود التحليل بأدوات راجعت علوم اللسان تقييما؛ أما الإبداع inventio والترتيب dispositio فيبحثان عن استقلالهما متخذين معرفة جديدة للتعليم: الحجاج. وبالرغم من أن الحجاج لم يصبح حقلا لمادة تعليمية محددة، غير أنه في الواقع، يعتمد على البلاغة وخاصة "الترتيب" وبدرجة أقل على "الإبداع".

فالحجاج لا يظهر في التوجيهات الرسمية بطريقة صريحة كمادة تعليمية، بل

كتوجيهات تخص المحتويات؛ ولا يفصل أبدا بين مستوى الحجاج ومستوى دراسة النصوص أو تمارين الإنتاج بصفة عامة . ويظهر في شكل إرشادات منهجية تتضمن الدعوة إلى الصرامة، ومراعاة الضوابط المتصلة بطبيعة التمارين ... الخ.

وتعتبر دراسة النصوص - غير الأدبية خاصة - فرصة للتفكير في حركات الفكر، وفي الحجج وتسلسلها المنطقي، الذي يحرص عليه كذلك في تمارين الإنشاء؛ حتى يتدرب المتعلم من خلالها على بناء فقرة وتعيين تمفصلات الاستدلال باستعمال وسائل معينة.

حينئذ يتبين الهدف من الدراسة الحجاجية المتمثل في التعرف على الربط بين الجمل الذي قد يكون صريحا وظاهرا بفضل الروابط (أو أدوات الربط)، أو ضمنيا، يستنتج من تتابع المسند thème والمسند إليه rhème في كل جملة.

وإذا كانت البلاغة، لدى البعض، هي مدرسة الخطاب، فدراسة الحجاج بالنسبة إلى بيرلمان Ch.PERELMAN هي دراسة وسائل البرهان في خطاب يجري باللغة الطبيعية، وهي دراسة القواعد العامة التي تصادق على الحجاج.

يذكر البرنامج الفرنسي أن " المفاهيم البلاغية قد تتلون بمعنى يحدده تطور الدراسات اللسانية، ويفرضه المحيط الذي تظهر فيه "1. ومنه، فقد تستمد بعض المعارف المرجعية المتصلة بالحجاج من مواد لغوية (الأسلوبية ولسانيات الخطاب).

* نصوص رسمية فرنسية

- تتناول نصوص رسمية لتعليم اللغة الفرنسية في السنة الأولى من التعليم الثانوي - سنة 1987 - تدريس البلاغة والأسلوبية، فتحدد محتويات، منها :
- البلاغة القديمة والبلاغة العصرية:
- * وضعية القول.
 - * الاتصال الشفوي والاتصال الكتابي.
 - * الكاتب، المرسل إليه، المادة، هدف الرسالة.
 - * التعبير عن المكان، التعبير عن الزمان.
 - * الأسلوب المباشر، الأسلوب غير المباشر.
 - * الصريح والضمني.
 - * أنماط النصوص : السردية، الوصفية، الوثائقي، التعليمي، ...
 - * مصادر الإبداع : المعرفة، الخبرة، المطالعة، التوثيق ...

¹ -- VECK, Bernard et coll. : Un concept pour l'analyse didactique des objets d'enseignement en français : La transposition. p 53

* التعبير: مفهوم الأسلوب، الأسلوب والشخص، الأسلوب والعصر، سجلات اللغة، اختيار الكلمة، ترتيبها، بناء الجملة وتحديد طولها...
* الصور.

* الأجناس الأدبية (متصلة بدراسة النصوص).

أما التمارين التي توصي بها هذه النصوص الرسمية، فينبغي أن تبنى حول:

* التعرف على العناصر المكونة لوضعية تواصلية، تحديد المتحدث أو الكاتب، المرسل إليه (أو إليهم) ...

* تحديد أهداف الرسالة والتعرف عليها : التعبير عن الأحداث، الأفكار، المشاعر، الأخبار، الشرح، الحجاج، البرهنة، الإقناع، السؤال، الإنكار...
* تحديد السؤال أو الأسئلة المطروحة، أو التي يمكن أن تطرح.

* البحث عن العناصر اللازم استعمالها، وجردها وتعريفها.

* اكتشاف ترتيب العناصر وتنظيمها بالنظر إلى الأسئلة المطروحة من أجل العثور على حل.

* المعنى الدقيق للكلمات، انسجام القول .

* التحليل والتركيب.

* تحديد سجلات اللغة (الراقية، البسيطة، اليومية) التي ينبغي تكييفها مع الوضعية، والمرسل إليه (أو إليهم)، والهدف ... استعمال عبارات اللياقة الاجتماعية ...

* تلوين التعبير والفكر (الدعم، الإلحاح، الاستخفاف)...

2- المؤلفات البلاغية في العصر الحديث

عرفت البلاغة العربية عصرها الذهبي في العصر العباسي، ثم تجمدت لتنتعش من جديد في الآونة الأخيرة بفضل حركات فكرية هنا وهناك، ترفع شعار البعث والتجديد. فسار مؤلفون محدثون على خطى البلاغيين الذين وضعوا كتب البلاغة القديمة، مثل: "المفتاح"، و "التلخيص"، و "الإيضاح" ... فاقتفوا آثارها وساروا على نهجها. وإذا رغبوا في تجديد أو تحديث، غيروا مثلاً بمثل، و وضعوا بيتاً شعرياً مكان بيت ... محافظين على القواعد التي رسخت واستقرت في معظم كتبهم. ولكن، إنصافاً لبعض الباحثين، نعتزف بمحاولة بعض المؤلفات سبر النصوص والتعمق فيها بحثاً عن سر جمالها وروعة بيانها، ومعالجتها على ضوء ما استحدثته علوم اللسان الغربية، و / أو بناء على نظريات لامعة جادت بها قريحة البلاغيين العرب القدامى مثل الجاحظ و الجرجاني وغيرهما.

وبناء على الملامح الكبرى التي تميز المؤلفات البلاغية بصفة عامة والتوجه

الغالب الذي يطبعها، يمكن تصنيفها إلى قسمين أساسيين هما :

1- المؤلفات التي تعالج الموضوعات البلاغية بتحليلها ومناقشتها، سواء على ضوء

آراء البلاغيين القدامى، أو على ضوء الدراسات الحديثة؛ متفاوتة في استغلال هذين

المصدرين وفي انتهاجها طريقة التحليل والاستنباط. ويمثل هذا النوع من المؤلفات :

* " التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني "،

للدكتور عبد الفتاح عثمان.

* "البيان فن الصورة"، للدكتور مصطفى الصاوي الجويني.

* " البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم "، للدكتور شفيق

السيد.

* " نحو بلاغة جديدة "، لمحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز

شرف.

2- المؤلفات المدرسية أو شبه المدرسية ، التي تتبنى الطريقة التقليدية في البسط والتناول عند عرضها للموضوعات البلاغية، مقتفية في ذلك نهج الكتب القديمة؛ وقد يقتصر الجديد فيها على التنوع في الشواهد التي تتراوح بين النص الديني (القرآن والحديث) والأدب القديم والأمثلة المصنوعة (أي من إنتاج المؤلف ذاته). مما جعل الدكتور مصطفى الصاوي الجنيدي يرى أن الكتاب المدرسي البلاغي " يدور في فلك مفتاح السكاكي"¹.

ومن هذا النوع من المؤلفات، أرسينا على :

- * "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع"، لأحمد الهاشمي.
- * "البديع، تأصيل و تجديد"، للدكتور منير سلطان.
- * "علوم البلاغة"، لأحمد مصطفى المراغي.
- * "البلاغة العربية في ثوبها الجديد"، لبكري شيخ أمين.

• المؤلفات التحليلية

تشارك المؤلفات التي سنعرضها بتركيزها على جوانب بلاغية دون أخرى وهي حريصة على الدراسة والتحليل مهما كان المنهج المتبع.

- * "التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني"، للدكتور عبد الفتاح عثمان. سعى بعض المؤلفين إلى تحليل الصور البيانية بطريقة دقيقة فاحصة، مركزين على جانبها الفني والوظيفي؛ على غرار عبد الفتاح عثمان الذي توصل إلى القول :
"وما دامت وظيفة الصورة التي هي وسيلة الخيال التقديم الحسي للمعنى فإنها بذلك تقوم بنفس الوظيفة التي تؤديها الأنواع البلاغية، لأن التشبيه في وظيفته الفنية يجسد المقولات في صور مادية حسية، وكذلك الاستعارة التي تقوم على المشابهة تؤدي نفس الدور في تجسيم المعنويات في كائنات مادية ملموسة، و تشخيص الجمادات في هيآت عاقلة محسوسة وأيضا الكناية يوظفها الأديب في بعض صورها لتقديم المعادل الحسي للصور

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 126

العقلية المجردة... وما دام هذا الارتباط قائماً بين الخيال والصورة من ناحية وبينهما والأنواع البلاغية (التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز) من ناحية أخرى، وجب علينا دراسة مصطلح الخيال والصورة وصلتهما بالتعبير البياني¹.

يستعرض الدكتور عبد الفتاح عثمان المصطلحات التي يقترن استخدامها بالصور البيانية، مثل الخيال والتخييل، ثم يبين الفرق بينهما، والصورة الفنية . فيحدد مفهومها الحالي ويرجع إلى ما كان يراد بها عند القدماء كالجاحظ والجرجاني وغيرهما، ويستنتج أن " التخييل مرتبط بالأنواع البلاغية ومميز للأسلوب الأدبي عن الأساليب الخطابية والبرهانية والجدلية"².

ويجري موازنة بين التشبيه والاستعارة فيخلص إلى أن : " الاستعارة أكثر توغلا في الخيال، وأعظم جرأة على تخطي عتبات الواقع الحسي من التشبيه، ومن ثم يستخدمها الشاعر أداة طيعة في تجسيم المعنويات وتشخيص الجمادات، والاقتراب من عالم الواقع والامتزاج بالطبيعة ومخاطبتها على أنها كائنات عاقلة حية تحس وتشعر وتسمع وتجب"³.

وقد أدى اختلاف طبيعة التشبيه عن الاستعارة إلى ملاحظة " أن التشبيه أكثر شيوعاً من الاستعارة في العصور الاتباعية التي يكون فيها الشعراء أقل حدة في الخيال، وأكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق، والاستعارة أكثر شيوعاً من التشبيه في العصور الابتداعية التي يشطح فيها الخيال فلا يكون للعقل عليها ضابط... فالبلغ الذي يستخ دم التشبيه في التعبير الشعري إنسان متميز فطن يتمكن بحسه الممتد و شعوره النامي من التوغل في قلب الأشياء واكتشاف ما بينها من علائق قد تبدو بعيدة للنظرة السطحية... ومن ثم كان عقد التشبيه أمراً بالغ الصعوبة في رأي البلاغيين"⁴.

وهو يدقق النظر في التراث البياني ويقارنه بالدراسات الحديثة، ويلفت الانتباه إلى نقاط القوة فيما أحرزته البلاغة من تصور، ويحذر : " لا ينبغي علينا التسليم بالدعوى

¹ - د. عبد الفتاح عثمان: التشبيه و الكناية بين التنظير البلاغي و التوظيف الفني. مكتبة الشباب، 1993. ص 8-9

² - المرجع نفسه. ص 12

³ - د. عبد الفتاح عثمان: التشبيه و الكناية بين التنظير البلاغي و التوظيف الفني. ص 32

⁴ - المرجع نفسه. ص 33-35

القائلة بأن البلاغيين القدماء كانوا منطقيين يتعسفون في وضع المباحث البلاغية داخل قوالب مصبوبة قد جهزت سلفا، وأنهم يفتقدون الذوق الفني والإحساس المرهف الذي يمكنهم من الإقبال على الدرس البلاغي برؤية مستتيرة"¹.

وهكذا يتراوح هذا المسح البلاغي للبيان العربي بين القديم والحديث، ويحلل أبعاد الصورة الفنية بناء على نظرات القدامى والمحدثين.

والأمر الإيجابي في هذا الكتاب يتمثل بالذات في هذا الجانب التوفيقي الذي يربط الحاضر بالماضي لجني أكبر فائدة.

ورغم أن المؤلف لا يعيد النظر في تصنيف البلاغة التقليدية للبيان وأنواعه (التشبيه، الاستعارة والكناية)، بل يعززه ويجمع بين ما توصل إليه القدامى في شأنه وما بلغه المحدثون في بحوثهم.

والدكتور عبد الفتاح عثمان لا يأتي بمعالجة جديدة للظواهر البلاغية، بل هو حريص على تحليلها واستيعابها بأسلوب علمي بسيط ضمانا للتوضيح وتقريبا للتناول؛ وعندما يعرف الكناية مثلما عرفها البلاغيون - القدامى منهم والمحدثون - قائلا: "إن الأسلوب الكنائي هو التعبير الذي لا يراد به معناه الأصلي الذي وضعه اللغويون وإنما يراد به المعنى اللازم لعلاقة بينهما تقوم على التبعية أو اللزوم؛ والذي يحدد هذه العلاقة العرف الاجتماعي"².

ويعقب هذا التعريف المتداول بمعنى الكناية لدى عبد القاهر الجرجاني وهي: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به ويجعله دليلا عليه"³.

ويبين أن الكناية إنما تتكون - غالبا - وتنتشر بفعل العرف الاجتماعي الذي ينشئها من الواقع. ولذلك، تتجدد الكنايات تبعا للزمان والمكان اللذين يحددان استعمالها وتداولها بين الناس. فالكنايات التي حفل به التراث الأدبي مثل: "جبان الكلب، ومهزول والفصيل، وكثير الرماد..."، أصبحت رهينة المؤلفات الأدبية وحبيسة العصور التي أوجدتها.

¹ - د. عبد الفتاح عثمان: التشبيه و الكناية بين التنظير البلاغي و التوظيف الفني. ص 39

² - المرجع نفسه. ص 150

³ - د. عبد الفتاح عثمان: التشبيه و الكناية بين التنظير البلاغي و التوظيف الفني. ص 151

أما اليوم، فتستخدم " لغة المدفع " كناية عن القوة، و " يرفع غصن الزيتون " كناية عن السلام، و " ينظر إلى الدنيا بمنظار وردي " كناية عن الأمل ...
وإن وجدنا، إلى جانب مثل هذه الكنايات، كنايات ثابتة مرتبطة بالطبيعة العضوية مثل " تصغير الخد " كناية عن التكبر والغرور، و " اصفرار الوجه " كناية عن الصدمة النفسية...

ثم يلتفت المؤلف إلى وظيفة الكناية حسب عبد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين، الذين أبرزوا دورها في الإقناع .
" والإقناع العقلي يتمثل في إيجاب الشيء عن طريق البينة، وإثبات الصفة بإثبات دليلها، فهي أقرب إلى الحجاج العقلي منها إلى التعبير الوجداني الذي ينقل رؤية ذاتية متفردة للأشياء، وتعبير آخر، فإن الكناية بنت الفكر بينما التشبيه والاستعارة من بنات الوجدان"¹.
ومع ذلك، تبقى الكناية تجسد المعنى وتقدمه في صورة مادية محسوسة كما يفعل التشبيه. وبالإضافة إلى الإقناع العقلي والتقديم الحسي للمعنى، تضطلع الكناية بوظائف أخرى مثل : ستر المعاني التي يخجل من التعبير المباشر عنها، وإعطاء المقابل الأحسن في التعبير عن بعض الصور الذهنية ذات الدلالات السيئة.

* " البيان فن الصورة "، لمصطفى الصاوي الجويني

يتناول مصطفى الصاوي الجويني الكناية فيلاحظ أن ما يميز أسلوب الكناية هو اختلاط أساليب التكنية بإيماءات الألفاظ، وبالألفاظ التي قال فيها اللغويون أنها زائدة المبني لزيادة المعنى؛ وهكذا يتكون المعنى في الكناية من وجهة نظر لغوية - انطلاقاً من صياغة اللفظة، إذ إن كل حرف زائد فيها يؤدي معنى معيناً.
ويضيف المؤلف إن الكناية من ميزات أسلوب تظليل؛ ويدلي بمجموعه من الملاحظات عن هذا الأسلوب، يستهلها باختلاف التسمية، فعوض الكناية، قد نعثر على الإضمار أو التتابع ... أو غيرهما. ومن جهة ثانية، يلاحظ " تداخل الكناية مع كثير من أبواب البلاغة كالاستعارة، والمبالغة، والتورية، والتجنيس ... إلخ؛ ولهذا نجد المثال

¹ - المرجع نفسه. ص 172

القرآني الواحد هو بعينه في باب الاستعارة عند أحد البلاغيين، والمثال نفسه في باب آخر عنده، ويمكن تتبع هذه الظاهرة عند بلاغي واحد، وعند أكثر من بلاغي¹.
وقد ترجع هذه الظاهرة إلى تركيب الأسلوب واختلاف القراء في التأويل.
ثم يعمل المؤلف على التمييز بين الكناية وأساليب أخرى قد تتداخل معها أو ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً كالإيجاز، والمجاز والرمز وغيرها؛ معتمداً على المقارنة التي تبرز خصائص ووظائف كل لون من هذه الألوان، ونقاط الالتقاء والاختلاف بينها.
إن عقد مثل هذه الموازنات يسمح للمتعمق بتبين طبيعة الأسلوب البلاغي ووظيفته ويكفل له القدرة على استعماله وفق هدف التعبير والموقف والمتلقي...
وتحليل الصورة البلاغية للمتعمق يجعلها في متناولها، إذ يشرح له حيثياتها وطريقة استعمالها والأغراض الأدبية التي تحققها.
ولا يكتفي مصطفى الصاوي الجويني بثقافته الخاصة والحديثة في عقد المقارنات بين الأساليب البلاغية واستنباط خصائصها، بل قد يرجع إلى آراء البلاغيين الآخرين، المحدثين منهم كالدكتور لطفي عبد البديع، أو القدامى مثل القزويني والجرجاني، فيعرضها ويقابل بينها ليستمد الرأي الذي يذهب هو إليه. وهكذا، يستغل مصطفى الصاوي الجويني النظرات البلاغية التراثية ويضيف إليها ما توصلت إليه الدراسات الحديثة. فيتخذ موقفاً توفيقياً يتوسط هذين المصدرين.

* " البحث البلاغي عند العرب، تأصيل و تقييم"، للدكتور شفيع السيد

تناول الدكتور شفيع السيد في كتابه: " البحث البلاغي عند العرب، تأصيل و تقييم"، بعض الموضوعات، بتحليلها انطلاقاً من تنظير البلاغيين القدامى والمحدثين، وباستعراض نصوص قديمة وحديثة من الشعر الحر، ليثبت من خلالها كفاءات استغلال الأساليب البلاغية المتنوعة كالتكرار، والحذف والإضمار، والقصر، والخبر والإنشاء وغيرها.

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 113

وهو يراجع آراء ابن قتيبة والجرجاني وأبي هلال العسكري وابن رشيق ويتبعها ليميز بين المحدثين الذين قنعوا بها ولم يتجاوزها، والذين أضافوا عليها أو وسعوها، فيعرض النظريات على ضوء التحليل والاستدلال والتعليل والشواهد، قديمها وحديثها . فيوفر هذا المؤلف سندا لمنهجية البحث البلاغي، ويدعو الباحث إلى عدم التسليم بالقواعد والقوانين الوضعية، بل العمل على التحقق من صوابها أو إثبات خطئها .

ومن المناقشات التي يجريها على هذه الأساليب ما يقوله عن الخبر والإنشاء :

" قسم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء، وعرفوا الخبر بأنه ما يحتمل الصدق والكذب، والإنشاء بأنه ما ليس كذلك . وجرهم استخدام الصدق والكذب في هذا التعريف إلى الخوض في معنى كل منها : وهل الصدق مطابقة مدلول الكلام للواقع الخارجي والكذب انتفاء هذه المطابقة؟ أو أن الصدق هو مطابقة الخبر لاعتقاد المخبر ولو كان غير مطابق للواقع والكذب فقدان هذه المطابقة؟

كلا الرأيين نراه في كتب البلاغة العربية، كما نرى جدلا واحتجاجا من أصحابهما ... وهكذا تحولت الدراسة الأسلوبية إلى ساحة للجدل العقلي الذي يبتعد عن جوهر الموضوع. ولو وقف البلاغيون في تحديد معنى الخبر عند حد القول بأنه ما لا يتوقف تحقق مدلوله على النطق به لكفاهم ذلك"¹.

لا يتردد هذا الباحث في احتكام عقله ومنطقه فيما اعتبره البلاغيون، القدامى منهم والمحدثون، قاعدة ثابتة، معللا موقفه بما يسوغ الفكر، ليراجع ما كان مسلما به مدة قرون، كأن يعيد النظر في غرض الأسلوب الخبري المقترن "بان" قائلا :

" والواقع أن عددا يفوق الحصر من أساليب الخبر ... تأتي مقترنة ب "إن" دون أن تكون موجهة لمخاطب شاك في مضمون الخبر، بل هي أشبه ما تكون باللازمة التي يستخدمها المتكلم في بداية الكلام، أو في مطالع بعض الفقرات عفوا، ودون أن يكون هناك تردد في الحكم من جانب المخاطب.

¹ - د. شفيق السيد: البحث البلاغي عند العرب، تأصيل و تقييم. ص 181-182

... إن وجود أداة تأكيد واحدة ليس دليلاً على كون المخاطب مرتاباً في الحكم

طالباً تأكيده ... وإنما يتوقف الأمر كذلك على السياق أو القرائن الخارجية¹.

وعندما ينتقل إلى الفصل والوصل، يوظف لفحصهما منظار النحو والدلالة، ويشيد

بصنيع الجرجاني في هذا الشأن قائلاً :

"ولا يسعنا إلا الإعجاب بالجهد الذي قام به عبد القاهر الجرجاني - غير مسبوق

إليه - في هذا الشأن، فقد استخلص مجموعة من المبادئ العامة تحكم حالتها الفصل

والوصل بين الجمل، وفيها تبرز قواعد النحو الشكلي بالتحليل الدلالي للأساليب ...

ويحاول النفاذ إلى تفسير لغوي فني يحتكم إلى قواعد اللغة بقدر ما يحتكم إلى معقولية

الدلالة في النفس ... وإنما على الدارس المحلل أن يتعمق في الكشف عن طبيعة العلاقة

القائمة بين الجمل التي يتألف منها السياق الواحد، والتي على أساسها كان الربط بالواو

بينها (الوصل)، أو عدمه (الفصل)².

ويضيف بعد ذلك ما يعزز موقفه :

"كذلك فإن أسس الفصل بين الجمل في البلاغة التراثية تتمثل في وجود اتصال كامل بين

الجملتين أو شبهه، أو انقطاع كامل أو شبهه، لكننا نرى الفصل يتم دون شيء من ذلك في

أساليب التعبير الأدبي الحديثة، إذ يوظفه الشاعر المعاصر توظيفاً فنياً ليصبح عنصراً له

دوره في الدلالة الشعرية³.

* "نحو بلاغة جديدة"، لمحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف

وممن يرفعون شعار المعاصرة الأستاذان : محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز

شرف في كتابهما "نحو بلاغة جديدة". فهما يفصلان القول في المصطلحات الحديثة التي

تشكل الدورة البلاغية و التي تعبر عن المحيط الإعلامي المعاصر، ويترحان نظرية

الإعلام الحديثة التي جعلت تماشي البلاغة العربية مع تطور وسائل الإعلام التكنولوجية

ضرورة حتمية، كما منحنا لهذه البلاغة اسم بلاغة جديدة.

¹ - المرجع نفسه. ص 185-186

² - المرجع نفسه. ص 257

³ - المرجع نفسه. ص 271

غير أنهما، من جهة ثانية، يتناولان موضوعات البلاغة التابعة لعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع تناولاً تقليدياً، ذاكرين التعريف والشواهد التي نعثر عليها في كل المراجع التي تعالج البلاغة العربية القديمة، ولا شيء يشير إلى ربط الجانب النظري بالجانب التطبيقي، أي بإسقاط تلك النظريات الحديثة على شواهد ونماذج مأخوذة من الإشهار والمقالات الصحافية وحوارات الأفلام، والخطب السياسية ...

• المؤلفات التعليمية

ما زالت الكتب البلاغية التي تؤلف في أيامنا لأغراض تعليمية تدور في فلك منهج السكاكي على نحو ما . وقصارى ما أضافه بعضها الإكثار من النماذج والأمثلة الأدبية المختارة أو التخفيف من بعض المباحث المنطقية الخالصة . فهي ما زالت في مجملها صورة أمينة من صور تطبيقات هذا المنهج.

ومن المؤلفات البلاغية الكثيرة التي صنف في العصر الحديث، انتقينا أربعة كتب بناء على التنوع في طريقة التأليف، حيث تتراوح بين التأليف التقليدي إلى بعض البساطة والتحليل في معالجة الموضوعات البلاغية، والتحديث في المصطلحات.

يعد الكتاب المدرسي من أجل استعمال الأستاذ والمتعلم معاً، وهو وسيلة تعليمية وتعلمية ضرورية، لا يمكن الاستغناء عنها . فالكتاب هو الذي يساهم في تفعيل أهداف المادة ويحمل المضامين المقررة في البرنامج ويجسد الطريقة المنتهجة في التدريس، ويوفر السندات (النصوص، الرسوم، البيانات، الأشكال ...) والتدريبات اللازمة للأنشطة المقترحة.

ومهما بلغت هذه الوسيلة من الإتقان والشمولية وتلبية الحاجات التعليمية والتعلمية على حد سواء، لا تغني الأستاذ عن عناية إثراء النصوص والتدريبات الموجودة في الكتاب، والتنويع في كفايات عرض الدرس ... لأن المدرس الفاشل هو " الذي حبس نفسه في الكتاب المدرسي وجعل القضية هي حفظ المصطلح البلاغي والتدريب عليه دون تذوق للجمال البلاغي . [وأما المتعلم فنجد في كثير من الأحيان] قد مل الكتاب البلاغي لأن

نصوصه سقيمة لا ترتبط بعصره، أو لأن المنهج فيها عقلي مسرف في جفافه أو خيالي غامض في التعرف إلى خصائص الجمالي¹.

وفضلا عن عدم إدراك المتعلم للفوائد التي يجنيها عمليا من دراسة البلاغة، قد ينفر كذلك من كتابه، بسبب عدم اتصال السندات البلاغية (النصوص، الأمثلة، الشواهد) بحياته وبالذوق السائد في عصره، على اعتبار أن البلاغة، في هذا الشأن، نوعان : ما يلائم ذوق العصور على اختلافها : فحين يدرس المتعلم أن لكل كلمة مع صاحبها مقاما، أو أن "هل" تستعمل للسؤال عن النسبة بين المسند والمسند إليه، أو أن يدرس القصر في التعبير، فكل هذا ملائم ومناسب بناء على كونه معياريا في اللغة، ولكن الذي لم يعد ملائما فهو ذلك التكلف في استعمال المحسنات والمبالغة في الاستعارات والتشبيهات، أو توظيف كنايات قديمة فقدت كل دلالة بالنسبة إلى العربي المعاصر مثل : "كثير الرماد وطويل النجاد...".

فإن مثل هذه العبارات أصبحت غريبة اليوم، لأنها تعبر عن بيئة بعيدة عن بيئتنا ولا تستجيب للعصر الذي نعيش فيه. وإن كانت تحتفظ بدلالاتها عند دارس الأدب القديم؛ حينئذ يبرر هذا السياق دراستها، في الشعب الأدبية وفي آخر سنة من التعليم الثانوي أو في التعليم الجامعي.

وفيما يأتي، تسليط الضوء على النماذج المذكورة من المؤلفات البلاغية، من أجل تحديد خصائصها التعليمية.

* "جواهر البلاغة"، لأحمد الهاشمي

من المؤلفات الحديثة التي عرفت رواجا واسعا في الوسط التعليمي، كتاب أحمد الهاشمي الذي تناول موضوعات البلاغة تتاولا نظريا، إذ يعرض القاعدة وحالاتها المختلفة ثم يذيلها بالشواهد، دون تحليل هذه الأمثلة ولا ذكر السياق الذي وردت فيه أو القرائن التي تساعد على فهم دلالاتها.

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 127

ننقل فيما يأتي بعض ما جاء في هذا الكتاب، قصد التمثيل والإيضاح:

"الباب الأول: في تقسيم الكلام إلى خير وإنشاء .

وفي هذا الباب ثلاثة مباحث.

المبحث الأول في حقيقة الخبر:

الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته : أي بقطع النظر عن خصوص المخبر أو خصوص

الخبر، وإنما ينظر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله.

والمراد بصدق الخبر مطابقته للواقع ونفس الأمر.

والمراد بكذبه عدم مطابقته له.

الأغراض التي من أجلها يلقي الخبر :

الأصل في الخبر أن يلقي لأحد غرضين :

(أ) إما إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلا له ويسمى ذلك الحكم " فائدة الخبر

"

(ب) وإما إفادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضا بالحكم الذي يعلمه المخاطب ويسمى ذلك الحكم "

لازم الفائدة "

وقد يلقي الخبر على خلاف الأصل لأغراض أخرى تستفاد من سياق الكلام، أهمها:

1- الاسترحام والاستعطاف، نحو : إني فقير إلى عفو ربي.

2- وتحريك الهمة إلى ما يلزم تحصيله، نحو : ليس سواء عالم وجهول.

3- وإظهار الضعف والخشوع، نحو " رب إني وهن العظم مني " .

4- وإظهار التحسر والتحزن، نحو " رب إني وضعتها أنثى " .

5- وإظهار الفرح بمقبل، والشماتة بمدبر، نحو " جاء الحق وزهق الباطل " .

6- والتوبيخ كقولك للعائر : الشمس طالعة.

7- التذكير بما بين المراتب من التفاوت، نحو : لا يستوي كسلان و نشيط .

المبحث الثاني :

في كيفية إلقاء المتكلم الخبر للمخاطب :

حيث كان الغرض من الكلام الإفصاح والإظهار يجب أن يكون المتكلم مع المخاطب كالطبيب

مع المريض يشخص حالته، ويعطيه ما يناسبها.

فحق الكلام أن يكون بقدر الحاجة، لا زائدا عنها، لئلا يك ون عبثا ولا ناقصا عنها، لئلا يخل بالعرض، وهو الإفصاح والبيان.

والملقى إليه الكلام (وهو المخاطب) له ثلاث حالات :

1- إما أن يكون خالي الذهن من الحكم، وفي هذه الحال لا يؤكد له الكلام لعدم الحاجة إلى التوكيد، نحو : أخوك قائم، وما أبوك حاضر. ويسمى هذا الضرب من الخبر ابتدائيا.

2- وإما أن يكون مترددا في الحكم طالبا لمعرفته، فيستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه تقوية للحكم ليتمكن من نفسه، وي طرح الخلاف وراء ظهره، نحو : إن الأمير منتصر. ويسمى هذا الضرب من الخبر طلبيا.

3- وإما أن يكون منكرا للحكم الذي يراد إلقاؤه إليه ، معتقدا خلافه فيجب تأكيد الكلام له بمؤكد أو مؤكدين أو أكثر؛ على حسب إنكاره قوة وضعفا.

نحو : إن أخاك قادم - أو إنه لقادم - أو و الله إنه لقادم، أو لعمرى إن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

ويسمى هذا الضرب من الخبر إنكاريا.

واعلم أنه كما يكون التأكيد في الإثبات يكون في النفي أيضا.

تنبيهات:

الأول: لتوكيد الخبر أدوات كثيرة وأشهرها إن وأن ولام الابتداء وأحرف التثنية والقسم ونونا التوكيد ...

الثاني: يسمى إخراج الكلام على الأضرب الثلاثة السابقة إخراجا على مقتضى ظاهر الحال.

وقد تقتضي الأحوال العدول عن مقتضى الظاهر ويورد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها المتكلم.

1- منها تنزيل العالم بفائدة الخبر، أو لازمها، أو بهما معا منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب عمله. فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل كقولك لمن يعلم وجوب الصلاة وهو لا يصلي " الصلاة واجبة " توبيخا له على عدم عمله بمقتضى عمله، وكقولك لمن يؤذي أباه : " هذا أبوك".

2- ومنها تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر كقوله تعالى (ما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) فمدخول إن مؤكد لمضمون ما تقدمه لإشعاره بالتردد فيما تضمنه مدخولها ...

- 3- ومنها تنزيل الخالي منزلة المنكر، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار ...
- 4- ومنها تنزيل المتردد منزلة الخالي، كقولك للمتردد في قدوم مسافر مع شهرته "قدم الأمير".
- 5- ومنها تنزيل المتردد منزلة المنكر، كقولك للسائل المستبعد لحصول الفرج "إن الفرج لقریب".
- 6- ومنها تنزيل المنكر منزلة الخالي، إذا كان لديه دلائل وشواهد لو تأملها لارتدع وزال إنكاره، كقوله تعالى "والهكم إله واحد".
- 7- ومنها تنزيل المنكر منزلة المتردد.

الثالث: ظهر لك مما تقدم أن إخراج الكلام ينحصر في إثني عشر قسماً - ثلاثة منها في إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وتسعة منها في إخراجه على خلافه، ثلاثة من تلك التسعة في العالم بفائدة الخبر، وستة في غيره - وإذا ضربت هذه الإثني عشر في الإثبات والنفي صارت أربعة وعشرين صورة.

الرابع: قد يؤكد الخبر لشرف الحكم وتقويته، مع أنه ليس فيه تردد ولا إنكار، كقولك في افتتاح الكلام "إن أفضل ما نطق به اللسان كذا".

المبحث الثالث :

في تقسيم الخبر إلى جملة فعلية وجملة اسمية

- أ- الجملة الفعلية موضوعة لإفادة التجدد والحدوث في زمن معين مع الاختصار.
- ب- والجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ليس غير، بدون نظر إلى تجدد واستمرار.

واعلم أن الجملة الاسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها، ولا الاستمرار بالقرائن إلا إذا كان خبرها مفرداً، أما إذا كان خبرها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد¹.

ساق الهاشمي "القواعد" البلاغية مثلما جاءت في كتب السكاكي وتلاميذه، يميزها المنطق والدقة والإحكام. ويضيف إليها أمثلة يراها مناسبة ومؤدية للغرض. ولكن الأمر اللافت للانتباه أن معظم هذه الأمثلة والشواهد جاءت مجردة من سياقها؛ ومع ذلك يستطيع الهاشمي أن يستنتج "غرضها الأدبي"، بطريقة سهلة تكاد تكون "آلية"، وكأن الدراسة البلاغية تتوقف عند هذا الحد وتكتفي بهذه الأحكام.

¹ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ط 6، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت. ص 45 إلى 59

وفي شأن الصدق والكذب، يتوقف عند مطابقتهما للواقع أو لا، ولا يولي أدنى عناية لبعدهما النفسي والوجداني وأثرهما الفني.

يصنف هذا الكتاب بين الكتب شبه المدرسية التي تعمل على تعليم البلاغة . وهو يشتمل على كافة الموضوعات البلاغية التي يعرضها كما عرضها البلاغيون القدامى من حيث التصنيف والكم والعناوين وطريقة الشرح . تتراوح الشواهد فيه بين الآيات القرآنية والشعر القديم والجمل التي أنشأها المؤلف عند الضرورة. يقر المؤلف من جهة بضرورة الاستعانة بالسياق في تأويل المعنى، ولكنه من جهة أخرى يذكر الشواهد خالية، غالباً، من الظروف التي أنشأتها. كأن يقول :

" وقد تخرج هذه الصيغة [النهى] عن معناها الأصلي إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ... كالاتماس : كقولك لمن يساويك "أيها الأخ لا تتوان"؛ والإرشاد كقوله تعالى :

" لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكن تسؤكن ". والدوام، كقوله تعالى : " ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون " ...¹.

فالأغراض الأدبية المذكورة لم تحدد إلا بعد فحص وتدبير للقرائن والسياق . أما الكتاب فلم يوجه إلى هذا النهج التحليلي وإنما يرسى قوالب يتخذها المتعلم جاهزة فيحفظها ويقبل دها دون أن يعرف كيف يستمددها ومتى يستعملها ولماذا ...

* " البديع، تأصيل وتجديد "، للدكتور منير سلطان

جاء كتاب الدكتور منير سلطان " البديع، تأصيل وتجديد " على منوال المؤلفات التعليمية التي تعود بنا إلى الموضوعات البلاغية التقليدية، فيعالجها وفق مصطلحاتها المعروفة (السجع، الفاصلة، الازدواج، المزاجية، المشاكلة)؛ وشواهد المستمدة من القرآن والشعر القديم، ومضيفاً عليها شيئاً من التحليل القائم في معظمه على آراء البلاغيين القدامى.

¹ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان و البديع، ط 6. لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت. ص 68

* " علوم البلاغة " ، لأحمد مصطفى المراغي

يتحدث أحمد مصطفى المراغي عن تأليف معاصريه للكتب البلاغية فيقول : " في نهاية القرن التاسع عشر، أنشئت المدارس العالية والثانوية في مصر، منها مدرسة دار العلوم . ألف أساتذتها مختصرات تناسب تلك البرامج المدرسية، ويسهل على الطلبة أن يحصلوا على بغيتهم منها، فحمد لهم الناس جميل صنعهم، مقدار ما كانوا لمؤلفاتهم من المزية إبان ظهورها . وكانت هذه الرسائل تتحو على الجملة في أسلوبها، منحى ما كتب صاحب التلخيص وشراحه فضلا عن خلوها من الأمثلة المنوعة التي تتضح بها مجملات تلك القواعد"¹.

وفي شأن طريقته في التأليف، يصرح :

" رأينا أن نضع كتابا يجمع بين طريقا لمتقدمين، من سعة الشرح والبيان، والاعتماد على الأمثلة والشواهد، حتى تستبين للقارئ خصائص البلاغة مرموقة محسوسة، ولطائف الكلام مجسمة ملموسة، ويسهل تطبيق العلم على العمل، والإجمال على التفصيل، وذلك أمثل الطرق، لبنائه على قواعد علم النفس، من تعويد الناظر الركون إلى الوجدان والحس، وطريق المتأخرين من حسن الترتيب والتبويب، وجمع ما تفرق من قواعد هذه الفنون، ليكون أنجع في الدرس، وأقرب إلى التناول"².

طغى تقليد القدامى في تعريف بعض المصطلحات إلى درجة وقوع بعض المؤلفين المحدثين في الغموض.

ومنهم أحمد مصطفى المراغي الذي يعرف الغرابة قائلا : " هي كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند خلص العرب لا عند المولدين لأن كثيرا مما في المعاجم غريب عندهم"³.

¹ - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبيدع، ط 4. لبنان، دار الكتب العلمية، 2002. ص 10-11

² - المرجع نفسه و الصفحة نفسها

³ - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ط 4. ص 17

رغم أن هذا الكتاب ألف في القرن الواحد والعشرين، إلا أن هذا التعريف يدعونا إلى التساؤل عن مفهوم الغرابة بالنسبة للعرب في هذا العصر. فكأن المؤلف كرر ما عثر عليه في الكتب القديمة دونما تكييفه مع واقع التطور التاريخي.

وعن الكراهة في السمع يقول :

هي أن تمج الكلمة الأسماع وتأنف منها الطباع لوحشيتها وغلظتها "كالجرشي" بمعنى النفس في قول أبي الطيب يمدح سيف الدولة:

مبارك الاسم أعر اللقب كريم الجرشي شريف النسب¹

فهل الاستشهاد من الشعر العباسي يعني أن الغرابة غابت من لغة العصر الحديث؟ فإذا كان الجواب بالنفي، كيف نتعرف عليها؟ وما هي المقاييس الحديثة التي يحددها ذوق العربي المعاصر، إذا افترضنا أن ذوق العباسي يختلف عن ذوق العربي اليوم؟

يذكر المؤلف شواهد من فصيح الكلام تشرح أسرار الفصاحة وتبين مراتب البلاغة فيخاطب المتعلم قائلاً :

" وإن شئت إيضاحاً وبياناً، وعلماً وعرفاناً، فوازن بين قول النمر بن تولب يذم الحياة :

بيود الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل

يكاد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

وقول الفند الرماني :

أيا تملك يا تمل وذات الطوق والحجل

نريني ونري عذلي فإن العذل كالقتل

تجد المدى واسعاً والهوة بينهما سحيقة والتفاوت لا حد لغايته، أو اقرن بين قول معن بن أوس في الفخر :

لعمرك ما أهويت كفي لربية ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قاذني سمعي ولا بصري لها ولاد لني رأبي عليها ولا عقلي

واعلم أنني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

¹ - المرجع نفسه. ص 38

وقول بشار بن برد :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ترى عجا عابجا وتفاوتا في الصنعة لا يحتاج إلى مرء أو جدل¹.
يدلنا ما سبق على غياب الجانب التحليلي والاكتفاء بإصدار الأحكام الجاهزة، في عبارات بعيدة عن الدقة والدلالة.

- التدريجات الواردة في هذا الكتاب

بعد استعراض مجموعة من التدريبات، نحصل على الملاحظات الآتية :
تقتصر التعليمات على فعلين هما : " بين " و " اذكر " والمقصود منهما هو استرجاع "القاعدة" المناسبة، وهذا ما تؤكد الإجابة الواردة في الكتاب والتي تعقب التمرين . فهي عبارة عن جملة تمثل حكما جزئيا من القاعدة أو جدول يكفي بذكر " الحكم " في عبارة و " السبب " في جملة قصيرة.

فالمتعلم لا يتبين الهدف من هذه التدريبات سوى اجتراره للقاعدة، ولا يدعى إلى توظيف الأساليب البلاغية في إنتاج خاص .
وهذه التعليمات، فضلا عن كونها غير محفزة لا تح رك دافعيته، تفتقر إلى البعد التحليلي الذي ينشط تفكيره يبعث فيه الإحساس بالجمال (وهو هدف يصرح به كل بلاغي قديم وحديث!).

ويحرص أحمد مصطفى المراغي على توجيه المتعلم إلى ما يكسبه الفصاحة
والبلاغة قائلا :

" علمت مما سبق في بيان تعريف الفصاحة والبلاغة، ما يعثور الكلام من العيوب،
ويزري بقيمته ويحط من قدره، فوجب أن تعرف بم تناوي هذه العيوب، فنقول :

¹ - المرجع نفسه. ص 38

- أ - مخالفة القياس: يمكن تجنبها بالاطلاع على علم التصريف ...
- ب - ضعف التأليف والتعقيد اللفظي : يتباعد عنها بملاحظة قواعد النحو ...
- ج - الغرابة: يسهل التباعد عنها بالاطلاع على متن اللغة ...
- د - الأحوال و مقتضياتها : تعلم من دراسة علم المعاني .
- هـ- التعقيد المعنوي: يمكن التجافي عنه بدراسة علم البيان .
- و - وجوه تحسين الكلام التي تكسوه طلاوة وتكسبه رقة، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال و وضوح الدلالة: تعرف من علم البديع .
- ز - التنافر: وملاك معرفته الذوق السليم والشعور النفسي¹ .

ما هي فائدة هذه التوجيهات، وكيف يمكن تطبيقها؟ وهي غير ملموسة، وتفنقر إلى الإجرائية. وللتحقق مما ذهب إليه المراغي، اقتطفنا من كتابه ما يأتي:

"علم المعاني : هو قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذي سيق له، فبه نحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، فنعرف السبب الذي يدعو إلى التأخير، والحذف والذكر، والإيجاز حيناً والإطناب حيناً آخر، والفصل والوصل، إلى غير ذلك فمنه نعرف مثلاً :

- 1- أن العرب توجز إن شكرت أو اعتذرت،
- 2- أن العرب تطنب إذا مدحت،
- 3- أن الجملة الاسمية تأتي لإفادة الثبات بمقتضى الحال.

الغرض من إلقاء الخبر :

الأصل في الخبر أن يلقي لأحد الغرضين :

(1) إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويسمى ذلك فائدة الخبر، نحو : حروب المستقبل جوية.

(2) إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بهذا الحكم، ويسمى ذلك لازم الفائدة، كما تقول لشخص أخفى عليك سفره فعلته من طريق آخر : أنت سافرت أمس.

¹ - المرجع نفسه. ص 40

... وقد يلقي الخبر لأغراض أخرى تستفاد من سياق الكلام أهمها :

(أ) إظهار الأسف والحسرة على فائت نحو :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجاد الأجر ب

نموذج أول

اذكر ما يستفاد من هذه الأخبار :

(1) هناء محاذك العزاء المقدما فما عيس المحزون حتى تبسما

(2) تقول للعائر : المصباح في يدك

(3) الحياة كطيف الخيال.

الإجابة :

1- الفرح بالمقبل ونسيان الأحزان المدبرة.

2- التوبيخ والتأنيب لوجود حال تقتضي ضد ما حصل.

قد يكون : التوجيه، التنبية ... أي الدعوة إلى استعمال المصباح ...

3- العظة و الاعتبار

علم البيان : ... فالمجاز غذاء اللغة والروح الذي لا تحيا بدونه، ولا قوام لها إلا به، ولولاه ما كنا نرى فيها البهجة والجمال اللذين يتنوقهما كل ناطق بالضاد.

الدلالة : الدلالة فهم أمر من أمر، والأول المدلول، والثاني الدال، وهي إما لفظية وإما غير لفظية .
والثانية لا علاقة لها بمباحث هذا الفن. والأولى أقسام ثلاثة :

1- دلالة اللفظ على تمام مسماه وتسمى دلالة المطابقة : كدلالة الإنسان والأسد على حقيقتهم.

2- دلالة اللفظ على بعض مسماه، وتسمى : دلالة التضمن كدلالة البيت على السقف أو الحائط.

3- دلالة اللفظ على لازم معناه كدلالة الإنسان على كونه متحركا أو شاغلا لجهة، أو نحو ذلك،

وشرطه اللزوم الذهني (سواء أصاحبه لزوم خارجي أم لا)¹. بحيث يلزم من حصول المعنى

الموضوع له في الذهن حصول فيه إما على الفور، أو بعد التأمل في القرائن والأمارات، لكن لا

¹ - أي أنه لا يشترط باللزوم الخارجي أيضا، ألا ترى أن العمى يدل على البصر التزاما إذ هو عدم البصر كما من شأنه أن يكون بصيرا مع التنافي بينهما في الخارج

يشترط أن يكون اللزوم مما يثبتته العقل، بل يكفي أن يكون لعرف عام، أو عرف خاص، كاصطلاحات أبواب الصناعات والاصطلاحات الشرعية واللغوية.

وكذا يجوز أن يكون المعنى جزءاً من شيء وجزءاً من شيء آخر، فدلالة الشيء الذي ذلك المعنى جزء منه على ذلك المعنى، أوضح دلالة من الشيء الذي ذلك المعنى جزء من جزئه على ذلك المعنى.

وعلى سبيل التمثيل على التفريع والتجزئة المبالغ فيهما، ننقل الموضوعات المدرجة

في فهرس الكتاب:

علم البيان

الباب الأول - التشبيه

- المبحث الأول في شرح حقيقة وبيان جليل فائدته
- المبحث الثاني في الطرفين
- المبحث الثالث في تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين إلى ملفوف ومفروق
- المبحث الرابع في تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين إلى تشبيه تسوية وتشبيه جمع
- المبحث الخامس في وجه الشبه
- المبحث السادس في تقسيم التشبيه باعتبار الوجه إلى تمثيل وغيره
- المبحث السابع في تقسيم التشبيه باعتبار الوجه مجمل ومفصل
- المبحث الثامن في تقسيم التشبيه باعتبار الوجه قريب مبتدل وبعيد غريب
- المبحث التاسع في الكلام على أدوات التشبيه
- المبحث العاشر في تقسيم التشبيه باعتبار الأداة
- المبحث الحادي عشر في الغرض من التشبيه
- المبحث الثاني عشر في أقسام التشبيه باعتبار الغرض

تدريبات و تمارين

الباب الثاني - الحقيقة والمجاز

(عشرون مبحثاً)

علم البديع: أقسام المحسنات

- المحسنات اللغوية (28 موضوعاً)
- المحسنات اللفظية (7 موضوعات)

ومما سبق يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

1- لا يمكن أن نكتفي بالشاهد فقط في التحليل البلاغي لأن السياق لا يقتصر على البيت أو الجملة، وإنما يشمل ما يسبقه وما يتلوه ويحيط به (ظروف الإنشاء، المخاطب وأحواله، أحوال المتكلم...).

2- في التدريب المقترح، السياق غائب رغم أن " القاعدة " تنص على أن الغرض الأدبي " يستفاد من سياق الكلام ". وفي بعض الحالات، لا يقدر الدارس على فهم المعاني المقصودة، فكيف به يفهم غرض الكلام؟ واستخراج الغرض وتحديد مرهون بفهم المعنى (الذي لا يتم إلا بمساعدة السياق).

3- في المثال (3) من "النموذج الأول" (والسؤال هنا: لماذا كلمة النموذج لوصف تدريب أو تمرين)، يمكن أن نحدد أغراضا متناقضة لهذه الجملة، وسيكون حكمنا غير مؤسس في كل الحالات لأن السياق غائب، فكل واحد يؤول على أساس فهمه لمعنى الجملة فقط.

4- جاء تعريف علم البيان بأسلوب أدبي، لا يوضح فيه الكاتب أسس هذا العلم ومعاييره وكيفية إجراء عملية البناء والتحليل في إطاره.

5- تتمثل طريقة الإجابة في إصدار أحكام دون تحليل ولا تعليل وكأن النتيجة "حسابية" (صحيح أو خاطيء).

6- تصنيف أقسام الدلالة لا يعتمد على تعليل علمي أو منهجي من جهة، وقد صيغ بلغة تتنافى مع الأسلوب المدرسي البسيط. فهو كلام نظري قريب من الفلسفة والمنطق.

7- جاء الإسراف في تجزئة الظواهر البلاغية حتى استعصى الإلمام بها كلها، وغاب البعد التواصلية والوظيفي لهذه "القوالب" التي وضعت لتحفظ ويقاس عليها، دون مراعاة

كيفية تطبيقها على نصوص أدبية ودون اهتمام بمدى وجاهتها في التحليل الفني أو الأسلوبى.

يعرض فهرس الكتاب موضوعات بلاغية مشتتة جزئية لا علاقة بينها سوى الباب الذي يضمها فما يربط "الأقسام" الواردة تحت عنوان "علم المعاني" إلا كونها تنتسب إلى هذا الباب، عملاً بالتصنيف البلاغى القديم. وهكذا يتم الانتقال من موضوع إلى آخر، بكيفية متقطعة، وكأن الأمر الأساسى فى تعليم البلاغة هو أن نميز بين أبوابها الثلاثة وأقسام كل باب منها. فترتيب الموضوعات تابع لهذه الأقسام، ولا يولى أدنى اعتبار لحاجة تواصلية أو موضوعات تعبيرية تقتضى استعمال أساليب وأشكال بلاغية معينة.

* "البلاغة العربية فى ثوبها الجديد"، لبكري شيخ أمين

والنموذج الثالث للمؤلفات البلاغية، كتاب للدكتور بكري شيخ أمين يتناول، فى جزئه الثالث، علم البديع؛ حيث يقول فى شأن الطباق والصورة الفنية:

" ونعود إلى الطباق، ونقرأ الأبيات التالية فى ضوء نظرة القدماء، وما يجب أن ننظر ... لو درسنا القصيدة من خلال عدد (الطباق) أو (المقابلة) أو الفنون الأخرى البديعية لهوينا بالعمل الفنى إلى الدرك الأسفل... لو دققنا فى شكل العبارات التى اختارها (الشاعر) فإننا نرى المدهش والمطرب والمعجب...

إن قوله وهو يصف الوطن " النور ملء شعابه والنار " ليس لونا بديعياً، أو زخرفاً معنوياً، لكنه صورة فنية ضمت فى أطرافها جميع ما تشتمل عليه صورة الوطن فى عين الشاعر ... من ماض يعبق بالمجد، وحاضر يفوح بالشذا والأريج، وكأننا بالشاعر قد جمع على صعيد واحد الماضى والحاضر... فرأى الماضى متلاًئماً مشرقاً... ماضى بني أمية... وبلاد الشام التى تجمعت تحت لواء صلاح الدين الأيوبي... ذلك هو مما يجتمع تحت كلمة " النور " ¹.

وأما النار فهى ما يراه من تأجج ثورات هنا وهناك... ضد الغزاة الفرنسيين...

¹ - من قصيدة لعمر أبي ريشة ص 552 من ديوانه (شاعر سوري)، عنوانها "قيود". قال منها:
وطن عليه من الزمان وقار
النور ملء شعابه و النار

أرأيت إلى بعض ما حملته عبارة واحدة من معان، وما رسمته من صور، وما أوحى به من ذكريات ؟ أو يكفي أن نقول: إن في هذا الشطر طباقا بين النور والنار...، وعلى ذلك نمضي إلى بقية الأبيات.

وفي قصيدة أخرى، لم تكن هذه المقابلات زينة بديعية، حسنت المعاني . وإنما هي جزء أصيل من تفكير الشاعر وتعبيره... فكيف يتحدث عن البعاد إن لم يكن يعرف معنى القرب واللقاء ؟ ... وهذه بعض أبيات من قصيدة للمتنبى، كانت أول ما أنشد كافورا الإخشيدي، وقد أفعمها بالمقابلات فكانت أروع ما يكون عليه الفن الرفيع :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها، لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا، أو عدوا مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا

جاءت روعة الأبيات من مصادر شتى، من جملة قدرة الشاعر على حسن المقابلة بين المتضادات... ما أروع الصورة التي صورت المنايا، وهي الكريهة إلى كل مخلوق، بصورة الأمانى التي يحلم بها الإنسان ويتمناها.

وما كانت لتصبح كذلك لولا أن اختلطت عليه الأمور، وادلهمت الأيام، فما عاد يفرق بين صديقه وعدوه. فراح يخطب في الحياة خبط عشواء، لا يميز بين خير وشر، ولا بين أبيض وأسود. ثم ما أروع خطابه وعتابه لقلبه وحديثه معه، واستنكاره لأيامه الخوالي من ظلال سيف الدولة... إنه الصوت والصدى... والفعل وردة الفعل... والفكرة وطبقها... بل هو الجدل " الديالكتيكي " بعينه... هو فن الحوار النفسي والحسي الذي تحدث عنه أفلاطون... وأرسطو... وابن خلدون. خلاصة هذه الحوارية الجدلية أنه إذا ما اجتمع اثنان مختلفا الرأي، نشب جدل بينهما، وحاول كل واحد منهما إحضار رأي خصمه بالحجة والبرهان . ومن خلال الحوار الدائر بينهما تتولد نتيجة . ذلك هو أصل النظرية اليونانية.

وجاء العصر الحديث فتبنى فريدريك هيغل هذه النظرية الجدلية وطورها وطبقها على تطور التاريخ الإنساني، وكذلك نجد في مقدمة ابن خلدون شيئا يشبه هذه النظرية، ويطبقها على نشوء الدولة، وازدهارها، ثم انهيارها.

إن الذي يعنينا في هذا الموضوع أن الطباق أساس من أسس التفكير والتعبير الإ نساني وليس زخرفا من القول، أو زينة يمكن الاستغناء عنها...

إن كل أمر في الوجود له ما يوافقه أو يخالفه ... الطباق جزء من دراسة الصورة الفنية أو حديث (النظم) كما قال الجرجاني.

أما ائتلاف اللفظ والمعنى فهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له، فإذا كان المعنى فخما كان اللفظ الموضوع له جزلا، وإذا كان المعنى رقيقا كان اللفظ رقيقا، فيطابقه في كل أحواله، وهما إذا خرجا على هذا المخرج، وتلاءما هذه الملاءمة، وقعا من البلاغة أحسن موقع ... ونستطيع أن نقيس على هذه القاعدة الآيات المكية، وما فيها من ألفاظ ضخمة، جزلة، مثيرة للفرع، شديدة الوقع على الأذن ... من مثل الصاخة، والطامة، والقارعة، والحاقة. (الحاقة: 1-6) .
أما حين تصور الآيات الكريمة الجنة ونعيمها، وما يلقاه المؤمنون فيها، فإن الألفاظ تميل إلى العذوبة والرفقة ... مثل ذلك قوله تعالى : "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها، وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم، طبتم، فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده ." (الزمر : 73 - 75)

ولو حللنا مثلا واحدا تحليلا أدبيا، ولغويا، لوقفنا على روعة " مراعاة النظير " أو موافقة الكلام لمقتضى الحال . قال تعالى : " يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي ." (الفجر : 27 - 30)
تأمل ما في هذه الآيات من مدود، ولسوف تجد : يا، ها، جعي، إلى، را، خلي، في، عبا، دي، خلي، جنتي.

ثم تأمل الشدات : أيها، النفس ، المطمئنة، ربك، ضية، جنتي.
وتأمل النونات، وسوف تجد : النفس، المطمئنة... جنتي.
وحركات الكسر : جعي، ربك، خلي، في ، دي، خلي، نتي.
وبعد ذلك، تصور أن هناك ميتا حبيبا إليك ... والدموع الصامتة ... والصراع النفسي في قلوب الناس، في مثل هذه المواقف الأليمة من حياة الناس، تجد المفجوع دائما باكيا بعنف، تسمع أنينه عاليا.

والآن عد إلى الآية الكريمة السابقة، وأعد تلاوتها من جديد، وانظر كمية المدود، والنونات، والكسرات، والشدات ... ولسوف تجدها طاغية.
ألا تشعرك هذه الكسرات بانكسار عين المفجوع، وانكسار قلبه ... وخاطره؟ ألا توحى إليك هذه النونات بالأنين ؟ ألا تصور لك هذه المدات تلك الأهات ؟ ثم ألا ترى أن الآية الكريمة بجملتها صورة وصوت لهذا الموقف الحزين ؟

أليس هذا موافقة الكلام لمقتضى الحال ؟ ... هذه المراعاة التي تجاوزت المظاهر والكلمات وامتدت إلى عالم الروح والنفوس والجوانح والخلجات، لتصنع كلا متوافقا متفقا¹.

بعد تصفح هذا الكتاب، نسجل ملاحظتنا فيما يأتي:

1- يتناول د. بكري شيخ أمين بعض الأبيات من الشعر القديم وكذا من الشعر الحديث، قاصدا تحطيم الفكرة السلبية السائدة عن البديع؛ فيحلل الأبيات تحليلا بلاغيا أدبيا، مبينا أن فنون البديع ليست، كما يعتقد الكثير، زخرفا أو وسيلة تعبيرية لا تضيف أي قيمة في المعنى. بل إنها صور فنية تضيف على القول معان دقيقة وظلالا ما كان يمكن تحقيقها لولا هذه الوسيلة الأسلوبية. ويبين قوة الطباق والمقابلة في التعبير وقدرتهما على إجلاء المعاني الخفية.

2- في معالجته البلاغية لبعض آيات القرآن الكريم، اهتم الكاتب بأصوات الحروف و"فسرها" بطريقة ذاتية، أي حسب ترجمته "لمعاني" هذه الإيقاعات وأثرها في النفس. ركز د. بكري شيخ أمين دراسته كلية على إيقاع الحروف والجو الذي ينجم عنها داخل النص. وقد أصدر أحكاما انطباعية بناء على تحليل إحصائي لطبيعة الأصوات. فالمعيار هنا هو ذوق الكاتب وإحساسه، وبالتالي لا يمكن اعتماده في الدراسة الموضوعية أو في وضعية تعليمية.

3- رغم أن هذا الكتاب يبتعد عن الكتابين السابقين اللذين اتصلا بالبلاغة القديمة اتصالا وثيقا، إلا أنه لم يضع بين أيدينا وسائل وأدوات إجرائية كفيلة بدراسة النص دراسة بلاغية و أدبية شاملة.

¹ - د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البديع، ج 3. ص 56-71

• الشواهد والطريقة في المؤلفات البلاغية

ومما يتنافى وطبيعة البلاغة، أن ندرسها بالطريقة التي ندرس بها القواعد؛ حيث نركز على الطريقة القياسية التي تعرض بموجبها القاع دة أولاً ثم تقدم بعد ذلك الأمثلة، أو الطريقة الاستنباطية أو الاستنتاجية التي تسبق فيها الأمثلة القاعدة.

ومن الكتب التعليمية التي تمثل هذا الاتجاه، "جواهر البلاغة" لأحمد الهاشمي، و"البلاغة الواضحة" لعلي الجارم.

معالجة البلاغة بمثل هذه الطرائق يعني إغفال بعدها الفني، والتغاضي عن طبيعتها الأدبية، تقدم للمتعلمين في شكل قوالب جاهزة لكي يحفظوها من غير فهم، ودون أي نقد أو تحليل.

تبعاً للملاحظات التي يمكن ذكرها عن كتب تعليم البلاغة بصفة عامة (أي أننا لا نعني الدراسات البلاغية التي اتخذت نصوصاً من الأدب الحديث موضوعاً لبحثها)، نركز فحسنا على الشواهد التي يستند عليها المؤلفون.

وقد تسمى هذه الشواهد البلاغية "أمثلة" أو "أساليب"، وهي النماذج التي يعتمد عليها التحليل البلاغي. تتمثل في جمل وعبارات وأبيات سلت من نصها الأصلي؛ ومن هنا لا يمكن اعتبار هذا "الجزء" تمثيلاً للكل (أي النص)، ولا يسمح بالتحليل الدقيق، في غياب القرائن اللغوية التي توجه إلى استنباط المعاني.

وهكذا يفقد التحليل شموليته لأنه يتم بمعزل عن السياق، فيكون سطحياً، تقريبياً وجزئياً.

وكون الكتب البلاغية تنهل شواهداً من النصوص القديمة، لا يؤهل الطالب اليوم إلى دراسة النصوص الحديثة والمعاصرة - فضلاً عن النصوص القديمة - شعراً ونثراً، بمختلف أجناسها وأنماطها.

فاقتصار تدريس البلاغة على النصوص القديمة - الغربية عنا أحيانا من حيث
البيئة والموضوع - والتركيز على مثل هذه النصوص الأدبية، معناه أن الأدب الجيد
يتوقف على الأدب القديم الذي لا يرقى الأدب الحديث إلى مكانته.
يصف الدكتور مصطفى الصاوي الجويني النصوص في كتب البلاغة بالتحجر
لأنها :

" تتوقف كلها عند العصر العباسي ونادرا ما تستشهد بالأدبين الجاهلي أو الأموي
وذلك لأنها كلها تدور في فلك نصي واحد فمتأخرها يلوك ما سبق ل مستقدمها أن استشهد
به، وتتوقف بعد ذلك كتب البلاغة الحديثة عن الاتصال بالنص الأدبي المعاصر بل أنها
تغفل الفنون الأدبية من مثل القصة والمسرحية والرسالة والمقالة والشعر التمثيلي
والملمحة"¹.

ومن جهة أخرى، قد يعني غياب النصوص التواصلية النفعية (نصوص إخبارية،
مقالات صحافية ...) من هذه الكتب أن دراسة البلاغة لا تخصها، ولا يمكن أن نجريها
عليها، أي أن الأساليب البلاغية حكر على الأسلوب الأدبي الراقى لا غير.
فالأدب القديم، إضافة إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، دعائم لازمة ولكنها
تحتاج إلى الأدب الحديث؛ وإلا فهذا يعني أن البلاغة مادة تجاوزها الزمن، يدرسها المتعلم
ليحتفظ بها ويخزن معلوماتها، ولا يدرسها ليستعملها ويتذوقها في عصره مثله مثل من
عاش في العصور القديمة.

ثم إن بعض النصوص الأدبية القديمة قد لا تحقق الغرض من تدريسها بخلق الذوق
الأدبي، لأنها لم تعد اجتماعية في قيمها ومثلها واتجاهاتها، بالنسبة إلى المتعلم وعصره.
في مثل هذه الحالة، يستحسن ألا تعتمد هذه النصوص في تدريس البلاغة إلا في
المستويات العليا (أي في نهاية التعليم الثانوي وفي الشعبة الأدبية، وفي التعليم الجامعي)،
حيث يكون المتعلم قادرا على تقدير اللغ ة الأدبية الراقية وطبيعة الأساليب البلاغية
المستخدمة وخصائص البناء الفكري للنص المدروس.

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 127

على غرار "المعاني علم الأسلوب" لمصطفى الصاوي الجويني، و "البلاغة العربية في ثوبها الجديد : علم البيان" لبكري شيخ أمين وغيرهما، تعلن المؤلفات الحديثة أنها تتناول البلاغة بطريقة جديدة؛ في حين يلاحظ القارئ أن ما تقوم به في الحقيقة هو مجرد العودة إلى التراث البلاغي السكاكي بشواهد ومعاييره وقوانينه وإضافة بعض الجمل من حين لآخر.

فرغم أن هذه الكتب ألفت حديثاً (في التسعينيات من القرن العشرين)، إلا أنها لا تشير إلى أي احتكاك بعلم اللسان الحديثة التي تسعى إلى تطوير الدرس البلاغي وإخراجه من عزلته وانفتاحه على علوم مجاورة وضعتها اللسانيات الحديثة خدمة للنص / الخطاب / التواصل، تماشياً مع مقتضيات العصر الحديث والتعليم المعاصر. وقد تنحصر مزية مثل هذه المؤلفات في كونها تحافظ على ما جاء به الأوائل مع محاولة فحصه - إلى حد ما - من جديد والإضافة على منواله دون كبير جهد يبذل من أجل التجديد والتكيف.

ولكن، إلى جانب هذه المؤلفات، نعثر على بعض الكتب مثل نحو بلاغة جديدة، لمحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف التي تعرض - فضلاً عن انتهاجها السرييل المذكور أعلاه عند تناولها الموضوعات البلاغية القديمة - جانباً حديثاً للدرس البلاغي يجسده مجال وسائل الاتصال التي تمارس البلاغة وفق طبيعتها وغاياتها التعبيرية.

أما في شأن التدوق البلاغي الذي يضعه كل الدارسين على رأس قائمة أهداف تدريس هذه المادة " فالمؤلف بعد أن يشرح النص الأدبي، يعقب عليه بهذا العنوان الضخم "التدوق البلاغي"، ثم لا يعرض تحت هذا العنوان المثير إلا طائفة من الأسماء الاصطلاحية في البلاغة، فيقول : في البيت ... تشبيه كذا بكذا، أو فيه طباق، أو جناس، أو نحو ذلك.

... فالتعرض لهذه الألوان البلاغية عنصر أصيل من عناصر التدوق الفني، لكن بشرط ألا يكتفي المدرس أو المؤلف بهذه التسمية الاصطلاحية، بل لا بد من بسط القول في توضيح بلاغة التعبير، وذلك بالكشف عن سر هذه الألوان، وأثرها في بيان الفكرة،

أو توضيح الصورة، أو تقوية المعنى، أو توفير أية ناحية من نواحي الجمال اللفظي أو المعنوي¹.

وعلى صعيد اللغة التي توظفها هذه الكتب التي تسعى إلى تعليم البلاغة، فهي ذات مستوى راق، هي لغة الأدباء من حيث التعبير المجازي، وهي لغة العلماء من حيث استعمالها للمصطلحات والتعاريف المنطقية. وهكذا تبعد هذه اللغة كل البعد عن الأسلوب المدرسي الذي ينبغي أن يبسط المعلومات بلغة مناسبة لمستوى المتعلم.

أما إخراج هذه المؤلفات شبه المدرسية أو التعليمية من حيث الشكل الخارجي (الغلاف، الألوان، الرسوم البيانية، بنط الحروف ...)، فشأنه شأن العرض التقليدي الذي تتسناه كتب البلاغة القديمة، أو كتب التاريخ أو النقد ... فالتركيز على المحتوى (عرض القواعد والتمثيل عليها) لا يعني تجاهل وسائل الإيضاح (كالمؤثرات التي تبرز أهم عناصر الدرس)، الكفيلة بخدمة المضمون ودعمه وشد اهتمام المتعلم وتحفيزه.

3- الدرس البلاغي بين الواقع والآفاق

لقد عرفت بلاغتنا العربية عصرها الذهبي، الذي لم تبلغ مستواه الدراسات الحديثة رغم تشعبها و وسائلها ومساعدتها ورغبتها الخالصة في النهوض بالبلاغة واسترجاع نصيب من إشعاعها الماضي.

وربما يعود فشل تحقيق هذا الحلم إلى ظلال التحجر والركون الذي فصل - مدة قرون طويلة - بين فترة ازدهار البلاغة وقد عرفت ذروتها على يدي الجرجاني في القرن الخامس الهجري، وفترة جمودها الذي سطر ملامحه من جاء بعد السكاكي والقزويني وأمثالهما.

فكان بلاغتنا العربية الحديثة، تستفيق من نوم عميق، تبحث عن أصولها وترغب في إحيائها باستنطاق التراث العربي العريق والثري، وتتنظر إلى التطور الهائل الذي وقع

¹ - الموجه الفني. ص 275

في علوم اللسان عند الغرب وتحاول أن تتقل بعض ما يساعدها على إثبات وجودها في عالم جديد وحاجات جديدة وتعليم جديد وأجيال جديدة من المتعلمين .

• تدريس البلاغة في الجزائر¹

تبعاً لتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، تتطور البحوث التربوية وتتبنى البلدان فلسفة تربوية معينة وتنتهج طرقاً تعليمية جديدة . وعلى غرارها، عرف التعليم في الجزائر جيلاً جديداً من البرامج التعليمية بدأ تطبيقها سنة 2004/2003. وهذه النقطة تمثل التحول من "البرامج بالأهداف" إلى "البرامج بالكفاءات".

وقد مر التعليم في الجزائر، مثله مثل التعليم في العالم، بمقاربات بيداغوجية مختلفة في بناء البرامج، نذكر منها :

- البرامج المعتمدة على "المحتويات": يكاد يقتصر البرنامج في هذه الحالة على المحتويات المقررة للتدريس إلى جانب بعض التوجيهات والإرشادات البيداغوجية، دون تسطير الأهداف وتحديد الطريقة والوسائل...
- البرامج المرتكزة على "الأهداف": تسطر أهداف ذات مستويات متدرجة، ابتداءً من الغايات، التي تمثل أقصى ما يسعى تعليم المادة إلى تحقيقه، فالأغراض، ثم الأهداف العامة والوسطية والخاصة، إلى الأهداف الإجرائية التي تخص حصة تعليمية واحدة وجانباً دقيقاً من موضوع محدد (مثلاً : تعريف الفعل الليف).
- البرامج المبنية على "الكفاءات": تتطلب أن تجند الأهداف التعليمية إضافة إلى معرفة فعلية savoir-faire وحسن التصرف وموارد معرفية لتشكيل كفاءة ينبغي أن يحقق المتعلم ما يمكنه منها (مثلاً : إنتاج نص سردي).

وفي ظل هذه البرامج التعليمية الجديدة، حظيت البلاغة ببعض التطور في تناولها؛ حيث يبدأ احتكاك المتعلم الجزائري بالبلاغة دون أن تذكر له صراحة، بل يتلمس بعض

¹ - لقد تناولنا في رسالة الماجستير (جامعة الجزائر-1999) تدريس البلاغة في الجزائر وكزنا خاصة على تقييم الكتاب المدرسي المخصص لتعليمها.

مبادئها بطريقة ضمنية في مرحلة التعليم المتوسط . فأثناء دراسته للنصوص، يكتشف جانبها الفني من خلال بعض الصور البيانية والمحسنات البديعية، فيدرك بعدها الجمالي وأثرها على الأسلوب؛ كما يتعرف على بعض وسائل القول والحجاج، وذلك بتحديد المرسل والمرسل إليه وأدوات الربط التي توظف من أجل بلوغ مقاصد الخطاب كالتسلسل والبرهنة والتوكيد ... ويدرك علاقة هذه الأساليب بأنماط النصوص (كالوصف، السرد، الإخبار، الحوار، الحجاج) والأنواع الأدبية (كالقصة، الرسالة، الخرافة، المقالة ...). كما يحرص البرنامج على توظيف المتعلم لهذه المعارف، فيدرب على تقنيات الكتابة، وإنتاج النصوص الإبداعية والوظيفية.

وتعمق كل هذه الموضوعات في المرحلة الثانوية وتفصل وفق قدرات المتعلم والكفاءات المسطرة.

ومنه، نلاحظ أن تدريس البلاغة عرف بعض التطور متأثرا بالدراسات الحديثة في مجال علوم اللسان الغربية. فلم تصبح الدراسة البلاغية تقتصر على تعيين الصورة البيانية أو الأسلوب البلاغي، وإنما تهتم بأثرهما في الكلام (قراءة وفهما) وتوظيفهما في التعبير الكتابي والتحرير (إنتاجا).

كانت المقاربة بالأهداف تعمل على تقسيم المادة التعليمية وتركز على أجزائها . ففي البلاغة، قد يقتصر الهدف على ذكر مكونات التشبيه . فتقدم هذه العناصر أثناء الدرس ثم يطبق عليها للتثبت من معرفتها، وهكذا يكون الهدف قد بلغ.

أما المقاربة بالكفاءات، فتسعى إلى غرس المفاهيم في الممارسات الفعلية للمتعلم، وتدعو إلى تقديم المفهوم في محيطه الطبيعي لتبيان دوره في السياق، وتدريب المتعلم على إدماجه في إنتاجه وتوظيفه له في استعمالاته اللغوية المختلفة. وهكذا يتحقق نصيب من الكفاءة لديه.

فليس التعرف على التشبيه وعناصره هو المهم في حد ذاته، بل الأهم هو فهم المتعلم لما أضافه التشبيه على المعنى، وكيف يستعمله هو بدوره ليبلغ أفكاره بطريقة أحسن . ومن هنا يستفيد الجانب الوظيفي التطبيقي من الجانب المعرفي النظري.

وحرصا على نجاعة التعليم، ومطابقتها مع اهتمامات المتعلم وحاجاته، يدعى التلميذ إلى التطبيق والإنتاج بناء على وضعيات تواصلية ذات دلالة، تثبت له أن ما يتعلمه ليس عبارة عن معرفة نظرية صالحة للحفظ والاسترجاع بل هي معرفة إجرائية عملية لازمة لحياته الاجتماعية تتعدى المحيط المدرسي.

ولكن، ورغم ما تصبو إليه البرامج الجديدة من تحديث في الطرائق والمحتويات، إلا أن أصداء الميدان تخبرنا بنقص تكوين المدرسين الذي يؤثر سلبا على تطبيق المقاربات الجديدة المسطرة في الوثائق الرسمية، وبالتفاوت في نجاعة التعليم تبعاً للتفاوت في الكفاءة. فشتان بين التطلع إلى التغيير والتجديد، والممارسة الصفية الميدانية.

قد تكون الطريقة التقليدية في تدريس البلاغة العربية هي السبب المباشر الذي أفقدها مكانتها بين المواد الدراسية الأخرى، حيث أصبحت مرادفة لمادة ثانوية يمكن الاستغناء عنها دون ضرر، لأنها تقتصر على معرفتنا بأن عبارة ما مثلا، تسمى " صورة بيانية"، وعناصرها هي " المشبه والمشبه به".

رسخت هذه الفكرة عن مفهوم البلاغة في ذهن المتعلمين، حتى كادت كل الأهداف التي سطرت لها تفقد معناها، وأصبح التلاميذ لا يربطون بين كلمة " البلاغة" وتحليل الصور والتدقيق في طريقة بنائها والمعاني التي تولدها، وعلاقة هذه الصورة بصور أخرى في النص ومفرداته وتراكيبه وبنائه ...، والمتعة الفنية التي يحدثها في نفوس القراء... لو كان الأمر كذلك، لأدرك المتعلم ضرورة دراسة البلاغة للتحكم في فهم النصوص الجيدة وإنتاجها، وباعتبارها علما قائما بذاته يلخص القوانين النظرية والتطبيقية التي تتحكم في إنتاج الكلام البليغ والتي يجب تلقينها للناشئة لتربية ملكتهم في فن القول¹.

توصي البرامج الجديدة في الجزائر باتخاذ المقاربة النصية طريقة لتحليل النصوص، وجعل التحليل البلاغي طرفا من الدراسة التي تشمل عدة جوانب من النص : الجانب الفكري، والجانب النحوي، والجانب الفني البلاغي؛ وهي جوانب وإن كانت تمتاز

¹ - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. أطروحة دكتوراه. جامعة الجزائر. ص 12

بخصوصيات، غير أنها متصلة ببعضها البعض، حيث يخدم كل جانب الجانب الآخر ويستفيد منه ويتفاعل معه . إذ لا يمكن أن ندرس الجانب الفكري بالتركيز على الأفكار الواردة في النص دون التطرق إلى صحة اللغة وسلامة التراكيب، ومطابقة الأساليب البلاغية المجنّدة لذلك...

فالمقاربة النصية تحرص على معالجة النصوص مع إبراز أبعادها المختلفة : البعد النحوي، والصرفي والدلالي والبنائي والبلاغي ...

وتحتفظ كل مادة بخصوصياتها من حيث طبيعتها وأهدافها ووظائفها. فتعلم النحو والتقيد بضوابطه يضمن سلامة اللغة، أما تعلم البلاغة فيسعى إلى إكساب المتعلم القدرة على التعبير بأسلوب مناسب في مواقف معينة وعلى التواصل مع أطراف مختلفة بمراعاة أحوالها، وهذا كله مرهون بمعرفة أنواع الأشكال البلاغية وتوظيفها في المقام المناسب.

"وبعد تحديد أهداف الدرس، ينبغي أن نعين لها محتويات لغوية تجسدها، وتعتبر مادة التعلم. وحتى تكون هذه المحتويات قابلة للاستخدام، ينبغي أن تستجيب لحاجات حددت قبليا¹. كمطابقتها لطبيعة المادة ولمستوى المتعلمين وقدراتهم وحاجاتهم وانشغالاتهم.

وعليه، يحدد البرنامج الدراسي المحتويات التي ينبغي أن تقدم للمتعلم، أي "مجموع المفاهيم الذي يكون المادة الدراسية المطلوب اكتسابها...على أن يتم التمييز بين المحتويات المفاتيح والمحتويات الذرائع . فالنوع الأول يسمح باكتساب المعارف الضرورية لنقل الثقافة، أما النوع الثاني فيرمي إلى إنماء مهارات عند الفرد واستعمال الثقافة وتطويرها"².

¹ - BESSE, H ; GALISSON, R : Polémique en didactique. p 77

² - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 255

مما يضمن تنظيم العملية التعليمية وتوجيهها نحو الغايات المنشودة من حيث :
- الأغراض التعليمية : إذ ينبغي إدراك وظيفة اللغة في حياة الفرد و ح ياة المجتمع، باعتبارها أداة اتصال وتفاهم.

- الموضوعات والخبرات التعليمية : حيث تنتقى الموضوعات وألوان النشاط اللغوي التي تحقق الغاية من تعلم اللغة.

والكتب المدرسية، في إطار البرامج السابقة، كانت تتخذ الأمثلة والشواهد على الظاهرة البلاغية من القرآن والحديث والأدب القديم في أغلب الأحيان، وهذه النصوص تتميز بلغة أدبية راقية، بعيدة المنال، ومعاني مستغلة، لأنها تعالج موضوعات فكرية أو اجتماعية غريبة عن اهتمامات المتعلم.

في حين تستغل الكتب المدرسية الجديدة نصوصاً أدبية وتواصلية قريبة من أفهام المتعلمين وانشغالاتهم، دون إهمالها نصوص الأدب القديم؛ وهي تسعى إلى انتقاء النص الوجيه والمناسب الذي يساعد على الفهم ولا يعوقه . فإن لم يكن النص ذا دلالة بالنسبة إلى المتعلم، يصبح حاجزاً أمام فهمه ويمنعه من التقدم في مساره التعليمي.

أضف إلى ذلك أن الاقتصار على النصوص الأدبية القديمة (أو آيات قرآنية أحياناً) يجعل المتعلم يعتقد أن البلاغة خاصة بالأدب الراقى وأن الأساليب البلاغية التي تعرض عليه غير قابلة للاستعمال في الوضعيات التواصلية التي يعيشها وفي إنتاجاته المختلفة؛ فيصبح ينظر إلى هذه النماذج "الغريبة" عنه وعن محيطه على أنها "تحفظ ولا تقلد، أي تحفظ و لا يقاس عليها".

كانت الكتب المدرسية تعالج البلاغة بطريقة مماثلة للطريق التي يتناول بها درس النحو، من حيث خطوات التدريس وأساليب التدريب والتقييم؛ وكأن طبيعة البلاغة هي نفسها طبيعة النحو.

يعتمد في تدريس النحو على طريقتين أساسيتين هما : الاستنباطية والقياسية.

فإذا استند الكتاب إلى الطريقة الاستنباطية عرض الأمثلة ثم توصل إلى "القاعدة"؛ وإذا انتهج الطريقة القياسية، عرض القاعدة ثم قاس عليها أمثلة وشواهد.

وفي كلا الحالتين تردف هذه المرحلة من الدرس بتمارين تختار على شاكلة الأمثلة السابقة، الغرض منها التعرف على نوع الصورة أو الأسلوب، وتحديد العناصر التي تكونهما و "عرضهما الأدبي".

و "الأمثلة" التي تستغل في شرح الدرس أو في التمارين، معظمها مستمد من القرآن أو الحديث أو الشعر القديم. أما الأدب الحديث أو النصوص التواصلية (كالكتابات النفعية أو الصحافية) فهي منعدمة في معظم الكتب المدرسية ما عدا بعض الكتب التي ألفت في السنوات الأخيرة .

فماذا يستنتج المتعلم من هذا المضمون ؟

1- أن البلاغة تقترن بالنصوص المقدسة (القرآن والحديث) وبالذد القديم، إذن لا تصلح للأدب الحديث وللنصوص النفعية التواصلية.

2- لغة هذه الأمثلة هي لغة راقية، بعيدة المنال عن المتعلم و بالتالي يشعر بالعجز، فلا يحاول حتى التقليد لأن مستوى لغة هذه الأمثلة راق، بعيد المنال عن المتعلم؛ الذي يشعر بالعجز إذا ما حاول الفهم (فهو لا يدرك كل معاني هذه النصوص)، أو التقليد (بغية تحسين مستواه).

وهكذا حصرت هذه الطرائق البلاغة في قوقعة منعتها من استغلال جوانب عديدة في النص؛ وكأنها تكشف لنا عن زاوية ضيقة من النص وتتجاهل كثيرا من الأبعاد التي يكتنفها.

وهذا لا يعني أن البلاغة العربية قاصرة على التحليل الدقيق والمنهجي للنص الأدبي، بل قد يعني أن الطريقة التي انتشرت في مؤسساتنا التعليمية عاجزة عن الولوج في أعماق النص وجوانبه المختلفة لاستخراج ما فيه من معاني وفكر .
وقد تقدم الطرائق الحديثة في التدريس، والنتائج التي توصلت إليها علوم اللسان الحديثة في الغرب، متسعا لتجاوز الضعف الذي يعاني منه الدرس البلاغي.

والتمارين التي كانت تقترح في الكتب السابقة، ترمي كلها إلى التطبيق، أي التعرف على عناصر الأسلوب البلاغي المدروس وتعيين غرضه الأدبي . وقد يتم ذلك بطريقة آلية وتقريبية، لأن النص المقترح هو جزء من نص، من جهة، وخال من السياق في الغالب الأعم، من جهة ثانية؛ الأمر الذي قد يبعد المتعلم عن الجواب الصحيح. وهذه التمارين التطبيقية تسعى إلى تثبيت معلومات وآليات مبنية على الحفظ والتكرار والتطبيق، ولا تتطلب التحليل والتوظيف؛ ولا تعمل - كما تقتضيه التعليمية - على تقديم " نشاط تطبيقي مكرر وتدرجي لتعلمت سابقة بغرض التحكم والإتقان والدعم والتذكير أو المراقبة"¹.

أما التدريبات المقترحة في الكتب الجديدة، فتراوح بين النصوص الأدبية القديمة، والنصوص الأدبية والتواصلية الحديثة، حرصا على إجلاء البعد الوظيفي في هذه النصوص، إلى جانب بعدها الإبداعي، وتحفيز المتعلم على الإنتاج بدوره.

أما التعليم الجامعي، فما زال يجتر مضامين البلاغة التقليدية كما جاءت في الكتب القديمة أو الكتب الحديثة التي انتهجت سبيلها؛ ولا يشير بناتا إلى نتائج الدراسات اللسانية الحديثة، لا من حيث المضامين ولا من حيث الطرائق التعليمية.

• تدريس البلاغة في الوطن العربي

ولعل من مظاهر الاحتفاء بالبلاغة العربية والولاء لها، أن نتعرف إلى ما يكتنف تعليمها من أخطاء، حتى نتجه إلى تعديلها، وإلى تمهيد السبل لتدريسها بشكل مثمر ميسر . ومما يساعد على تشخيص الهفوات التي نقع فيها أثناء التدريس، التزامنا بالتقييم المستمر لممارستنا الصفية وفعلا التعليمي والعوامل التي أنتجته كالتكوين، والمناهج، والبرامج، والوسائل التي منها الكتاب المدرسي.

¹ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 593

غالبا ما تدرس البلاغة كغاية، لا كوسيلة للتعبير عن الأفكار والمشاعر، وللتواصل مع الآخرين، وفهم خطاباتهم فهما جيدا سواء كانت كتابية أو شفوية.

فيعلم التشبيه، على سبيل المثال، حتى تحدد مكوناته : المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه. وللتعرف على أنواعه : بليغ، ضمني، مرسل ... ولكن لا تحلل الصورة لاكتشاف بنائها و المعاني التي تخفيها و الأبعاد التي تحققها على مستوى الفكر والذوق؛ حينئذ يتمكن المتعلم من أن " يمارس " التشبيه بدوره في إنتاجاته ليجسد به المعاني التي يقصد تبليغها؛ فيحقق هكذا بعدا وظيفيا و بعدا جماليا.

فنكتفي، في موضوع "التقديم والتأخير" بأن نشير إلى تقدم المفعول به عن الفعل والفاعل في الآية : " إياك نعبد و إياك نستعين"، بغرض التوكيد.

وعندما نتناول صورة "الملوك كواكب"، نذكر أن الملوك شبهوا بالكواكب، فذكر المشبه والمشبه به وحذفت أداة التشبيه و وجه الشبه، وأن هذا تشبيه بليغ غرضه الأدبي تقوية المعنى ... وهلم جرا.

فمثل هذه الشروح السطحية لا تهتم إلا بتحديد مركبات الأسلوب البلاغي أو الصورة البيانية، دونما توغل في المعاني، واستجلاء للبعد الفني و الجمالي.

تجمع كل المنظومات التربوية على منزلة التذوق الجمالي في الدراسة البلاغية، وتجعله هدفا أصيلا للتحليل البلاغي، وتتناوله التوجيهات التعليمية بكثير من العناية، على أنه قوام الدراسة الأدبية وروحها.

ولكن الملاحظ في الجانب الإجرائي التعليمي المتصل بالممارسة في القسم أو بطريقة تناول هذا الجانب في المؤلفات البلاغية، هو التركيز على إطلاق أحكام قيمية على أساليب التعبير المختلفة؛ " فالمدرسون يعالجون التذوق الفني في نطاق ضيق، هو نطاق المصطلحات البلاغية المعهودة، لا يكادون يتعدونها، ويظن كثير منهم أن التذوق الفني إنما هو تسمية ما في التعبير من الألوان البلاغية"¹.

¹ - الموجه الفني . ص 275

وكثيرا ما توصي التوجيهات التربوية المختلفة بإصدار الأحكام الفنية بناء على " الشعور والإحساس "؛ ولا تدل الأستاذ والمتعلم على الإجراءات العملية التي تمكنه من ذلك.

فدراسة الجمال الفني في النص لا تقتصر على استعمال المصطلحات وإصدار الأحكام، وإنما تتجاوز هذا الإطار الضيق إلى تسليط الضوء على العبارات والفقرات لفحصها من حيث طبيعته وتركيبها واستخدامها لألفاظ دون أخرى، ولأدوات دون غيرها، ومقارنتها مع ما يخالفها أو ما يماثلها لإدراك سبب اختيار الأديب لأسلوب معين، وتفضيله لصورة على أخرى؛ " و قد يبدو أن كلمتين تستويان في تأدية المعنى، لا تفضل إحداهما الأخرى، ولكن دقة النظر والفهم، تكشف عن أن لكل كلمة منهما موضعها المناسب، ومكانها اللائق، و أن أختها لا تسد مسدها"¹.

ومما يعاب على المدرسين أنهم يتوصلون إلى أحكام غير دقيقة، يصوغونها في عبارات عامة وجمل شائعة يعوزها التحديد، مثل : تصوير فني رائع، أسلوب فخم جميل، موسيقى أخاذة ... فهذه الأوصاف لا تحدث أي صدى في نفس المتعلم ولا تحرك تفكيره، لأنه لم يهتد إليها بنفسه، عن طريق التحليل والاستنباط.

يتناول النص الأدبي في أغلب الأحيان من حيث المضمون، ثم من حيث الأسلوب، وكأنهما شيئان منفصلان، دون الحرص على الربط بينهما وإبراز تلازمهما واتصال البلاغة بهما.

فالطريقة الحالية تعالج الأدب والبلاغة في حصص مستقلة. وتدرّس البلاغة لا يوجه التلاميذ توجيهها أدبيا ذوقيا، بل يتوقف عند تحديد المصطلحات البلاغية وتعريفها وحفظ القاعدة. أما تحليل الأحكام البلاغية فيكون منطوقيا لا صلة له بالذوق؛ " كأن يقولوا مثلا : " إن الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنك تركت التعبير الذي يشعر بالإثنية، وادعيت أن ليس هناك إلا شيء واحد تتحدث عنه"².

¹ - المرجع نفسه. ص 278

² - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1996. ص 190

ومجرد معرفة أن في هذه العبارة استعارة أو كناية، وأن هذا استفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر ... ينفق فيه المتعلم وقته وجهده؛ وهو يجهل أن البلاغة تتخذ وسيلة لبيان قيمة النصوص الأدبية وحظها من الفن، إذا رغبتنا في تنمية الذوق الأدبي. ومما يساعد على بلوغ هذه الغاية عدم تخصيص درس للبلاغة تشرح فيه قواعدها؛ " وإنما يجب أن تعلم في حصص الأدب، وفي خلال نصوصه ... الأدب والبلاغة لهما غايات مشتركة. وحين نتناول أبواب البلاغة بالدرس فإنما نعمل ذلك لتحقيق الغاية من درس الأدب"¹.

ضمانا للنجاحة في تدريس البلاغة، وعملا على بلوغ أهدافها، ينبغي أن يتصل درس البلاغة بدرس الأدب على اعتبار أنه جزء منه.

يتبنى كثير من الدارسين اليوم هذه المقاربة ومنهم علي أحمد مدكور الذي يصرح: " والرأي عندنا أن تعود دراسة البلاغة إلى وظيفتها الأولى، وهي أن تكون جزءا عمليا أصيلا من دراسة النصوص الأدبية. وأن تضاف حصص البلاغة إلى حصص الأدب، وتدرّس البلاغة مع الأدب على أنها مفسرة وموضحة لما فيه من جمال الفكرة وجمال الأسلوب..."

وتدرّس النقد في المرحلة الثانوية - كتدريس البلاغة - يهدف إلى خدمة النص الأدبي، وبيان مواطن القوة والضعف فيه، وأسبابها وعلاجها"².

ومن الأخطاء التي قد يقع فيها المدرسون، التزام الشرح الفردي للأبيات، وعدم العناية بربط أجزاء النص (جمل، أبيات، فقرات) ببعضها البعض؛ وفي ذلك تمزيق لوحدة الفكرة، وابتعاد عن الروح التي تسري في النص. كما أن الوقفات التدوقية عند الصور الجزئية قبل الاطمئنان إلى فهم المعنى العام، قد تعوق النظرة الشمولية للنص. ومن الخطأ أن نعتبر أن البلاغة شبيهة بالنحو والصرف؛ وعلى هذا الأساس، نبدأ درس البلاغة بالتعريف والتحديد وضرب الأمثلة، واستخراج

¹ - د. حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. ص 191
² - علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية. ص 219

القاعدة منها، ثم إصدار الأحكام البلاغية . وهذه الطريقة غير وجيهة ومجافية للذوق والإحساس.

آل تدريس البلاغة إلى ما آل إليه، و أدى إلى قلة إقبال المتعلمين على هذه المادة، إن لم نقل نفورهم منها، اعتقاداً منهم أنها بعيدة المنال، لا تخص إلا الأدباء والأدب . ومن عيوب التدريس التي أدت إلى هذه النتيجة ما يأتي :

- العناية المفرطة بقواعد البلاغة وتعاريفها، بعيداً عن أهدافها الحقيقية والتمثلة أساساً في تهذيب الذوق وإذكاء الحس الجمالي و صقل الفكر وإقدار المتعلم على التحليل والاستدلال.

- طغيان الجانب " التقني " الجاف، المتمثل في حفظ واستعمال المصطلحات، على الجانب التنوقي التحليلي.

- تدريس البلاغة مقسمة إلى علوم ثلاثة : المعاني، والبيان والبدیع.

- اتخاذ الأمثلة من الجمل والأبيات المقتضبة المبتورة، والعبارات المتكلفة المصنوعة، فيتم تدريس البلاغة بمعزل عن الأدب.

- انتقاء هذه الأمثلة من أجل عرضها للأسلوب البلاغي المدروس، دون مراعاة لمستوى المتعلم و قدراته و ميوله.

- زيادة الاهتمام بالتعاريف، والتقسيم والقواعد التي تصنف الأساليب البلاغية المختلفة.

- مطالبة المتعلمين بحفظ هذه القواعد - الشبيهة بقواعد النحو والصرف - وتطبيقها تطبيقاً آلياً، دون أن تترك في نفوسهم أذهانهم أي أثر، إن من الناحية الفنية وإن من الناحية الفكرية.

- الاعتماد على نفس الطريقة التي تتخذ في تدريس النحو والصرف، فإما أن تكون استنباطية، فيسوق الأستاذ الأمثلة ويناقشها قصد استنباط " القاعدة " منها، أو تكون الطريقة قياسية، فيذكر الأستاذ " القاعدة " أولاً ثم يقيس عليها أمثلة تماثلها . مما يدل على تجاهل طبيعة كل مادة والطريقة التي تناسبها في التعليم.

- تدريس البلاغة بمعزل عن المواد الأخرى كالأدب خاصة؛ " فقد نتود في نصوص الأدب شواهد بلاغية لا يتعرض لها المدرس ... وصار لعلم البلاغة دروسها الخاصة المستقلة

- عن دراسة النص الأدبي، و كأن البلاغة شيء والأدب شيء آخر . و صارت البلاغة مادة مستقلة يمتحن فيها التلاميذ و صار التلميذ لا يشعر بهذه الصلة العملية بين البلاغة والأدب، و لا حتى بالصلة الجمالية¹.
- اختيار الأمثلة التي تعالج، في الغالب الأعم، موضوعات بعيدة عن انشغالات المتعلم و عصره؛ فلا تجد صدق في نفسه.
- عدم خلق الفرص المحفزة على التعبير، بل وضع المتعلم في موقف " جامد"، مصطنع يحمل فيه على الكلام حملا.
- عزل الهلاغة عن التعبير، رغم أن " التعبير بصفة عامة، هو الحصيلة النهائية لتعليم اللغة العربية، أي أنه الهدف النهائي والشامل لتعليم اللغة، فكل فنون اللغة وفروعها تصب في التعبير ... تهدف إلى بناء القدرة التعبيرية الواضحة السليمة الجميلة لدى التلميذ... جمال المبني والمعنى"².
- انتهاج الأستاذ للطريقة التلقينية التي تجعله يستأثر بالكلام، ولا يترك متسعا لمشاركة المتعلمين الذين يكونون، نتيجة لذلك، في موقف القابلين لا في موقف الفاعلين .
- عرض دروس البلاغة والتمارين التطبيقية في جداول؛ وكأن الغاية المقصودة تقتصر على ملء هذه الجداول وذكر القاعدة وتحديد نوع الأسلوب البلاغي وسوق المصطلحات.
- طرح أسئلة تقليدية، ليس وراءها فائدة كبيرة للتلميذ، كأن تذكر بعض الأبيات يعقبها مثل هذا السؤال : " اشرح هذه الأبيات في عبارة أدبية، ثم بين ما راقك فيها من جمال التعبير، ودقة التصوير ". فهذا السؤال المباشر والعام لا يوجه تفكير المتعلم إلى ناحية معينة وبارزة تستحق التحليل، هذا من جهة . ومن جهة ثانية، يعتبر الجزء الثاني من السؤال مبتذلا لكثرة استعماله . مما جعل المتعلمين يتنبئون به فيحفظون مجموعة من العبارات الجاهزة ويقدمونها في الإجابة عن كل سؤال يتناول جمال التعبير ودقة التصوير .

¹ - علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية. ص 217

² - المرجع نفسه. ص 266

وهكذا، يعيش تدريس البلاغة عموماً بمنأى عن علوم اللسان الحديثة وما تقترحه من أجل تطوير الدراسة البلاغية، وجعلها متماشية مع العصر، باعتبارها أداة فعالة في التواصل (استقبالا وإرسالا).

• متطلبات الدرس البلاغي

ضمان لنجاح درس البلاغة، ينبغي أن نلتزم ببعض المبادئ التي يوصي بها التربويون والدارسون. ومنها، تناول الجانب البلاغي من خلال التعرض للنص، إذ " ظهر الاتجاه إلى تدريس البلاغة والنقد مرتبطين بالأدب نفسه وأصبح الآن واجب المدرس حين يعرض للنص الأدبي أن يناقشه مناقشة أدبية من حيث اللفظ والأسلوب والجملة والفكرة والحكم على الأديب من حيث المهارة الفنية وأن يعرض كذلك لهذه الصور الفنية. فهذان البيتان اللذان يقول فيهما البحتري :

وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما

بفتقها يرد الندى فكأنه بيت حديثا كان قبل مكتما

صور فنية رائعة فتبنيه فصل الربيع الورد في ظلمة الليل وصورة الندى على الورد في الصباح الباكر كأنما يحدثه حديثا خفيا لون من الإبداع الفني لا بد أن يتذوقه المتعلم وأن يحس به.

وهذا أكثر أهمية من الحديث عن الاستعارة بالكناية في "نبه النيروز" أو التشبيه الذي يوجد في "كأنه بيت حديثا". فالصورة العامة تعطي إحساسا وتؤثر في الذوق أكثر من هذا بكثير.

هذا، ولا ننسى أن هذه المصطلحات إنما هي معينات وليست قيودا، ومن ثم كان على المدرس في تدريسه للبلاغة أن يتعرض للجانب النفسي والاجتماعي الذي وراء تعبير الأديب¹.

¹ - محمد صلاح الدين مجاور: تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. ص 487

لقد بات اليوم من المسلمات أن "البلاغة فطرية في الكلام، نلمح صورها وألوانها في الأحاديث العادية، ... فليست الاستعمالات البلاغية مقصورة على لغة الأدب ... وهي فنون من الأداء يكسبها كل إنسان فيما يكسبه من مواد النمو اللغوي، عن طريق السماع والمحاكاة، والاختلاط بالمجتمع"¹.

إذن، يمكننا الاستفادة من التراكمات العامة ذات اللون البلاغي، **تمهيدا** لدرس البلاغة، وتحقيقا لعدة فوائد، أهمها :

- 1- سرعة الوصول إلى ما نريد في يسر وسهولة.
- 2- فهم المتعلم أننا في هذا الدرس لا ندرس له لغة أجنبية عنه، أو نوجهه إلى شيء جديد عليه، ولكنها لغته، لم نغير في جوهرها... إلا بالصقل والتهديب وتحري الفصح.
- 3- إثارة الطلاب، وبعث شوقهم وانتباههم بهذه التراكمات المتصلة بحياتهم اتصالا وثيقا...².

وقد يكون **التمهيد** لدرس البلاغة باللجوء إلى ما يعرفه المتعلم وما ألفه في لغته اليومية أمرا جيا، لو راعينا بعض الشروط، منها :

- انتقاء العبارات المهذبة، البعيدة عن الأسلوب السوقي،
 - التركيز على الأسلوب البلاغي أو الشكل البياني الذي نريد تدريسه،
 - محاولة الارتقاء بالمتعلم من هذا السجل اللغوي إلى سجل أرقى.
 - مقارنة نصوص (وقد تكون جملة أو عبارة أو فقرة) باللغة اليومية وأخرى باللغة الفصيحة، لاستخراج آليات تكوين الشكل البلاغي المدروس.
- كل هذا مما يساعد المتعلم على إدراكه بأنه " يمارس البلاغة " دون شعور، وبأن توظيف الأساليب البلاغية في كتاباته المختلفة - الأدبية منها والنفعية - أمر قريب المنال، بل هو طبيعي وآلي في كلام كل شخص.

¹ - الموجه الفني. ص 309

² - الموجه الفني. ص 311

"و من واجب المدرسين حين يعرضون للنص الأدبي، لمناقشة ما فيه من ألوان بلاغية، أن يتوجهوا اتجاهها أدبيا خالصا، لا تشوبه البحوث العقلية، فيقوموا النص من حيث الفكرة والعبارة، ولا يستهلكوا الوقت والجهد في استنباط التعاريف، وتحدي اللون البلاغي وتسميته بالاسم الاصطلاحي دون تعرض لكشف أسرار الجمال، فهذا المسلك لا يجدي في تكوين الذوق الأدبي، ولا يحبس البلاغة في دائرة المنهج العلمي الفلسفي، الذي تأباه طبيعتها الفنية"¹.

تقتضي الممارسة التعليمية من الأستاذ أن يجتهد حتى يعطي لدرس البلاغة حقه من العناية، لذلك يستحسن أن :

- يستغل نصوصا مختلفة (أدبية وتواصلية أو غير أدبية)، كلما رآها مناسبة للموضوع البلاغي المدروس ولأهدافه.
- يركز على ما في النص الأدبي المقرر في دراسة النصوص، من الألوان البلاغية المدرجة في البرنامج الدراسي، وتوجيه انتباه المتعلم نحوها، ليدرسها ويعمل على تحليلها.
- يبحث عن النصوص الملائمة للدراسة البلاغية، في مؤلفات متنوعة، سواء كانت مدرسية أو لا (قصص، روايات، مجلات ...) .
- يحفز المتعلم على المطالعة الواسعة (مؤلفات أدبية، صحافية، نفعية ...)، بنية العثور على الجوانب البلاغية المدروسة؛ وتكليفه بقراءة ما اختاره من نصوص على الزملاء في القسم وإصدار أحكام قيمة مبررة تتناول الجانب البلاغي.
- يشرف على قراءة النص - وهو السند البلاغي - عدة مرات، ثم تحليل معانيه قبل المعالجة البلاغية؛ لأن الإشارة إلى الأسلوب البلاغي دون الفهم المسبق للنص لا نفع يرجى من ورائها. وفهم معاني النص فهما دقيقا، قبل تناوله من الناحية البلاغية ضروري لأن المعالجة البلاغية - سواء تمثلت في التذوق الفني أو تقييم الجانب الحجاجي أو الاستدلالي في النص - لا تتأتى إلا إذا استوعب المتعلم معاني النص. حينئذ، يبلغ

¹ - الموجه الفني. ص 311-312

الأهداف المتوخاة من الدراسة البلاغية، ولا يكفي بحفظ المصطلحات والوقوف عند القواعد النظرية والقوالب الشكلية.

- عرض أمثلة من التراكيب العامية عند الضرورة التعليمية، أي قصد التمهيد والتوجيه وتقريب المعنى لا غير؛ ثم مقارنتها بالنص الأدبي واستنتاج ما يمكن من أحكام.
- قلة الاكتراث بالمصطلحات الكثيرة والمتنوعة، وتفصيلها وأقسامها؛ بل التركيز على طبيعة الأسلوب البلاغي و وظائفه في الكلام وما يحققه في المعنى.

وعلى الأستاذ أن يوجه عنايته، أثناء تحليل النص إلى :

- طرح أسئلة موجهة إلى موضع الغموض الذي لا يتمثل دائما في المفردات، بل قد يعود إلى تركيب الكلام؛ فتوجه هذه الأسئلة إلى المفاتيح التي تساعد على شرح ما استغلق من المعاني؛ " ومن مزايا طريقة الأسئلة الجزئية أن نجنب الطلاب ما درجوا عليه في شرح الشعر، وهو أن يترجموا كلمات البيت ترجمة حرفية محافظين على ترتيبها وموضعها، ونحن نريد منهم أن يفهموا المعنى جملة، ثم يعرضوه بعباراتهم، ولهم مطلق الحرية في أن يقدموا ويؤخروا، ويضيفوا ويحذفوا"¹.
- وهذا يعني أننا لا نمح نفس العناية لكل المعاني الواردة في النص، بل نركز على التي لا يقدر المتعلم على اكتشافها وحده، أو المعاني الغامضة التي يجب توضيحها، نقاديا للبس أو الابتعاد عن المعنى المقصود.

ومن الأسئلة التي يمكن طرحها : من المخاطب؟ عم (عن) يتحدث الأديب؟ ماذا يقصد بعبارة " كذا " ؟ كيف عالج الفكرة ...؟ لماذا استعمل " كذا " ؟ ماذا أضافت عبارة " كذا " على المعنى؟ ...

وهكذا نختصر الوقت والطريق إلى معاني النص ونوجه تفكير المتعلم ونهيء له فرص التعبير والتحليل والملاحظة والاستنباط والمقارنة.

¹ - الموجه الفني. ص 270

هذه المرحلة ضرورية للانتقال بالمتعلم إلى التدوق البلاغي الذي قد يركز الأستاذ

لتحقيقه على :

- لفت أنظار المتعلمين إلى بعض الكلمات أو الصور أو الأساليب، ومناقشتهم في اختيار الأديب لكلمة " كذا " وكان بإمكانه التعبير بكلمة أخرى مثل " كذا "، أو يطلب منهم اقتراح كلمة أخرى يرونها مناسبة؛ ثم يدعوهم إلى المقارنة بينهما حتى يظهر لهم فضل كلمة على كلمة؛ " توجيه نظر الطلبة إلى نوحي القوة والجمال في النص الأدبي الذي ندرسه في حصة الأدب، وانتهاج أسلوب الموازنة بين النصوص، بين الحين والحين، لتعزيز القدرة على التحليل وملاحظة الكيفيات المختلفة التي توظف بها الأساليب البلاغية، واستخلاص خصائص أسلوب الأديب ومميزات طريقته في الكتابة ... متجهين في كل هذا اتجاها أدبيا، وفي خلال ذلك يلمون بالمصطلحات البلاغية بغير إصراف فيها ... من غير تعرض لتفاصيلها وأقسامها المختلفة إلا حيث تدعو الضرورة الأدبية إلى ذلك ¹. وللضرورة التعليمية كذلك أحكام. فقد نفضل أو نجمل في المسائل البلاغية باعتبار ملمح المتعلم، أي مستواه والشعبة أو التخصص.

" ولكل إنتاج أدبي ناحيتان : الأولى تتصل بالمعنى وطرق تركيب الكلام، والثانية تتصل بجماله وألوان صورته، والواجب أن تتسع النظرة البلاغية لتشمل الناحيتين مجتمعتين، ولا بد لذلك من اعتبار البلاغة وحدة وإلغاء الفواصل التعليمية بين فنونها ².

وقد تستهدف المناقشة التدوقية بيان جمال الصور البيانية وفائدة استعمالها وظلالها الدلالية، وبيان السبب في إيجاز التعبير أو إطالته، أو توظيف التكرار، والقصر، والحذف، وألوان البديع...

هذا، وليس المطلوب أن نتعقب جميع الصور والأساليب بالتحلل الفني، ولكننا نكتفي بأكثرها أثرا في المعنى، وبما يناسب الموضوع المقرر في الحصة التعليمية.

¹ - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

² - المرجع نفسه. ص 193

وعقد الموازنات يعد من بين الإجراءات العملية التي ينصح بانتهاجها أثناء التحليل البلاغي. " فالعمل الفني إذا عرض مقترنا بغيره سهلت المفاضلة بينهما، والحكم على كل منهما؛ فلا يبين جمال الاستعارة إلا إذا عرض بجانبها اللفظ الحقيقي الأصلي، ولا تتضح بلاغة الكناية، إلا إذا جرب بدلها التعبير الصريح، ولا تبدو قوة الأسلوب الإنشائي إلا إذا عدل عنه إلى أسلوب خبري، ولا تفهم الحكمة البلاغية في تقديم كلمة عن موضعها الأصلي، إلا إذا ردت إليه، وامتحن وضعها في التركيبين وهكذا¹. وبعد استنباط الأحكام، نحصل على مجموعة من الخصائص الفنية للنص من حيث المعاني والألفاظ.

وقصد إنماء **التذوق الأدبي** لدى المتعلم، يدعى الأستاذ إلى التمسك ببعض

التوجيهات الأساسية، ومنها :

"- الإمام بجو العمل الأدبي، من معرفة للعصر الذي كتب فيه النص الأدبي، وبحياة صاحبه وطبيعة أعماله الأخرى.

- التدريب على اللغة من أجل اكتشاف أسرارها وخصائصها وقدرتها التعبيرية.

- إدراك المتعلم للوحدة العضوية في البناء والتصميم، التي تقوده إلى تحديد فحوى مضمون النص.

- تشجيع المتعلمين على تبادل وجهات النظر فيما يخص الخبرات الجمالية، وإبداء رأيهم بحرية.

- التدريب المستمر للتلاميذ على المهارات المراد تنميتها والأساليب اللازمة للتذوق الأدبي، لأن التدريب يولد الإتقان.

- مراعاة شمولية التقييم بحيث يمتد من المهارات الجديدة المراد تنميتها، إلى المهارات التي سبق التدرب عليها².

¹ - الموجه الفني . ص 274

² - حسن شحاته: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق. ص 197

ليس العيب في تدريس معايير البلاغة وقوانينها، بل العيب في أن نجعلها محل حفظ وتطبيق، دونما عناية بتحليلها وتفهم أبعادها، " فالأهم أن يدرك [المتعلم] أن فلسفة التشبيه تعني توضيح صورة بأخرى أقوى منها أو موقف بآخر أقوى منه وأن القول " بأني رأيت الأسد" يختلف في دلالاته الأدبية عن " رأيت رجلا كالأسد" أو "محمد أسد". والواقع أن النقد يتطلب إدراكا لموقع الكلمة من الكلمة ومن الموقف والمناسبة وإدراكا لصور البيان المختلفة وفهما للمحسنات ومواقعها وأين تكون ومتى توضع"¹.

وسعيا لتربية التذوق الأدبي، ينبغي أن يلتزم تدريسنا للبلاغة ببعض المتطلبات، منها:
- " الدقة في اختيار النص الأدبي وحسن الاختيار لما يدرس منه.
- أن يكون النص نابضا بالحياة والجمال لفظا وأسلوبا، فكرا ومعنى.
- أن تكون دراسته على أساس من تحليل الصور والأساليب والأفكار، وليس الوقوف عند التحليل اللفظي وحده"².

وللتركيز على أسلوب المناقشة البلاغية أهمية بما كان، ولكن لا يمكن اتباعه إلا بعد استكمال مراحل أساسية سابقة هي:
- " فهم النص فهما قويا والإلمام بما فيه.
- قراءة النص قراءة صحيحة سليمة.
- معرفة الوحدات الفكرية في النص.
- مناقشة المسائل البلاغية.
- النقد والتحليل والموازنة والمفاضلة والمقارنة"³.

¹ - محمد صلاح الدين مجاور: تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1998. ص 481

² - المرجع نفسه. ص 483

³ - المرجع نفسه. ص 489

وعلى إثر استيثاق المدرس من فهم المتعلمين لمعاني النص، يقيم مدى قدرتهم على الاهتمام إلى المواطن التي استهدفتها الدراسة البلاغية وأثر اللون البلاغي في الكلام، فيجري تدريبات تتضمن :

- دعوة المتعلم إلى استعمال أساليب بلاغية مختلفة للتعبير عن معنى واحد أو العكس، حتى ترسخ لديه دلالة هذه الأساليب وأثرها في الكلام.
 - إدراج أسئلة تتخلل الدرس، لتتبع مدى فهم المتعلم.
 - تقديم تطبيقات فورية للتأكد من استيعاب المتعلم للقضية البلاغية المدروسة.
 - تدريب المتعلم تدريبا كافيا ومنتظما في كل حصة.
 - تكليف المتعلم بتوظيف الأسلوب البلاغي المدروس في إنتاج قد يكون شفويا في القسم، و/ أو كتابيا يحضر في البيت.
 - إدماج المتعلم لعدة أساليب بلاغية بكتابة نص نثري أو شعري، محدد النمط (سردي، وصفي، إخباري، حجاجي...)، والنوع (قصة، مقالة، رسالة...).
- يسمح هذا العمل بتقييم الكفاءة أو القدرة على التحليل والإنتاج (الشفوي والكتابي) وتوظيف المكتسبات وإدماجها في كل متكامل الجوانب، بحسب تفاعلها وملاءمتها للمعاني .
- وغاية التدريب هي اختبار الحس الفني والقدرة على إدراك وسائل هيكلية النص وبنائه، والأساليب التعبيرية المتمثلة فيه، وليس الإلمام بالقواعد البلاغية.
- اعتماد التدريبات على نصوص أدبية كاملة، قدر الإمكان، شعرية ونثرية، متفاوتة الطول، من أجناس وعصور أدبية مختلفة.

ومن الأركان اللازمة لإنجاح الدراسة البلاغية أن توفر عددا من الشروط في السند المعتمد، أي النص، وهي :

- أن يكون نص الدراسة كاملا، من الشعر أو من النثر، وليس مقتطفات (أبياتا أو جملا)، لأن الدراسة البلاغية يعينها أن تتبين موقع أسلوب ما أو وسيلة ما في كل متكامل، ولا تقتصر على ملاحظة جزء، بل يهيمه أن تلاحظ الجزء في تفاعله مع الكل الذي ينتمي إليه، وعلاقته مع أجزاء النص الأخرى وتمفصله معها.

- النص الأدبي الجيد، وجيد النصوص لا يقتصر على الأدب القديم فقط، بل يتعداه إلى الأدب الحديث، شعره ونثره، ويشمل أنماطا وأجناسا مختلفة، ويوفر المادة الضرورية للذوق والفكر معا، ويسمح بتتبع الأذواق الأدبية المختلفة على مدى العصور باختلاف البيئات والثقافات والأزمنة (والصور البيانية ترجمة أمينة لهذا الجانب).
- الاستعانة بالنصوص القصيرة (أبيات، جمل، فقرات) عند الضرورة، على سبيل الدعم والاستشهاد، وبمراعاة طبيعة الأسلوب المدروس؛ كما يقع مثلا في حالة تناولنا للطباق. أو عندما ندرس أنواع الحجج وأشكالها، فقد نلجأ إلى شواهد تكمل ما جاء في النص، وتوفر للمتعلم "جهازا" شاملا ينتقي منه ما يساعده على الحجاج في وضعية معينة (التشبيه، التوكيد، القصر، التقديم و التأخير، أدوات الربط، ترتيب الأفكار ...).
- الاعتماد على نص أصيل authentique، أي "الذي لم ينتج بقصد الاستعمال في القسم" ¹. وإنما هو نص ينتمي إلى أجناس أدبية مختلفة (مقال، قصة، مسرحية...).

• تقييم الجانب البلاغي

- يجري الأستاذ تقييما للتحقق مما اكتسبه المتعلم.
- و " التقييم هو مسعى أو سيرورة تؤدي إلى إصدار حكم واتخاذ قرار . على أن الحكم يكون نوعيا أو كميا، يطلق على قيمة شخص، أو موضوع، أو سيرورة، أو وضعية، أو تنظيم، بمقارنة المميزات القابلة للملاحظة مع مقاييس معروفة؛ وبغرض توفير معطيات تمكن من اتخاذ قرار في شأن بلوغ هدف" ².
- فإذا وقع هذا التقييم في بداية الحصة وقبل الشروع في الدرس، سمي تقييما تشخيصيا diagnostic وظيفته تحديد المكتسبات القبلية pré-requis اللازمة للدرس الجديد.
- وإذا تخلل التقييم الدرس أو جاء بعده، سمي تكوينيا formative، وظيفته سد ثغرات التعلم أو تعديلها أو تكملتها أو إثراؤها، وتحسين مسار المتعلم أو تصحيحه أو تعديله . وهو حكم مؤقت لأنه يقع أثناء النشاط . والتربية الحديثة تتحدث اليوم عن التقييم المكون

¹ - BESSE, H ; GALISSON, R : Polémique en didactique. p 77

² - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 573

formatrice، على اعتبار أن المتعلم مسؤول على تقييم نفسه وتعديل مساره التعليمي وتصحيح أخطائه.

أما إذا وقع التقييم في نهاية الفعل التعليمي (في نهاية مرحلة تعليمية كالفصل أو السنة)، فيكون جمعيا أو تحصيليا bilan / sommative يعمل على تحديد حصيلة المتعلم من العملية التعليمية / التعلمية. وهذا الحكم نهائي يضع حدا لنشاط ما. وسواء كان ال تقييم تكوينيا أو تحصيليا، يمكن الاستعانة بشبكة تقييم، يستعملها الأستاذ لتحديد نوعية إنتاج تلاميذه وتقديره؛ و قد يستعملها المتعلم لتفقد عمله، فتكون للتقييم الذاتي auto évaluation، الذي يعتبر " سيرورة يصدر المتعلم عن طريقها حكما عن نوعية مساره، وعمله أو مكتسباته بالنظر إلى أهداف سبق تحديدها، وبتأسيس تقديره على مقاييس محددة"¹.

وعند التقييم، يستحسن أن يحرص الأستاذ على :

- تحديد التعليمات consignes بوضوح، كما ونوعا، مستعملا أفعالا دقيقة ودالة، حتى لا يقع المتعلم في اللبس والتردد وفي حيرة من أمره.
- تدريب المتعلم على التقييم الذاتي حتى يكون عنصرا فاعلا و طرفا نشطا في تعلمه.
- تحفيز المتعلم على الكتابة في موضوع معين بتحديد الهدف المقصود منها، حتى تتولد لديه دافعية قوية، وينطلق في التعبير.
- إدماج معارف فروع اللغة المختلفة في التطبيقات كلما تسنى ذلك، حتى يتجسد لدى المتعلم مفهوم تماسك هذه المادة.
- الربط بين موضوع الكتابة والحياة الخارجية (الرياضة، التلفزيون، الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، الصحافة، وسائل التسلية...)، فضلا عن الحياة المدرسية.

¹ - Dictionnaire actuel de l'éducation. p 118

* شبكة التقييم

ضمانا لتقييم موضوعي وشامل لنشاط المتعلم، يستحسن استخدام شبكة التقييم أو الملاحظة، " للقياس ومعاينة خصوصيات العمل، أو المنتج أو السيرورة، على أن توفر هذه الشبكة قائمة من العناصر الملحوظة وكذا كيفية تسجيل المعلومات"¹.

تتضمن مقاييس التقييم ومؤشراتها والتقدير الممنوح لها وقد تكون وفق الشكل الآتي :

التقدير appréciation	المؤشرات indicateurs	المقاييس critères
		الوجاهة pertinence
		الانسجام Cohérence
		سلامة اللغة Correction de la langue
		الإبداع/ الإتيقان créativité

يتم بناء الشبكة بعد أن يتعرف المتعلم على مصطلحاتها وكيفية استعمالها.

وقد توضحه هذه المصطلحات بالشكل الآتي :

- المقاييس، هي الشروط الضرورية في العمل، وهي نظرية؛ لأنها " صفة تستعمل لإصدار حكم ، أو مبدأ يسمح بتأسيس قرار"².

- المؤشرات، تجسد المقاييس وتفصلها إلى عناصر قابلة للملاحظة. والمؤشر " هو عنصر من عناصر الأداء أو من مسار يخبر عن تقدم التعلم أو تحققها . ويستدعي مقارنة

¹-Dictionnaire actuel de l'éducation. P 673

² -المرجع نفسه.ص 282

معطيات النشاط المقيم مع معطيات وضعية مرجعية دالة . ويسمح المؤشر بإصدار حكم بالنسبة إلى انشغال، ويمثل البعد الموجود بين ما نلاحظه والواقع المقدر . الأمر الذي يفترض تداخلا بين الملحوظ وغير الملحوظ¹. فالمقياس ه و خاصة يجب احترامها، أما المؤشر فهو علامة مميزة للمعيار يمكن ملاحظتها؛ إذ يمكن من وضع المقياس في سياق معين، وله قيمة (قد تكون كمية أو قيمية). واللجوء إلى المؤشرات ضروري لكي نحدد مدى احترام المعيار.

- **التقدير**، وقد يكون التقدير بحروف ترمز إلى حكم قيمي : (أ) بمعنى جيد، (ب) بمعنى مقبول، (ج) بمعنى غير كاف...؛ أو بملاحظات متدرجة : (ضعيف)، (حسن)، (جيد)...؛ ولكن غالبا ما يمثل التقدير علامة رقمية إجمالية تقدر بعشرين تقسم على المقاييس ثم المؤشرات حسب أهميتها والأهداف المسطرة للعمل، وقد يمنح نصيب أعلى من العلامة الإجمالية لجانب دون آخر نظرا لأهميته.

أما المقاييس التي تحدد لكل إنتاج كتابي في اللغات عموما، فهي تخص : الواجهة، والانسجام، وسلامة اللغة؛ وقد يضاف مقياس آخر كالإبداع مثلا أو إتقان العمل ... والواجهة هي المطابقة بين التعليم (أو السؤال) والجواب، أي جواب المتعلم عن الشيء المطلوب وعدم خروجه عن الموضوع.

والانسجام الذي يعتبر شرطا أساسيا لقيام النص، يعني ترتيب الأفكار وتنظيمها في بناء متسق ومتألف.

وسلامة اللغة أمر ضروري في أي إنتاج وهي دليل على الربط بين الشكل والمضمون، أو بين محتوى الأفكار والأسلوب الذي وردت به . وهذا يعني التركيز على

¹-Dictionnaire actuel de l'éducation. p 708

قدرة المتعلم على الكتابة بلغة سليمة من الأخطاء الكثيرة من حيث النحو والصرف والإملاء، وبالنظر إلى المستوى المدرسي والمقرر التعليمي وهدف النشاط الكتابي.

يقدر كل جانب بعلامة، تتخفف اطرادا كلما زاد عدد الأخطاء، إلى أن تصل إلى الصفر في حالة تجاوز عتبة محددة . فقد منح مثلا نقطتين للجانب الصرفي، فإذا زادت الأخطاء الصرفية عن خمسة تصبح العلامة صفرا . وهكذا بالنسبة إلى الأخطاء النحوية والإملائية.

أما الإبداع، فهو مقياس اختياري، وقد نعوضه بالإتقان أو أي مقياس آخر يدلنا على نوعية العمل المنجز من حيث طرافة الخيال، أو شعرية اللغة أو جدة الأفكار ... ومهما يكن، فإن هذه الشبكة بينها الأستاذ لتقييم إنتاجات التلاميذ، ويدربهم على بنائها ليقوموا أعمالهم بأنفسهم، حرصا على تعويد التلاميذ على التقييم الذاتي.

وكلما كان هذا النشاط التقييمي واضحا، كلما أدرك المتعلم ما ينتظر منه وانكشفت أمامه سبل إنجازة و وسائل تصحيح أخطائه.

الفصل الثالث

سبل تحديث البلاغة العربية

1- مقترحات عربية للتجديد البلاغي

2- مقترحات البحث

الخاتمة

1- مقترحات عربية للتجديد البلاغي

إن أفول البلاغة لم يرجع إلى افتقارها إلى النظريات الطريفة، فالأدلة على النشاط الفكري المكثف الذي ميز حياة البلاغيين القدامى كثيرة.

وقد نكتفي بالاستشهاد بالجرجاني الذي فاق أقرانه بالذكاء والفتنة ومهارة التحليل و الكشف عن المعاني الخفية والعلائق الضمنية، ومنهجية الطرح والعرض، والقدرة على الربط بين الآراء والتنظير والتطبيق.

ولو قارنا بين ما خلفه لنا هذا الرجل العظيم في مؤلفاته النفيسة، وما هو سائد في تعليمنا اليوم لوجدنا أنفسنا قد جردنا التحليل البلاغي من روحه وعمقه ودقته، وقلصناه حتى جعلنا منه هيكلًا هزيلًا، لا علاقة له بالبلاغة؛ إذ أصبح هدف الدرس البلاغي وهمه يقتصر على معرفة نوع الصورة أو الأسلوب وعناصرهما، و وضعهما أحيانًا في جداول للبرهنة على التحكم في آليات أو ميكانيزمات الانتقاء والتصنيف دون تحليل.

نادى، في العصر الحديث،¹ أمين الخولي ومحمد عرفة و عبد الله العلايلي وأحمد الشايب، كما نادى آخرون معهم بالتجديد في البحث البلاغي. فذهب محمد عرفة إلى وجوب فهم التراث فهما جيدًا، وإلى الإضافة عليه، والتجديد فيه.

وذهب الخولي إلى أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته، ولا جدوى منه، وإلى أن البحث البلاغي يجب أن يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة الأدبية جميعًا دون البحث عن الجملة أو الجملتين فقط. قد يكون أمين الخولي أول من التفت إلى انحصار البحث البلاغي عند العرب داخل أسوار الجملة، " فالبحث في المعاني إنما هو بحث في طرفي الجملة - المسند والمسند إليه - وتوابعها. ونجد أبحاث البيان لا تتجاوز دائرة الجملة أيضًا، إلا أن تكون جملاً متماسكة في أداء معنى واحد كتشبيه مركب أو مجاز كذلك، وهي جمل في منزلة الجملة الواحدة ... أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئاً.

¹ - نحو بلاغة جديدة. ص 177 و ما بعدها

وقد أرجع الخولي هذا الانحصار إلى توثق الصلة بين المنطق والبلاغة لدى السكاكي وغيره من أصحاب المدرسة الكلامية أو الفلسفة، حيث كانت الجملة لدى البلاغيين - ولدى النحاة من قبلهم - نظير القضية لدى المناطقة. ومن ثم دعا الخولي - وهو بصدد التخطيط لتجديد درس البلاغي - إلى مجاوزة البحث البلاغي مستوى الجملة إلى الفقرة والنص¹، مستغلا فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني، للإفادة منها ومحاولة تطويرها والانتقال بها من "نظم الجملة" إلى "نظم النص".

كما ذهب إلى أن طريقة العجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الإحساس والجمال والتعبير عنه. وحاول أمين الخولي إرساء منهج بلاغي عملي جديد، ففن القول يعني عنده البلاغة، وفي كتابه يدعو إلى دراستها وإجلاء علاقتها بالفلسفة وعلم الجمال وعلم النفس.

ارتفعت أصوات في المشرق، منذ نهاية القرن التاسع عشر، تنادي بالتجديد في مجال البلاغة.

وقد كان للشيخ محمد عبده وأتباعه أثر ملموس في توجيه البلاغة إلى نوع من "السلفية"... وتمثل ذلك في تجديد درس البلاغة لتكييفه مع أهداف الحركة الإصلاحية بالعدول عن بعض المصنفات التقليدية إلى كتب جديدة لم تكن مسجلة في البرامج الدراسية، مثل "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" اللذين قام الشيخ محمد عبده بتدريسهما في الأزهر تجديدا لرسالة البلاغة ورجوعها إلى ينابيعها الأولى. " وكان لحركة محمد عبده امتداد في المشرق والمغرب ظهرت نتائجها فيما ألف من كتب مدرسية في البلاغة أصبحت من أهم المراجع في التعليم "لجواهر البلاغة" لأحمد الهاشمي(1960) و " تاريخ علوم البلاغة " لأحمد مصطفى المراغي، وخاصة "البلاغة الواضحة" لعلي الجازم ومصطفى أمين و " موجز البلاغة" للشيخ الطاهر بن عاشور².

¹ - د. جملي عبد المجيد: بلاغة النص. القاهرة، دار غريب، 1999. ص 11
² - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. ص 3

وواكب هذا الاتجاه الإصلاحى فى البلاغة اتجاه مغاير يتمثل فى الاتجاه الجامعى الذى شق طريقه **طه حسين** (1931) وأتباعه الذين كانوا يسعون إلى اكتشاف الأصول اليونانية فى كل شىء بما فى ذلك البلاغة.

وهذا ما يظهر فى البحث الذى قدمه طه حسين تحت عنوان : " البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر "، والذى قرر فيه أن البيان العربى فى أول نشأته وفى عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر مختلفة هى : العنصر العربى والعنصر الفارسى والعنصر اليونانى، منبها بالخصوص إلى أثر أرسطو فى البلاغة العربية التى كانت وثيقة الصلة بالفلسفة اليونانية أولا وبالبيان اليونانى أخيرا.

وتفرع عن هذا الاتجاه عدة اتجاهات مقتنعة كلها بمسئمة التأثير اليونانى، وبضرورة تبني النماذج الغربية لتجديد البلاغة العربية . لكن مختلفة فى كيفية الدعوة إلى ذلك من التطرف الشديد الذى نادى بها سلامة موسى فى كتابه " البلاغة العصرية واللغة العربية " إلى الدعوة إلى ذلك بحكمة مع مراعاة خصائص التراث البلاغى العربى . وهو الاتجاه الأقوى والسائد اليوم فى معظم الدراسات البلاغية الحديثة.

وسخر **أحمد حسن الزيات** كتابه " دفاع عن البلاغة " للدفاع عن البلاغة العربية القديمة وإبراز محاسنها التى لا تقل عن محاسن البلاغة الغربية¹.

واطلع الدارسون العرب فى العصر الحديث على علوم اللسان الحديثة التى ظهرت فى الغرب؛ فمنهم من دعا إلى ترجمة الدراسات اللسانية الغربية ومحاولة تطبيق نتائجها على البلاغة العربية، وكأنهم أداروا ظهرهم للبلاغة القديمة . اتصل هؤلاء بالثقافة الغربية وتابعوا الاتجاهات الحديثة فى الإبداع، فغرق بعضهم فى الموجات الوافدة، دون الانشغال بفكرة تقريبها من الثقافة العربية أو اختيار إمكان تطبيق الملائم منها عليها.

" وهنا أيضا نجد الغلاة الذين لا يباليون بتطبيق المناهج الغربية بحذافرها واستعمال مقاييسها ومصطلحاتها استعمالا تلقائيا دون مراعاة لخصوصيات اللغة العربية وبلاغتها... ونجد الباحثين المعتدلين الذين يسعون إلى استخدام المناهج الحديثة لفهم التراث البلاغى

¹ - محمد الصغير بناني: البلاغة العربية و أصولها النظرية. ص4

فهما صحيحا واكتشاف مزاياه التي لم تعرف حتى الآن . ومثل هذا الاتجاه مجموعة من كبار النقاد أمثال سهير القلماوي وعز الدين اسماعيل ومصطفى سويف ... وغيرهم ممن حاولوا تطبيق المذاهب النقدية الجديدة على الأدب العربي"¹.

ومنهم من أعرض على هذه الآثار الغربية متحججا بتنافرها مع التراث البلاغي العربي، و فضل الرجوع إلى البلاغة التقليدية القديمة والاكتفاء بما توصل إليه السكاكي، حفاظا على "الأصالة العربية".

وينادي العلاطي بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية . وعلم المعاني عنده متصل بالأدب وبكتبه، وكذلك البديع يدرس كما يدرس علم المعاني .

ودعا آخرون إلى التعرف على ما حققته علوم اللسان عند الغرب وتبني ما يتماشى مع طبيعة البلاغة العربية، بغية بعثها وتكييفها مع المستجدات اللسانية. وهكذا يتم الرجوع إلى المحطات اللامعة التي عرفت بها البلاغة العربية في تاريخها المجيد، وإعادة قراءة النظريات التي ابتكرها الجاحظ والباقلاني والخطابي والجرجاني وغيرهم، على ضوء وسائل و إجراءات عملية حديثة . حينئذ، نتحدث عن تحيين البلاغة العربية التي نستطيع توظيفها في تحليل النصوص الأدبية والعمليات التواصلية . ونكون قد حفظنا على أصالة البلاغة العربية و بعثنا فيها الحياة من جديد.

غير أن بعض الدارسين يرى أننا قفزنا فجأة من الطريقة التقليدية في تحليل النصوص، التي كانت سائدة حتى بدايات القرن العشرين، والتي لا تزال معتمدة حتى الآن في بعض المدارس والجامعات في الوطن العربي، قفزنا منها إلى مرحلة محاولة اللحاق بالعلوم الحديثة واتباع مناهجها المختلفة، دون أن نمر بمرحلة وسطى .

عرف الزيات، وهو المشايخ للتراث، بدعوته إلى التوازن بين الشكل والمضمون، بناء على أن البلاغة لا تفصل بين العقل أو الفكرة والكلمة، ولا بين الموضوع والشكل .

¹ - المرجع نفسه. ص 6

ورأى أن الفكرة والصورة والأسلوب كل لا يتجزأ، وأن الأسلوب مركب من عناصر هي الأفكار والصور والعواطف، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة¹.

ودعا سلامة موسى إلى استعمال العامية ونبذ البلاغة القديمة التي اعتبرها بلاغة الانفعال والعاطفة، واستخلفها ببلاغة مبنية على المنطق، بلاغة عصرية.

ومن جهة أخرى، تمسك الأزهر بمنهج البلاغة القديمة الذي ألفت وفقه كتب كثيرة في البلاغة، منها: "البلاغة الواضحة" للجارم، و "البلاغة العربية" لخفاجي، "البلاغة" للمراغي وغيرها.

"وبرزت دراسات أسلوبية وبنياوية على يد عبد السلام المسدي² في كتابه عن الأسلوبية، ودراسات شكري عياد وصلاح فضل عن البنياوية والأسلوبية، وسعد مصلوح، ويمون طحان وعبد الله الغدامي وغيرهم ...

وممن عارض البلاغة القديمة محمد مندور وسهير القلماوي وغنيمي هلال ولعل من أسبق المباحث في الدرس الأسلوبي بمصر "التصوير الفني في القرآن الكريم" لسيد قطب³.

ومن دعاة التجديد، الدكتور محمد عبد المطيب الذي يستخرج مباحثه الأسلوبية مما جاء به عبد القاهر الجرجاني، منبها إلى المحاذير المترتبة على "أن نأخذ خصائص أسلوبية من لغات غير لغتنا ونحاول قسرا إخضاع أسلوبنا العربي لها"⁴.

تدور كثير من البحوث اليوم حول الصورة عند مؤلف ما . غير أنه لا يوجد حتى الآن منهج عالمي موحد لدراستها.

لذلك يرى كثير من الدارسين ومنهم الدكتور صلاح فضل أنه من المثمر الإفادة من المحصلة البلاغية الماثلة في التمييز بين أنواع المجاز وبقية الأشكال البلاغية؛ بعد تعديلها طبقا للخرائط الجديدة وملاحظة الفوارق في بنيتها الشكلية والدلالية ومستويات كفاءتها

¹ - نحو بلاغة جديدة. ص 14

² - لقد نوهنا بإسهام هذا الباحث أثناء حديثنا عن الأسلوبية في الوطن العربي، في الفصل الخامس من الباب الثاني.

³ - مصطفى الصاوي الجويني: المعاني علم الأسلوب. ص 113

⁴ - المرجع نفسه. ص 87

التخييلية. وينبغي تحديد العلاقات القائمة فيما بين الصور وتصنيفها بالنظر إلى مصادرها المجازية والموضوعية من جهة، والوظائف التي تسهم بها في تكوين الصورة الكلية للعمل الأدبي، من جهة أخرى.

" وتعتبر دراسة المصادر والأبنية والوظائف ومعدلات التكرار والمساحات الحيوية الناجمة عن التقاء الأشكال المختلفة، ومدى تداخلها وكثافتها في النص هي المجال الأمثل للإفادة من معطيات البحث البلاغي، المرتكز على أدوات محددة بعد مراجعتها وشرح تحولاتها، إدماجها مرة أخرى في المنظومة المنهجية للتحليل الأسلوبي. وعلى هذا فإن المنطقة المشتركة بين الأسلوبية والبلاغة تتجلى على وجه الخصوص عند قطبي العملية التحليلية للنصوص المحددة، حيث يسوق البحث إلى التعميم والتجريد في حركتين: إحداهما تتحو إلى تحليل مصادر الصور وفلسفتها، والأخرى تميل إلى بسط النتائج الجزئية لاستخلاص نتيجة كلية منها تنطبق على مساحة النص الكاملة وترتبط بخواصه النوعية"¹.

وحين نصنف فلسفات علوم البلاغة الثلاثة نجد علم المعاني يعالج المعنى والبيان يختص بالصورة والبديع بزخرفة المعنى والموسيقى اللفظ، وهي كلها وبعضها مع بعض تعالج الأسلوب شكلا ومضمونا. وأجدد بنا أن نسميها تسمية معاصرة هي علم النص بحيث يؤلف هذا العلم كل علوم البلاغة القديمة إلى معارف أخرى.

يسهم الأستاذ محمد بركات حمدي أبو علي إسهاما مفيدا في إثراء طريقة تناول الدرس البلاغي من خلال كتابه: " كيف نقرأ تراثنا البلاغي "؛ فهو يؤكد على أن الموروث البلاغي الضخم الذي خلفه لنا القدامى يزخر بالأصول وطرائق التدريس الناجعة.

وبالإضافة إلى ذلك، نستطيع أن نطرح الكثير من المسائل الفرعية، وطرائق العرض الفلسفية أو تقليل الأقسام في المصطلحات والأبواب والفصول تيسيرا للدرس، وإتقانا لغاية

¹ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص 181

التدريس البلاغي و وظيفته؛ وأن نستفيد من النظرة التربوية التي تهتم بالمتلقي و إبراز شعوره وميوله، وتأثره بالنص البلاغي، وانفعاله به؛ مثلما نستفيد من النظرة النقدية والأدبية عند استنباط اللون البلاغي من الشاهد البلاغي، نراعي فيه عمليات النقد الأدبي من حيث الاختيار و قبل ذلك الفهم ثم التمييز ثم الحكم، و نأخذ من الأدب حسن الصياغة و التركيب.

" و من هنا تتم دراسة البلاغة في إطارين :

1- **البلاغة القاعدية** : وهي التي تشكل المادة البلاغية في علوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعاني والبدیع، وما يسبق ذلك من مقدمة الفصاحة والبلاغة . وما يتلو ويتبع من خاتمة في السرقات الشعرية.

2- **البلاغة القيمية** : التي تهتم بالتفسير العام للمادة البلاغية، ثم الغاية المستفادة من المادة البلاغية، وأثر ذلك على المتفطن شخصاً، وما حركت فيه هذه المادة من ذكريات وهموم وطموح، وآمال وآلام وغير ذلك مما يشكل النفس الإنسانية مجتمعة و منفردة، و هذا ما نسعى إليه من درس البلاغة العربية بين الأمس و اليوم"¹.

ولا غنى لدارس البلاغة العربية عن معرفة القواعد وهي ما يسميه محمد بركات

حمدي " البلاغة القاعدية"، التي نتحدث عن :

1- تعيين الشاهد البلاغي،

2- ثم تخصيص الموطن البلاغي في داخل الشاهد،

3- خطوات الإجراء،

4- تعيين نوع المصطلح.

ويرد الباحث اقتراحه بمثال من قوله تعالى : " إلا الذين تابوا وأصلحوا

واعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين و سوف يؤت الله المؤمنين أجراً

عظيماً". (سورة النساء / 146)

¹ - د. محمد بركات حمدي أبو علي: تدريس البلاغة . مقال منشور في أنترنيت.

ويتبع هذا الشاهد القرآني بتطبيق خطوات " البلاغة القاعدية" عليه، كما يأتي :

1- النص السابق هو الشاهد البلاغي.

2- و اعتصموا بالله موطن بلاغي من داخل الشاهد.

3- خطوات الإجراء :

أ- شبهنا الملاذ بالله بالاعتصام.

ب- بجامع القوة والالنفات في كل من المشبه والمشبه به.

ج- وحذفنا المشبه (وهو الملاذ والقوة).

د- وصرحنا بالمشبه به (وهو الاعتصام).

4- النوع : وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية.

أما " البلاغة القيمية" فتحدث عن :

أ- القيمة العامة: أي المعنى العام : وهو الاعتصام بالله وحده دون غيره. والاعتماد عليه في أمورنا جميعا...

ب- القيمة الخاصة : أن ننصح الناس وأنفسنا بهذا المعنى الإيماني الرباني.

ج- قيمة القيمة : ما تركت في نفسي هذه الاستعارة من معاني التوحيد، والاعتماد على الله دون غيره، وبذلك أتقوى، وأصبح على يقين من الأمور مآلها إليه وحده لا إله إلا هو.

فلذا كان من أسباب معاناتنا في البلاغة العربية كثرة المصطلحات وا لتفريعات

والأقسام ... فإن محمد بركات حمدي أبو علي قد يضيف إليها قدرا آخر من الغم

" باختراعه" مصطلحات جديدة مثل : " البلاغة القاعدية، البلاغة القيمية، قيمة القيمة "؛
وكان التحديث يكمن في تجديد المصطلحات : فما تعنيه هذه المصطلحات أمور معروفة
كالمعنى العام المستخلص من الصورة البيانية والغرض الأدبي المقصود من ورائها
والانطباع الذي تتركه في نفس المتلقي .
أما "خطوات الإجراء" فما هي إلا الخطوات المعروفة في الطريقة التقليدية لدراسة
الصور البيانية، و هي بعيدة كل البعد عن التجديد وأجراً الدرس البلاغي .

وتحدد **سهير القلماوي** ما للبلاغة من مباحث و ما للنقد من موضوعات، فتجعل
الأسس النظرية لكل الفنون من اختصاص البلاغة، بينما النقد يدور حول ثلاثة محاور هي
النص والمؤلف والمتلقي .

والسعي لتجديد البلاغة لا يكفي بإثبات السبق والريادة للثقافة الإسلامية في شتى
موضوعات البلاغة " على سبيل المثال لا الحصر مقارنة نظرية أفعال الكلام عند أوستن
وسيرل بما طوره البلاغيون المسلمون والعرب في دراسة الخبر والإنشاء"¹.
فالغاية الكبرى لتأصيل البلاغة العربية ترمي إلى تفعيل البحث عن بلاغة الصورة
من حيث أركانها، أي الدال والمدلول، والتأليف أو الصيغ أو النظم، وتحديث
المصطلحات والمفاهيم العربية، حتى تواكب التطور الثقافي محتفظة في الوقت ذاته
بالخصوصية العربية، والعمل من التصنيفات التقليدية، والتخلي عن مركزية النص الأدبي
بالاتجاه إلى نصوص الإعلام والإعلان والإشهار والسياسة كذلك .

فلم يعد كافياً اليوم - في دراسة النص - أدبياً كان أو غير أدبي - أن نحصر
مجال بحثنا في جماليات التشبيه والاستعارة والكناية وما إليها، دون أن ننقل منها إلى
أيدولوجية النص و علاقات القوة و الهيمنة فيه، وتعبيره المباشر وغير المباشر عن
السياق الذي أنتج فيه.

¹ - د. بهاء الدين محمد يزيد: تجديد البلاغة العربية. مقال منشور في أنترنيت. ص 1

قال كثير من الدارسين بضرورة العودة إلى التراث الذي قطع شوطا طويلا في بناء هرم البلاغة قصد استلهامه في تجديد المفاهيم، كمفهوم النص وتحليله.

" فقد قدم البلاغيون المسلمون والعرب فصولا مبهرة في طرائق وآليات تحليل الخطاب وتحليل النص مع أنهم لم يستخدموا هذين المصطلحين . وفيما قدموا إشارة بالغة الأهمية إلى ضرورة تجاوز الكلمة إلى العلامة وإلى ضرورة الاهتمام بالسياق عند تحليل الخطاب أو النص . ومن يطالع "البيان والتبيين" للجاحظ، و "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني يجد أن مدار البلاغة لا يقتصر على فصاحة المفردة أو جلال المعنى بل يتمثل في الصياغة والتأليف والنظم وما ينتج عن ذلك من دلالات ثانية أو إضافية"¹.

فالتطلع إلى التحول المرغوب فيه لا يعني قطعا إهمال التحليل الأسلوبي التقليدي، بل يقتضي الإفادة من منجزات الثقافة الغربية إلى جانب التراث البلاغي تحقيقا للمصالحة بين روافد الغرب وموارد التراث، لأن التراث هو الوجه الآخر للمعاصرة وقد لا تخلو الأصالة من تغريب.

والمقصود بالتجديد ليس إهمال اللغة بمعناها التقليدي، وإنما المقصود هو التعامل معها من زوايا جديدة حتى تستطيع البلاغة العربية أن تلعب دورها في لغة السياسة والدعاية والإعلان وما إليه، والتحول من الكلمة إلى العلامة حتى تستطيع أن تستوعب النصوص المعاصرة على تعددها وتباينها.

اختلفت نظرة العلماء المعاصرين إلى البلاغة العربية باختلاف ثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية والاجتماعية.

فاقترح فريق من الدارسين إلغاء البلاغة العربية إلغاء تاما وإحلال النقد أو علم الأسلوب محلها، زاعمين أن القدماء وقفوا في بلاغتهم عند حدود الشاهد المبتور، فأظهروا ما فيه من تشبيه أو استعارة أو سوى ذلك، ولم يتجاوزوا تلك الحدود . أما هم فيريدون أن ينطلقوا إلى آفاق الصورة الفنية الكاملة، ذات الأطر والأبعاد والظلال ...

¹ - المرجع نفسه. ص 4

ونظر دارسون آخرون إلى البلاغة العربية نظرة تقدير وإجلال، ويشيد بما جادت به قريحة الأسلاف من آراء واجتهادات، ويطالب بوضعها بين أيدي المتعلمين، لأنها جزء من الحضارة العربية الإسلامية، وعنوان مشرف على إبداعها وسمو تفكيرها وإشراقها. " ولئن اهتمت البلاغة العربية بالشاهد الفرد فأظهرت وجوه البيان أو البديع فيه . إنها لم تهمل النظرة الكلية الجامعة، والتعبير الوجداني، والأثر النفسي، والظلال ... وكتب عبد القاهر خير دليل على ذلك . ومع هذا، فإنه يطالب بالتطوير والتحديث، ويلح على اقتلاع ما علق بالبلاغة من أوشاب المنطق والفلسفة، وآثار التحجر والجمود، وربما بمعطيات العلوم الأخرى، ومقارنتها ببلاغة الأمم الحية، ثم إعادة صوغها ببيان مشرف ناصع عربي مبين"¹.

وفي إطار أوسع، يرى بعض الباحثين أن التجديد الأدبي يرمي إلى غرضين : قريب وبعيد.

فالغرض القريب يتمثل في تسهيل دراسة المواد الأدبية، واقتصاد ما يبذل فيها من جهد ووقت، تحقيقا للمطلوب من دراستها تحقيقا عمليا، بحيث يمكن كل دارس لها أن يظفر في وقت مناسب وبجهد محتمل بما يستطيع معه استعمال اللغة في حياته، ذلك الاستعمال العملي الذي نتعلم من أجله اللغات.

وهذا الغرض يحققه المنهج الوجيه، والبرنامج التعليمي المناسب، والكتاب المنظم، والمعلم الكفاء؛ وإن استلزم تغييرا في ترتيب المسائل الأدبية، أو طرق تناولها وعرضها، فذلك أمر قريب المنال.

" أما الغرض البعيد من التجديد في علوم الأدب أو علوم العربية، فهو أن تكون هذه الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعي، تتصل بمشاعر الأمة ... وتسائر حاجتها الفنية المتجددة، فتكون اللغة لغة الحياة في ألوانها المختلفة ... فلا يعيش الناس بلغة ويتعلمون لغة أخرى"².

¹ - د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ط 9 . ص 6 و 7
² - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 14

يلوم كثير من الدارسين البلاغيين القدامى على كونهم قصرُوا البلاغة على دراسة الجملة أو أجزائها فحسب. والعمل الأدبي ليس في الجملة وأجزائها لا غير، فتلك لا تعطي إلا معنى أدبيا جزئيا. إن الفقرة المنثورة والقطعة المنظومة تتألف جملها لتعبر عن معاني جزئية مختلفة تشكل بعد ذلك، عملا أدبيا كاملا (قصيدة، مقالة، رسالة، خطبة...).

وذلك كله يحتاج إلى النظر البلاغي : " وعلى هذا نبدأ البحث البلاغي المستوفي من اللفظة المفردة، ولا نجده بالجملة بل نمده إلى الفقرة، والعمل الفني الكامل؛ فنبحث فيها الأسلوب واختلافه، وأوجه تفاوته ومزايا أنواعه المختلفة؛ وننظر النظرة الشاملة الجامعة في الأثر الأدبي كله"¹.

أما التقسيم القديم للبلاغة إلى المعاني والبيان والبيدع فلا أساس له في نظر بعض الباحثين الذين يرون أن الأجدر بنا أن نقتصر على كلمة " البلاغة" وصفا لجمال الكلمة والكلام: " ونقسم الدرس إلى بلاغة الألفاظ وبلاغة المعاني؛ وفي بلاغة الألفاظ نبحت عنها من حيث أن تلك الألفاظ أصوات ذات ج رس، ثم من حيث هي دوال على المعاني مفهومة لها؛ ونبحت ذلك من المفرد؛ والجملة والفقرة، والقطعة؛ ونقسم المعاني بما يناسبها حتى ننتهي بها إلى دراسة فنون القول الأدبي المنظوم والمنثور فنا فنا، وما به قوام كل فن وحسنه؛ متخطين الفنون القديمة من المقامة والرسالة والخطبة إلى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها"².

ومن معالم التجديد البلاغي التي يقترحها الدكتور **مصطفى الصاوي الجويني** ، التمهيد لدرس البلاغة بمقدمة فنية تعرف الدارس بمعنى الفن وطبيعته ونشأته وغايته وأقسامه والفن القولي خاصة . كمدعو إلى وضع مقدمة نفسية : " وما دمنا نريد وصل البلاغة بالحياة، فنعرف الدارس بالقوى الإنسانية ذات الأثر في حياته الأدبية كالوجدان والذوق و الخيال؛ ونزيد فهمه للاعتبارات التي أجملها القدماء تحت كلمة " مقتضى الحال" وذكروا منها في أسباب الحذف والذكر والتقديم والتأخير اعتبارات نفسية محضة.

¹ - المرجع نفسه. ص 15
² - البلاغة العربية في ثوبها الجديد. ص 16

كما تلم المقدمة النفسية بدراسة أمهات العواطف الإنسانية التي هي مادة المعاني الأدبية؛ ومثار الفنون القولية نثرا وشعرا؛ وهي في الجملة دنيا الأدب والفنون كلها¹.

يدعو أحمد الشايب إلى ضرورة تجديد وضع البلاغة بما يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها العلمية والإنشائية، كأن يحتوي علم البلاغة بابان هما :

" الأول: باب الأسلوب أو كتابه ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور وال فقرات والعبارات، على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم الصوت والنفس والموسيقى وما إليها مما يقوم الأسلوب على أنه صورة فنية أدبية، وفي هذا الباب ... تدخل موضوعات : المعاني والبيان والبديع، لا على أنها علوم مستقلة، بل على أنها فصول في باب الأسلوب يتناول بحوثها كما يتناول غيرها .

أما الباب أو الكتاب الثاني، فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعرا ونثرا، يدرس أصول المقالة، والخطابة، والرسالة، والجدل، والوصف، والرثاء، والقصة، والملحمة، والتمثيلية، والتأريخ، والتأليف إلى غيرها من هذه الفنون الأدبية التي زخرت بها الآداب العالمية، وشرعت قواعدها، ولم تحظ في بلاغتنا النظرية إلا بإشارات خاطفة لا تغني شيئا².

والتحديث الإجرائي للأساليب البلاغية يعني إثراءها من حيث التناول واستغلالها بما يثبت دورها في التعبير .

إن الوظيفة التقليدية لألوان البديع تركز على التحسين والتجميل، أكثر من ارتكازها على إجلاء الدلالة . فالمقابلة، على سبيل المثال، تجمدت في حدود المفهوم الذي صبها فيه البلاغيون القدامى، وهو الجمع بين معنيين متقابلين، سواء أكان هذا التقابل بالتضاد أو بالإيجاب و السلب؛ " وهو مفهوم لا يزال في جوهره صحيحا؛ لكن مع تطور الفن الأدبي واستحداث أساليب جديدة أصبح من الضروري تطويره وتوسيع آفاقه...

¹ - المرجع نفسه. ص 17

² - أحمد الشايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، ط 12. ص 3-4

إن مساحة غير قليلة من خيوط الصراع الفكري و النفسي في الأعمال الأدبية الحديثة ... تقوم على تقابل المواقف والأفكار ...، أو التضاد بين الداخل والخارج، أو بين ما حدث قبل، وما يحدث الآن؛ وهذا هو أساس "المقابلة" بوجه عام مع الاختلاف الكبير بعد ذلك بين انحصارها في البلاغة التقليدية في صورة جزئية بسيطة تبعا لمنهج تعبيرى معين في الأداء الفنى كان سائدا من قبل، وبين امتدادها وتعقيدها في الدراسات النقدية الحديثة، انبثاقا من تغير جذري في مفهوم الفن و وظيفة الشعر، وأسلوب التعبير¹.

يعد **الولي محمد** ممن تحمسوا للنقد العربى القديم، ممثلا في آراء الجرجاني الذي يراه عملاقا في علم البلاغة؛ ومع ذلك يدرك أن آراء عبد القاهر في البلاغة ليست النموذج النهائى، وضرورة فتح باب الاجتهاد في تعاملنا مع تراثنا النقدى البلاغى . فهو، وإن يرفض القطيعة مع الماضى، لا يقدر ولا يقف منبها عند إنجازات العقل الغربى؛ وإنما يقترب من وسطية ثقافية " لا ترفض الجديد كله، ولا تقبله كله، ولا تقف عند القديم تتفاخر بإنجازاته في سلبية وعجز"².

وهذا الفريق يمثله النقاد الحدائون المعاصرون العرب أى أصحاب الموقف الوسطى الذى ينتمى إليه كذلك **جابر عصفور**، الذى يعد من بين " أفضل من قدموا قراءات مستنيرة للتراث النقدى العربى وأغزرهم إنتاجا في هذا الاتجاه ... لم يتوقف كثيرا أو قليلا عند خطورة قراءة أبى ديب للجرجانى، وعلى الرغم من أنه يؤكد أهمية الوسطية التى ترفض القطيعة المعرفية مع التراث ... الهدف هو فهم الماضى بصورة أفضل من ناحية، وتحقيق فهم أفضل في الوقت نفسه للتراث ذاته عن طريق استخدام المنهجيات والآليات الحديثة في التعامل معه، من ناحية أخرى"³.

¹ - د. شفيق السيد: البحث البلاغى عند العرب، تأصيل و تقييم. ص 277

² - د. عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة. ص 174

³ - المرجع نفسه. ص 176

يقدم الدكتور أحمد درويش محاولات التجديد في البلاغة العربية، ويخلص إلى أن مسألة التقسيم الثلاثي لعلوم المعاني والبيان والبديع مازالت تطرح للنقاش، وأن التطور الذي حدث في شأن ضرب الأمثلة و الشواهد تطور محدود.

" لكننا قد نجد من ناحية أخرى محاولة للمواءمة بين معطيات بعض الفروع المتطورة في الدراسات اللغوية والأدبية والفنية، وبين بعض الأسس في علوم البلاغة التقليدية، يحدث ذلك على نحو خاص عندما تثار بعض قضايا علم المعاني وهو علم ينتهي أساسا إلى علم النحو الجمالي، في ضوء دراسات علم اللغة و لدراسات النحوية الحديثة والدراسات الأسلوبية، وهو مزج عرفته من قبلنا الدراسات البلاغية الأوربية الحديثة، وأفادت منه إلى حد بعيد"¹.

وهكذا تشعبت محاولات التجديد، فراح بعضهم ينشد الضبط والصحة لقاعدة لغوية، اهتم آخرون بتنمية الذوق والإحساس ... غير أن اتخاذ بعضهم وسائل تسمح - في نظرهم - بالأداء " العلمي " والمتمثلة في الأرقام والجداول والإحصاءات قد تهدد الجانب الجمالي بالجفاء والجفاف في حالة فقدانهم السيطرة عليها و طريقة استغلالها.

" وهناك محاولات أخرى في فروع آخر من فروع البلاغة التقليدية وهو فرع " علم البيان " حيث تجري محاولات " تحديثية أحيانا من خلال مزجه بنتائج البحث في فن الصورة... وإن كان واقع التطبيق العملي له مازال دون منطقة التماس المبدع، بين الفن البلاغي، والنتاج الأدبي، وخاصة أن مجال المحاولات " الحديثة " القليلة، دار غالبا حول الشعر، وهو لم يعد يحتل المساحة العظمى من فن القول، كما كان في عصر ميلاد البلاغة"².

وربما كان فرع " علم البديع " أقل الفروع البلاغية الثلاثة حظا من محاولات التحديث. ومع ذلك نعثر على بعض الدراسات النقدية الحديثة الغربية التي تعتمد في تحليلها للنظرية الشعرية خاصة على الخصائص الصوتية والتركيبية، " التي تجعل من

¹ - د. أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 4
² - المرجع نفسه. ص 5

البناء الشعري مضادا للبناء النثري، ولمنطق اللغة العربية في الإفهام، وهي من خلال ذلك ترى أنه إذا كان المنطق اللغوي يعني أن يكون توافق الكلمات في الأصوات يعني توافقها في المعاني، ف إن منطق الشعر المضاد للنثر يحتم اختيار كلمات تتوافق في أصواتها و تختلف في معانيها . وذلك ما يعنى به "علم البديع" في باب الجناس، وتتبع دقائق هذه النظرية في فهم جذور العمل الشعري، ربما يفتح الباب أمام كثير من ألوان المحسنات البديعية، لكي تجد مكانها الحقيقي في تيسير النظرية الشعرية وإنعاش الأداء الجمالي"¹.

ومن المقترحات العملية الرامية إلى تحديث الدرس البلاغي، الدعوة إلى تغيير

البلاغة تغييرا كاملا شاملا، عملا بالتوصيات الآتية² :

- أ- حذف علم المعاني والبديع وإحلال محلها فن الأسلوب، على أن تكون موضوعات بحث هذا العلم هي : صور التعبير البلاغي، بلاغة الإيجاز، بلاغة الإطناب، بلاغة القصر، قوة الأسلوب وعذوبته، أسلوب الالتفات، أسلوب التجريد، أسلوب الحكيم، أسلوب الخبر ...
- ب - حذف علم البيان وإحلال محله فن "الخيال البياني" أو الصور البيانية ويشتمل هذا الفن على : الحقيقة والخيال، الخيال في التشبيه، الخيال في الكناية، الخيال في الاستعارة... وإن أردنا اسما قديما لهذا الفن، فما أحرانا أن نطلق عليه "فن المعاني"، بدلا من فن البيان، و نطلق على الفن السابق وهو فن الأسلوب اسم "فن البيان".
- ج - حذف كل ما يتصل بالنحو العربي من ا لبلاغة، كمباحث باب المسند وباب المسند إليه.
- د- حذف منها كل ما يتصل بالمنطق والفلسفة.
- هـ- اختيار أمثلة جديدة لشتى بحوث البلاغة من ناصع الأدب العربي وبليغه في مختلف العصور.

¹- د. أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي. ص 6
²- د. محمد عبد المنعم خفاجي؛ د. عبد العزيز شرف: نحو بلاغة جديدة. ص 182

و- إنشاء درس للنقد البلاغي يدرس فيه شخصية الأديب وسمات أدبه وخصائصه الأسلوبية، وتجديده البياني، ومدى ما يشتمل عليه أدب الأديب من عاطفة وصدق وإثارة، ومدى ما توصل إليه الأديب من تجديد في فنه البلاغي.

وفي شأن توظيف الأساليب البلاغية يرى الدكتور مصطفى الصاوي الجويني أنه من اللازم " جعل جمال النصوص وإدراك القيم البلاغية غير مقصور عليها الدراسة والامتحان، بل توظف البلاغة في المجالات العملية في مراحل الدراسة منذ المدرسة الابتدائية إلى المرحلة الجامعية وما بعدها في نشاط صحفي أو إذاعي أو مسرحي أو حوارى أو غنائى أو خطابى ... رسالة البلاغة رسالة جمالية نظرا وتطبيقا، وليست قضية لمصطلحات جافة وتدرجات أشبه بالتدرجات الحسابية عليها"¹.

ومن الباحثين من يلخص التجديد الذي يقترحه في إعادة تسمية علوم البلاغة: " وحين نصنف فلسفات علوم البلاغة الثلاثة نجد علم المعاني يعالج المعنى والبيان يختص بالصورة، والبديع بزخرفة المعنى والموسيقى واللفظ، وهي كلها بعضها مع بعض تعالج الأسلوب شكلا و مضمونا. و أجدد بنا أن نسميها تسمية معاصرة هي " علم النص" بحيث يؤلف هذا العلم كل علوم البلاغة القديمة إلى معارف أخرى"².

2- مقترحات البحث

لقد سمح إنجاز هذا البحث بالاطلاع على ما توصلت إليه علوم اللسان الغربية - بفروعها المتشعبة - من نتائج قيمة، كفيلة بأن تفتح أمام الباحثين العرب إمكانات حقيقية لتحديث بلاغتهم، لأنها تمكنهم من وسائل إجرائية يعيدون النظر بفضلها في رصيدهم التراثي المتميز الذي خلفه عمالقة سباقون في مجال التنظير والتطبيق البلاغي.

¹ - د. مصطفى الصاوي الجويني: البيان فن الصورة. ص 129
² - د. مصطفى الصاوي الجويني: المعاني علم الأسلوب. ص 126

على أن ينطلق الع رب من ضرورة احترام طبيعة اللغة العربية وخصوصية الحضارة العربية الإسلامية، ضمانا للملاءمة والتناسب بين ما نتبناه من نظريات وطابع بلاغتنا العربية، وحفاظا على أصالتنا . فنحن على وعي تام بأننا لا ننطلق من الصفر، بل من تاريخ عريق حافل بالنظرات اللمعة التي أشرفت على العالم. ولكن "المأساة" البلاغية نشأت على أنقاض النزاعات السياسية وظلمات الجهل وما تبعها من جمود فكري شمل كل العلوم.

واليوم، نحرص على التمييز بين بلاغة السكاكي التي تعبر عن هذه الفترة المخزية من تاريخنا، وبلاغة الجاحظ والجرجاني التي مازالت تحتاج إلى فحص وتحليل وتنقيب، لأنها تكتنف في أحشائها آراء "دسمة، ثرية، قابلة للتطوير والتكيف والتوليد. إن كل تطور في العلوم ينبغي أن يتجسد في التعليم على اعتبار أنه الوعاء الذي يستقبل ثمار الفكر ليغذي بها أذهان المتعلمين؛ باعتبار التعليم مقياسا لمدى تقدم العلوم ونسبة التحكم فيها.

والبلاغة العربية، وإن كانت تشهد تقلبا في أوضاعها، غير أن نتائج بحوثها ودراساتها بقيت حبرا على ورق لأنها لم تسلمها إلى من يتكفل بتطبيقها والعمل بها، أي إلى كل متكلم باللغة العربية و كل متعلم لها، سوى بعض الاجتهاد هنا وهناك.

وعلى هذا الأساس، أضحي اليوم من اللازم أن نشرع في تحديث بلاغتنا، بناء على الدراسات العربية التي لا يستهان بها؛ وأول ما يحتاج منا كل العناية البرامج التعليمية باعتبارها مخطط الدراسة والتكوين، وحاملة للغايات التي تسعى إليها كل منظومة تربوية. يبنني كل برنامج دراسي على فلسفة تربوية تحدد الآفاق المرجوة والمرغوب فيها لمواطني الغد، وهو يترجم النوايا السياسية في شأن التعليم، فيتبنى لتجسيدها ونقلها إلى أرض الواقع، مقارنة أو طريقة تعليمية، ويحدد أهدافا، وينتقي محتويات، ويختار وسائل ودعائم؛ على أن تتم المطابقة التامة بين هذه المركبات وحاجات المتعلمين التي تجري السلطات تحقيقات ميدانية من أجل تمثلها تمثلا جيدا.

وبما أن الطابع الغالب على درس البلاغة، إنما هو الطابع الفني الوجداني، "ولهذا كان الجهد المبذول في هذا الدرس، إنما هو النقد والمفاضلة بين تعبير وتعبير، أو أديب وأديب، والتذوق الأدبي لألوان القول الجميل . وهذا الجهد ينتهي دائما إلى أحكام أدبية، وهي أحكام فنية تقضي بالقبح أو الجمال، وليست أحكاما عقلية، تقضي بالخطأ أو الصواب.

والحكم العقلي أيسر وأدنى إلى الصحة و السداد، إذا استند إلى قواعد ثابتة، أو قضايا مؤيدة بالبرهان، ولذا لا يختلف فيه الناس، إذ من السهل أن نحكم بالخطأ أو الصواب في معادلة رياضية، أو في إعراب جملة، أو نحو ذلك في مسائل العلوم. أما الحكم الفني فأمره أصعب، لأننا لا نستشير فيه قواعد ثابتة، أو حقائق مطردة، بل نعتمد فيه على الحس والذوق، و يكثر اختلاف الناس فيه، لاختلاف أذواقهم. ولكن مما يبسر لنا الحكم الفني أن نجمع بين الوحدة الأدبية ووحدة أخرى تقابلها، كأن نجمع بين كلمة وكلمة، أو بين عبارة وعبارة، أو بين فقرة وفقرة ... ثم نتبين ما بينهما من وجوه الاتفاق والاختلاف، محتكمين في هذا إلى الذوق والحس الفني؛ وبهذا نستطيع تقدير القيمة الفنية لكل منهما . ولهذا كان من الواجب أن يكثر المدرسون من الموازنات الأدبية"¹.

تعقبا على ما ذكر في العنصر السابق، لا ينبغي أن تقتصر الدراسة البلاغية على الحكم بالقبح أو الجمال، لأن هذا الحكم ذاتي يعود إلى الفرد بالنظر إلى ثقافته ومستواه العلمي و شخصيته ... وقد لا يكون قابلا للنقاش لأنه لا يركز على قواعد ثابتة . والدراسة البلاغية تصدر أحكاما مؤسسة على ضوابط خاضعة للعقل عندما تتبع طريقة التعبير عن معنى معين، والمسالك المنتهجة للإفصاح عنه والأساليب المختارة للإبانة عنه . والسؤال الذي نطرحه حينئذ هو: هل هذه السبل مناسبة أم لا ؟

وتكون الأساليب البلاغية مناسبة للرسالة عندما تتم مراعاة:

- الطرف المتلقي بحسب شخصيته ومستواه التعليمي وموقعه الاجتماعي، وعلاقته بالمرسل...

¹ - الموجه الفني . ص312

- الموقف التواصلية، أي إذا تم الاتصال في إطار شخصي، أو في الحياة العامة، في ظروف عادية أو في ظروف طارئة...

أما المفاضلة بين النصوص الأدبية والمقارنة بينها فقد تنتهج إلى جانب أساليب أخرى للتحليل واستنباط الأحكام وتقييم الأعمال الأدبية.

وبناء على " أن الحياة الحديثة قد تطور ذوقها، وتطورت حاجتها الفنية، وأصبح التناول الفني يؤثر النظرة الشاملة، ولا يسيع الوقوف طويلا عند الجزئيات، وإذن ينبغي أن تساير البلاغة هذا التطور، فلا تقف ببحثها عند اللفظ والجملة، بل تتجاوز هذه الدوائر الضيقة إلى دائرة تتسع للصورة، والفقرة... والمقالة... فهذا أجدى على الأدب. وتطبيقا لهذا المبدأ، ينبغي تمرين الطلاب على أن ينظروا إلى النص الأدبي نظرة فاحصة شاملة، لا يتأملون قوة التعبير، أو صدق الدلالة، أو عمق الإشارة، أو وضوح الرمز وغيرها من المزايا الفردية، ولكن نظرتهم تشمل كل هذه النواحي، لأنها عناصر متكاملة متعاونة على إبراز الجمال الفني لتلك الصورة"¹.

إن اتجاه الدراسة الأدبية نحو دراسة النص في شموليته (عوض الاقتصار على عباراته وكلماته وجملة)، لا يرجع إلى تطور ذوق الحياة الحديثة، بل هو ناجم - بالدرجة الأولى - عن تقدم الدراسات اللغوية بصفة عامة واللسانية بصفة خاصة، التي أصبحت تنظر إلى النص بأكمله على أنه كيان واحد أو كل يتكون من عناصر، على أن الاهتمام بالنص لا يعني إهمال عناصره، لأن العلاقة بين الكل (النص) والجزء (الكلمة، الجملة) علاقة وطيدة تدلنا على سبل مفيدة للتحليل، وتبرز التفاعل القائم بين الكل والجزء.

ومن هنا، تركز الدراسة الأدبية اليوم على النظرة الشمولية للنص ومعالجته كبناء متكامل الأجزاء. وهذا لا يعني إطلاق الأحكام العامة دون فسح المجال للتحليل وإبداء

¹ - الموجه الفني. ص 314

الرأي والمناقشة وما يزيد الطين بلة أن هذه الأحكام العامة كثيرا ما ترد في عبارات مجازية مثل: ديباجة مشرقة، أسلوب ناصع، خيال بارع، معنى فخم ...

ولتجاوز القصور الملحوظ في تدريس البلاغة، تؤكد البحوث التربوية اليوم على البعد التواصلي في دراستها، والمطابقة بين سجل اللغة (الراقي، البسيط، اليومي) ومحتوى الرسالة وظروف القول وعناصر دائرة الخطاب على العموم. فيتم الربط، في ذهن المتعلم، بين الشكل والمضمون، بين خصوصية البلاغة وفائدتها ودورها في الكلام.

ومنه، ينبغي مراعاة مبادئ تربوية أساسية، تتمثل في مطابقة النص مع :

- دافعية المتعلم وحاجاته وميوله،

- قدراته الذهنية واللغوية،

- محيطه المباشر والمحيط العالمي.

وإضافة إلى ما سبق، لا بد أن يتكفل التعليم بخصائص المتعلم وملحمه من

حيث المعرفة والطريقة والوسائل، ومنها الكتاب المدرسي الذي كثيرا ما يثير ملل

المتعلم لأن نصوصه لا ترتبط بعصره، أو لأن الطريقة المتبعة فيه مسرفة في جفافها

أو غموضها وبعدها عن ميسرات التعلم.

يقول الطاهر لوصيف في مقدمة أطروحته : " يتميز التعليم الثانوي عما يسبقه من

المراحل التعليمية، باختلاف أساسي ذلك أنه إذا كان الهدف من المراحل التعليمية السابقة

هو ترسيخ ملكة اللغة العربية وآلياتها الأساسية، وهو هدف يستمر إلى نحو عشر سنوات،

فإن الهدف من تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية، بالنسبة للشعبة الأدبية خاصة،

ينفتح لأول مرة بشكل مباشر على تعليم الأدب العربي وذلك من خلال استعراض أشهر

أجناسه وأنواعه ومراحل تطوره وما صاحبه من المواصفات النقدية التي سايرته منذ

نشأته، إلى جانب بعض العلوم المتعلقة به كالبلاغة والعروض خاصة"¹.

¹ - الطاهر لوصيف : تعليمية النصوص و الأدب في مرحلة التعليم الثانوي الجزائري. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2008. ص3

و منه، يخلص الباحث إلى اقتراحات منها :

" رصد جملة من المعارف النحوية والصرفية والبلاغية والعروضية كوسائل لدراسة بنية النصوص وكيفيات " تركيبها " وأدائها للمعاني والدلالات؛ وتعويد المتعلمين على أعمال تلك " المباحث " في تشريح تلك النصوص الإبداعية، لا كتساب ملكة نصية تمكنهم من إنشاء النصوص وفهمها. وهو الهدف الأسمى من عملية التعليم كذلك.

- كان الأجدى بالمنهاج أن يفصل بين تدريس النصوص والأدب وبين تدريس القواعد والبلاغة والعروض؛ فيشتغل بتدريس النصوص والأدب ويتوسل لذلك مجموعة المعطيات النحوية والصرفية والبلاغية والعروضية التي يثيرها كل نص، فيتخذها أداة لتحليله والكشف عن دلالاته من منطق نحو النص من جهة. ويخصص محتوى نظريا سوريا من النحو والصرف والبلاغة والعروض، فيعلمه لأولئك المتعلمين، بغرض التخصص، وحينها تكون بنية تلك المحتويات مستقلة من التصنيف المتوارث¹.

وعلى مستوى البحث اللساني، يظهر أن حركات التجديد البلاغي حركات نشطة ومتنوعة، بالنظر إلى نتائج الدراسات التي تنتشر في الوطن العربي، والمقترحات التي يدلي بها الباحثون على اختلاف مشاربهم وثقافتهم وشخصيتهم؛ حتى أصبحنا نميز بين من أدار ظهره للتراث وأشرف على مستجدات الغرب فانبهر بها ورغب في نقلها كما هي إلى حضارته، ومنهم من أقفل بابه في وجه كل ما يتصل بالحدائث وفضل الرجوع إلى الماضي والانغماس في التراث يقبله ويفحصه بمنظار عربي "أصيل"، "لا تشوبه" النظريات اللسانية المستوردة.

وإلى جانب هؤلاء وأولئك، يتوسط بعض الدارسين الأمور، فلا يغالون في التمسك بالماضي بل يزورونه مستعينين بوسائل ونظريات حديثة، علمهم يفلحون في تطوير علومهم، ومنها البلاغة العربية.

¹ - المرجع نفسه. ص 240

" والرجوع إلى الأجناس الأدبية في دراسة الأعمال الأدبية (رواية، مسرحية، قصيدة، الخ) أمر ضروري، لأنه يسمح للمتعلمين باكتشاف جوانب خاصة من الإبداع الأدبي (بنيات، تقنيات، لغات)، وبالتعرف على نمط من أنماط الكتابة، وبتقدير اختيارات الأديب الذي قرر أن يخضع لضغوط متصلة بجنس معين في فترة معينة، أو أن يتحرر منها؛ كما يسمح له بتتبع تطور الجنس الأدبي، وتغيرات شكله ومحتواه"¹.

بعد عرض المسألة البلاغية، يكون المتعلم في حاجة إلى تدريب أوفى لا يتسع له درس الأدب المعد لشرح موضوع خاص؛ حينذاك، يطلب منه عقد موازنات بين النصوص الأدبية المتحدة المعنى المختلفة الصيغة، أو التعبير عن معنى واحد بصور مختلفة، ليتخير منها صورة يراها أجمل وأنسب في نظره وأبلغ؛ على أن تنتقى النصوص الأدبية الأصيلة المتنوعة لإجراء التدريبات، لا الأمثلة التي تصنع لذلك.

وقد تبلغ اللسانيات النصية هدفها حين تزود الأساتذة والمتعلمين بالأدوات المنهجية اللازمة التي تمكنهم من التحكم بنجاح في أوقات الخطاب وحركاته، خاصة وأنها تتوجه نحو ديناميكية الكلمة أكثر من توجهها نحو البنيات الجامدة للغة، وقد تساعد كثيرا على المرونة والتتابع والتسلسل، تلك الصفات التي ينبغي أن يتمتع بها كل ملفوظ طويل وجيد الصوغ.

ومن الضروري ألا تقتصر غايات تدريس البلاغة على الجانب الفني فقط، بل تشمل كذلك الجانب الفكري المتمثل في البعد التحليلي وتوظيف الحجة والاستدلال فتركز، مثلا، على النص الحجاجي الذي يكتسي أهمية حيوية في كل تبادل كلامي. وقد يستدعي هذا الجانب الرجوع إلى طريقة العرب القدامى في معالجتهم للمسائل البلاغية، الذين بنوا ملاحظاتهم على تحليل كل جوانب النص (بيتا كان أو جملة...)؛ من حيث المعاني والتراكيب والصياغة، مراعاة للانسجام والوجاهة. ولم يفصلوا بين اللفظ والمعنى (حتى عندما احتدم النقاش حول هذه القضية)، بل أكدوا على الترابط الشديد بينهما واتصالهما.

¹ - BIARD, J ; DENIS, F : Didactique du texte littéraire. p 17

وحتى مراعاة الطابع الفني للبلاغة، على اعتبار أنها تنمي الذوق لاتصالها بالبعد الجمالي في الأسلوب، لا يمنع من التركيز على جانبها المنطقي والفكري . لأن فحوى البلاغة وجوهرها إنما هو الاستدلال - إلى جانب بعدها الجمالي - والأدلة على ذلك كثيرة، منها : اهتمام المفسرين والفقهاء والفلاسفة با لبلاغة لم يكن بسبب بعدها الجمالي فقط، بل وخاصة لكونها أداة تخدم العقل والمنطق.

لقد ركز عبد القاهر الجرجاني والجاحظ وغيرهما على الجانب العقلي، واعتبروا الجانب الجمالي تابعا ومكملا له، إذ لا يقتصر على كونه كساء للمعنى بل إن انتقاءه كفيل بمنح المعنى الدقة والقوة المطلوبتين في التعبير.

ومن هنا، ينبغي أن ننظر إلى البلاغة ببعديها : الفكري والجمالي؛ على أن البعد العقلي لا يتمثل في ذكر المصطلحات البلاغية والإسهاب في تفاصيلها بل يتمثل في التركيز على الأسلوب البلاغي باعتباره خادما للاستدلال والبرهنة والتعليل والتوكيد والترتيب...

لا يمكن المتعلم أن يحيط إحاطة مرضية بفحوى الأساليب البلاغية المختلفة، إن اكتفينا بعرضها عليه معزولة عن النص الذي استمدت منه، بعيدا عن دوافع الأديب والعوامل التي أدت به إلى الكتابة، وأهدافه من ذلك . فقد يكون التحليل النفسي والاجتماعي والتاريخي مصدرا أساسيا للتعلم في معاني النص وأفكاره وأساليبه.

ومن التدريبات الكفيلة بتقريب المتعلم من أهداف درس البلاغة، دفعه إلى المقارنة بين نصوص يعبر فيها القدامى والمحدثون عن الموضوع نفسه، ليتلمس تطور الصور البيانية الموظفة فيها مع العصور؛ أو الموازنة بين أديبين متعاصرين، قصد استجلاء خصائص أسلوبهما وطريقة التعبير عن توجههما؛ أو المقارنة بين تعبير فني وتعبير عادي، أسلوب مجازي وأسلوب حقيقي...

ومع ذلك ينبغي أن نراعي التدرج في سجلات اللغة، والتنويع في أنماط النصوص والأجناس الأدبية؛ فتتراوح النصوص بين القرآن والحديث والشعر والنثر - قديما وحديثا -

وبين السرد والوصف والحجاج والإخبار ...، وبين القصة والمسرحية والمقالة والرسالة ومختلف الأنواع الشعرية.

لا تقتصر الدراسة البلاغية على العلوم الثلاثة المعروفة، بل تتجاوزها إلى دراسة بناء النص بالنظر إلى نمطه ونوعه أو جنسه و جانبه التبليغي ... وباستغلال كل أدوات تحليل النص الأدبي المتوافرة.

ومن المقاييس التي تنتقى وفقها النصوص المطابقة بين مستوى المتعلم ودرجة صعوبتها أو الرصيد اللغوي الذي توظفه، خاصة عندما يتعلق الأمر بالنصوص الدينية القرآن، الحديث أو النصوص ال قديمة (شعرا ونثرا). حينئذ، يشكل عدم فهم الكلمات والمعاني عائقا يمنع المتعلم من الدراسة والتذوق.

لا بد أن يميز المتعلم بين النص الأدبي والنص الديني، من حيث قداسة المضمون وسمو اللغة والأسلوب؛ وأن يدرك أن مقاييس الحكم على الأول لا تطبق كلها على الثاني.

فالنص الديني غير محدود بالزمان وهو نموذج فني غير قابل للمناقشة والنقد كالنص الأدبي. وبناء على هذه الخصائص، يرمي الهدف من دراسته إلى الكشف عن مميزاته وتقليده.

أما تقسيم الجدول الدراسي للغة العربية إلى فروع فما هو إلا تقسيم شكلي، يهدف إلى تسهيل الدراسة وتنظيمها ، ولا يضر بوحدة هذه المادة . فدرس المطالعة مثلا هو فرصة للتدريب على القراءة الجيدة التي تنبئ عن فهم العلاقات النحوية، وفهم المعاني والإحساس بجمالها، وتحليل الأساليب والصور ... الخ. فالمتعلم، وهو يقرأ نصا، يقوم بعملية كلية تشمل كل هذه الجوانب، وتجمع الموارد التي اكتسبها في المواد المدروسة في " كل مندمج". وإدماج المعارف من أهم ما يسعى إليه التعليم الحديث.

ونظرا إلى أن الطالب يدرس في الجامعة تاريخ الأدب، ويطلع على بيئات متنوعة من حيث الجغرافيا والتاريخ والثقافة، يجدر به أن يركز على دراسة الذوق عند أدباء م ن عصور وبيئات متباينة، للكشف عن تطوره وسماته عبر التاريخ.

الطريقة العلمية في العرض والتحليل ليست من إبداع أهل الغرب ولا من مبتكرات القرن العشرين؛ إذ كان الجرجاني ينتهج طريقة علمية في عرضه للمسائل البلاغية، وقد فصلها كالآتي: " نبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز، ونتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ونأتي بها في أثرهما، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة، والواجب في قضايا المراتب أن نبدأ بالعام (وهو المجاز) قبل الخاص (وهو الاستعارة)، والتشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صورته...¹ تثبت هذه العينة أن طريقة شرح موضوع بلاغي تستند إلى مسلك خاص وتقتضي تتبع خطوات مسعى معين أثناء معالجة المسائل البلاغية إذا حرصنا على المنهجية في التحليل، والنجاعة في التعليم.

وعليه، ينبغي تفعيل دراسة المفاهيم البلاغية التقليدية بحيث لا تكتفي بتحقيق الوعي بالتراث بل تنتقل إلى التعبير عن الواقع واللغة العربية المعاصرة على اختلاف تجلياتها. وقد يكون من المفيد التركيز على البعد التداولي للغة، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند الأبعاد النحوية والمعجمية والدلالية، حتى يصبح التجدي د توجهها عاما وإجراء عمليا ومنهجيا، لا مجرد إسهامات فردية متناثرة هنا وهناك.

وعلى العموم، ينبغي أن يحرص درس البلاغة على:

- إثراء علوم البلاغة المعروفة بموضوعات جديدة مستقاة من علوم اللسان الحديثة (كدراسة الحجاج، وبناء النص، ودائرة الخطاب...)، قصد تغطية مقومات الجمال الأدبي وأسرار التعبير الفنية والفكرية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة. ص 97

- استناد الدراسة البلاغية إلى نص أدبي (وقد يكون تواصليا)، والقضاء على العزلة التي كانت بين درس الأدب ودرس البلاغة، وجعل البلاغة جزءا من الدراسة الأدبية.
- تخفيف الدراسة البلاغية من ال مصطلحات والتقاسيم التي كانت تحفل بها حتى جعلتها غاية لها.
- معالجة النص من الناحية النفسية الوجدانية، والموسيقية.
- تتبع تشكيل الأسلوب البلاغي من خلال النص المدروس وفهم هذه الآلية التي فضلها أبداع الأديب وخلف أثرا خاصا وعبر عن معاني مميزة في النص؛ حتى يدرك المتعلم كيف يوظف أسلوبا بلاغيا معينا وكيف تنشأ الطريقة الخاصة في التعبير لدى الأدباء.
- التنبيه إلى اشتمال النص على أساليب بلاغية مختلفة مندمجة في نص واحد، ومدى تفاعلها من أجل تحقيق هدف واحد، كالتعبير عن الغضب أو العطف أو القوة أو الضعف.
- إنباء الذوق الأدبي والحاسة الفنية والفكرية **على حد سواء**، على اعتبار أن البلاغة تتألف من وجهين متكاملين : وجه فني متصل بالخيال والذوق والجمال، ووجه فكري متصل بالمنطق والعقل والفكر.
- التدريب من خلال نصوص جديدة قصيرة، أو نصوص مر بها المتعلم في حصة المطالعة.
- تشجيع المتعلم على توظيف الوسائل البلاغية المدروسة في إنتاجاته الإبداعية.
- اللجوء إلى وضعيات تواصلية ذات دلالة، أي منتقاة من الحياة اليومية، يعرض الأستاذ من خلالها موضوعا بلاغيا معينا أو يقدمها للتعلم من أجل التقييم؛ إذ يجد التلميذ نفسه أمام " مشكلة " تتمثل في كتابة رسالة يبلغ فيها خيرا حزينا، كالنعي مثلا، فيستعمل الأساليب البلاغية المناسبة للتعبير عن الحزن والتأسي والتعزية، ويراعي الترتيب الملائم للأفكار وانسجامها بالنظر إلى الموقف والمتلقي . فمن شأن أسلوب حل المشكلات بين الحين والحين، وفي فترات إدماجية، أن ينمي قدرات من مستويات عالية كالتحليل والتركيب والتقييم، وإن كان الانطلاق (والانطلاق فقط) من المستويات الدنيا من صنافة بلوم BLOOM ، أي المعرفة والحفظ والتطبيق التي كثيرا ما يقتصر عليها تعليمنا الحالي.

والتوكيد على تنمية القدرات العالية في دراسة البلاغة يتماشى مع كونها مادة " مهيكلة " للفكر.

- إمكانية التمهيد بطرح إشكالية تشد انتباه المتعلمين وتحرك تفكيرهم وتوجههم مباشرة إلى الهدف من الدرس، مثل: " هل تعتبر أدوات الربط حجة في حد ذاتها ؟ " .

الخاتمة

لا جدوى من طرح سؤال طالما راود بعض الدارسين، ألا وهو: " هل للبلاغة فائدة اليوم؟". فقد تجاوزه الزمن وأجابت عنه الحياة العصرية لحاجاتها الملحة: الحاجة إلى تعبير فعال في وضعيات متنوعة، مطابق لوسائل الاتصال الحديثة؛ وفك رموز الرسائل التي تزداد تعقيدا.

ولذلك انكب الدارسون على كل معطيات التواصل، النفسية منها، والاجت ماعية، والمنطقية، واللسانية؛ وما يطابقها من تقنيات الاتصال، وأدركوا ضرورة تحديد ملمح المتلقين لاختيار أنسب أسلوب عند مخاطبتهم والحجج الوجيهة الكفيلة بإقناعهم واستمالتهم. وفي المقابل، لا يمكن لمتلقي الرسالة اليوم أن يقنع بقراءة بسيطة أو استماع برىء، وإلا سيبقى على هامش عالم الكلمات والصور، لأنه يجهل مفاتيحه. . والبلاغة قادرة على تزويده بالأدوات الضرورية للتحليل النقدي، المبني على معرفة كيفية صنع الرسالة من حيث الأسلوب والحجج والمركبات. ومنه، سيدرك إدراكا حقيقيا المعنى المقدر الذي يتجاوز الشكل المادي.

والعصر الذي نعيشه يتميز بأنه جعل " بين أيدينا اليوم زادا ضخما من المعارف المتعلقة بطبيعة الظاهرة اللغوية وبوظائفها لدى الفرد والجماعة وبأنماط اكتساب الإنسان لها. وثمره أبحاث اللسانيين في هذا المضمار لما يتأكد اعتباره عند صوغ البرامج التعليمية التي موضوعها اللغة. وعلى معلم اللغات أن يستتير بما تمده به اللسانيات من معارف علمية حول طبيعة الظاهرة اللغوية"¹.

¹ - د. عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسا المعرفية. ص 136

وعلينا بالرجوع إلى فترة الازدهار التي عرفتها البلاغة العربية القديمة (إذ يحدد عصرها الذهبي بين القرن الثالث والقرن الخامس الهجري، وتاريخ اضمحلالها و ذبولها بما بعد القرن السابع الهجري). وقد نالت من عناية الدارسين الكثير، وحظيت بجهود الباحثين اللغويين، حتى أصبحت مطمح المبدعين والمفكرين . وقد خلفت لنا البلاغة التراثية آثارا عظيمة تتمثل في :

- أسماء لامعة كثيرة في مجال البحث والدراسة.
- نظريات لغوية تنافس ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة.
- دراسات لغوية تتسم بالعمق والدقة.
- مؤلفات ثرية و وفيرة ومتنوعة.

ويبين لنا الواقع أن تطوير تدريس البلاغة يلزمنا باستثمار هذه الكنوز من جهة، وبالاطلاع على نتائج علوم اللسان الحديثة عند الغرب، وانتقاء منها ما يناسب طبيعة لغتنا وبلاغتنا، من جهة أخرى . وقد أفضت اللسانيات الحديثة إلى نتائج عامة تمثل مبادئ تشترك فيها كل اللغات لأنها تتصل بكلام البشر، ونتائج خاصة بلغة دون أخرى، تعني آليات تقتصر عليها فحسب.

وعليه، فتوجهنا إلى الغرب سيلازمه التبصر والفرز، حتى لا نقع في ا لتقليد الأعمى، فنمسخ شخصيتنا ونشوه أصالتنا . وحينئذ، سنحطم ولا نبني، ونتأخر عوض أن نتقدم.

والشرط الأساسي في إثراء بلاغتنا ومنحها المكانة التي تليق بها بين المواد التعليمية، هو "قراءتنا" الجيدة لتراثنا حتى نستلهم منه طرقا فعالة في التحليل والدراسة، على اعتبار أن علماءنا الأجلاء قد خلفوا كنوزا كفيلا بإمدادنا بأصول البحث وسبل البعث في آن واحد.

وهكذا، يتعين علينا استغلال مستجدات علوم اللسان الغربية مع تكييف ما يليق منها باللغة العربية، كما ينبغي مواصلة البحث واستنطاق التراث من أجل تطوير تدريسنا للهِلاغة الذي، إن لم يرتكز على هذين الرافدين (علوم اللسان الغربية والتراث البلاغي) سيكون أعرج، أي ناقصا وقاصرا على بلوغ الأهداف المسطرة.

" ولئن توثقت صلة اللسانيات التطبيقية بتعليم اللغات فليس من المقبول أن نربط بين الأمرين ربطا آليا إذ من المشارب الأخرى ما يضطلع أهله بمهارات عملية للغة فيها أثر كلي، ومعارفهم الحاصلة تعين على فض المشاكل الناجمة، ومن هؤلاء، المختصون بعلاج عاهات الكلام، والمهتمون بدرس الخطاب الفني، وعلماء المواصلات ... فنحن لا نربط بين اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات ربطا مقيدا إذ هما م هجتان متميزتان، وتطبيق المعارف اللسانية في حقل من الحقول يعد اختصاصا قائما بذاته، واللسانيات التطبيقية ليست علما نظريا وإنما تستفيد من منجزات الدراسة النظرية، ومعلم اللغات يستخدم النظرية اللسانية ولا ينشئها، ذلك أننا إذا حملنا مصطلح " النظرية " على المعنى الذي له في العلم لم يتسن القول بوجود " نظرية " في تعليم اللغات ولا نظرية في علاج عاهات الكلام.

وتعليم اللغات اختصاص بذاته وليس هو جوهر اللسانيات التطبيقية، ولكن إذا أدرجنا في محور تعليم اللغات كل القضايا المتأتية من التخطيط التربوي والقرارات التعليمية مما يتخذ خارج جدران الفصل تجلت شرعية حضور اللسانيات التطبيقية في قضية تعليم اللغات برمتها، تماما كشرعية حضورها في علاج العاهات الكلامية أو في فحص النص الأدبي.

... إن اللسانيات المعاصرة لما قامت أساسا على مبدأ الشمول المعرفي ودك حواجز الاختصاصات كنمط تفكيري مفروض عنوة فإنها قد اقتحمت حوزة الاكتساب : ما اتصل منه باللغة ذاتها وما ارتبط بالمعرفة والإدراك جملة...¹.

¹ - د. عبد السلام المسدي : اللسانيات و أسسها المعرفية.ص 136-137

لقد بات اليوم من الضروري أن نتعهد تدريس البلاغة بالعناية اللازمة باعتبارها جانباً من مادة اللغة العربية يعمل على **هيكلية فكر** المتعلم ويؤهله للتواصل الاجتماعي المثمر والناجح.

ولن يتأتى الوعي بهذا البعد الخطير في بناء شخصية المتعلم إلا بالحرص على تكوين المدرسين تكويناً جيداً و متكاملًا، وبتحويل نتائج الدراسات إلى الممارسة الصفية. كما ينبغي أن تتعهد الجامعة بتأهيل المدرسين، من خلال إدراج دراسة مواد دقة التخصص، كقيلة بمنحهم الوسائل الضرورية لممارسة مهنتهم بشكل فعال . ومن البديهي أن مستوى تكوين الأستاذ يؤثر على مستوى تلاميذه.

و ضمنا لفعالية عمل أستاذ اللغة العربية، ينبغي تخطيط مساره التكويني ببرمجة مواد نظرية وتطبيقية تتناول - مما تتناول - التعليمات الخاصة بفروع اللغة العربية، ومنها البلاغة.

ولا بد أن يشعر أصحاب القرار بهذه المسؤولية إذا أرادوا ألا تبقى عبارات " رفع مستوى اللغة العربية" و " الحفاظ عليها"... شعارات خاوية لا طائل تحتها ولا من ورائها . وإذا كان تشجيع البحث التربوي من أولويات البلدان ا لواعية بمصير أجيالها و "حياة لغتها"، فهذا يعني ضرورة نقل ثمار هذه الدراسات إلى أرض الواقع حتى لا تبقى حبرا على ورق؛ بل يجب أن تسعى إلى تطبيقها بوضع الإمكانيات والوسائل التي تضمن التنفيذ وتهيئ الظروف المساعدة على ذلك.

المراجع

المراجع العربية

ابن منظور

لسان العرب. الأميرية، 1301 هـ

أبو هلال العسكري

كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. الأستانة، 1320 هـ

أحمد درويش

النص البلاغي في التراث العربي والأوربي . القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر

والتوزيع، 1998

أحمد الشايب

الأسلوب. دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، ط 12. مصر، مكتبة النهضة

المصرية، 2003

أحمد مصطفى المراغي

علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط 4. لبنان، دار الكتب العلمية، 2002

أحمد الهاشمي

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط 6. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت

بدوي طبانة

البيان العربي، ط 3. مكتبة الأنجلو المصرية، 1962

د. بكري شيخ أمين

البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البديع، ج 3، ط 3. بيروت، دار العلم للملايين، 1993

البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البيان، ج 2. بيروت، دار العلم للملايين، 1993

البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم المعاني، ج 1، ط 9. بيروت، دار العلم للملايين، 2004

الجاحظ :

البيان والتبيين، ج 1. طبعة عبد السلام هارون، د. ت
الحيوان . القاهرة، 1944.

د. جميل عبد المجيد

بلاغة النص. القاهرة، دار غريب، 1999

جورج مولينييه

الأسلوبية. ترجمة بسام بركة، ط 1. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر
والتوزيع، 1999

جوليا كريستيفا

علم النص، ط 2. ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم . المغرب، دار توبقال
للنشر، 1997

د. حسن شحاته

تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، ط 3. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1996

د. حسن عبد الباري عصر

قضايا في تعليم اللغة العربية وتدرسيها. الإسكندرية، المكتب العربي الحديث، 1999

د. حسين جمعة

قضايا الإبداع الفني، ط 1. بيروت، منشورات دار الآداب، 1983

د. داود سلوم

النقد المنهجي عند الجاحظ، ط 2. بيروت، مكتبة النهضة العربية، 1986

د. ربيعة أبي فاضل

جولة في بلاغة العرب وأدبهم، ط 1. بيروت، دار الجيل، 1988

زكريا إبراهيم

مشكلة البنية. القاهرة، مكتبة مصر، د.ت

سعد سليمان حمودة

البلاغة العربية. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996

السكاكي

مفتاح العلوم. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.

سمير أبو حمدان

الإبلاغية في البلاغة العربية. بيروت، دار الكتاب اللبناني، د.ت

د. شفيق السيد

البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم، ط 2. مصر، دار الفكر العربي، 1996

شكري محمد عياد

مدخل إلى علم الأسلوب، ط 4. القاهرة، أصدقاء الكتاب، 1998

د. شوقي ضيف

البلاغة، تطور وتاريخ، ط 4. مصر، دار المعارف، 1965

د. صلاح فضل

بلاغة الخطاب وعلم النص. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992

نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط 2. القاهرة، الأنجلو المصرية، 1980

عبد الحليم إبراهيم

الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ط 5. القاهرة، دار المعارف، 1981

عبد السلام المسدي

الأسلوبية والأسلوب. ليبيا، الدار العربية للكتاب، د.ت

اللسانيات وأسسها المعرفية. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986

عبد العزيز حمودة

المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك . الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب، 1998

عبد الفتاح عثمان

التشبيه والكناية، بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني. مكتبة الشباب، 1993

عبد القاهر الجرجاني

أسرار البلاغة، ج 1، ط 2. القاهرة، مكتبة القاهرة، 1976

دلائل الإعجاز. طبعة محمد رشيد رضا، د.ت.

د. عبد المنعم خفاجي؛ د. عبد العزيز شرف

نحو بلاغة جديدة. مصر، مكتبة غريب، د.ت

د. عدنان حسين قاسم

التصوير الشعري، رؤية نقدية لبلاغتنا العربية. الكويت، مكتبة الفلاح، 1988

علي أحمد مدكور

تدريس فنون اللغة العربية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1997

د. علي عشري زايد

البلاغة العربية: تاريخها، مصادرها، مناهجها، ط 2. القاهرة، مكتبة الشباب، 1994

عمر الملاحوش

إعجاز القرآن وعلم المعاني. الكويت، مكتبة الفلاح، 1986

غالي شكري

شعرنا الحديث ... إلى أين؟ ط 2. بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1978

فاضل تامر

اللغة الثانية، ط 1. بيروت، المركز الثقافي العربي، 1994

فاطمة الطوبال بركة

النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ط 1. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993

قدامة بن جعفر

نقد الشعر. مصر، مكتبة الكليات الأزهرية، 1978

قطبي الطاهر

بحوث في اللغة، الاستفهام بين النحو والبلاغة دراسة مقارنة. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992

محمد صلاح الدين مجاور

تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1998

محمد الطاهر وعلي

الوضعية مشكلة في المقاربة بالكفاءات. الجزائر، طبعة 2007

د. محمد عبد المطلب

البلاغة والأسلوبية. مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1994

مصطفى السعدني

المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية. الإسكندرية، منشأة المعارف، 1987

د. مصطفى الصاوي الجويني :

البيان فن الصورة. مصر، دار المعرفة الجامعية، 1993

المعاني علم الأسلوب. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996

منير سلطان

البديع : تأصيل وتجديد. مصر، منشأة المعارف، 1986

د. نور الدين السد

الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1. الجزائر، دار هومة، 1977

الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2. الجزائر، دار هومة، د.ت

يحيى بن حمزة العلوي :

الطراز، ج 1. القاهرة، طبعة المقتطف، 1914

المجلات

- مجلة الأديب العراقية، العدد 16

الأطروحات

- محمد الصغير بناني : البلاغة العربية وأصولها النظرية. أطروحة دكتوراه،
جامعة الجزائر، 1993

- خالد بوزياني : الصورة الأدبية وخصائصها اللغوية، بين البلاغيين والأسلوبيين
أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007
- الطاهر لوصيف : تعليمية النصوص والأدب في مرحلة التعليم الثانوي الجزائري
أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2008

القواميس والمعاجم

- د. عبد السلام المسدي : قاموس اللسانيات عربي - فرنسي / فرنسي - عربي .
تونس، الدار العربية للكتاب، 1984
- المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم : المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات
(إنجليزي - فرنسي - عربي) . تونس، 1989

المراجع باللغة الفرنسية

ARMENGAUD, Françoise

La pragmatique. Paris, PUF, 1985

BACRY, Patrick

Les figures de style. Paris, Belin, 1992

BARTHES, Roland

Essais critiques. Paris, ed. du seuil, 1964

BAUTIER, Elisabeth et autres

Figures de force du renouveau actuel en D.L.E . Paris, clé international, 1980

BAYLON, Christian ; MIGNOT, Xavier

La communication, 2^{ème} ed. Paris, Nathan, 1994

BESSE, Henri

Méthodes et pratiques des manuels de langue. Paris, Crédif,1985

BESSE, Henri ; GALISSON, Robert

Polémique en didactique. Paris, Clé International, 1980

BIARD, Jacqueline ; DENIS, Frédérique

Didactique du texte littéraire. Paris, Nathan, 1993

CARTER-THOMAS, Shirley

La cohérence textuelle. Paris, l'Harmattan, 2000

CHARAUDEAU, Patrick

Langage et discours. Eléments de sémiolinguistique. Paris, Hachette, 1983

CORNU, L; VERGNIUOX, A

La didactique en question. Paris, hachette, 1992

De SAUSSURE, Ferdinand

Cours de linguistique générale. Algérie, ENAG, 1990

DUBOIS, Jean et autres

Rhétorique générale. Paris, librairie Larousse, 1970

DUCROT, Oswald et al

Les mots du discours. Paris, les éditions de minuit, 1980

DUCROT, Oswald

Dire et ne pas dire, 2^{ème} ed. corrigée et augmentée. Paris, Hermann, 1980

DULIERE, André

Les secrets de la langue française. Montréal, Guérin littérature, 1988

GARDES-TAMINE, Joëlle ; PELLIZZA, Marie-Antoinette

La construction du texte. De la grammaire au style. Paris, Armand Colin, 1998

GENETTE, Gérard

Figures II. Paris, ed. du seuil, 1969

GOUPIL, Georgette ; LUSIGNAN, Guy

Apprentissage et enseignement en milieu scolaire. Québec, gaëtan Morin, 1993

JAKOBSON, Roman

Essais de linguistique générale. Les fondations du langage. Traduit de l'anglais et préfacé par Nicolas RUWET. Paris, Les éditions de Minuit. 1963

La charpente phonique du langage. Paris, Le Seuil, 1968

JEANDILLOU, Jean-François

L'analyse textuelle. Paris, Armand Colin / Masson, 1997

KERBRAT-ORECCHIONI, Catherine

L'énonciation. Paris, Armand Colin, 1999

MAINGUENEAU, Dominique

- *Initiation aux méthodes de l'analyse du discours. Problèmes et perspectives.* Paris, Hachette Université, 1976

- *L'analyse du discours.* Paris, Hachette, 1991

MARTINET, André

Éléments de linguistique générale, 4^e ed. Paris, Armand Colin / Masson, 1996

MIALARET, Gaston

Pédagogie générale, 1^{ère} édition. Paris, PUF, 1991

MOLINIE, Georges

Éléments de stylistique française. Paris, PUF, 1986

PERELMAN, Ch ; OLBRECHTS-TYTECA, L

La nouvelle rhétorique. Traité de l'argumentation. 2 t. Paris, PUF, 1958

PERRET, Michèle

L'énonciation en grammaire de texte. Paris, Nathan, 1994

PEYTARD, Jean ; GENOUVRIER, Emile

Linguistique et enseignement du français. Paris, Librairie Larousse, 1970

PUREN, Christian

Histoire des méthodologies de l'enseignement des langues. Paris, clé international, 1988

REBOUL, Anne ; MOESCHLER, Jacques

Pragmatique du discours. Paris, Armand Colin, 1998

ROBRIEUX, Jean-Jacques

Éléments de rhétorique et d'argumentation. Paris, Dunod, 1993

ROGIERS, Xavier

Pédagogie de l'intégration. Belgique, De Boeck Université, 1996

RUCK, Heribert

Linguistique textuelle et enseignement du français. Paris, Didier, 1991

SARFATI, Georges-Elia

Éléments d'analyse du discours. Paris, ed. Nathan, 1997

SUMPF, Joseph

Introduction à la stylistique du français. Paris, Librairie Larousse, 1971

Reuves

Revue française de pédagogie. N° 89. Oct-Nov-Dec 1989

Le français dans le monde n° 192, Avril, 1985

Colloque de Cerisy, Liège, Pierre Mardaga Editeur, 1991

Rhétorique (s). Cahiers du séminaire de philosophie. N° 9. Presses universitaires de Strasbourg, 1989.

Dictionnaires

GREIMAS, A. J. ; COURTES, J.

Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage

Paris, Hachette, 1979

LEGENDRE, Renald

Dictionnaire actuel de l'éducation. Belgique, De BOECK Université, 1993